الأنا الآخر

مها قرقاش

رواية

Qindeel | قنديل

That Other Me

MAHA GARGASH

(Novel)

الأنا الآخر

مها قرقاش

ترجمة: غالب مصري

© 2018 Qindeel printing, publishing & distrubtion

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، و بأي طريقة، سواء
أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلاف ذلك،
إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

موافقة « **المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: MC-02-01-2366714 تاريخ 2018/1/4

ISBN: 978 - 9948 - 39 - 107 - 4

Qindeel | قنديل

للطباعة والنشر والتوزيع

Printing, publishing & Distribution

ص.ب: 47417 شارع الشيخ زايد

دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© جميع الحقوق محفوظة للناشر 2018

الطبعة الأولى: آذار / مارس 2018 م – 1439 هـ

إهداء

إلى والدتي

مريم بنت علي قرقاش

جوهرة العائلة

1

ماجد

تك، تك، تك، تك، تك

نساءٌ يقفن في الجانب الآخر من باب غرفة نومي، يتناوبن قرع الباب. هنّ سبعُ نساء، وكلّ واحدةٍ منهنّ أروع جمالاً من الأخرى. بإمكاني أن أصفهنّ، حتى ولو كان الباب مغلقاً؛ فهنّ شقراوات وذوات أنوفٍ دقيقة، ولا تجد عيباً في لكنتهنّ، لكنّني أعلم أنهنّ لسن إماراتيات.

تك، تك، تك. أبتسم من تململهنّ، وأنتظر لحظةً قبل أن أدعوهنّ إلى الدخول: «ادخلن»!

أنا شابّ، دون شعرة بيضاء في رأسي. أستمع إلى وقع أقدامهنّ الخفيفة فوق البساط السميك، حتى ولو ظلّت عيناي مغمضتين، أستطيع أن أرى كلّ شيء، فهنّ يحطن بسريري الذي يتوسط الغرفة، وأثوابهنّ تسبح حولهنّ، وظلالهنّ ترسم ملامح أجسامهنّ حينما يسقط الضوء عليهنّ من الخلف.

أجل، كان ثمة ضوءٌ أيضاً: مئات الخيوط تنفذ من خلال الفتحات الصغيرة في الجدار، تسقط حزمةٌ منها على ركبةٍ مرتفعة،

وحزمة أخرى تضيء كتفاً تتلوّى وذراعاً تنعطف. قلت: «تعالي»، طلبتُ ذلك وأنا أشعر بشعر جسمي يقف من القشعريرة، وعند وصولهن أحاول إمساكهن. ها هي! شعرها ناعم، وقد انثنت مبتعدة. وتلك أيضاً! ألتقط الهواء بينما تتفتّل أخرى وتدور مبتعدةً كما تدور العجلة؛ فهنّ سريعات، غير أنني لا أنفكّ أرفع ذراعيّ نحو حلقة الراقصات اللواتي يَلُحْنَ فوقي.

يحجبن النور عني، ويقتربن لملاطفتي، غير أنني- بدلاً من الشعور بالنشوة- أمتلئ رعباً؛ إذ يقبضن بأصابعهنّ الطويلة الباردة على عنقي، ويضغطن بجرأة، وأنا أشبهُ بدودةٍ تتلوّى وتصارع كي تفلت، وما إن أدرك أنْ لا فائدة، أطلق صرخةً يهتزّ جسدي كلّه من قوّتها، ولكن ليس ثمة صوت، ثم أصرخ ثانيةً. «رربي!» ويخرج صوتي هذه المرة أجشّ وكأنه صوت صافرة، ولا أتوقف إلى أن أقوم من نومي وأجثو على ركبتيّ وقد تصبّب العرق مني، وأنا أرتجف على السرير.

أنا مستيقظٌ وأحدّق في وجه طفلةٍ تحمل دلواً في إحدى يديها، وممسحةً في اليد الأخرى. كانت أفكاريَ المبعثرة تنعكس في عينيها الصغيرتين. ولا عجب، فقد كان إزاري- وهو قطعة القماش القطنية التي أنام بها- قد زحف نحو الأعلى والتفّ حول عنقي. كان صدري وبطني مكشوفين بالكامل للفتاة التي كانت تقف جامدةً عند أسفل سريري، وهي عاجزةٌ عن إشاحة نظرها

عن غابة الشعر الكثة فوق صدري. أسرعتُ لأحجب عريي تحت الوسادة، وقد أخذتني الدهشة، لأسألها من تكون أو ما الذي تفعله في غرفتي.

تك، تك، تك. إنه صوت مطرقةٍ تكسر الإسمنت، مُسبّبة ألماً حادّاً على طول جبهتي. كان صوت الضجيج يأتي من الطابق السفلي، وليس من وراء الباب المفتوح على مصراعيه الآن. اندفعت زوجتي، عائشة، وأصدرت أوامرها للفتاة بالخروج، وهي توبّخها لدخولها الغرفة أثناء نومي: «إنها الخادمة الجديدة»، خاطبتني زوجتي؛ «وهي لا تعرف ممرات المنزل بعد». ثم قالت باندهاش: «ما الذي حدث لك؟»

أخذت أتحسس جسدي بيديّ، محاولاً حلّ إزاري الذي انعقد بعقدتين سميكتين. كيف حدث ذلك؟ كم كافحتُ في حُلمي؟ قُلتُ متذمراً: «ألا أستطيع أن أستيقظ بهدوء في هذا المنزل؟».. كانت حنجرتي جافة من العطش، وسعلت قبل أن أُكمل: «ألا أستطيع أن أستيقظ وأنا أحظى ببعض السكينة والخصوصية؟».. لم تكن الستائر مُسدلةً بشكلٍ تام، حيث تسلل بصيص من الأشعة البيضاء الصغيرة إلى الداخل، لكنها كانت كافيةً لتحفر فتحةً في رأسي، مثلها كمثل الأرقام الخضراء اللامعة المنبعثة من المفكرة الإلكترونية على الطاولة بجانب السرير، والتي كانت تشير إلى 15:01:1995. أخذت أبحث عن حبّات «الأسبيرين» في الدرج.

«أَعلم، أَعلم»، قالت زوجتي، وهي تناولني زجاجة الماء. «لكنها حالةٌ طارئة». انتظرتني كي أبتلع حبّتيْ الدواء، قبل أن تُكمل: (كان عليّ أن أرسل السائق إلى «هور العنز»، للبحث عن السبّاك. اتصلَ من هناك ليخبرني أنّ السبّاك غير موجود، لأنه يزور أقرباءه في عجمان. قلت له: «ألا تستطيع أن تفكّر بمفردك؟)» ونقرت على رأسها؛ «ولكن يبدو أنه لا يستطيع. لذلك طلبت منه أن يذهب إلى عجمان».

انزلقتُ من السرير، وشددت الإزار حول وسطي. كانت عيناي تحترقان. أردت أن أسكب بعض الماء البارد على وجهي، وحالما عرّجت باتجاه الحمام، تبعتني عائشة وهي تتابع روايتها للمشكلة المنزلية الصباحية.

«لم يتوقّع أحدٌ أن ينفجر الأنبوب، لكنه انفجر، وغرقت غرفة الطعام بالمياه. آمل ألا يكون السجاد قد تضرّر بالكامل. لقد نشرنا السجاد في الخارج تحت الشمس كي يجفّ. أنا لا أعرف كم تطول...».

كانت زوجتي تقدّم لي كلّ تفصيل وهي تستمتع بذلك، وكأنني أهتمّ بأيٍّ من هذه التفاصيل! أغلقتُ باب الحمّام، لكنّ صوتها استمرّ في الوصول عبر خشب الساج السميك، هشاً وقلقاً. «... إنه سجادٌ فارسي. لم نستطع تعليقه، بالطبع، كان ثقيلاً جداً وهو مُشبع بكل تلك المياه. لذلك نشرناه فوق مقاعد الحديقة، و...»

كانت تلك القصص ذات الخصوصية والشكاوى مُضجرةً، وزاد الطين بلّة موضوع عدم كفاءة جيش الخدم من قتلِ مُعترشة البوغنفاليا ذات الأزهار البنفسجية بريّها بالكثير من الماء؟ وفعل الأمر عينه بنبتات الغاردينيا المؤصصة من خلال تعريضها للكثير من الشمس؟ هل كان البُستانيّ الباكستاني؟ أم شركة تنسيق الحدائق التي يأتي عمّالها مرتين في الأسبوع لصيانة الحديقة؟ وسمكة البارحة التي جرى قليها حتى استحال لحمها مطاطياً، عوضاً عن طهوها بالبخار بالطريقة الصينية، حسب التعليمات التي أُعطيت؟ مَن مِن طبّاخيّنا مسؤولٌ عن هذا الأمر؟ هل هو البنغاليّ أم الهنديّ ؟ ألقى الطبّاخان، وهما يتشاحنان، باللوم كل على الآخر. من يستطيع أن يُميّز أيّاً منهما المسؤول؟ كلٌّ منهما يتشبّث برأيه بخصوص الطريقة المثلى لفرم البصل وسلق الأرزّ بالقوة والحماسة نفسيهما اللتين يُبديانهما بخصوص معتقداتهما السياسية والدينية.

«كلا السائقين لم يُساعدا في حمل السجاد. بالطبع، أحدهما كان يُحضر السبّاك، بينما الآخر اختفى بكل سهولة».

كانت عينايَ حمراوين، انحنيت فوق المغسلة وتجشأت بصوتٍ قويّ.

«سيختلق عذراً عندما أجده، قد يخبرني أنه ذهب للصلاة، مع أنه لا تزال أمامنا ساعة لموعد أذان الظهر».

إنها تثرثر اليوم أكثر من المعتاد؛ ومُرهقٌ هو الاستماع إليها. وأنا كلما أسرعت في تجهيز نفسي، غادرت المنزل مبكراً.. أدرت صنبور المياه، لكنه خرّ وقذف الهواء فقط.

«... لأننا قطعنا المياه».

كان لساني كقطعةٍ من جلد، ثم بدأتْ مطرقة السبّاك بالضرب ثانيةً، كمثقابٍ يحفر في جمجمتي. متى سيبدأ مفعول الدواء؟ فتحتُ باب الحمّام.

«بالطبع لن يتأثر الغداء. ثمة ماءٌ في المطبخ الخارجي. لكنّ الأنبوب، الأنبوب...».

«أريد أن أغسل وجهي»، قلت بصوتٍ أجشّ.

ودون تأخير، توقفت عائشة عن ثرثرتها، وجلبت مسرعةً دلواً من الماء، ممتلئاً حتى ثلاثة أرباعه، من على الطاولة الجانبية. نظرتُ إليها بوجهٍ كالح: كان قوامها غضّاً، عريضاً بعض الشيء عند الردفين، إذ كانت تزداد عرضاً بمقدار إصبع- على ما أظنّ- مع كل واحدةٍ من ولاداتها الثماني. كرعتُ ما يكفي من الماء، للتخفيف من ظمأ حنجرتي، ثم سكبت الباقي على رأسي، دون أن أكلّف نفسي عناء الانحناء فوق المغسلة.

لم تجلب زوجتي المنشفة، بينما كان الماء يتقاطر على جانبيْ وجهي نزولاً نحو جسمي. ومن خلال فتحات برقعها، ضيّقت

عينيها الشديدتيْ السواد باتجاه برك المياه التي كانت تتشكل حول قدميّ. انتظرتُ، لكنها لم تقل شيئاً حول الفوضى التي أحدثتُها. نادت الخادمة، وعندما لم يجبها أحد، أحكمت شيلتها – غطاء الرأس الأسود– حول رأسها، واندفعت خارجةً من الغرفة.

كان وجهي في المرآة يبدو منتفخاً ومائلاً إلى اللون الأخضر، كوجوه المرضى، وكأني أُعاني من التسمّم. لم تكن المرّة الأولى، بل بات الأمر يحدث مراراً، فهذا ما أبدو عليه صبيحة يوم يلي سهرةً طويلة في «النيلي» – وهو الاسم السريّ لشقّةٍ من ثلاث غرف، مصبوغة بالأزرق الغامق– حيث أحتسي المشروب هناك (سرّاً، بالطبع) مع أصدقائي، تقع هذه الشقّة على مسير بضعة شوارع من الطريق الرئيس في «القُصيص»، مع شرفةٍ تطلّ على قطعة أرض فارغة. عدد السيارات التي تمرّ من هناك قليلٌ جداً، لأنّ الشقة تقع في المنطقة الصناعية المزدحمة بالمستودعات والمطابع. كان الأمر مناسباً جداً لنا، لكننا– مع ذلك– كنا نوقف سياراتنا بعيداً عن الأنظار، في الموقف تحت الأرض.

«أخيراً»، قلتُ مغمغماً، بينما كانت خادمةٌ أخرى جديدة تدخل الحمّام، وهي تحمل دلوين بلاستيكيين مليئين بالماء. كانت تجاهد من وطأة ثقلهما، لكنها– وبشكلٍ يدعو إلى الدهشة– تمكّنت من وضعهما في حوض الاستحمام، دون أن تسكب أيّ قطرةٍ منهما. انحنيتُ، ثم صرختُ عالياً حالما غرفت ماءً بملء

كفّي: «من أين أتيتِ بهذا الماء؟ إنه حارٌ كحساءٍ يغلي».

فتحت الخادمة فمها، لكنها لم تنطق بأيّ حرف. أسرعت عائشة بالدخول، ومن خلال بضعة أسئلة مُختارة بعناية، تمكنتْ من استخلاص المعلومات الضرورية. لقد غلت هذه الخادمة الثانية الجديدة الماء لأنّها فهمت أنّ كلّ شيء في هذا المنزل يجب أن يخضع للمعايير الصحية. لذلك أخذتْ بعض الماء من الثلاجة، وسكبته في وعاءٍ ضخم.. لهذا السبب غلت الخادمة الماء قبل أن تجلبه إلى الأعلى!

«غبية، فتاةٌ غبية»، أخذت عائشة في تقريعها. زمّت عائشة شفتيها ورفعت يدها كأنها تهمّ بضربها، لكنها- عوضاً عن ذلك- شدّت بأُذن الخادمة. «والآن، أسرعي إلى الأسفل وأحضري مزيداً من زجاجات المياه من الثلاجة.. بسرعة!».

«لا استطاعة مدام؛ فييــ-نييش». عجّلت رتابة صوت الخادمة في جعل زوجتي تشدّ أذنها الأخرى.

«سأجعلك فييـ-نييش! اذهبي إلى الأسفل وأحضري بعض الثلج. هل تعرفين الثلج؟»

«نعم، نعم، ثلوج». واندفعت خارج الحمّام.

«حسناً، لقد قَدِمَت الخادمة الأولى الصغيرة من الريف»، قالت عائشة، «لكن هذه وتلك التي أحضرت الدلاء من «مانيلا»- أو

على الأقل – هذا ما كُتب في أوراقهما». استحال الألم في رأسي حادّاً، وأخذتُ أضغط على صدغيّ لأخفّف منه. لم يبدُ على زوجتي أنها لاحظت الأمر، إذ تابعت مناجاتها الذاتية. «وكونها من مدينةٍ كبيرة مثل «مانيلا»، يتحتّم عليها أن تعرف القواعد الأساسية». غمستْ سبابتها في الماء لتقيس حرارته وسحبتها بسرعة، وأمالت برأسها جانباً، كأنها تفاجأت بأني كنت أقول الحقيقة. «أنا متأكدة أن الأمر يعود لمكاتب الاستقدام»، تابعتْ. «لا شكّ في أنهم يقومون بتزييف كلّ التفاصيل». كان بإمكاني أن أُسكتها بكلمة تأنيبٍ قاسية واحدة، لكنّ الفكرة بحدّ ذاتها أصابتني بالوهن. بالإضافة إلى ذلك، فأنا لا أعتقد بوجود كميةٍ كافية من اللُّعاب في فمي للكلام؛ لذلك استجمعتُ آخر ما تبقّى لديّ من الصبر وسُقتها خارج الحمّام. وصل الثلج بينما كنت على وشك إغلاق الباب. وحالما أفرغت الخادمة المكعبات، فقدت شكلها واستحالت ماءً.

أخيراً، وبعدما تفقّدتْ عائشة بسرعة ما إذا كنت أحتاج أيّ شيءٍ آخر، تركتاني وحيداً. صعدتُ إلى حوض الاستحمام، وجلست القرفصاء مثبتاً ركبتيّ على جانبيْ الحوض، لحفظ توازني. أخذت أغرف الماء بوعاءٍ بلاستيكي وأسكبه على رأسي مراتٍ عدة. كانت درجة حرارة المياه مقبولة، وكان بإمكاني سماع أصوات العصافير في الخارج، حيث كان السبّاك قد توقّف عن تكسير الجدار. أخذت أشعر بالتحسن، حين بدأت بغسل جسمي

بالصابون. ومع ازدياد كمية الصابون التي تغطي جسمي، أدركت أنه يتوجب عليّ أن أحسب كمية المياه التي أحتاجها لشطفه. «ربع دلو من الماء»، تكهنت بالكمية اللازمة بصوتٍ عالٍ، وضحكت مقهقهاً. هأنذا، واحدٌ من أثرى الرجال في دبي، يجلس القرفصاء متربعاً على عقبيه، كأيّ حمّالٍ من حمّالي السوق، يقتصد في استخدام الماء الذي بين يديه، وهو يستحمّ باستخدام الدلو!

2

دلال

طار الحجر عالياً في الهواء؛ أعقبه صوت تكسّرٍ يصمّ الآذان في نافذة الطابق الثاني، وضوضاء مكتومة من داخل سكن الطالبات الإماراتيات، أي مهجع طالبات الجامعة الإماراتيات في القاهرة.

كنت قد رفعتُ قبضتي عالياً ورميت الحجر جُزافاً. لم أتوقّع أن يكون تسديدي بهذه الدقّة. جُلّ ما أردته هو أن أسترعي انتباه مريم، بحيث تتسلل إلى الخارج لملاقاتي. أقفُ في مكاني مُعطّلة الأحاسيس. تندفع فتاةٌ - ليست مريم - إلى النافذة. كانت ترتدي ثياب النوم، وتغطّي رأسها بحجاب مُنقّط. كان يُمكنها أن تراني، لو لم تُبادر عزّة إلى اقتلاعي من تحت ضوء الشارع الساطع. وبينما بدأت النافذة تُفتح، جلسنا القرفصاء خلف شجيرات صغيرة.

«إيييه! ما الذي يجري هناك في الأسفل؟» كان ذلك صوت «الأبلة»، وهي واحدةٌ من المشرفات المسؤولات عن سكن الطالبات. حاولتُ أن أبقى ساكنة، لكنّ رائحة عطر عزّة، التي تعبق بالمكان والتي لا يمكن لأيّ زهرةٍ أن تُقارن نفسها به، كانت تنفذ إلى أنفي. أخذت أعطس، الأمر الذي دفع بالمشرفة لأن تصرخ في الليل ثانيةً: «أستطيع أن أسمعكم يا أولاد الشوارع،

هذا مبنىً محترمٌ يعيش فيه أُناسٌ مؤدّبون، أتسمعونني أيها الجبناء؟ كانت امرأةً ضخمة الجثة، كالبرميل، تحجب مجموعةً من الفتيات أخذن يتحلّقن حولها. «سأطلب الشرطة، سأطلب الشرطة حالاً».

سمعتُ إحدى الفتيات تقترح أنه قد يكون ثمة لصوص؛ «أو مجموعة من القتلة»، أشارت فتاةٌ أُخرى خرقاء. انكفأت «الأبلة» عائدةً، ودفعت الفتيات بعيداً. وعندما أغلقت النافذة المكسورة، نهضنا على أقدامنا، بينما كانت عزّة تطقطق بلسانها. «ما هذا الأسلوب الذي تتّبعينه للوصول إلى ابنة عمّك»، قالت عزّة. «أين الخطأ في القدوم إلى الباب وطلب رؤيتها؟».

«لقد تعدّى الوقت التاسعة»، أجبتها وأنا أنفض التراب عن بنطالي «الجينز» وبلوزتي الحريرية الأرجوانية. «أنتِ تعرفين أنّها لا تستطيع المغادرة بعد التاسعة». حدّقتُ في مدخل المبنى. سيتوجب عليّ أن أرشو البوّاب. وبما أنه يصعب عليّ الافتراق عن نقودي بسهولة، كان عليّ أن أبقي هذا الأمر كخيارٍ أخير. قلتُ متأفّفةً: «إنهنّ نساءٌ بالغات في الأعلى، وهم يعاملونهنّ كأطفال». فجأةً تذكرت مدى أهمية هذه المهمة. («سأطالب بأن يتمّ التعامل مع هؤلاء الطالبات - الذكيات لدرجة أنهنّ يدرسن القانون، والطبّ، والهندسة - باحترام». «توقفوا عن معاملتهنّ كسجينات!» هذا ما سوف أقوله: «امنحوهنّ الحرية ليأتين ويغادرن متى شئن، ويحظين ببعض المرح!»).

«ولكن ماذا لو لم يرغبن بأيّ من هذا؟» سألت عزّة. «لعلّهنّ هنا فقط ليدرسن ويحصلن على شهادتهنّ. لا تنسي، أنت تتحدّثين عن فتياتٍ إماراتيات».

«نساء شابات»، صحّحتُ لها. «إنهنّ يبلغن السابعة عشرة من العمر، مثلي. التاسعة عشرة، مثل مريم ابنة عمّي، وأكبر من ذلك أيضاً».

«لكنهنّ إماراتيات».

«وماذا أكون أنا؟»

«حسناً.. نعم.. لكنّ أمّك مصرية، الحمد لله». ورفعت يديها نحو السماء. «لقد اكتسبتِ المشاغبة المصرية في داخلك». بدأت عزّة بالضحك دون سبب. نظرتُ إليها شزراً، وهو الأمر الذي تجاهلته عزّة. أدرتُ لها ظهري، وبدأت أمشي مبتعدةً عنها. «أحياناً، أُفكر أنك تتصرفين بدون تفكير»، قالت عزّة، مُصرّةً وهي تُسرع للحاق بي.

«وأنتِ أحياناً تتفوّهين بأغبى التعليقات. هل يمكن أن نوقف هذا الحديث الآن؟». قلت ذلك وأنا أستدير لأصبح في مواجهتها. كان ثمة شريطٌ صغير من القمر في ليلة يناير هذه، لكنني كنت أعرف أنّه يمكنها رؤية الأسى في وجهي. لعلّها هي مَن جلبت السيارة، سيارة أبيها «الفيات» العنابية القديمة، لكنها تعلم أنها بصحبة المستقبل الواعِد. نعم، هكذا أنظر إلى نفسي،

مُنذ أن وجدت أني قد حظيت اليوم بموعدٍ مؤكد لمقابلة الملحّن الشهير شريف نصر. «انظري»، قلت لعزّة. «كل ما أردته من مريم هو أن تكون معي الآن، لنحتفل بأخباري السعيدة».

أشارتْ إلى البوّاب: «وماذا عنه؟»

«اتركي أمر البوّاب لي»، قلتْ. «فقط اذهبي وأحضري السيارة وقابليني بعد بضعة أبنية من هنا، عند ناصية الشارع».

«ولكن كيف ستتخطينه؟»

«اذهبي فقط، أيتها الجميلة»، قلت لعزّة، بالرغم من أنها بعكس كلمة «الجميلة»، ودلفتُ باتجاه مدخل السكن.

* * *

«كيف تمكنتِ من إخراجي؟» سألتني مريم حين خرجنا من نطاق سمع البوّاب. كانت مريم ذات عينين كبيرتين وناعستين بعض الشيء، وأخذتا تتسعان عندما بدأت تبحث في وجهي عن إيضاح.

«طلب مني فقط أن أوقّع وأغادر، لأستمتع بهذه الليلة، وألَّا أقلق حيال أيّ شيء».

«ولكن ماذا عن تصريح الخروج؟ فأنا لم أحصل على أيّ تصريح».

رحبت بها بأن طبعتُ قبلةً على خدّها وقلت، «لقد قمتُ ببعض الترتيبات الخاصة معه».

«أيّ ترتيبات؟» غضّنت أنفها فوق فمها العريض، وارتفعت شفتها العُليا قليلاً. كانت مريم ذات لونٍ أغمق من لوني، ولكنْ كان ثمة بريقٌ في وجهها، نتيجة التوليفة الغريبة من التناغمات. كان ذلك الألق النحاسيّ الجذّاب في مُحيّاها يُفصح عن نفسه من خلال عينيها اللامعتين اللتين كانتا بلون العسل الشاحب، وشعرها الكستنائي الذي كان أفتح بكثير من لون بشرتها.

زفرتُ الهواء تعبيراً عن التبرّم. هل يتوجّب عليّ أن أشرح كلّ شيء؟ كان عليها أن تعرف أنني قد دفعت له؛ هكذا بكل بساطة. في البداية وضع البوّاب قبضته فوق صدره قليلاً، دلالةً على النزاهة، إنما سرعان ما تراخت تلك الأصابع الماكرة، وأخذ ينقر بها على صدره. لم يطل الأمر قبل أن يفتح يده، مشيراً إلى استعداده للالتفاف على قانونٍ أو اثنين. «لقد هززت له بصدري وحرّكت له خصري». ضحكت وأنا أتكهّن تلك الشهقة التي صدرت عن ابنة عمّي العزيزة!

«هل تظنين أنه بمفرده هناك؟» قالت مريم وهي تُثبت شيلتها بشكلٍ فضفاض حول رأسها، بطريقةٍ تُظهر امتداد غرّتها اللامعة بالكامل. كانت خصلات غرّتها مسترسلة، فوق حاجبيها الشبيهين بالهلال. وكعادة الكثيرات من الفتيات الإماراتيات اللواتي يدرسن في القاهرة، لم تكن مريم ترتدي العباءة، لكنها لا تزال ترتدي ملابس محتشمة. كان قميصها الأخضر الفاتح، الموشّى برسوم أوراق الكرمة الزاحفة يُغلَق بأزرارٍ عند المعصمين. أمّا

تنورتها التي تصل إلى الكاحل، فكانت فضفاضة بالقدر المناسب كي لا تلتصق بقوامها. «ثمة أيضاً الحارس الليلي و«الأبلة». إذا اكتشفت «الأبلة» أنني غائبة، فسترسل رسالة للملحق الثقافي الذي من المؤكد أنه سيخاطب عمّي - عمّي ماجد لن يكون مسروراً- وبالتالي يُمكن أن أُطرَد».

في تلك اللحظة، توصلتُ إلى نتيجةٍ مفادها أنه كلما زاد عدد الكتب التي تقرؤها مريم، أبطأ عقلها في التفكير. كان عليها أن تعرف أنني قد أعطيت البوّاب ما يكفي ليتقاسمه مع الآخرين. «لقد اهتممت بكل شيء، لا تقلقي». قلتُ لـمريم.

«كيف لي ألا أقلق؟» قالت مريم. «أنت تعرفين ماذا يعني إذا اكتشفوا أنني في الخارج. سأفقد فرصتي في الحصول على شهادة. وما الذي أفعله حينها؟ ستتحطم حياتي بالكامل».

«تتحطم!» قلتُ وأنا أضخّم تأوّه صوت مريم. في العادة، تتجمّد أساريري عند نظرة اليأس التقليدية التي تبديها الممثلات المصريات عندما يواجهن صدمةً حتمية محبوكة بشكلٍ يسهل التنبؤ به في كلّ نصٍّ دراميّ. دائماً ما تُلقى المآسي على رؤوس النساء. ضربتُ صدري وكررت، «تتحطم!».

«توقّفي»، قالت مريم وهي تضحك وتؤنّبني، بينما كانت تُعانقني. «أنت رهيبة». أحبُ أريج رائحتها، عبق البخور على ثيابها الممزوج برائحة النظافة على بشرتها، وتلك النقطة خلف

أذنها من دهن العود. «ما الأمر؟» قالت مريم وهي تتراجع إلى الوراء. كانت ثمة شرارةٌ من الفضول تلمع في عينيها. إنّ سَحْبها من السكن بعد ساعات الخروج الرسمية يعني بالطبع أنها تعرف أنّ لديّ أخباراً هامّة أودّ مُشاركتها إياها.

أطلقتُ نصف همهمة، نصف تنهيدة. «حسناً، لا شيء. كلّ ما فكّرت فيه هو أن أجرّك خارج سجنك لبرهة؛ وعندما لم تستجيبي لإشارتي على النافذة، تحتّم عليّ إخراجك بطريقةٍ أُخرى».

«كان ذلك أنتِ؟!» أسعدتني صرخة مريم المبهوتة. تلك المريم السهلة الترويع، والمستقيمة دائماً! كان يتوجّب عليها- بحسب الطريقة التي جرت تنشئتها وفقها في ذلك المنزل- أن تتبع القواعد الخانقة التي رسمها أبي - عمّها - للمحافظة على سمعة عائلتنا في مجتمع دبي المحافظ. كنتُ أظنّ أنها قد تكون قد تحرّرت الآن، من خلال الاحتكاك بالمجتمع الجامعي بالقاهرة. كانت مريم متحفظةً دائماً، إماراتية إلى حدٍّ بعيد، على عكسي: أنا شعلة التمرّد في عائلة «النسيمي» الثرية. «أنتِ تعلمين أنكِ قد أصبتِ النافذة الخطأ، أليس كذلك؟ أنا في الأعلى، في الطابق الثالث».

مددت يدي إلى شُجيرة ياسمين مخملية قريبة، ووضعت بضع زهراتٍ منها في راحة يدي. وبعدما أخذتُ نفساً عميقاً من رائحتها العطرة، نظرت إلى وجه مريم المتورّد وأعلنتها: «لقد نجح الأمر».

«ما هو الذي نجح؟».

«أخيراً، سأصبح نجمة!» هتفتُ عالياً.

«ماذا؟ متى؟».

هي تعلم كم كافحتُ، خلال الأشهر العشرة الماضية، لأجد مَن يُلحّن لي أغنيةً ناجحة، لكنها غير مُلمّة بالتفاصيل. أودّ الانطلاق من البداية: كل الوسطاء الذين كنّا نعتمد عليهم، أنا وأمّي أخفقت كل الوعود التي حصلنا عليها، وكلّ المواعيد الكاذبة، لكنّ أيّاً من هذه الأمور لم يعد يهمّ الآن، لذا تخطيت كلّ ذلك، وقذفت بزهور الياسمين في الهواء، مائلةً برأسي إلى الخلف، لتسقط على وجهي. «اليوم!» قُلتُ، وأنا أنفخ زهرةً علقت بين شفتيّ، «لقد حصلتُ على موعد لمقابلة شريف نصر».

استدارت شفتاها لتقول بنعومة «آهااا».

«إنه مشهور ومعروف، وأنا متأكدة أنه سيميّز موهبتي عندما يراني». أمسكتُ بمعصم مريم، وضحكنا وتقافزنا معاً في دائرة.

«لقد نَجَحتِ! نَجَحتِ!».

«لقد نجحنا»، صحّحتُ لها. «كلّ تلك السنين، أنا وأنتِ، نتخيّل حدوث شيءٍ كهذا، نُخطّط كيف يمكن أن ننجح بفعل ذلك، ونُدبّر انتقامنا من أبي». أفلتُّ مريم، وشبكت يديَّ على

صدري. «لن يطول بي الأمر كثيراً قبل أن أبدأ بكسب نقودي بنفسي، الكثير من النقود، بحيث لن أحتاج أحداً بعد الآن. لن يتوجّب عليّ الاعتماد على أبي، أو إشفاقه عليّ». عانقتْ نسمةٌ باردة وجهي الحارّ، وملأت أنفي بشذا الياسمين. أدرتُ ذراعيّ في الهواء، وأتبعتهما بخصري. أنا لا أحتاج إلى الموسيقى؛ الموسيقى موجودة في رأسي.

أخذ شكل وجه مريم الناعم يصبح أكثر حِدّةً، إذ رفعتْ تلك الضحكة العريضة عظام خدّيها اللذين كانا يلمعان كشفرتيْ سيفٍ تحت الضوء. نظرتْ من فوق كتفها لتتأكد من خلوّ الشارع، قبل أن تنضم إليّ في رقصتي الصامتة. أخذتُ أعزف إيقاعاً بلساني وأتبعه، كان بطني يدور ويتلوّى كنهرٍ كسولٍ، وكان التيّار يسافر من كتفيّ إلى ذراعيّ وأصابعي التي كانت تتلوى ككرمةٍ، وتتسلّق عالياً فوق رأسي.

كانت مريم تحاول أن تفعل الشيء نفسه، وشجعتها بدوري بإيماءةٍ من حاجبيّ، وأنا أفكّر كلّ الوقت كم تبدو بائسة. كنتُ أستطيع أن أرى عظام وركها تهتز إلى الأمام والخلف، بينما كانت تحاول أن تستجلب بعض المرونة لرقصتها. يا للخسارة! كيف أنّها لا تستطيع أن تستخدم ذلك الجسد الممشوق والطول الفارع الذي تُحسَدُ عليه، والذي بدا أقصر ممّا هو عليه، نتيجة جنوحها لتقعير كتفيها. لا توجد أنوثةٌ في حركاتها. يا للفتاة المسكينة، إنّها

متيبّسةٌ كدُميةٍ خشبيةٍ، ومع ذلك، فهي جسارةٌ من ابنة عمّي أن تشاركني مزاجيتي، أن تشاركني نشوتي.

أجفَلنا بوقُ سيارة من رقصتنا الليلية... وبينما كانت مريم تختبئ بعيداً، خجلى من أضواء السيارة، قلتُ لها: «لا بأس، هذا البوق لنا».

«من يقود السيارة؟»

«إنها صديقتي عزّة».

تأوّهت مريم، ويُمكنني القول أنها أرادت أن نبقى نحن الاثنتين فقط. «لم أركِ بما فيه الكفاية»، قالت مريم، «وثمة موضوعٌ أريد التحدّث معك بشأنه... إنه أمرٌ حساس...».

مزاج مريم آخذٌ في التعكر، بينما جُلّ اهتمامي يتمحور حول الاحتفال بأخباري السعيدة. «انظري»، قلتُ مخاطبةً مريم. «هي لن تمكث معنا. لذا، دعينا نستمتع، أوكي؟ فقط، لا تكوني صعبة».

3

مريم

صعبة؟ ما الذي عنته دلال بذلك؟

أرادتني أن أكون معها الليلة، وهأنذا، مُدركةً تماماً عواقب التسلّل من السكن. كان يمكنني أن أرفض، لكنّني لم أفعل.

صعبة؟ بالكاد!

كلّ ما أردته لكلتينا أن نكون معاً، وحدنا، فيُمكنني بالتالي أن أستجمع شجاعتي، لأخبرها عن عادل. من أين سأبدأ؟ ما الذي ستقوله إذا أخبرتها عن كلّ تلك الأشهر التي قضيتها أراقبه من بعيد، حتى حفظت كلّ إيماءات جسده وتعبيراته؟

كان أحياناً يبتسم لي وهو يمرّ بقربي ويقول: «صباح الخير». ينبغي أن يكون من السهل أن أردّ بالمثل، لكنّني شعرت أنه من المستحيل أن تصدر عني هكذا تحيةٌ بسيطةٌ. كانت شجاعتي تتلاشى دائماً كمياهٍ تنزح من قاع حوض الاستحمام. كنتُ غالباً ما أسمع غرغرة واضمحلال تلك العبارة في فمي وهو يجفّ. أقصى ما كان يُمكنني فعله هو تقطيب حاجبيّ، والابتعاد مُسرعةً وأنا ألعن في سرّي الأسباب التي جعلت منّي شخصيةً خجولةً، كائنةً ما كانت.

لكننا -في الأسبوع الماضي- تكلمنا لفترةٍ أطول بعض الشيء، أو ربما يجب أن أقول: هو من تكلّم. تَحْمَرُّ وجنتاي كلّما فكرت بذلك الأمر. عادل الشموليّ، كما أنا، طالبٌ إماراتي يدرس طبّ الأسنان، لكنه يسبقني بسنة، لذلك كان من الطبيعي أن أتفاجأ عندما اقترب منّي في حرم الجامعة طالباً مني مساعدته في مراجعة بعض المحاضرات التي فاتته. حتى الآن لا أعرف كيف وافقتُ بتلك السرعة. أومأتُ برأسي موافقةً، مع وجهٍ صارم يطفح بالانضباط، كي أخفي انجذابي نحوه. يعتريني الندم لأنني لم أبتسم آنذاك. ربما كان عليّ أن أبتسم، وأجعلها ابتسامةً عرضية من خلال هزّ كتفيّ، تعبيراً عن اللامبالاة. أعتقد أنّ ذلك كان سيكون أفضل.

اقترح عادل أن نتقابل نهاية الأسبوع في نادي الطلبة. وصلتُ مبكرةً لأضمن احتلالي واحدةً من الغرفتين الخاصتين في الطابق الأول من الفيلا ذات الطوابق الثلاثة. تأخّر عادل يومها. عشرون دقيقة تأخير هو أمرٌ متوقع؛ ثلاثون دقيقة تعني وجود ازدحامٍ مروري، ويُمكن التسامح بشأنها. بعد أربعين دقيقة: حسناً، بدأتُ أتساءل ما إذا كنتُ قد أسأت فهم توقيت موعدنا.

وفيما كنتُ أنتظر، أخذ انزعاجي وقلقي ينموان باطراد، حتى بدأتُ أقضم الممحاة في رأس القلم الرصاص. كنتُ أهدر عطلة نهاية الأسبوع. كنت أهدر وقت الدراسة الثمين. أردت أن أغادر، لكني لم أجرؤ على المشي خارج الغرفة. كان النادي يغصّ

بالطلبة الكالحي الوجوه، الباحثين عن مكانٍ هادئ للدراسة. أخذتُ نفساً عميقاً، وتكلّفتُ وجهاً جاداً، ورحت أُحدّق بصعوبةٍ في الأوراق التي بعثرتُها أمامي على الطاولة، والكُتب الثلاثة الملأى برسومات الأسنان، واللثة، والجسور.

وللغرابة، عندما وصلَ عادل متأخراً عن موعده ساعةً تقريباً، لم أكن غاضبة، شعرتُ فقط بالارتياح لأنه قد أتى. كان يرتدي قميصاً مقلّماً بالأحمر، يعلو بنطال جينز كحلياً، اندفع إلى الغرفة، تعبقُ منه نضارة رذاذٍ صيفيّ. استمر عادل في الاعتذار؛ وبالرغم من أنني أردت التظاهر بأني كنتُ منشغلةً جداً بالدراسة، لدرجة أني لم ألحظ مرور الوقت.. تمتمت أنْ لا بأس.. مع ابتسامةٍ مُبالغٍ فيها.

كان اللون الأحمر الذي يُخضّب عيني عادل والهلالين السميكين تحتهما، دليلاً على السهر كثيراً الليلة الفائتة، ما جعلني أتساءل أين أمضى ليلته السابقة، ومع مَن؟ كلّها أسئلةٌ سخيفة بالطبع، لكنّ عقلي كان يضجّ بها. كانت جلسةً دراسية خرقاء، رسمية للغاية، وهادئة للغاية. أبقيت عينيّ بعيدتين عن عادل. لم أكن أثق بهما، كانتا سهلتيْ القراءة، وغالباً ما تُفصحان عن الكثير، من خلال صفائهما.

«تعالي، اصعدي»، قالت دلال وهي تُعيدني إلى الواقع. «لا يُمكننا الانتظار الليل بطوله».

غمغمتُ بتحيةٍ فاترة لـعزّة التي ردّت بابتسامةٍ عريضة. كنت على وشك الانزلاق على المقعد خلفها، عندما لمحتُ بقايا

تفاحةٍ بُنّية مُلقاة على المقعد. يا للخنزيرة! أخذتُ منديلاً من محفظتي، والتقطت بقايا التفاحة وألقيتها خارج السيارة، ثم مسحتُ المقعد المتّسخ. ضحكت دلال ضحكةً فاترة لتصرّفي الساذج. عندما تضحك، كانت عين دلال اليمنى الناعسة التي ولدت بها، تضيق بعض الشيء.

لم أقل شيئاً، وجلست في المقعد وأنا أثني ذراعيّ حول وسطي بإحكام. أخذت السيارة تئنّ، ثم انطلقنا. رحتُ أحدّق في الشارع وكأنني أنتظر حدوث أمرٍ مُهم، بينما كانت دلال وعزّة تثرثران كببغاوين على وشك أن تُكافآ بحفناتٍ من بذور اليقطين. وبين الفينة والأخرى، كانت عزّة تُطلق ضحكةً مبتذلة تُقنعني بأنها ليست أكثر من فتاةٍ ذات تربية وضيعة، لم تُربَّ على الأخلاق الحميدة. هذه الفكرة جعلتني أشعر بالسموّ، فهدأ غيظي قليلاً، بينما كانت السيارة تنعطف إلى شارعٍ عريض مُكتظّ بالسيارات.

* * *

أنزلتنا عزّة عند مدخل فندق «ماريوت» في الزمالك. وبما أنّ إجازة منتصف العام قد انتهت، كنت مقتنعةً أنّ الخليجيين قد حزموا أمتعتهم وعادوا إلى بلادهم الآن. لكنهم هُنا، زوّارٌ من السعودية، والكويت، وقطر، والإمارات، يملؤون مقهى الفندق، وهو عبارة عن ردهةٍ مستطيلة مع ممشىً عريض، تمتدّ من أحد طرفيْ فناء الحديقة إلى الطرف الآخر.

كان النُدُل، بمآزرهم الخضراء، يتنقّلون بين الطاولات الدائرية، يحملون الأراجيل، أو يوازنون الصواني المكتظة بأكواب الشاي والقهوة، والكؤوس الطويلة المترعة حتى الشفة بالكركديه ذي اللون الأحمر القاني، أو قمر الدين باللون الزعفراني، كانت ليلةً بهيّة، تلقي بجيوبٍ من الظلال فوق أقسام المقهى المحفوفة بأسيجةٍ من الشجيرات تجعلها تبدو كأنها غرفٌ صغيرة تضمّ ما بين أربع وستّ طاولات. هذا هو الموضع الذي أردت أن أجلس فيه، لكنّني تبعتُ دلال. كان ثمة تمايلٌ طبيعيّ مثيرٌ في مشيتها، يمكن وصفه بالشكل التالي: التناسق المثاليّ لجسدها المثير، لا يمكن لأيّ رجلٍ أن يُشيح بنظره عنه؟ كانت تختال في الممرّ الشديد الإضاءة، وكنتُ أسيرُ ملتصقةً بها، مُحرجةً ومُدركةً كلّ تلك العيون التي تتبعنا: نظرةٌ كسولة هنا، تحديقةٌ حادّة بعد ذلك بقليل، لمحاتٌ مُستَرَقةٌ تستجلي ما الموجود وما المفقود.

أحسستُ ببعض الأمان، لكنّه سرعان ما تبخّر عندما أخذ الهلع يتجمّع في صدري رويداً رويداً. ماذا إذا رآنا أحدهم ووصل الخبر إلى عمّي ماجد؟ هو لن يوافق على خروجي في الليل، وليس بصحبة دلال بالتأكيد، لكنّني أبقيت أفكاري حبيسة صدري، لأنْ لا فائدة تُرجى من التذمّر.

أنا أرتابُ بكلّ نظرةٍ تُديم التحديق بنا. كان ثمة رجلٌ في منتصف العمر، بعينيْ صقر، يزرعُ الخطى على طول الممرّ. كان

يبدو زائراً مُعتاداً، حيث استمرّ النُدُل بالترحيب به بالاسم. كان يحمل سُبْحةً زمردية اللون، ويقوم بما أقوم أنا به بالضبط: إنعام النظر بالوجوه في حديقة «الماريوت».

أدرتُ رأسي حين مررنا بشابّين خليجيين بشعرٍ ناعم، يجلسان إلى اليمين. كانا يرتديان «الجينز» و«تي شيرت»، لذا كان من الصعب معرفة من أيّ بلدٍ خليجيّ هما. يَليهما ثلاثة رجال في منتصف العمر يحدّقون بنا (الواقع أنهم كانوا ينظرون إلى دلال). كان ثمة ترحيبٌ صامت مقرونٌ بمعرفةٍ خاصة-ترحيبٌ عميق ومُكثّف- يوحي بالقول: نحن نعرف أنكنّ خليجيات. بادلتُهم نظرةً حادّة. لم يكن لديّ خوفٌ من وصول أيّ كلمة إلى عمّي من هذه العُصبة. وبالرغم من أنهم كانوا يرتدون الكندورة نفسها التي يرتديها الإماراتيون فقد كان العقال الذي يعلو عصائب الرأس سميكاً جداً، مقارنةً بما يضعه الإماراتيون، لذلك قررت أنهم قد يكونون سعوديين.

وبينما كانت دلال تُجيل بصرها، أخذتْ تُصدر أصوات طقطقة بشفتيها، ناعمة كبتلات زهرة. كانت لديها عينا ظبي، جميلتان وخاليتان من أيّ أفكارٍ مُعقّدة. كانت بشرتها -كوالدتها- تتميّز بصفاء البورسلين، مع ألقٍ جذّاب يجعلها تبدو كأنها تتلألأ، حتى في الضوء الخافت. «حسناً، أين سنجلس؟»، قالت دلال وهي تُثبت راحتيها على وركها.

لم أمنحها الفرصة لتختار. صرخت دلال عندما أمسكتُ بها بإحكام من وسطها؛ وقدتُها بمناورةٍ مُحكمة إلى واحدةٍ من أكثر المناطق المظلّلة بالسياج الشجري، ووقفنا إلى يسار قاعدة أحد التماثيل الرخامية الكبيرة العديدة.

«ما هذا المكان؟» قالت دلال مُعترضةً، عندما غصتُ في مقعد الخيزران، منحنيةً للأسفل، وظهري إلى التمثال. «لن يرانا أحدٌ هنا».

«نعم»، قلتُ، وأنا أنظر إلى قائمة المشروبات، فبالتالي يُمكننا أن نطلب شيئاً وننصرف بأسرع ما يُمكن. «هذه هي الطريقة المثلى. أنت يُمكنك المخاطرة، أما أنا فلا. ليس لديك شيءٌ تخسرينه، أما أنا فلديّ. لذلك، فقط...».

«حسناً، حسناً»، قالت دلال. «توقّفي عن جنون الارتياب هذا».

«هل تعلمين أن هذا المكان هو قصرٌ ملكيّ تاريخي؟» قلتُ وأنا أدفع بجسدي إلى الخلف داخل الكرسيّ، لأتماهى مع سور الشجيرات على يميني. «بناه الخديوي إسماعيل، لمناسبة الاحتفالات بافتتاح قناة السويس في العام 1869م». تظاهرتُ بأني لم ألحظ تعابير الاستياء على مُحيّاها، وأشرت إلى التمثال القريب. «ومن الواضح أنّها كلّها تُحف». مرَّرتُ لها القائمة لتقرأ المعلومات المطبوعة فيها.

طقطقت دلال بأصابعها أمام أنفي. «نحن هنا لنستمتع بوقتنا،

وكل ما أمكنك فعله هو إعطائي درساً في التاريخ؟ انظري إلى نفسك، مُلتصقة بالشجيرة بهذه الطريقة. سيظنّ الناس أنك مجنونة. ما الذي تتصنّعينه، أنك جاسوسة، أم يرقانة؟».

جلستُ مستقيمةً وضحكت بفتور. أنا أبدو سخيفة. أخذتُ نَفَساً عميقاً، مع وعدٍ بأن أخفّف من تزمّتي بعض الشيء (في النهاية، نحن معاً لنحتفل بدخولها عالم الموسيقى، شغفها). كان الهواء مملوءاً برائحة التبغ المنكّهة بالعسل والتفاح، المنبعثة من الأراجيل. أجلتُ نظري في الحديقة الباذخة المزدانة بأشجار النخيل العالية والشجيرات القصيرة؛ كانت الأوراق مقصوصةً بعناية، ومُشكّلة على شكل أهرامات ومربعات، بعضها يحوي عناقيد من مصابيح صغيرة. لمحتُ شجيرة كركديه (المعروفة أيضاً باسم «وردة الصين»، موطنها الأصلي) وشجرة السنا (وهي شجرةٌ سريعة النمو من أميركا الاستوائية، لكنها تزدهر في تربة مصر الغنية).

كيف لا أزال أتذكّر كلّ هذه التفاصيل؟ منذ أمدٍ بعيد، أعطاني والدي موسوعة نباتات، أحببتها كثيراً، وكنتُ أحرص على أن تبقى بجانب سريري (أين هي الآن؟). وما بدأ بمحاولة طفلة أن تُسعِدَ أباها، تحوّل إلى اهتمامٍ حقيقي وشغف تخلّيت عنه لسببٍ ما، بعد وفاته.

«حسناً، نحن هنا الآن»، قالت دلال بصوتٍ حالم، «نقضي وقتاً ممتعاً، أنت تعلمين»، نضحك.. طوّحت برأسها إلى الخلف،

وأقحمت أصابعها في خصلات شعرها الحريري ذي اللون البني الداكن، قبل أن تعود لتمسح الممرّ بنظراتها «المغازلة». التقطَ أحدهم عينها، وتجهّمتُ في وجهها لأردعها، بينما كانت تسحب نظراتها نحوي وتقول: «حسناً، قولي شيئاً ما، وبسرعة».

لقد رأيت ما يكفي من المغازلات لأعرف إلى أين سيؤدّي هذا الأمر. إنها تنصب فخاً لذلك الشاب. هي في الغالب ستضحك، وهو سيعتبر ضحكتها دعوة. وفي حال اقترب منا، وقررت هي أنها غير مهتمّةٍ به، فيُمكنها عندها أن تُنكر مغازلتها له، لأنها لم تُكن تفعل أكثر من تجاذب أطراف الحديث مع صديقتها. قلتُ لها: «النادل هنا».

لهثتْ، كأنّي أخبرتها تعليقاً طريفاً. اختلجت كتفاها وكأنها تتصنّع مُغالبة ضحكة. «آه، أنت تُحفة!»..

الألاعيب؛ دلال تمارس ألاعيبها. كرّرتُ القول، «النادل وراءك».

وبدلاً من أن تشعر بالإحراج (كان النادل يقف وراءنا، ينظر إلينا)، رمقته دلال بنظرةٍ قاسية. كانت ابتسامة النادل عريضة. «هل تجسستَ بما فيه الكفاية؟» قالت دلال.

كان شاباً في مُقتبل العمر، بعينين قريبتين من بعضهما وأنف مُدبّب كرأس الصاروخ. «سيدتي أنا لم أكن...».

قدّمتُ له طلبي بسرعة: «عصير أناناس».

«لا أستطيع أن ألبّي طلبك هذا»، قال النادل، «ولكن يُمكنني أن أُحضر لك عصير برتقال لذيذاً، طازجاً وكأنّي قطفتُ البرتقالات للتوّ».

«لو كانت ترغب بعصير البرتقال لطلبت عصير برتقال»، ردّت دلال بسرعة. «إذا لم يكن لديك عصير أناناس، فقط قل ذلك».

«لكنها كلّها مشروبات حلوة، كلّها فواكه، كلّها جيّدة».

«هل لهذا السبب يدفعون لك راتبك هنا، لتتلصص على الزبائن وتناقشهم؟ هل تريدني أن أستدعي مديرك؟»

«سيدتي، أنا هُنا فقط لأخذ طلباتك».

«إذاً خذها!».

«انسَ أمر العصير، أحضر لي قهوة تركية»، قلت للنادل. «سكّر وسط».

خاطبني النادل قائلاً: «قد يُمكنك أن تشرحي لصديقتك أنّي لست فظاً، أنا فقط أنتظر لأخذ طلبك».

«هي ابنة عمّي»، قالت دلال.

«حسناً، لا مشكلة»، قلتُ مسرعةً لإنهاء موقفٍ قد يتطوّر ويسترعي انتباه الآخرين إلينا. «أعطيه طلبك، دلال».

«المشكلة مع النُدُل ظنّهم أنهم -كونهم يعملون في فندق خمس نجوم مليء بالسيّاح- يستطيعون الثرثرة مع الزبائن».

عبستُ بوجهها. «فقط أخبريه بما تُريدين!»

«بيرة!»

«حالاً»، قال مُتلعثماً، وولّى كالهارب ليحضر طلباتنا.

«بيرة؟ منذ متى تشربين؟»

«أحياناً، أشرب»، قالت دلال.

«لكنّه حرام».

«ثمة الكثير من الأمور المحرّمة»، قالت دلال وهي تُثبت عينيها على وجهي، وبدت فجأةً مُتحمّسة للشجار. عندما تصبح دلال بهذه الحالة، يُصبح الحديث معها ضرباً من العبث، لذلك هززت كتفيّ كإشارةٍ إلى لامبالاتي، وسألتها عن مقابلتها مع الملحن. «ألم تكوني تستمعين إليّ؟ أنا لم أُقابل شريف نصر بعد؛ ولكن عندما يحدث ذلك فأنا متأكدة بأنه سيؤخذ بصوتي، لدرجة أنه لن يستطيع أن يقاوم تلحين أغنيةٍ لي». نظرت دلال إلى السماء وكأنها تمتلكها. «صوتٌ مثاليّ، نعم، وجسدٌ يُماثله».

أجفلتُ عندما أخذتْ تصوّر المنحنيات المجسّمة لذلك الجسد المثاليّ في الهواء. «نعم، نعم»، وبدأت أحثّها لتُكمل، «وما هي الخطوة التالية، أعني بعد مُقابلته؟».

«حسناً، أظنّ أنه سيرتّب لي جلسة أداء».

«أين؟»

لم تُجِب، فقط رفعت حاجبها لتسخر من نشأتي المحافظة.

«في نادٍ ليليّ!» غمرتني الفكرة بالهلع. كُنت أستخدم كلّ طاقتي لأتخيّلها تصعد سُلّم النجومية بطريقةٍ محترمة، لكنّ الصور التي تقافزت في رأسي كانت قبيحة: غُرفٌ تعبق بالدُخان، ملأى برجالٍ ذوي كروش ضخمة، وأضواء حمراء خافتة، ومجموعات من السكارى.

«أعرف تماماً ما الذي تفكّرين به»، قالت دلال، «ولكن لا شيء يدعو إلى القلق. الملاهي الليلية تبدو رديئة السمعة في الأفلام فقط؛ أمّا في الحياة الواقعية فهي أماكن للموهوبين، هذا كلّ شيء. أنت تعلمين أنّ العديد من المطربين الكبار شقّوا طريقهم على هذا النحو».

عاد النادل؛ وعندما وضع القهوة والبيرة على الطاولة، أومأت له دلال إيماءة شكر ودّية، وكأنّها لم تكن هي مَن قام بتقريعه قبل برهة. انسحب النادل بصمت، وكأنه طيف، وتابعت دلال: «بالطبع سيستغرق الأمر بعض الوقت، قبل أن تُكتَب أغانٍ خصيصاً لي. سيتحتّم عليّ في البداية أن أغنّي أغاني مشهورة لمطربين آخرين، ولا أحتاج إلى التدرّب عليها كثيراً، فأنا أحفظها كلّها عن ظهر قلب».

أومأتُ برأسي. كانت دلال تُغنّي مُنذ نعومة أظفارها، وتُردّد كلّ الأغاني الشهيرة كطائر البلبل، عندما تكون سعيدة، وتُخفض صوتها إلى أغروداتٍ من آهات الحب الضائع والغربة، عندما

تكون حزينة. وبين هذه وتلك، كان دائماً ثمة الألحان التي تصطنعها. لم تكن دلال تُغمغم بها في صدرها؛ كانت دائماً تُغنّيها لمستمع خفيّ. «قطعاً أنت لا تحتاجين إلى الكثير من التدريب»، قلتُ لها بينما كانت تُمسك بكأس البيرة وترفعه إلى شفتيها. لم أُظهِر لها ذلك، ولكن يُعجبني أن أراها تأخذ شفّةً، فتتغيّر ملامح وجهها، وكأنها ابتلعت دواءً مرّاً! كما أخفيت عنها قلقي بخصوص المشروب، فإذا استمرت بطلب البيرة، فقد تبدأ تستسيغ مذاقها، وهذا الأمر سيقودها حكماً إلى المشروبات الروحية الأقوى، وحينها ستحتاج دلال لأن تشرب الكحول طوال الوقت، تماماً كما يتوق والدها إليه: المتعة المحرّمة لساعات الليل الخاصة به.

كان عمّي ماجد يعتقد أن احتساءه الويسكي سيبقى دائماً سرّاً مُصاناً، كصفار بيضةٍ مكنونة. القلّة القليلة التي كانت تعرف بشأنه هم أصدقاؤه المقرّبون وأمّ دلال؛ زُهرة، وهي التي كانت سرّه الكبير: الزوجة الثانية التي زادت الأمور تعقيداً، بحملها طفلاً، وحينها تغيّر كلّ شيء.

كانت زُهرة محمود رقيقة القوام وبهيّة الطلعة، لكنها جريئة للغاية. اقتحمت ذات يوم فيلّته في «الوحيدة»، حيث كانت عائلته الحقيقية (هكذا كان عمّي ماجد يُسمّيهم) تعيش. هُناك، وبكل بساطة، أسقطت البيضة على الأرض.

«حسناً، ما الذي أردت أن تُطلعيني عليه؟» سألتني دلال.

تفاجأتُ من سؤالها غير المستعدّة له. نظرتُ إلى الأرض وتجهمت، فيما كنتُ أُفكّر في الطريقة الأنسب لأخبرها عن عادل. ما الذي يُمكنني قوله؟ أنني مُنجذبةٌ إليه؟ يبدو الأمر سخيفاً، في الوقت الذي أريد له أن يبدو حدثاً خاصاً.

«حسناً»، إنّها تجول ببصرها من فوق كتفها، بتراخٍ... لعلّها تبحث عن النادل، لتتمكن من تقريعه ثانيةً؛ أيّ شيء لتطّرد الملل بعيداً. فجأةً، اعتدلت في جلستها، وأصبحت متيقّظة الحواس. كان ثمة فتاتان في مرمى نظرها، تحاولان إقناع جدّتهما بالصعود إلى غرفتها لتنال قسطاً من الراحة. تتبّعتُ نظراتها لأبعد من ذلك، لأجد عادل ينظر إلينا مباشرةً.

وبنوبةٍ من الارتباك، استدرتُ نحو دلال. كان فمها منفوخاً على شكل برعم زهرة، وكانت تتفحص أصابعها، كأنها تقيس أطوالها. وعندما رفعت بصرها عالياً، التقطت دلال نظرته ورفعت حاجبها، بما يُمكن أن يُفسّر أنّه مجرّد دعوة.

لم أكنْ متأكدةً كيف شقّ طريقه متلوّياً بين الطاولات نحونا بهذه السرعة. كنتُ لا أزال أحاول الاستفاقة من إشارات دلال السرّية ووجود عادل في مكاننا نفسه، عندما سمعته يقول: «مريم؟ عرفتُ أنّها أنتِ».

«بييه». كلمة غير ذات معنى، خرجت من فمي مصحوبةً بابتسامةٍ ودودة.

نقل وزنه من إحدى قدميه إلى الأخرى. لم يكُن من شيءٍ أستطيع فعله، فعرّفت كلّاً منهما إلى الآخر.

«آها، ابنة عمّك؟» قال عادل. «أنتما لا تُشبه إحداكما الأخرى».

«ابنتا عمّ، ولسنا توأماً»، قالت دلال مع ضحكةٍ خفيفة ومرحة. ضحك عادل. كان واضحاً أنّه مأخوذ، وينتظر. بدورها، ابتسمت دلال ابتسامةً عريضةً أبدت فيها الكثير من أسنانها، وانتظرت.

كان يتوقّع مني أن أدعوه لينضمّ إلينا. وإذا ما جلس عادل، فسنضطر إلى البقاء لوقتٍ أطول. وإذا حدث ذلك، فيمكن أن يقع رأساً على عقب، مُنجذباً نحو دلال، قبل أن تسنح لي فرصة الفوز به، لم أستطع أن أدرك مدى فداحة الأفكار التي تدور في ذهني «لقد تأخّر الوقت!» قلتُ، مُغطيةً احتجاج دلال بصوت صرير كُرسيّي وأنا أدفعه إلى الخلف. «علينا أن نغادر الآن». سحبتُ دلال بعيداً عنه، قبل أن تستطيع أن تقول أيّ شيء آخر، لكنّ عادل ناداني ليذكّرني بموعد جلسة الغد الدراسية.

«نعم»، أجبته. «غداً».

4

ماجد

«كنت آمل أن يكون ثمة القليل من البرودة مع كلّ هذه الغيوم»، قال بدر، أصغر أبنائي، ونحن نخرج من المسجد بعد صلاة الجمعة. ومع دخوله حالةً من الفتور، بسبب الحرارة المديرة للرأس، حَوّلَ بدر عينيه إلى السماء التي كانت قد استحالت صفيحةً بيضاء مبهرة للعيون، تحمل كرة الشمس المسعورة. «لا نزال في يناير، وفجأةً ينقلب الجوّ شديد الحرارة؟ لقد أخبرتك يا أبي أننا يجب أن نأخذ السيارة»، قال بدر وهو يُلوّح أمام وجهه بكلتا يديه، بذراعين مُتوانيتين كأن لا عظام فيهما.

كان سديمٌ ضبابيّ يحوم فوق الإسفلت في نهاية الشارع الصغير.. كانت أشجار النخيل تقف ساكنة، وسعفاتها تبدو باهتةً من غبار الصحراء. لا طيور ولا نسائم هواء. أخذت قطرات العرق تتجمّع على جبيني، جرّاء الرطوبة العالية. لقد تغيّر الجوّ فجأةً، بحيث لم يعد الناس في المسجد يستطيعون التوقّف عن الحديث في هذا الموضوع. «عندما كنت شاباً، كنتُ أمشي في كلّ مكان، صيفاً وشتاءً، ولم أشتكِ قط». توقّفتُ لبرهة لأحيّي بعض الرجال المغادرين المسجد، ثم تابعت كلامي:«أحرَقتِ الرمال أخمص قدميّ، وتركتِ الشمس آثارها على وجهي. هل تسمعني؟»

أومأ بدر برأسه مبتسماً، وجثم ليبحث عن صندلَينا المبعثرين ضمن كومة الصنادل التي تعود للمصلين.

«ومع كل نَفَسٍ، كانت الحرارة تتجمّع وتعلق في أنفي، مُتحوّلةً إلى بخار».

«ما قُلتُه يا أبي هو أنّ مُكيّف السيارة سيكون أكثر راحةً لنا». كان بدر يُعاني من لثغةٍ تجعل طرف لسانه ينتأ إلى الخارج مع كلّ كلمةٍ ينطق بها، وهذا الأمر يُسبّب لي الآن إزعاجاً إضافياً، إذ كان على حقٍّ في ما يقول. لن يستغرقنا الأمر أكثر من خمس عشرة دقيقة من المشي لنصل إلى منزلنا الذي يقع بعد ثلاثة شوارع من هنا. ومع ذلك- عند وصولنا إلى هناك- سيكون كلانا غارقاً في العرق. بعدها، سنرتجف تحت نسيم هواء المكيّف ونمرض. «لقد أصبح الجسم واهناً، مع كلّ هذه الحداثة». قلتُ وأنا أحسد الرجال الذين أخذوا يستقلّون سياراتهم وينطلقون بها. «وأنتم، أيّها الأطفال، يا جيل المكيّفات، لا يمكنكم احتمال مسيرٍ قصير تحت الشمس».

ابتسم بدر قائلاً: «أنا لم أعد طفلاً يا أبي.. سأنهي المدرسة هذه السنة، إن شاء الله». كان قد وجد صندليّ وجثا على ركبتيه ليضعهما أمامي. وبالرغم من وهج الشمس، نظر مباشرةً إليّ، كان جفناه ناعسين قليلاً، ورمشاه كثيفان جداً، كمن يضع الكحل عليهما. نعم، نحن نتشارك العينين نفسيهما، الفارق بيننا هو غياب الجوع المضطرب في عينيه.

«لقد قُلتَ ذلك العام الماضي»، نَخَرتُ بصوتٍ عالٍ، وبدأت المشي. كنا الشخصان الوحيدان في الشارع. كنتُ معصوباً تحت كندورتي بهواءٍ حارٍّ مُشبعٍ بالرطوبة. وبغضّ النظر عن عدد المرّات التي حللت فيها إزاري، كان يزحف عائداً إلى الأخاديد والأثلام، شاقّاً طريقه نحو مؤخرتي، ومُتشبثاً بمؤخرة ركبتيّ. كانت حاوية جمع القمامة التابعة للبلدية تقف أمامنا، تلمعُ بلونها الفضّيّ تحت أشعة الشمس. قطعنا الشارع لتجنّب رائحتها النتنة.

قال بدر: «كلا، في الحقيقة، هذه المرة الأمرُ صحيح»، وأخذ يروي بالتفصيل قصصاً حول هذا المدرّس أو ذاك، من الذين لديهم موقفٌ ضدّه. فقدتُ حبل لغوه، وأخذت أفكر بابني الآخر العازب خالد، والذي عادةً ما ينضمّ إلينا في صلاة الجمعة؛ لكنّه اختفى اليوم، ذهبَ لصيد السمك مع أصدقائه في عطلة نهاية الأسبوع، أو هذا ما أخبرتني به أمّه. لا أعتقد أنّه سيصيد أيّ سمك بعد الحادث الذي حصل يوم الإثنين الماضي. أتخيّل خالد يجوس الشاطئ مكتئباً، مُستخدماً قلبه المفطور كعذرٍ ليكتب المزيد من الأشعار العقيمة. لم تفتح عائشة موضوع مشكلة خالد الحالية، معَ أنّه يُمكنني القول إنّها قلقة بشأنها، وإلا فما معنى كلّ ذلك المشي المتواصل حول المنزل بوجهٍ مُتبرّم. في النهاية، خالد هو ابنها المفضّل، وهو يتألّم.

كان خالد قد «وضع عينه» على ابنة ذياب المطوّع، ويدعوها «الجميلة»، وقد أعلن أنه وقع في حبّها منذ اللحظة التي لمحها

فيها في «المول». كان عليّ أن أحبس ضحكتي الخفيفة وأنا أستمع إليه، لكنّي- في النهاية- أومأت برأسي موافقاً، ومُعتقداً في الوقت نفسه أنّه قد حان الوقت له كي يستقرّ. كنتُ قد فقدتُ صبري معه، ذلك الشاعر الحساس الذي لم يشبع من دلال أمّه. لم يكن من سببٍ لأقف في طريق ارتباط مثل هذا، فعائلة المطوع عائلة ثرية، وتحتلّ مركزاً مرموقاً في المجتمع. ما الذي يُمكن أن يكون أفضل من هذا؟ هنّأته على اختياره من أعماق قلبي، لكنّ والد الفتاة رفض طلبنا لاحقاً.

«هل سمعتَ ما قلتُه يا أبي؟ هذه المرّة سأتخرّج حتماً»، قال بدر وهو يُخرجني من أفكاري.

«ليست الدراسة أو العمر هو ما يجعلك رجلاً، بل كيفيّة مُعالجتك مصاعب الحياة». قلتُ بصوتٍ حازم، أملاً في إنهاء هذه المحادثة التي لا تفعل شيئاً سوى إضجاري. «وبما أنّه لم تواجهك أيّ مصاعب، فهذا يعني أنك لم تنضج بعد». وخلال فترة الصمت التي تلت، انجرف عقلي مُبحراً نحو ليلتين سابقتين.

وصلتُ إلى «النيلي» حانقاً، وتوّاقاً لأعرف ما إذا كان أصدقائي قد سمعوا أيّ شيء عن رفض ذياب المطوّع طلبي، وهو الأمر الذي اعتبرته آنذاك نوعاً من الإهانة لاسم عائلتي الرفيع. ولكن- عوضاً من ذلك- انتهى بي المطاف أتحدّث إليهم مُلمّحاً إلى أنّ المشروب لم يعد يُغادر جسمي، كما في السابق.

«العمر يُمارس ألاعيبه في الجسد»، خاطبني صديقي سعيد. كان ثمة أريكة بنّية وكُرسيّان باللون البيج في غرفة الجلوس في «النيلي»، لكننا- كعادتنا دائماً- كنّا نشعر بالراحة أكثر في الجلوس على الأرض، مُتحلّقين حول طاولة القهوة المستطيلة، حيث توضع الصحاف الملأى بالزيتون، والمكسّرات، ورقائق البطاطا. كان سعيد يجلس بيني وبين مطر، صديقي المصرفي، واضعاً إحدى قدميه تحته، ومُمسكاً الرِجل الأُخرى بذراعه؛ وهي جلسة الراحة التقليدية للبدو. «تزدادُ حكمةً مع تقدّمك في السن، وأنتَ تلاحظُ ذلك»، تابعَ قوله والشيطنة تلمع في عينيه الحادّتين. «لا تزال الويسكي تُريحك، وأنت تستمتع بتناولها، لكنّ السنّ تُغيّر كلّ ذلك بسرعة». وربّت على كتفي مُقهقهاً. شعرتُ كأنّه ضربني بلوحٍ من خشب.

«ماذا أيّها التافه»، قلتُ وأنا أفرك الضربة على كتفي. كانت أعمارنا مُتقاربة، لكنّ بنيته النحيلة ظلّت قوية ونشطة، بعضلاتٍ وعروق تنتأ كحبالٍ غليظة تحت جلده.

التقيت بسعيد قبل ثلاثين عاماً تقريباً، بعد وقتٍ قصير من انتقالي إلى دبي للعمل عند أخي. كان سعيد زبوناً دائماً في بار «فندق سَبأ»، وهو مكانٌ فظّ مليء بجلبة النقاشات، والدُخان، والتقيُّؤ في الحمّامات. والأكثر أهميةً من هذا كلّه، كان خطر رؤيتي هناك معدوماً، لأنّه مكانٌ لم يكن أيٌّ من معارفي يقصده. كنا نبقى في البار حتى منتصف الليل، ثم نتّجه إلى «محمد علي

كبابي»، وهو مطعمٌ معتم على شكل كهف، يقع عميقاً في قلب سوق الشارقة. هناك كنا نتناول الخبز والكباب والبصل، ولا شيء أفضل منها للتخفيف من تأثير الكحول.

«دعني أروي الجزءَ الخاص بي من القصّة»، قال سعيد وهو يمسد ذقنه الشعثاء. رفض سعيد أن يصبغها بالأسود، كما فعلتُ أنا ومطر، وكانت تبدو تحت ضوء السقف اللامع كأنها مرشوشة بالملح. «أنا أعرف ما الذي أتحدّث عنه. أنت لا تُدرك ما الذي يحدث لكلّ شيء في جسمك. كلّ تلك الأعضاء التي لا تستطيع أن تراها: العظام، والأحشاء الداخلية، والدم. لذلك قد يتوجّب عليك التفكير في الإقلاع عن الويسكي، واحتساء النبيذ عوضاً عنها».

«أنتَ تقترحُ ذلك، ها؟» ثمّ عصرت رقبته حين أخذ جرعةً عطشى من كأس الويسكي الثالث له، ما تسبّب بتدفّقه رذاذاً خارج فمه. «هل أبدو ضعيفاً؟ هل أبدو مثل امرأة؟ في الحقيقة بدأتَ تُخرج الريح من فمك بعد هذا المقدار القليل من الشراب!» وحينها انقلب كلا الرجلين على ظهرهما، يُقهقهان ويضحكان.

كنتُ لَأُحِبُّ جواباً بسيطاً وصريحاً لماذا أشعر بهذه الطريقة، وفكرت بإثارة موضوع الأحلام الرديئة التي كانت تتسلّل إلى رأسي وتترك فيّ إحساساً مُخدّراً بأنّ موتاً عنيفاً ينتظرني. لكنّ هذا النوع من المخاوف سيُفسّر على أنه علامة ضعف شخصية، سيُفسّر بعدم قدرتنا على إدارة انفعالاتنا، وانصرافنا إلى النواح

كالنساء. بالنسبة إلى الرجال مثلنا، هذا الأمر لن ينفع. لذلك- ومن خلال كلماتٍ مُبطّنة بذكاء- نحاول توجيه المحادثة نحو ما يجعلنا قلقين، على أمل أن يُقدّم لنا شخصٌ ما الحلّ بطريق الصدفة. لم أحصل على أجوبة؛ وما حصلت عليه كان ذلك الإحساس المخيف بأنّني أتقدّم في العمر.

ولما خفّت حدّة النشوة، أعلنت: «لقد قرّر خالد أن يتقدّم لخطبة إحداهنّ».

«ماذا؟ ما شاء الله، إنّها إرادة الله!» علّق مطر..«خلّودي؟»

«لن تستطيع أن تناديه بهذا الاسم الآن»، قال سعيد. «لقد أصبح رجلاً. كم عمره؟ بحدود الحادية والثلاثين، الثانية والثلاثين؟»

«شيء من هذا القبيل»، قُلت.

«مبروك! تهانينا»، قال مطر.

«أخيراً»، أضاف سعيد؛ «عندما كنت بذلك العمر، كان لديّ ستة أولاد. لا أعرف لماذا لم ترتّب زيجةً مبكرة له، كما فعلت مع أولادك الآخرين، وكما فعل والدك معك».

«لقد حاولت، لكنّه لم يكن يرغب في أن يتزوّج بالطريقة التقليدية؛ قال إنّه يرغب في أن يختار زوجته بنفسه».

«حسناً، في أيّة حال، سيستقرّ الآن. أخبارٌ رائعة يا أخي».

«وهذا ما ظننتهُ، أيضاً»، قلتُ ذلك وأنا أمدّ يدي إلى الكأس المتعرّق أمامي، لأح بأول شفّةٍ تلك الليلة. «المشكلة أنّ عائلة الفتاة رفضت».

بُهِتَ صديقاي. «ماذا؟ ماذا؟» سأل مطر وهو يعبّ كأس الويسكي بكلتا يديه.

«ابنة من هذه الفتاة؟» قال سعيد وهو يطوّح بيديه في الهواء بحنق. «ألا يعرفون أيّ حظوةٍ سينالون من خلال نيلهم ابنك؟»

هززت كتفيّ بلا مبالاة، لكنّ سعيد كان يعرف أنّ داخلي يغلي جرّاء الإهانة التي لحقت بي نتيجة هذا الرفض. حنى رأسه قليلاً ليُظهر لي أنّه صديقٌ حميم ومستمعٌ عطوف يودّ أن يسمع المزيد. رَبّتُّ على ظهره وتابعت: «لقد قامت نساء الأسرة – زوجتي وبناتي، وحتى أخواتي اللواتي قَدِمن من رأس الخيمة – بواجبهنّ وقمن بزيارة نساء عائلة الفتاة، ليعرّفوهنّ برغبة خالد ونيّته. قالت زوجتي أنه كان لقاءً ميموناً. عادت إلى البيت وهي تلهج بالثناء على الفتاة التي كان واضحاً أنّها تتمتّع بأدبٍ رفيع. كانت عائشة تتحرّق شوقاً لإنهاء الترتيبات. لو كان الأمر بيدها، لاتصلت بهم مباشرةً بعد عودتها، لترتيب الموعد التالي لي ولابني لزيارتهم والتقدّم لوالد الفتاة رسمياً، لكنّي قلتُ لها: «تريثي لبضعة أيام؛ لا تجعلي الأمر يبدو وكأننا مُستقتلون».

«رأيٌ حكيم، رأيٌ حكيم»، قال مطر.

«وافقتْ عائشة وانتظرت لبضعة أيام قبل أن تتّصل بهم. هل تعرفون بماذا أجابوها؟»... أمسكتُ بكأسي ورفعتها إلى الضوء، وأنعمت النظر في ذلك السائل الكهرماني وهو يبتلع شظايا الثلج المتبقية. «قال والدها إن الفتاة ترغب في إكمال دراستها».

نَدّت عن صديقيّ آهةٌ عند سماعهما هذا العذر المعيب: لقد كان رفضاً مؤدباً، لكنه نهائيّ.

«ولكن من هُم هؤلاء الناس؟ أيّة عائلة هي؟» سأل سعيد، وعندما أخبرته عنهم، أطرقَ يُفكّر. في نهاية الأمر هي عائلةٌ مُترفة ومُحترمة. خالد فتىً جيد، وبالتالي يجب توفّر أسبابٍ قويّة جداً لإقناعهم بتغيير رأيهم. راقبتُ سعيد وهو يفرك أنفه المعقوف، وخمّنتُ أنّ الأفكار نفسها تحوم في رأسه: «ما الذي يمكن أن يكون السبب؟ هل يعتبر هذا الرجل العجوز أنّ عائلته أفضل من عائلتي؟». أردتُ أن أعرف، لكنّ الذهاب إلى ذياب المطوع كأبٍ للعروس المقترحة، وسؤاله مُباشرةً عن السبب كوني والداً للعريس يُعتبر قمّةً في الإهانة. عَرفَ سعيد هذا الأمر فقال: «حسناً يا صديقي، سأنتظر لبضعة أيام، أذهب بعدها لأرى هذا الرجل العجوز. هو لن يُخبرني بصريح العبارة، بالطبع، لكنّي سأتكلّم معه بطريقةٍ ذكية للغاية». ضرب على جبهته بسبابته، ولمعَتْ ومضةٌ من الفِطنة في عينيه: «سأمتص المعلومات منه دون أن يُدرك. دع الأمر لي، سأحلّ هذا اللغز».

تنهّد مطر، وأومأتُ برأسي موافقاً. هذا هو الغرض من «النيلي»: إنه المكان الذي يمكننا فيه تقاسم المتعة المشتركة والصداقة المتينة، والاستمتاع بالهُراء المرح بعضنا مع بعض، والوقوف إلى جانب بعضنا البعض في الملمّات، دون الحاجة إلى طلب ذلك. نحن نُدرك أنّنا نرزح تحت أعباء ضغوطات الحياة – العمل، والعائلة – وبالتالي فإنّ اجتماعنا معاً في «النيلي» يُعتبر أمراً حيوياً لاستعادتنا الصفاء والسكينة.

* * *

توقّفت سيارة أودي زرقاء فاتحة اللون خارج المنزل. لا يزال محرّكها يعمل؛ إنه مصطفى، ذراعي اليمنى في الشركة، وهو يغفو خلف المقود. أصابتني الحيرة كونه هنا في يوم الجمعة. إنّه اليوم الوحيد الذي تجتمع فيه عائلتي لنتناول الغداء معاً. وبينما كنتُ وبدر نقترب منه، لمحتُ الخمسين شعرةً أو ما يُقاربها المتبقية في رأس مصطفى واقفةً تتمايل بفعل قوّة الهواء الصادر عن المكيّف. اعتدل مصطفى وراء المقود حالما أخذتُ أنقر على نافذة السيارة، وبدأ بتمسيد الشعرات على فروة رأسه، قبل أن يشرع بإنزال النافذة.

«لِمَ تجلس هنا، في الخارج؟» سألته وأنا أنظر إليه منبهراً من وهج السماء المغسولة بالبياض.

قفز من السيارة، وبدأ يسوي ثنيات قميصه قبل أن يُجيب: «أيوه يا بيه، لم أكن أرغب في إزعاجك يوم الجمعة، لكنني لم أستطع الانتظار حتى الغد لأوافيك بهذه الأخبار». طلبتُ من بدر أن يذهب إلى الداخل ويُخبر العائلة أن مصطفى سينضمّ إلينا على الغداء. لكن مصطفى أصرّ على أنّه لا يرغب في إزعاجنا. «زوجتي لن تسامحني أبداً»، قال: «لقد طبخت «ملوخية»». في هذا الجوّ الحار والرطب، بالكاد أستطيع أن أشتمّ رائحة تلك المرقة اللزجة الخضراء التي لا يكتفي المصريون منها أبداً. كان طلبي من بدر عبارةً عن كياسةٍ متوقعة، حيث إن مصطفى سيرفض دخول منزلنا، وهو الملاذ الخاص الذي يستقرّ فيه رب العمل خاصته مع زوجته وأولاده غير المتزوجين. لذلك توجهنا إلى مجلس الرجال.

مجلس الرجال هو عبارة عن بناءٍ من طابقٍ واحد إلى يمين البيت الرئيس. فيه غرفة جلوس كبيرة تُفتح على غرفة طعام أكبر منها. وفيه مطبخ وحمّام، يليهما صفٌّ من المغاسل للضيوف. أستقبل فيه عادةً زواراً مرّة في الأسبوع بعد صلاة العشاء، حيث نجتمع ونتبادل الأخبار. كان ثمة مرجةٌ خضراء بين المنزل والمجلس، تتوسطها نافورةٌ رخامية، جافة الآن، لأنّ الماء لا يزال مقطوعاً. لقد مضى أسبوعان، ولم يُنهِ السبّاك عمله بعد. كانت كندورتي ملتصقة بظهري بينما كنّا نمشي فوق العشب. تخطّانا أحد الطبّاخين مسرعاً وهو يحمل أربع زجاجاتٍ من الماء. كم

مرّة أخبرته أن يُقدّم «الليمبو»، وهو عصير الليمون مع الكثير من السُكّر، في الجوّ الحارّ؟ إنّها أفضل طريقة للتخلّص من حرارة الجسم. أردتُ أن أناديه وأقرّعه، لكنّ ذلك كان يعني قضاء دقيقة إضافية تحت الشمس، لذلك حثثتُ الخُطى، وفعل مصطفى الشيء نفسه.

صعدتُ الدرجات الثلاث وصولاً إلى باب خشب الساج الثقيل. كانت الردهة دائرية، مع قطع زجاج ملوّن مُعشقة في السقف. كان الضوء يشعّ حولها، ويحوّل وجه مصطفى إلى اللون الأخضر اللامع. أشرتُ إليه أن ينتظرني في غرفة الجلوس، بينما أرشق بعض الماء على وجهي.

«هما لا تغادران في الصبح»، قال مصطفى عندما جلستُ بجانبه، «فقط بعد الظهر، في الساعة الرابعة، الخامسة، السادسة، كِده؛ ولا تعودان إلا في وقتٍ مُتأخر: التاسعة، العاشرة، الحادية عشرة، كِده. هما دائماً ترتديان ملابسهما بشكلٍ أنيق، مع مكياجٍ وشعرٍ مُصفّف. هما تستقلان الميكروباص، ربما لأنّه لا يُمكنهما تحمّل أُجرة التاكسي».

«بالطبع لا يُمكنهما تحمّل أُجرة التاكسي».

«حسناً، وهناك يفقد «رَجُلي» أثرهما على الدوام، وهذه المرة أيضاً.. هذا هو الأمر. نعم، فلقد سنحت له الفرصة واستقل الميكروباص نفسه معهما، كان الأمر خطيراً. أعني، ماذا لو، ماذا لو؟»

«لكنهما لا تعرفان من هو هذا الرجل».

«صحيح، ولكن لو رأيتاه هناك وتذكّرتا وجهه من مكانٍ آخر، ثم بقيتا تريانه في مكانٍ آخر؟ «قد تتمكنان حينها من حلّ اللغز وتشكيل الصورة».

«نحن الذين نحاول أن نُشكل صورة، وليس هما. الآن، يا مصطفى، هل يُمكن أن تدخل في صُلب الموضوع وتُخبرني ماذا وجدت؟»

«نعم، نعم، بالضبط». نظّف مصطفى حنجرته. «في أية حال، «رَجُلي» - وأنا لن أخبرك باسمه أو أين يعيش - لحمايتك بالطبع، فآخر شيء نرغب فيه هو أن يقول الناس إنّ ماجد النسيمي يتجسس على ابنته وأمّها».

«ما الذي وجدته؟»

«نزلتا أمام بنايةٍ قرب السفارات في «الدُقي». بناية قديمة، لونها رماديّ أو بيج، لست متأكداً، نتيجة الغبار وأبخرة الديزيل. أنت تعرف، البنايات في القاهرة لا تُغسل أبداً».

«مصطفى!»

«آسف، يا بيه»، قال مُتلجلجاً. «أين كُنتْ؟» شَبَكَ أصابعه، ثم انحنى للخلف ودفع أصابعه للأمام ليُحدِث صوت فرقعة عالياً. «يبدو أنهما تبحثان عن مُلحّن».

«مُلحّن؟ ماذا يعني هذا؟»

5

دلال

حشرجةٌ كأنّها العفونة تلتصقُ بمؤخرة حُنجرتي. أسعُلُ وأقذفها بعيداً، بينما الجفاف الذي يحلّ محلّها يُنبئ ببداية يومٍ آخر. شيءٌ ما يَخِزُ مؤخرتي – إنه نابضٌ آخر رخو في الفراش – وأصرخ قليلاً بشكلٍ دراماتيكيّ قبل أن أزحف خارج السرير، مُتجهّمةً طيلة الوقت، لأنّي بالتأكيد لن أعتاد هذا المكان أبداً.

لحظة الاستيقاظ لا تنبئ أبداً بالانتعاش والتجدّد. الهواء لا يتحرّك في غرفتي. يبدو وكأنّ مائة رجل عجوز كانوا ينامون حولي، يشخرون، ويتجشؤون، ويُصدرون الريح طوال الليل. العفونة المزمنة، وهي السمة الدامغة لشقّتنا المظلمة الرطبة، كانت دائماً تبدو في أسوأ حالاتها صباحاً، وهي التي تجعلني أسرع لأضع ردائي وأنطلق إلى الشرفة عبر غرفة الجلوس. الحالة هنا ليست بأفضل، حيث تُطلّ الشرفة على زُقاقٍ ضيّق جداً، لدرجة أنّ أيّ نسمةٍ محصورة تنتهي إلى العدم، قبل أن تنجح في الوصول إليّ. الشرفة صغيرةٌ جداً، حتى أنّه يتوجّب عليّ الوقوف بشكلٍ جانبيّ، إذا انضم إليّ أحدهم. بمفردي، لديّ مساحةٌ كافية لأخذ خطوة إلى اليمين أو خطوة إلى اليسار. تسقط حزمةٌ من الضوء بعد حافة

الشرفة مُباشرةً. أمسِكُ بالدرابزين الحديد، وأنحني إلى الأمام لأغسل وجهي في حزمة الضوء.

أعيشُ مع أمّي على حدود حيّ إمبابا الفقير المكتظّ بالسكان، في مبنىً يبعُد شارعين فقط عن «شارع السودان». لا يُمكنني أن أرى الشارع، إنما يُمكنني سماعه. أصوات أبواق السيارات المتواصلة العالقة في الأزيز الفارغ لحركة المرور هي إشعارٌ يوميّ لي كم أنا قريبة من «شارع السودان»، وأنني- بعبوره فقط- أكون قد أصبحت أتجول في منطقة «المهندسين» المترفة.

سمعتُ نداءً من الشرفة أسفل مني، في البناية المقابلة. «لا تتعرّضي للكثير من الشمس، وإلا أصبحتِ سوداء». إنّها سلوى، ذات الوجه اللطيف والأمّ لخمسة أطفال، وزوجة رجلٍ وحشيّ. كانت سلوى قد رفعت أكمامها وأخذت تنشر غسيلها على حبلٍ يمتدّ بين عمودين يقعان خارج إفريز نافذتها تماماً. نظرتُ إليها لبُرهةٍ، وعُدتُ للشمس ثانيةً، حيث رأيت امرأةً أُخرى تقف على ارتفاع شرفتين من شرفة سلوى، كانت تتحضر هي أيضاً لتقوم بالشيء نفسه مع غسيلها. أسعدني ألا أرى آثار كدمات على ذراعيْ سلوى العاريتين، وأنّها سعيدةٌ بهذا التغيير. لا شكّ أنّ زوجها بمزاجٍ جيد. أخذتُ أتساءل إذا كان السبب يعود إلى أنّ الأولاد يُبلونَ جيداً في مدرستهم، أم أنه قد حصل على ترقيةٍ حديثة في عمله. يجب أن أجبر نفسي على التوقف، أن أسحب نفسي بعيداً عن تفاصيل حياة جيراننا. لا أريد أن أبدأ الاهتمام

بهم، حينها قد لا أحاول أن أنفصل بقوّة عن هذا المكان المحطِّم للأرواح البشرية.

لقد مرّ أسبوعان ولم نتمكن من رؤية الملحّن شريف نصر. أشعر بثقلٍ في أوصالي من فكرة المشي إلى مكتبه ثانيةً في وقتٍ مُتأخر من هذا اليوم. مرّةً أُخرى، سندخل أنا وماما ذلك المصعد المزمجر الذي سيأخذنا إلى الطابق السابع. لا أتطلّع بالكثير من الشوق إلى غرفة الانتظار تلك الخالية من النوافذ، والتي تغصّ بالأمّهات والبنات المفعمات بالأمل. أحياناً تقوم السكرتيرة بصرفنا لأنّه غير موجود. أمّا في حال وجوده، فالصراع الأعظم يكمن في بقائنا صابرتين ولطيفتين طيلة فترة الانتظار الطويلة.

«والأهم من ذلك، لا تقعي!» أتى صوتٌ آخر من المبنى المواجه لي، ولكن من طابقٍ أعلى، من الطابق السادس. جارتنا السمينة هذه تُدعى تفيدة، وزوجها يعمل في قسم الصرف الصحيّ. إنها تبتسم، لكنّ حاجبيها يتغضنان بينما تركّز على كيس الورق البنّي المحشوّ الذي تمسكه بيدها. تضغط بيديها المكتنزتين على الكيس بقوّة، وكأنّها تريد أن تحوّله بقوةٍ ساحرة إلى كرة. وعندما تكتفي، تسترق نظرةً إلى الأسفل، وتقذفه.

شاهدت الكيس يصطدم بالأرض ويتداعى إلى انفجارٍ من قشور البطاطا والجزر. لقد رأيتُ مثل هذا المشهد مرّاتٍ عديدة من قبل. وقع الكيس بجانب قُنبلتيْ قمامة أُخريين. تُعالج القطط

الهيكل العظمي للسمك الذي كان يختلس النظر عبر أحد الأكياس المتمزّقة، مُحاولةً أن تُحرّره من خيوط لُبّ قصب السكّر. الكيس المشقوق الآخر كان يبدو أنّه يعجّ بالحياة من خلال مجموعات الذباب التي كانت تحوم حوله وتلتصق بقضمات خبز الفطير المنثورة فوق عصيدةٍ صفراء مائية مسفوحة. يُمكن أن تكون حساء عدس أو قيئاً، من الصعب الجزم بذلك. وبعد انتهاء القطط والذباب من تناول طعامها، سيبقى ما تبقّى وراءها مُلقىً هناك. سيبقى الناس يمرّون بجانب تلك الفوضى، إلى أن تقوم روحٌ شجاعة- برجاء أن تكون ترتدي حذاءً قديماً- برفس تلك القاذورات على طول الشارع إلى مصرف المياه أو كومة القمامة. قد يقوم رجال زوج تفيدة بالتقاط تلك الفوضى. لكنّ أكثر من أسبوعٍ مضى، منذ آخر مرّة لمحت فيها الكنّاسين أو جامعي القمامة في هذا الشارع.

أريد أن أسأل تفيدة عن هذا الموضوع، وأستفسر منها هل ثمة إضراب؟ وقد أقدّم تعليقاً ذكياً أنّ شوارع الفقراء مهمّة بقدر طُرقات السيّاح. أريد أن أخبر سلوى أنّ ملابسها لن تجفّ أبداً، ما دامت تعلّقها تحت غسيل الآخرين مباشرةً. وعوضاً عن ذلك، فأنا أبتسم للمرأتين وأقول «صباح الخير لكلتيكما».

أخذتا تقهقهان؛ إنّها الثانية بعد الظهر. لكنّ كلّ الساعات التي لا تتطلّب إنارة المصباح الكهربائي هي ساعاتٌ صباحية بالنسبة إليّ. كلٌّ منهما- من جهةٍ أُخرى- مُستيقظةٌ مُنذ الفجر، لإعداد

الفطور لزوجها، وإطعام وإلباس أطفالها استعداداً للمدرسة، وترتيب الأسرّة، وفرك الأراضي، وغسل الملابس، وإعداد الطعام لما تبقّى من اليوم.

ضحكتُ مُجاراةً لهما، لكنّ جُلّ ما أستطيع التفكير به هو عملي في حقل الغناء، والذي يبدو أنّ الوصول إليه أصعب بكثيرٍ ممّا توقّعت. أتوق بشغفٍ لخوض غمار هذا العمل. أستطيرُ هلعاً من احتمال أن أُصبح واحدةً من تلك النسوة، أُكابد الحياة مثلهنَّ، أن أكون نكرةً ومُتبلدة الإحساس. لقد مضى على وجودي في القاهرة عشرة أشهر، ولا أزال عالقةً في هذا الزُقاق البائس الذي ترتع الجرذان السمينة فيه، ولا تتكبد الصراصير مشقة الاختباء.

دخلتُ إلى الشقة، حيثُ تحرّكت الشمس لتُشرق على شرفة شخصٍ آخر. كانت أمّي في غرفة الجلوس تنفض النوم عن أوصالها.

«كم سيطول هذا الأمر؟ كم مرّةً أُخرى يجب علينا أن نذهب إلى مكتب شريف بيه؟» كان ثمة أنينُ قطّة ساغبة في صوتي، الأمر الذي تجاهلته أمّي ومضت تمشي بتثاقلٍ إلى المطبخ لإعداد بعض الطعام. تبعتها وجلستُ على كرسيّ بجانب طاولةٍ خشبية صغيرة. ملأتْ قدراً متوسط الحجم بالماء، وآخر أصغر منه بالحليب. أشعلتْ موقد الغاز، ووضعت القدرين على النار. انحنيتُ على الكرسيّ، فشاهدتها تُخرج الزبدة والجبنة من الثلاجة: ثلاث قطع في لفافاتٍ ورقية. كان ثمة مهارة ميكانيكية في حركاتها.

تناولتْ ثلاثة صحون صغيرة، وكوبين، ومجموعةً من السكاكين، والشوك، والملاعق غير المتماثلة من الخزانة والجارور، ورتبتها دون تنسيقٍ مُعيّن فوق غطاء الطاولة البلاستيكي.

تبوّز فمي من الخيبة، بينما كُنتُ أفضّ ورق اللفّ عن الزبدة. «أعني، أنني بصراحة اعتقدتُ أنّ هذا الأمر سيكون أسهل، لكنّ العملية برمّتها تُسبّب لي الإحباط». ارتفع صوتي فوق صوت سقوط حبات الفول تفرغها أمّي في القدر الأول، بينما كان الماء قد أخذ بالغليان. إنّها تُعِدّ الفول، الاختيار البائس الأول لجماهير المصريين، وهو شهيرٌ لكونه رخيصاً ومُشبِعاً. «كم من الأشخاص الذين تحدّثنا إليهم في الاستديو؟ كم عدد المكالمات الهاتفية التي أجريناها؟» وضعت إحدى يديّ قُرب أُذني وقعّرت صوتي. (نعم، نحن مهتمّون. نعم، نُريد أن نلتقيكم. لا ليس الآن. انتظروا اتصالاً من طرفنا. سنتصل بكم غداً، في غضون يومين، خلال أسبوع كحدٍّ أقصى. نعم، نعم، بالتأكيد. والله العظيم، أقسم بالله!) يبدون مُتحمّسين، وتنتقل هذه الحماسة إلينا. وبعدها، «بووف!» فرقعتُ بأصابعي. «صفر! لا أحد يتصل، ولا مجرد متابعة واحدة للموضوع، لا شيء يحدث».

رفعت ماما الحليب الساخن من على النار، واستدارت لتنظر إليّ. قالتْ: «حسناً، وصباح الخير لتذمّرك».

«تالياً، في النهاية، نحن نعتقد أنّ شريف نصر العظيم سيرانا.

لكنّ تلك البقرة السكرتيرة لن تسمح لنا بالدخول. صدقاً، يا ماما، كيف يُمكن لأيّ أحدٍ هنا أن يُصبح مشهوراً؟»

«حسناً، ما الذي كنتِ تتوقّعينه؟ هل كنتِ تظنّين أنّ الناس سيقبلونك على الفور؟»

«نعم!»، قلتْ، مثل طفلٍ يُنكر حقّ شخصٍ آخر في قطعة الكيك.

«فقط لأنك استطعت الحصول على المركز الثاني في «ليالي دبي»».

أجفلت. لقد مرّ أكثر من عامٍ منذُ ظهرتُ في ذلك العرض، ولا يزال ذلّ الفشل يَخِزّني، كنقاط عصير ليمون على جلدٍ مسحوج. لو نجحتُ في احتلال المرتبة الأولى، لما كنتُ هنا أصارع لأحظى بفرصة. تدفع المحطة نفقات اللحن الموسيقي، والتسجيل، والدعاية، والتوزيع، للأغنية الأولى للفائز، ولكن كان عليّ أن أقتنع بجائزة المرتبة الثانية، وهي مبلغٌ ضخم قدره خمسةٌ وسبعون ألف درهم، وهو المال الذي أُنفق منه لنعيش هنا. «المركز الثاني ليس سيئاً»، أخذتُ أُتمتم وأنا غير مُقتنِعة.

لم تُجِب أمي، فقط تناولت أربع بيضات من الثلاجة. وضعتُ رأسي على ذراعين مطويتين على الطاولة، وسمحت لذهني أن يمتلئ بآلاف الصور للأضواء المتعددة الألوان التي كانت تتسابق فوق وجهي، وللدخان المتموّج الذي كان يتغضّن حول قدميّ، بينما كنتُ أخطو باتجاه فقاعة ضوء المسرح.

كانت عيناي مُتّسعتين من الإثارة. كان المسرح بيضوي الشكل، والفرقة الموسيقية في أحد جانبيه، والحُكّام الثلاثة في الطرف الآخر. كان شعوري طبيعياً أنني هُناك. شعرت أنّي على ما يُرام. كان المصوّر يُديم الدوران حولي. أما الجمهور فلم يكنْ يتعب من الهتاف والتصفيق كلما قام رجلٌ يضع سمّاعات الصوت بإعطائِهم الإشارة لفعل ذلك.

«ليالي دبي» كان البرنامج الأوّل من نوعه على تلفزيون دبي: مسابقة بين المواهب يُديرها صانع النجوم الأسطوريّ سيمون أسمر، ذلك الرجل اللبناني الذي أطلق المسيرة الفنية لمطربين ومُطرباتٍ عِظام، مثل ماجدة الرومي، راغب علامة، نوال الزغبي، والكثير الكثير غيرهم. لماذا لا يُمكنه أن يفعل الشيء نفسه معي؟

عرفتُ مُنذ اللحظة التي شاهدتُ فيها الإعلان التلفزيونيّ الذي يدعو كلّ المواهب «من المحيط إلى الخليج» أنّه يجب أن أشارك. تمّ قبولي مباشرةً، وقررتُ أنّه من الأفضل عدم التأخير في إخبار أمّي. وكما كان متوقّعاً، لم تُظهر أمّي اهتماماً، وبقيت على الحياد، بينما كُنت أُسرع لأداء التدريبات الغنائية. لكنّ كل ذلك تغيّر بعد إذاعة أوّل حلقتين على الهواء، والسبب يعود إلى مكالمةٍ هاتفية.

كانت كلماته قاسية وتهديداته رهيبة. «ابنة عائلة النسيمي على التلفزيون؟ يا للعار!» طالب أبي بأن أنسحب فوراً. وللغرابة،

ملأني تقريع أبي بإحساسٍ بالأهمية. أخيراً تنبّه لوجودي، بعد فترةٍ طويلة من الإهمال. أمّي لم تؤخذ بسحر كلامه. تكلّمتْ معه دون مبالاة، وكأنّها كانت تتحدّث عن حاجتها إلى شراء ما تحتاجه من سوق الخضار والفواكه. أوضحتْ له أنّنا لم نعد مسؤوليته، منذ أن طلّقها، وأنْ لا كلمة له في حياتنا.

وما أن أقفلتْ أمّي الخط، حتى شعرتُ بخفقانٍ فوضويّ في صدري. كلّ ما فكرتُ فيه كان ما الذي يمكن أن يفعله أبي معنا. أمّي بدورها لم تُجب عندما سألتها، فقط تناولتْ علبة مكياجها. كانت ستنضمّ إليّ في الاستديو. (راقبتها وهي تضع الكحل في عينيها الزرقاوين، بيدٍ ثابتة. راقبت عينيها وهي تتحوّلان إلى فولاذ).

أخذتُ أسمع صوت تطاير الزيت الحار. «لقد أرادوا فائزاً من دولةٍ خليجية مُختلفة»، قلتُ وأنا أعتدل في جلستي: «كان عليهم أن يختاروا شخصاً غير إماراتيّ، كي لا يتّهمهم الناس بالتحيّز. لقد حللت في المركز الثاني بسبب السياسة. الجميع قال ذلك».

«ليس هذا هو الموضوع»، قالت أمّي، بينما كان البيض يطقطق ويئزّ. «قد لا تكون الأمور أسهل ممّا هي عليه الآن، حتى ولو حللت في المركز الأوّل. يجب أن تفهمي أنّك لست الوحيدة التي تحاول أن تشقّ طريق الشهرة. ثمة الكثيرات أمثالك في الخارج».

«السياسة»، قُلتُ مُكرّرةً، وأنا أومئ برأسي بقوّة. «هذا هو السبب».

«الحياة لا تأتي كما تشتهين»، قالت أمّي وهي ترفع أحد الأطباق وتسكب البيض فيه. «ثمة الكثير من الفتيات الشابات في كل أرجاء القاهرة يشعرن شعورك ذاته الآن. ودعيني أخبرك أمراً: هنّ موهوبات بقدر ما أنت موهوبة». أخذ صوتها يُصبح أعلى. كانت أمّي قد أخذت تلوّح بالمِلوق في الهواء، بينما بدأت توبّخني.. «وهُنّ- على الأرجح- يجلسن في المطبخ، يشعرن بالأسى تجاه أنفسهنّ، لا فائدة تُرجى منهنّ، ينتحبن بينما تقوم أمهاتهنّ بإنجاز كلّ العمل لتأمين لقمة الطعام لهنّ».

كانت نبرة عتبٍ في صوتها، وكأنّي كُنت أنا السبب في الهموم والمأزق المؤسف الذي نحن فيه. ولكن من يستطيع أن يلومها؟ هي مَن كان عليها أن تتعامل مع والدي الحقود وأساليبه في السيطرة الوحشية. أجبرنا أبي على الانتقال إلى ذلك البيت الشعبيّ المتداعي- وهو من المنازل الحكومية، والمبنية في مُجمّعات، والمتاحة لكلّ مواطنٍ إماراتي - وتأكدَّ أنّنا كنّا دائماً بحاجةٍ إلى النقود. استحال جلدي ساخناً جداً جرّاء إحساسٍ عارم بالذنب أثناء عرض الظلم الذي لحق بي، بحيث إني كنتُ أستطيع تقريباً أن أشتمّ رائحة احتراق وجنتيّ. تثاءبتُ، على أمل أن أُقنعها أنّ تذمّري وشكواي لم يكونا أكثر من حديثٍ عاديّ لتمضية الوقت وإضاعة الدقائق، بينما نستعدّ ليومنا المشهود. لم أنظر إليها، فقط تناولتُ الأجبان وبدأت أفضّ الأوراق عنها: الجبنة الرومي الصفراء القاسية، والجبنة البلدية البيضاء الطرية.

وضعت كلّ واحدةٍ منها في طبقٍ مُنفصل، وحاولت أن أرتّب أدوات المائدة بالطريقة نفسها التي اعتادت كلارا أن تقوم بها. أتساءل ما الذي حدث لخادمتي الفلبينية. هل تتذكّرني؟ هل تفكّر مطلقاً بتلك الشقّة التي عاشت فيها معنا أنا وأمّي، والتي كُنت أدعوها «قصر الثلج»؟!

عشتُ هناك حتى سنّ الثامنة. كانت أمّي تصفها بـ «الحديثة»، مع كلّ تلك الطاولات والخزائن المطليّة بالورنيش، وأبواب الألمنيوم المنزلقة للشرفة، والستائر الخفيفة ذات الدوائر الوردية التي كانت تذكّرني بمثلّجات الفراولة. ولكن- في عقلي الصغير- كانت «قصر الثلج». فالأرائك شديدة البياض، وكانت أمّي تحافظ عليها من الغبار والبقع من خلال غطاءٍ بلاستيكي شفّاف. كانت الشقّة بكاملها مفروشةً بسجادة مخملية تمتدّ من الجدار إلى الجدار، ذات لونٍ كريمي، وغالباً ما كنتُ أستلقي عليها. كنتُ أفرك وجنتيّ على ذلك الزغب الناعم، وأتظاهر أنني أنظّف وجهي بالثلج الذي كُنت أراه في الصور فقط.

كانت الشقّة تقع في «ديرة»، مع منظرٍ عريض لخور دبي. كان لدينا، أنا وأبي، طقوسنا الخاصة التي تتمثّل في الانحناء فوق الشرفة ومراقبة الرجال وهم يُفرغون الصناديق من سفن «البُوم» ذات الشراع المثلّث الراسية على الرصيف. كان يخبرني أنّها آتيةٌ من إيران وباكستان والهند، وحتى من أمكنة بعيدة، كأفريقيا. كان ثمة «العَبْرات» أيضاً، وهي التاكسي المائي التي كانت تبحر ببطء

جيئةً وذهاباً بين جانبيْ الخور، مزدحمةً بالركاب على الدوام. يُمكنني، وبصدق، أن أصف تلك الأيام بأنّها أيامٌ سعيدة، معَ من أنني- لو أُجبرت- أستطيع أن أُحصي أوقات المشاحنات والزعل أكثر من أوقات الضحك والرضى. وبينما أفكّر بكلّ تلك الأيام الآن، يُمكنني القول أنني كنتُ سعيدةً فقط لأنني كنتُ أفعل ما أشاء.

كانت كلارا تتمتّع بصوتٍ عذب، غالباً ما يتحوّل إلى صوتٍ مبحوح في نهاية اليوم، نتيجة تلبيتها طلباتي التي لا تنقطع. كانت كلارا- عندما تشعر بنوبة غضب تعتمل في صدرها- تنفجر مُغنّيةً بأعلى صوتها. كان ثمة قوّة يائسة أثناء محاولتها إخراج اللحن، فينتهي بها المطاف مجروحةً، وكأنّها وطئت على الأشواك. صرخ والدي في وجهها ذات يوم، متّهماً إياها بإخافتي! أحببتُ فعلته تلك، وظننتُ أنّها نوع من إظهار حبّه لي.

كان أبي يزورنا في «قصر الثلج» مرّة كلّ يومين، فيأتي بعد صلاة العشاء، وكثيراً ما يدخل شقّتنا ويداه مطويتان وراء ظهره. وبابتسامةٍ مُشرقة، كان يسألني: «من هي أجمل فتاة في الإمارات؟» كنتُ بالكاد أستطيع ضبط فضولي بينما أندفع ذات اليمين وذات اليسار لأحظى ولو بلمحةٍ من المفاجأة المخفية. ما هو حجم اللعبة؟ ما هو لونها؟ كم سأستمتع بها قبل أن أرميها في السلّة الملأى بالكثير من مثيلاتها التي مللت منها؟ «توقّفي عن القفز إلى الأعلى والأسفل، أيّتها السعدانة الصغيرة!» حينها

أُجبر نفسي على الوقوف، مع ابتسامةٍ سخيفة تضغط على وجهي. «لم تُجيبيني بعد»، كان أبي يسألني مرّة أُخرى، وهو ينظر حوله وقد ارتسم على وجهه تعبير الحيرة:»ربما دخلتُ الشقة الخطأ. هل هذا هو الطابق الثامن؟ هل رقم الشقة هذه 815؟ هل هذا هو المكان الصحيح؟»

«نعم، نعم!»

«هل أنتِ أجمل فتاة في الإمارات؟»

«أنا، أنا!»

«آه، الحمد لله. ظننتُ لوهلةٍ أنّها شقّة الجيران. أعطيني قبلةً، أرجوكِ؟» كان ينحني ليمكّنني من أن أقبّله على خدّه الأيمن.

«واحدةً أُخرى».

«باباااا!» أقول مُعترضةً، لكنّي كنتُ أسرع لأطبع قبلةً أُخرى على خدّه الأيسر.

وبعد أن يرضى، كان أبي يقف. «والآن، ما الذي يُمكن أن تكون الهدية؟» كان ينظر إلى الأعلى. كانت عيناه تضيقان، ويُحرّك شفتيه دون أن يصدِرَ أيّ صوت، وكأنّه كان يعدّ النجوم. بعدها، وبدورةٍ مسرحية، كان يؤرجح ذراعيه نحو الأمام ويقدّم لي الهدية.

لعبة، أقلام رسم، كتاب تلوين، حبل قفز، مجموعة «ليغو»، أيّ شيء يشغلني به، بحيث يمكنه الانفراد بأمّي. كنتُ أمسكها وأمزّق التغليف، ثم أقفز لألعب بها في غرفتي، بينما كان أبي يجلس على الأريكة مع كأسٍ ممّا كان يدعوه «عصير تفّاح الكبار». ذلك العصير ذو الرائحة السيئة، والذي سرعان ما يجعل كلماته غير مفهومة.

أرغب في أن أتحدّث عن ماضينا، حين كان أبي يُعاملنا كملكةٍ وأميرة في «قصر الثلج»، ولكن يجب أن أكبح ذلك الحنين إلى الماضي. على الأرجح، أمّي لن ترغب في سماع أيّ شيء آخر يخرج من فمي. كان وجهها دائم العبوس، بينما كانت تلتقط شوكةً وتبدأ بسحق الفول وتحويله إلى معجون. مرّةً أُخرى، نحن على وشك أن نبدأ يوماً جديداً بوجبةٍ تُشكل إفطاراً وغداءً لنا في وقتٍ واحد، مؤلفة من: البيض المقليّ، والفول المدمس، والخبز، والجُبن، تتمّ إساغتها بكأسين من الشاي الثقيل والشديد الحلاوة.

6

مريـم

الكُرسيّ قاسٍ. خفّفتُ من تيبّس إحدى قدميّ المتصالبتين، بأن أنزلتها عن الأُخرى، ورحت أُحدّق في ذرّات الغُبار الصغيرة المتجمّعة على الطاولة، والتي مسحتها بمنديلٍ رطب حالما وصلتُ. وبالرغم من أنّه يتمّ تنظيفّ غرف الدراسة في نادي الطلبة الإماراتيين كلّ يوم، فإنّه من المستحيل عزلها عن تلوّث الهواء في القاهرة، إذ ينفذ إليها باستمرار، ويخلّف وراءه طبقةً لزجة على شبّاك النافذة المعدني، ويتجمّع كسُخامٍ أسود على مصاريع وحواف النوافذ «البيج».

كنّا نجلس على حافة طاولةٍ كبيرة مُستطيلة الشكل. كان عادل يبدو مُتململاً وكثير الالتفات حوله. لم يكن شيءٌ ليُحوّل انتباهه عن الدرس: لا تلفزيون، ولا مناظر عبر النافذة، ولا حتى صور مُعلّقة على الجدار.

كما هي العادة دائماً، تركتُ باب الغرفة مفتوحاً. كنتُ أتكلّم بصوتٍ عالٍ، ليعرف الناس الفضوليون خارج الغرفة أنّنا كنّا ندرس، ولا نفعل شيئاً غير الدرس. «ركّز انتباهك هنا»، قُلتُ لعادل، مع إشارةٍ بيدي، فاعتدل في جلسته. أخذَ نفساً عميقاً،

وتغضّن حاجباه بينما كان يُركّز على النص. لكنّه- وبعد أقلّ من دقيقة- سرح ببصره بعيداً مرّةً أُخرى. تبعتُ نظراته فوقعت عيناي على الحركات العشوائية لذبابتين تتزاوجان عند الحافة الأخرى للطاولة. «أعرني انتباهك»، كرّرتُ. كان الصدى أعلى من صوتي. شعرت كأنّي أتكلّم مع نفسي. وكنتُ في حقيقة الأمر أتكلّم مع نفسي. انفصلت الذبابتان، وطارتا في الهواء. أمّا عادل فضيّق عينيه وتابعهما أثناء الطيران.

إنّها جلستنا الدراسيّة الثالثة، ولقد برهن عادل أنّه تلميذٌ غريب الأطوار. كان يصلُ أحياناً ولديه قُدرةٌ مُذهلة على التركيز، حيث يستوعب الدروس بالقليل من الجُهد، وكأنه يكرعُ الماء. وفي أحيانٍ أُخرى، كان يتعيّن عليّ أن أكرّر النقطة نفسها المرّة تلو الأُخرى. ولكن أياً يكن مزاجه، فإنّه لا يمحو ذلك الخدر الدافئ الذي أُحسّ به بمجرد أن أكون قربه. كنتُ أقنعُ نفسي بأنّ هذا الأمر ليس أكثر من شعور مُدرّسة ملتزمة تجد أنّ طالبها أخذ يُحقّق بعض التقدّم.

كان عادل يرتدي قميصاً أزرق مدسوساً تحت بنطال «جينز». كان وجهه ضيّقاً عند جبينه، ويتّسع ليأخذ شكل مربعٍ واضح المعالم عند الذقن. كان شاربه ولحيته مُشذّبين بعنايةٍ على شكل «قفل»، وهو الرسم الذي يحيط بفمه الطويل والنحيف، مع ترك الخدّين محلوقين. ويبدو أنّه لم يعد يتابع ما تفعله الذبابتان، واعتقدت- وأنا

أرمقه بنظرةٍ جانبية– أنّه عاد إلى حلم اليقظة من جديد. رفع يده ومرّر أصابعه إلى الأعلى والأسفل على طول خصلةٍ من شعره الناعم الأسود الذي كان مُسرّحاً دائماً إلى جانبٍ واحد، وينسدل لامعاً على ياقة قميصه. نظرتُ بعيداً. كان من الواضح أنّه لن يستوعب الكثير من جلسة اليوم الدراسية. «ربما يجدر بنا أن نتوقّف الآن».

هوت يده نحو الأسفل وضربَت الطاولة. أجفلتُ، مُعتقدةً أنّني قد أهنته – إلا أنّني لمحتُ واحدةً من الذبابتين عالقةً في أسفل راحة يده. «نلتُ منها»، قالها عادل وهو ينقفها بطرف إصبعه، لتسقط على الأرض. «أعتذر، ماذا قلتِ؟»

« قلتُ لعلّه من الأفضل أن نتوقّف اليوم».

فجأةً أصبح عادل متنبهاً.. «لماذا؟»

«حسناً، يبدو أنك تجد صعوبةً في التركيز. لا مانع من إنهاء الدرس إذا لم ترغب في الاستمرار».

« لا، لا، لا.. لا أريد أن أكون قد جعلتك تقطعين كلّ تلك المسافة بلا فائدة».

«لا تقلق حيال هذا الأمر».

«لا، رجاءً، ما تُدرّسينه لي هو في غاية الأهمّية، وأنا جِدّ مُمتنّ لمساعدتك». مالَ عادل باتجاهي واستطعتُ أن ألتقط رائحته

المنعشة والمعقّمة – بودرة التالك وصابون «لايف بوي». «أنتِ على حقّ. ولكن لسببٍ ما، أجد من الصعوبة بمكان أن أركّز اليوم في الدراسة. إنما يتوجّب عليّ، يتوجّب عليّ». وضع عادل يده على خدّي، ثم أنزلها بسرعة، وضغط على يدي ضغطةً ناعمة.

إنها المرّة الأولى التي يلمسني فيها. على نحوٍ غريزي، سحبتُ يدي وألقيت نظرةً على الباب المفتوح، لأرى إذا كانت الفرصة قد سنحت لأيّ فضوليّ بأن يرانا. لم يكُن من أحد. طغى الإحراج فيما بيننا. وقبل أن أستطيع أن أفكّر بكيفية ردّ فعلي، اقترح عادل أن ينزل إلى البوفيه لإحضار بعض المرطبات، شيء يجعل رأسه يعود إلى العمل. «نعم، العصير فكرة جيدة»، أخذتُ أغمغم، وأنا أخطّ بإصبعي على غبار الطاولة الجديد.

وحالما أصبحتُ وحيدةً في الغرفة، أخذت يداي ترتجفان، فحاولتُ أن أشغلهما بالنقر بإبهاميّ على حافة الطاولة. كعبا الحذاء فعلا الشيء نفسه، من خلال الضرب على أرضية الغرفة. ماذا كانت تلك اللمسة؟ كيف كان يُفترض بردّ فعلي أن يكون؟ كان ينبغي أن أصفع يده وأبعدها على الفور، لكنّ الأمر حدث فجأةً، وبسرعةٍ كبيرة لم تمكّنني من إبداء أيّ ردّ فعل.

هل كان ثمة إشارةٌ خفية في تلك اللمسة؟ أخذ صوت النقر والضرب يعلو. هل تحمل تلك اللمسة بعض معاني الافتتان؟ يا لجرأته! كان ينبغي أن أقول شيئاً لاذعاً يُعيده إلى حدوده مباشرةً؛

شيئاً قويّاً مثل «كيف تجرؤ؟» أو حتى جملة تساؤلية بعض الشيء «ما الذي تفعله؟!» مصحوبة بإمالة الرأس، لإضفاء تأكيدٍ إضافي. كان ذلك سيكون رد الفعل الصحيح. هذا ما كانت ستقوله ابنة عائلة محترمة.

ذلك ما كان يتعيّن عليّ أن أفعله: صفعُ يده وتقريعه؛ لكنّي لم أفعل شيئاً.

أوقفتُ كلّ حركاتي، وأخذتُ أُحدّق في الكتاب أمامي. غمرني إحساسٌ بالإرباك والضعف، وأخذتُ أقلّب الأوراق ببطءٍ مُتعمّد، بينما كنتُ أحاول استعادة ثقتي الأسديّة بنفسي، تلك الثقة التي كنتُ أتميّز بها سابقاً. كلّما فكّرت بتلك الثقة أكثر، أدركتُ كم تغيّرتْ. كنتُ فتاةً طويلة هزيلة، تتمتع بمشيةٍ واثقة: خطوات كبيرة مستفزة، مع ذراعين قويتين متأرجحتين. كنتُ أعتقد أنّني مُميّزة. كان لساني حادّاً وروحي حرّة. كان ذلك يوم كان أبي على قيد الحياة.

«طفلتي المعجزة». هذا ما كان أبي يدعوني به.

انتقلت جدّتي لتعيش معنا، بعدما توفيت أمّي أثناء ولادتي. لم تكن جدّتي قد بلغت السبعين حينها؛ كانت قويّةً وعنيدة. بذلت ماما العودة – «الأم الكبيرة»، كما كانت العائلة تطلق عليها – جهوداً لا تلين لتخلق بعض الضوابط الأنثويّة داخلي. كانت سريعة الغضب وبطيئة في نسيان العداوة والشحناء. وعندما كنتُ

أتلفّظ بتعليقٍ بذيء، كانت تنقضّ عليّ بأسرع ما يُمكنها لتوجّه إليّ بعض الصفعات التأديبية. لكنّها كانت امرأةً ثقيلة الخُطا. كان بإمكاني أن أنحني وأنثني وأقفز هاربةً من طريقها، قبل أن تتاح لها الفرصة لتحريك ذراعها.

مراراً وتكراراً كانت تأخذ شكواها إلى ابنها الأكبر، أبي. «أيّ رجلٍ محترم سيرغب بها؟ إنّها تسخر منّي ولا تحترم أحداً. أقول لك يا حارب، ثمة قلبُ رجل ينمو في صدر هذه الفتاة».

لم تجد ماما العودة تعاطفاً من قبل أبي. كان أبي شبكة الأمان لي. فبالنسبة إليه، لا يُمكنني أن أقترف الأخطاء. عندما كانت تتّهمني بأنّني متعجرفة، كان أبي يُصرّ على أنّ هذا الأمر هو صفةٌ مرغوبة للشجاعة. وإذا طرحتُ الكثير من الأسئلة وطلبتْ منّي التوقف عن التطفّل، كان يحتجّ قائلاً إنّني أملك فضولاً ذكياً. هكذا كانت الأمور تجري: إذا عبستُ، فهو الحياء الطبيعي، وإذا كنتُ شديدة الصخب، فأنا أتصرّف كما يفعل أيّ طفلٍ طبيعيّ. كانت المشاجرات تندلع دائماً حول تكويني ونشأتي. كانت تقول: «هزيلة»، فيقول: «رياضية». كانت تقول: «كسولة»، فيقول: «عميقة التفكير». ومع معرفتي أنّه سيقف دائماً إلى جانبي، أصبحتُ جسورة، وتعاظمت روحي مع إحساسٍ بالعُجب والمتعة. في النهاية، كنتُ الطفلة التي لطالما اعتقدَ أنّه لن يحصل عليها: الطفلة المعجزة.

في زيجاته الاثنتين اللتين سبقتا زواجه بأمّي، كان أبي يُشاهد عائلة أخيه الأصغر تكبر من طفلٍ واحد إلى أربعة أطفال أصحّاء، بينما بقي هو عاجزاً عن إنجاب أيّ طفل. وحتى بعدما أصبحتْ أمّي زوجه الثالثة، في العام 1960م، استمرّت عائلة عمّي ماجد تكبر - ولد آخر، ثم فتاة - بينما أجهضت أمّي مرّتين، وتَرافق الإجهاض الثاني مع أنباء سيئة من الطبيب: تحذيرٌ صارم مفاده أنّ أيّ حملٍ جديد قد يُشكّل خطراً على حياتها. لم تفقد أمّي حياتها خلال الإجهاض الثالث، لكنّها فقدت الكثير من الدم، لدرجة أنّ الطبيب صرّح باستحالة أيّ حملٍ جديد.

لذلك، أحجم والداي عن فكرة الإنجاب. كان بإمكان أبي أن يُطلّق أمّي ويتزوج امرأةً جديدة، تماماً كما فعلها مع زوجتيه السابقتين. كان ذلك هو التصرّف التقليديّ من الرجال الذين يتوقون إلى الأطفال، وهو الأمر المقبول في المجتمعات الخليجية، سواء من قِبَل الرجال أم النساء، على حدٍّ سواء. لكنّ أبي كان قد تقدّم في السِنّ، واستقرّت حياته. بالإضافة إلى ذلك، كان يحبّ أمّي حبّاً عميقاً، ولفترةٍ طويلة من الزمن، استقر والديّ في حياةٍ ملؤها الرضى. ضعف توقهما إلى إنجاب طفل، فوضعا ثقتهما بمشيئة الله. لكنّ أمّي حَمَلت مرّةً أُخرى. «معجزة»، هكذا صرّح والدي. أُصيب الأطباء بالذهول. توسّلوا والديّ وحكمتهما وعقلانيتهما، لإجهاض الجنين، خشية أن تفقد أمّي حياتها خلال الحمل. لكنّ أبي رفض أن يستمع لأيٍّ من ذلك. كانت مشيئة

الله، في النهاية، وأيّ حقّ يملك ذلك الإنسان الضعيف لأن يشكّك في حكمة الله تعالى؟!!

قرّر أبي هذه المرة أن يأخذ أمّي إلى «بومباي»، طيلة فترة حملها.. كان مُقتنعاً بأنّ الأطباء هناك سيقومون بعملهم على نحوٍ أفضل. كان المخاض طويلاً، واستهلك كلّ قواها بلا رحمة، وولجتُ أنا عتبة الحياة، قبل خروج والدتي منها بدقائق.

أعادتني ضحكة عادل من خارج الغرفة إلى الحاضر. أدركتُ أنّ كتفيّ كانتا مرفوعتين، مُتيبستين ومُلتصقتين بشحمتيْ أُذنيّ. أرخيتُ رقبتي، فأصدرتْ صوت طقطقة، وقال عادل، بينما كان ينظر من خلال الباب، «أووف! لا تفعلي ذلك، ستكسرين رقبتك الرقيقة».

ما الذي يُفترض بي قوله ردّاً على ذلك؟ كان ثمة وقتٌ كنتُ فيه قادرةً على أن أستجلب ردّاً حادّاً ومؤدّباً في الوقت ذاته. عوضاً عن ذلك، هأنا أجلس الآن أحدّق في يديه الفارغتين، بينما كان يستريح في الكرسيّ. «قُلتَ إنك ذاهبٌ لتحضر لنا بعض العصير. أين هو؟» كانت نبرة صوتي تحمل مسحة اتهام وعدوانية.

وبفطنته السريعة، قلّل من أهمّية ما حدثْ. رفع عادل ذراعيه علامة الاستسلام: «قبل أن تقتليني، دعيني أشرح لك».

جارَيْتُه هذه المرّة: «لا تبريرات لرجلٍ محكومٍ عليه بالموت».

«حسناً، إذاً – أُمنية؟»

استمرّت التمثيلية المصطنعة، وصالبتُ ذراعيّ أمام صدري، كما يفعل القاضي. «القانون يمنح الرجل المحكوم عليه بالموت أمنيةً أخيرة».

نهض عادل: «وهل تلتزمين بالقانون؟» وأحنى رأسه مشيراً إلى الباب المفتوح.

قلتُ، «أنا كذلك».

كانت الأصواتُ توحي بوجود جمهرةٍ من الحضور، ولكن في الأسفل كان ثمة خمسة طلاب فقط، أصواتهم عالية بفعل الصدى الذي كان يرتدّ من جدران النادي. كانوا ينتظرون حضور مدرّسهم الخصوصي. كان التلفزيون يعمل، لكنّ أحداً لم يكن يستمع إليه. «يا للمساكين»، همس عادل؛ «عليهم أن يبدؤوا الآن بدرسهم الخصوصي، بينما انتهينا نحن منه».

«حسناً، في الحقيقة، نحن لم نُنهِ أيّ شيء»، صحّحتُ له. «نحن فقط تغاضينا عن درس اليوم. تقنياً، هذا هو الأمر».

«تقنياً، ههه؟»

ارتفعت الحرارة في وجنتيّ بسبب اختياري المتخشّب للكلمات. الحمد لله أنّ عادل كان مُتحمّساً بشكلٍ كبير، فلم يُعلّق على الموضوع. كان عادل يقود سيارة «هيونداي» فضية، ذات أربعة أبواب، ظلت صامتة في شوارع القاهرة وبها عدد من

الخدوش الخفيفة على جانبيها. تلاشت البلادة والشرود اللذان كانا يشغلانه أثناء حصّة الدراسة. ثمة ألقٌ من الحماسة في تعبيره لم يكن يُناسب مزاجه الرقيق، بينما كان يلقي الدعابات حول كلّ تلك الأمنيات التي كانت ستراوده، لو كان يحتضر. بدّل عادل ذراع السرعة (الجير)، وأرجع السيارة إلى الخلف منطلقاً في الشارع. أبقيت عيني عليه، بينما كنتُ أجلس بجانبه منطوية نحو الباب وذراعاي مُتصالبتان بإحكام أمام صدري، على أمل ألا يلمس عادل يدي (أو وجهي) مرّةً أُخرى، ومُتسائلةً لماذا وافقتُ على الذهاب معه إلى «فرغلي» الذي يُعتبر نقطةً ساخنة سافرة للمُغازلة. سيصل الخليجيون إلى هناك قريباً، حالما تأفل الشمس مخلّفةً وراءها إثارةً غامضة تنطوي على كلّ أنواع الاحتمالات. لا يزال الوقتُ مبكراً، قلتُ في نفسي؛ لا تزال الساعة السادسة والنصف فقط.

بعد مُنعطفاتٍ عدّة، وصلنا إلى محل عصائر يتألّق بشدّة على ناصية شارع الجامعة العربية النشِط. كانت الفواكه مرتبةً بشكلٍ مُطنبٍ على طول واجهة العرض الزجاجية المتقوّسة لمحل «فرغلي». في الأعلى، كانت مساحةٌ فارغة استطعت أن أرى من خلالها أعيُنَ العاملين ترفرف بينما كانوا مُنهمكين بعملهم في تقشير وتقطيع وعصر الفواكه.

ظهرتْ ستُّ متسوّلاتٍ، تتراوح أعمارهنّ بين الخامسة والتاسعة، حين وصلنا. وثبْنَ حول السيارة بأيدٍ ممدودة. مشى

طفلٌ بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة من عمره بتثاقلٍ نحو نافذة السيارة لجهتي، وهو يحمل برجاً بسماكة عشرين كتاباً، يحضنه بكلتا ذراعيه. وكي يمنعها من السقوط على الأرض، كان يُثبت أنفه بقوة على الكتاب الأعلى، بينما يصرخ منادياً على عناوين الكتب: «الإمبراطورية العثمانية، تفسير الأحلام، أخناتون، التداوي بالأعشاب والنباتات». اختفت المجموعة عندما طردهم النادل. لم نتكلّف أنا وعادل عناء قراءة قائمة العصائر التي كانت عبارةً عن لوحٍ خشبي ضخم بألوانٍ لامعة، مُعلّق بجانب الباب. رفع عادل يده وطلب عصيرهم الخاص: اثنين فخفخينا!»

ومع شعوري بالراحة بحلول المساء، جلستُ بشكلٍ أكثر استقامةً، وفضضتُ ذراعيّ المتصالبتين أمام صدري. وبالرغم من جلبة حركة السير، وأصوات أبواق السيارات وخشخشة الدراجات، وأصوات خليطٍ من البشر – يتحدّثون ويصرخون وينادون على بضائعهم – قُلت: «إنّها أُمسيةٌ هادئة». لم أكُنْ قد رأيت محلّ العصائر فارغاً هكذا. وافقني عادل الرأي، مع آهةٍ مُضناة جعلت من صوتي يبدو جذلاً للغاية. كان يبدو أنّه ينتظر حدوث شيء. تبعتُ نظراته صوب الفتيات المتسوّلات، وتساءلتُ ما إذا كنتُ أنا السبب في ضجره. كانت الفتياتُ مُتجمّعات يقفن على كعوب أرجلهن، بشكل نصف دائرة عند ناصية المحل، مشغولات بلعبةٍ تتضمن الحصيات والتراب. لكنهنّ كنّ يُنعِمن النظر بسرعة عندما تقف سيارة، ليرين ما إذا كانت ثمة فرصةٌ بانتظارهنّ.

وصل «الفخفخينا» في كأسين طويلتين رفيعتين، تحوي كلٌّ منهما «مصاصة» وشوكة، وتعلوها قطعٌ من الموز والفراولة، مرصوصة مع فواكه أخرى، في قوامٍ هلامي مُدهش. لفترةٍ، لم يكنْ يُسمع سوى قرع المعدن على الزجاج. وعندما نظرتُ إلى عادل، لاحظت أنّه يتناول عصيره ببطء. وبحركةٍ دائرية مُتعمّدة من معصمه، أمسك بقطعةٍ مكعّبة من الأناناس، وقرّب فمه منها. لم يمضغها، بل انتظر لتذوب فوق لسانه.

بدأتُ أسمع أغنيةً مصرية لم أستطع تمييزها، مع اقتراب سيارة «هوندا» رمادية ومحاذاتها لنا من الأمام. كانت الفتيات في السيارة خليجيات، الشيلة تلتفّ حول رؤوسهنّ بشكلٍ فضفاض. رجع عادل بسيارته بعض الشيء إلى الوراء، ليمنحهنّ بعض المساحة، واستمرّ في الرجوع، حيث أعطى طريقاً لمجموعةٍ ثانية من الفتيات وصلن بسيارةٍ أُخرى. توقّف في الطرف القصيّ لمحل «الفرغلي»، ووصلت بعدها سيارةٌ ثالثة، «نيسان» سوداء، اندفعت إلى الفراغ بين سيارتَيْ الفتيات، وفرملت مُصدرةً صوت زعيق نشاز.

صرخت الفتيات هلعاً، وأطلق عادل ضحكةً لئيمة جرّاء ذُعرهنّ، وضحكتُ أنا أيضاً من محاولة الفتيان الفاشلة جذب انتباه الفتيات. وصدرت عن سيارة «النيسان» كلمات أغنيةٍ وقحة تطالب الفتيات قائلةً «تعالي، تعالي، قبل أن أفقد اهتمامي».

قلتْ، «لا شكّ في أنّ هؤلاء الشباب كويتيون».

«ولماذا تقولين ذلك؟»

«لأنّ الكويتيين دائماً ما يكونون متهوّرين ولجوجين».

«آها، حقاً؟» نظر إليّ عادل مُتحيراً.. «ولماذا لا يكونون بحرينيين؟»

«البحرينيون جِدّ مؤدّبين»، قلتُ مُضيفةً بسرعة: «في أيّة حال، هذا ما سمعته من بعض الفتيات في السكن».

«ولماذا ليسوا قطريين؟»

«لا أعتقد ذلك. تُخبرني الفتيات أنّ القطريين طيّبو المعشر. القطريّون غير مؤذيين».

«كويتيون، ها؟» إنّه مُهتم بهذه المعلومة الصغيرة أكثر من اهتمامه بأيٍّ من دروس طب الأسنان التي كنتُ أعطيها له. أشاح بنظره بعيداً، مع تكشيرةٍ ملتوية. «كيف تعرفين كُلّ هذا القدر من المعلومات؟»

«الحقيقة أنّي لا أعرف شيئاً بشكلٍ مؤكّد. كما أخبرتك، هذا ما سمعته فقط». ألقيتُ الكذبة بوجهٍ تبدو عليه معالم الجدّيّة. كان بإمكاني أن أُضيف أنّ الشباب الإماراتيين يُمارسون لعبة المغازلة بجدّيةٍ مُخيفة، أمّا السعوديون فقد يصلون بها إلى حدّ الهوس؛ لكنّني أمسكتُ لساني. لا أُريد أن أخبره أنني ألتقي أحياناً وفتيات السكن (وحتى دلال) على أشياء أكثر قليلاً من كأس عصير في «الفرغلي». بالطبع، كلّ مغازلاتنا كانت لطيفة، لكنّ عادل قد لا يتفهم هذا الأمر. أخاف أن أفقد احترامه لي إذا أخبرته بذلك.

«كويتيون!» اعتدل عادل في جلسته، ووضع ذقنه على مقود السيارة. كان فضوله مُستفزاً. «انظري إليهم، يظنّون أنّهم يستطيعون أن يشقّوا طريقهم إلى قلوب هؤلاء الفتيات».

كنّا قريبين بشكلٍ كافٍ لمشاهدة كلّ تفصيلٍ من تفاصيل المشهد المتكشّف أمامنا، وفي الوقت نفسه، بعيدين جداً كي لا نجذب الانتباه إلى وجودنا. ومع ارتياحي لكوني في تلك البقعة من المكان، أخذتُ أُراقب الفتيات في كلا السيارتين يصرخن على الشباب، مُتّهماتٍ إياهم بالقيادة المتهوّرة ومجافاة الأخلاق. أمّا الشباب فتمثّلت استجابتهم بسخريةٍ باردة. كان واضحاً أنّهم كانوا يستهزئون بالفتيات، من خلال قيامهم بإمالة رؤوسهم ببرودة إلى اليمين واليسار، وهم يروحون جيئةً وذهاباً بين السيارتين، بينما كانوا- بين الفينة والأخرى- يُفزعون الفتيات من خلال الضغط على دواسة البنزين لإحداث صوت فرقعةٍ مفاجئة. أخذت الفتيات يصرخن. أمّا النُدُل فانطلقوا مسرعين من سيارةٍ إلى أُخرى، في محاولةٍ منهم لاستعادة الهدوء، بكلماتٍ عذبة وحلوة، بتعارضٍ صارخ مع التهديدات اللاذعة التي كالوها لتجمّع الفتيات المتسوّلات اللائي تضاعف عددهنّ في المكان، مع قدوم المزيد من السيارات وتوقّف من فيها لشرب العصير أو لتنفيذ إغراءٍ خفيف يُمكن أن يقود لاحقاً إلى مغامرةٍ طائشة عذبة.

«لم أرَ شجاراً مُنذ فترةٍ طويلة». حشا عادل فمه بثلاث قطع من الموز دفعةً واحدة، بينما كانت عيناه ثابتتين على المشهد الذي

تحوّل فوضوياً بشكلٍ مفاجئ. كان عدد الواصلين يزداد باطراد. بعضهم يتابع السير، على أمل أن يُحالفهم الحظ لاحقاً، بعد دورةٍ أو دورتين حول العمارة، وآخرون كانوا يوقفون سياراتهم قريباً من مكاننا. تلاشى ذلك السكون الذي كنتُ أنعم به، واقترحتُ أن نُغادر.

«الآن؟»

«نعم الآن»، قلتُ مُتلعثمة. ولشعوري بأنّني مكشوفة، سحبتُ شيلتي إلى الأسفل لتغطي جبيني. «أنت تعرف، لنخرج من هنا ونفسح المجال لغيرنا. انظر إلى كلّ هؤلاء الناس». وبالرغم من أنّ موضوع إفساح مكانٍ للآخرين كان آخر اهتماماتي، كنتُ أخاف من احتمال أن يرانا أحدٌ ما. ثمة الكثير من الأعذار التي يُمكن أن أقدّمها لتبرير وجودي هنا - أخذ استراحة من الدراسة، العطش - ولكن من الذي سيكبّد نفسه عناء السؤال؟ الأرجح أنّ الشخص الذي قد يتعرّف عليّ سيختار أسرع النتائج وأكثرها شيطانيةً، وينشر الخبر. أدركتُ أنّ كتفيّ قد توترتا بينما كنتُ أتخيّل حصاد الألسن التي لا تُعدّ: «لقد رأيت مريم النسيمي في سيارةٍ مع شاب». هكذا ستكون حال أوّل لسان ينشر الخبر. «كانا يشربان العصير، من يدري ماذا كانا يفعلان غير ذلك». هذه هي حال اللسان الذي سيزرع بذور الشك في القصة. «حتى أنّ أيديهما كانت متشابكة».. وأخيراً، ستتحوّل الرواية إلى حقيقة، إلى تقريرٍ يصل حتماً إلى آذان الملحق الثقافي الذي لن يتردّد في إعلام عمّي ماجد.

«انظري، انظري»، قال عادل. كان أحد الشباب في سيارة «التويوتا» قد قذف بقطعة ورقٍ مطوية عبر نافذة سيارته المفتوحة. كنا نعرف أنّها تحتوي على رقم هاتف، وربما دعوة إلى اللقاء في مكانٍ خاص. طارت الورقة في مسارٍ مستقيم، لكنّها أخطأت هدفها، وارتدّت عن غطاء محرّك «فيات» العنابية كانت قد توقّفت أمام سيارتنا مباشرةً. نخر عادل طرباً: «لا أمل، ميئوسٌ منه تماماً».

بدأتُ أتململ. «يجب أن أعود، يا عادل.. قريباً سيبدأ حظر التجوّل في السكن».

تنهد عادل ونظر إلى الأسفل نحو عصيره، وأخذتُ أفكّر، وأخيراً، سيُخرجني من هذا المكان. لكنه غمس أصابعه في كأسه وأخرج شريحة المانجو.. تتقاطر منها السوائل. رفع القطعة نحو رأسه، وبدأ يلعق العصير الذي كان يتقاطر منها على يده. فتحت فمي من الدهشة، ولكن لم تندُ عنه أيّ كلمة. كانت حركاته بطيئة ومُتعمّدة، وعندما استدار لينظر إليّ، فتل شفتيه بنصف ابتسامة، مُتجاهلاً العصير الذي كان يغمر ذقنه ويقطر على معصمه.

أيّ أحبولةٍ هذه؟ أشحتُ بنظري بعيداً، وبدأت أنعم النظر في اللطخات على نافذتي نصف المفتوحة، مع قهرٍ بدا سخيفاً. «يجب أن أعود»، أخذتُ أتمتم. «لا يُمكن أن أسمح للناس برؤيتي في وسط مثل هذا المكان المخصص لالتقاط فتيات المغازلة».

«غير معقول!» صرخ عادل، وضرب عجلة القيادة بكلتا يديه. أُجفلتُ ونظرتُ إليه، لأجد أنّ رد فعله هذا لم يكن بسبب طلبي، بل لأنّ رسالةً أُخرى سقطت قبل وصولها إلى هدفها بمسافةٍ قصيرة. «لقد أخطؤوا ثانيةً»، قال عادل. «وهم قد أخذوا كلّ وقتهم ليشكلوا ورقتهم على شكل قارب. هاه!»

تدحرجت الرسالة إلى مكانٍ ما تحت السيارة، وطلب الشباب الشغوفون من إحدى المتسوّلات أن تبحث عنها. زحفت الفتاة تحت السيارة، وحالما استعادتها، صرخ الشباب، «أعطيها لها، يا أسماء». شرعت أسماء بتقديم الرسالة إلى سائقة سيارة «الفيات»، لكنّ الشباب لوحوا بأذرعهم بحنق. «ليست لهذه يا أسماء، بل الفتاة الأُخرى».

«هل تصدّقين ما يفعله هؤلاء الشباب؟»

طقطقتُ بلساني. «يا للفظاظة! مسكينةٌ سائقة السيارة، المؤكد أنّها تعيش شعوراً شنيعاً. لن تكون قادرةً على مواجهتهم جرّاء الإحراج».

لكنّ الإحراج لم يسلب السائقة صوتها. «عيب عليكم!» صرخت بالشباب. «ماذا تشعرون لو فعل أحدهم الأمر عينه مع أخواتكم؟» وبالرغم من أنّها كانت تضع الشيلة على رأسها، يُمكنني القول من لهجتها إنّها مصرية.

لم تكُن أسماء الصغيرة تتجاوز الخامسة أو السادسة من العمر؛ كانت أصغر من أن تعرف ما يجب عليها فعله. قبضتْ

على الرسالة- القارب بإحدى يديها، وشدّت ضفائرها المتسخة بيدها الأُخرى. «اذهبي»، أوعز إليها الشباب. «سلّمي الرسالة إلى الفتاة الجالسة في مقعد الراكب، الفتاة الجميلة، الأميرة».

«عُد إلى البيت واسأل والدك أن يُعلّمك بعض الأخلاق الحميدة»، صرخت الفتاة في مقعد السائق. «ماذا تظنّ لو أنّ أمّك..» الفتاة في مقعد الراكب، الأميرة، أسكتتها قبل أن تستطيع المتابعة. أدارت رأسها لتسترق النظر للحظة باتجاه الفتيان. مددتُ رقبتي لأحصل على نظرةٍ أفضل، لكنّ شيلتها كانت تحجب صورتها. استطعتُ أن أميّز رأس أنفها ولمحةً من بشرتها اللؤلؤية. كانت ذراعها تلوح خارج النافذة. كان ثمة أناقةٌ راقيةٌ بطريقة تحريكها. كان المعصم يدور وراحة اليد تنبسط. كانت ترفع يدها في الهواء كشرطيٍّ دَمِث الأخلاق يوقف السير، في إشارةٍ للشباب بألّا يتسبّبوا بإزعاجٍ عام.

لم يكُن من حاجةٍ إلى ذلك. كان الشباب في مزاجٍ جيّد، حتى عندما رُفِضَت رسالتهم. صرخت أسماء تخبرهم: «إنهنّ يقُلن ألّا تزعجوهنّ، وبالتالي يجب أن تدعوهنّ وشأنهنّ». بدا الشباب مُستمتعين. قام سائق «التويوتا» بالانحناء خارج النافذة، وضربَ على صدره. «لماذا تفعلين هذا بي؟ ألا تُدركين أنّ قلبي يحترق في صدري هنا؟» أنقدَ أسماء بعض النقود في يدها الممدودة، وطلب منها أن تعود نحو سيارة «الفيات» وتتوسط هناك من أجله.

وحال عودتها إلى سيارة «الفيات»، قالت أسماء، «ارحميه». وأخذت تُقلّد وقفته وقبضتها مُلتصقة على قفصها الصدري. «لقد اشتعل قلبه ناراً؛

يحفظه الله». أخذت أسماء ملاحظةً تتعلّق باستجابة الفتيات للطلب، وعادت أدراجها نحو سيارة «التويوتا». «قالت الفتاة في مقعد السائق «إنه يجب عليك أن تشرب زجاجةً من الماء لتطفئ لهيب قلبك».

«أخبري ذات الفم الكبير أنّ رسائلي موجهة للأميرة. يجب أن تجعليها تفهم أنْ لا شيء يُمكنه أن يُطفئ النار في داخلي».

وسار الأمر على هذا المنوال خلال الدقائق القليلة التالية، قبل أن يأخذ الشباب بإرسال الأغاني. مرّةً أُخرى، كانت أسماء هي الناطق الرسمي. وبصوتٍ رفيعٍ حادّ مليء بحفيف لوعة الغرام، كانت أسماء تُغني رغبة الشبابِ الملتاعة، من خلال لحنٍ تختلقه هناك في تلك اللحظة. أخذت الأميرة تضحك، وحينها أرجعتْ رأسها إلى الوراء بشكلٍ كامل، مُرسلةً إلى الشباب ابتسامةً ملأى بإيحاءٍ من الحميمية. إنّها حقاً جميلة. إنّها دلال!

أعرف أنّ حركاتها لا تعدو حدّ الهزل، ولكن ما الذي سيظنّه عادل بها؟ أنا لا أجرؤ حتى على النظر إليه. «هذا يكفي، دعنا نغادر».

«بعد قليل».

«كلا، الآن».

رفع يديه. «هل تذكرين الأمنية الأخيرة للرجل الذي يحتضر؟»

«لا مزيد من الطلبات، لا مزيد من المزاح». نظرتُ إلى الأمام بوجهٍ كالح ومُقطّب. «يجب أن أعود إلى السكن حالاً».

أنزلني عادل في نقطةٍ آمنة، على بُعد شوارع عدة من السكن. وحالما فتحتُ الباب، ابتسم ابتسامةً عريضة وقال: «بالمناسبة، ألم تكُن الفتاة هُناك ابنة عمّك؟» لم أجبه، فقط أغلقتُ باب السيارة وانطلقتُ بخُطاً عمياء، دون أن أحدّد اتجاه سيري، حتى وجدت نفسي ضائعة، أقف أمام مقهىً لم أكن قد رأيته من قبل. كانت بعض الطاولات في الخارج تحت تعريشات كرمةٍ منحنية. المكان هادئ، فتوقفتُ للحظة، وأنا أستمع إلى أصوات القرقرة المريحة الصاردة عن الأراجيل. ثبّتُّ نظري على الدخان الحائم بشكل غيوم بطيئة مُتبدّدة ولا إراديا لمست خدّي بالقوة نفسها التي لمسه بها عادل. وعوضاً عن أن أبتسم للذكرى، تجهّمتُ عابسةً.

كان عادل هادئاً، وفضولياً، وعاطفياً، وانفعالياً، ومرحاً، ومزاجياً في أُمسيةٍ واحدة. كان مزاجه يتطاير في اتجاهاتٍ مُختلفة، مثل ورقةٍ في مهبّ ريحٍ عاصفة. لقد حيّرني سلوكه. اعتقدتُ في السابق أنّه إنسانٌ حساس، لكنّه لاحقاً أخذ يلعقُ عصير المانجو بطريقةٍ إيحائية لا أعرف مقصده منها بالتحديد. كان يبدو أنّه يستمتع برؤيتي أتململ وأتضايق. لماذا؟ تقلّبتِ الأسئلة وتجوّلتْ في رأسي. وماذا عن دلال؟ هل عرفَها على الفور؟

أنا لستُ بحاجةٍ إلى مُضاعفات وتعقيدات وجود عادل في حياتي. سأُعدّ قائمةً بكلّ الأمور التي أثارت حيرتي اليوم وأسأله عنها؛ وحين أحصل على الإجابات، لن أرى عادل بعدها أبداً.

7

ماجد

نظراً لاستمرار عمل السبّاك في غرفة الطعام، أعدّت عائشة الغداء لنتناوله في غرفة العائلة. سمعتُ صوت الصخب قبل أن ألج. ومع أنّي أعرف كيف سيبدو عليه الأمر هناك، يبدو أحياناً أنّ الأولاد قد أصبحوا أكثر صخباً، وأشدّ ضجيجاً، مُنذ أن رأيتهم الأسبوع الفائت. «وي–وا، وي–وا، وي–وا!»

كنتُ قد قرّرتُ منذ فترةٍ طويلة أنّه من الضروري جداً أن تجتمع العائلة إلى مائدة الغداء في منزلي كلّ يوم جمعة، بحيث يُمكنني أن أحظى بإحساسٍ بالكمال، والفخر، والإنجاز بهذا النوع من الثروة: ثمانية أولاد وبنات، خمسةٌ منهم متزوّجون، أورثوني واحداً وعشرين حفيداً وحفيدة. وبينما كنتُ أقف مُتجمّداً عند الباب أراقب الفوضى أمامي، غمرني توقٌ لأن أعكس ذلك القرار. لكنّ هذا الأمر سيبدو مُخالفاً لصفات الجدّ الاعتيادية.

لم يُلاحظ أحدٌ وجودي إلا بعدما رفعت صوتي. «هؤلاء.. هؤلاء «القرود»! لماذا لا يضبطهم أحدٌ ما؟» سارع بعدها أولادي وأصهاري للترحيب بي، بمصافحتي وتقبيل جبيني.

«إنّهم فقط مُتحمّسون لرؤيتك يا بابا»، قالت ناديا، ثالثة بناتي الأربع، والوحيدة الخجولة بينهنّ. ولعلّ هذا مجرد ظنٍّ منّي؛ لأنّه لا يصدر عنها الكثير من الصخب، كما تفعل الباقيات.

«مُتحمّسون، لدرجة أنّهم لم يلاحظوا وجودي أقف هنا طيلة الدقائق المنصرمة؟»

أمّا أمل، ثانية أكبر بناتي، فطلبت من الأولاد النهوض قائلةً، «هيا، سلّموا على جدّكم».

نهض الأطفال الأكبر سناً فقط. كانت وجوههم مستطيلة وأصواتهم مفعمة بذلك الملل الكئيب المعهود من سنوات مراهقتهم، أو لعلّهم كانوا عابسين؛ لأنّهم يفضّلون أن يكونوا في مكانٍ آخر. أمّا الصغار فاستمرّوا يتراكضون في دوائر حول ثلاث حصائر من سعف النخل كانت عائشة قد وضعتها على الأرض. «وي–وا، وي–وا، وي–وا!»

قلتُ متذمّراً: «لمَ لا يجلسون هادئين وبأيديهم كتاب، مُستخدمين كلّ تلك الطاقة ليثقّفوا أنفسهم؟»

ضحكتِ الأُمّهات، وقامت ابنتي الكبرى منى بشرح حالهم: «ليباركهم الله، لا يزالون صغاراً على التفكير بأنفسهم».

قلتُ لها، «لا أريدك أن تخبريني ذلك، أنت تتحدّثين معي وكأنّه لم يكن لديّ أولادٌ من قبل، وكأنّني لم أعتنِ بك كثيراً».

أحبُّ أن أقول ذلك، بالرغم من أننا جميعاً نعرف أنني تركت القسم الأعظم من تربيتهم لأمّهم، وهي التي برهنت أنّها أكثر كفاءةً في إبقائهم بعيدين عنّي. تظاهرتُ بأني لم ألحظ تلك الابتسامات الماكرة التي تبادلتها كلٌّ من منى وأمل، بينما كانتا تجرّان الأطفال الصغار باتجاهي، وهم يركلون ويصرخون. لم تكن سرعة الأطفال في وضع قبلاتهم العجلى على خدّيّ بأقلّ من سرعة اندفاعهم بعيداً عني، منتزعين في طريقهم كلّ وسائد الأرائِك لاستخدامها في معاركهم الخشنة. كان اثنان من مجموعة الأطفال الصغار يتضاربان بسيفين خشبيين، حين دخلت عائشة حاملةً زبديةً بدا من رائحتها أنها «مرق السمك»، وبالكاد استطاعت عائشة تجنبهما، فقررتُ تجاهلهما هذه المرة.

استدرتُ لأنضمّ إلى الرجال، أبنائي وأصهاري، في الطرف القصيّ من الغرفة، لكنّي لمحت وجود شمّا، شقيقة عائشة، تجلس معهم، وتناقش موضوعاً ما مع ابني البكر سيف. كان وجهه مُحمرّاً من الامتعاض، وبالكاد يسمعها بينما كانت تُلقي محاضرةً حول أهمية إنشاء مساكن لأصحاب الدخل المحدود؛ وكأنها «الأمّ تيريزا». لماذا لا تستطيع أن تناقش وصفات الأطعمة والأطفال (حتى ولو لم يكن لديها أطفال) مع بقية النساء؟ كانت مهارات سيف الحوارية عادية وغير استثنائية، وكان يُمكنني القول إنّه الطرف الخاسر. كان سيف سيطلق العنان لغضبه المضطرم منذ أمدٍ بعيد، لولا تدخلات ابني الثاني أحمد الذي كان يستخدم مهاراته الماكرة في لعب دور المهَدِّئ.

زيارة شما هي زيارةٌ نادرة تعكّر مزاجي. لمحتها مكشوفة العنق بينما كانت تدير رأسها وتعدل شيلتها. كانت قصّة شعرها قصيرة، مثل قصة شعر الشباب، بغرض إغاظة الآخرين، دون شك. «مرحباً، عمّي». قالت شمّا مرحّبةً، لامبالية بالحديث لجانبٍ واحد، وهي تنهض لمصافحتي. تنشقتُ وأومأت برأسي لأردّ السلام لها من بعيد، مُتّخذاً قراراً بألا أسمح لهم إقحامي إلى ذلك النقاش، لأنه- ببساطة- لا يحقّ لها الجلوس في هذا الطرف من الغرفة، مع الرجال.

في بداية العام 1980م، وبعد بضع سنين من الزواج، طلّقت شمّا زوجها، متذرعةً بأنه سكّيرٌ وكسول ولا يهتمّ بها. ولتتسبّب بالمزيد من الكدر لعائلتها، لم تعد شمّا إلى منزل أهلها بعد الطلاق. وعوضاً عن ذلك، استأجرت شقة وبحثت عن وظيفةٍ في وزارة الأشغال العامة، ثم أخذت إجازةً دراسية لتحصل على شهادة في الهندسة المعمارية (أكثر المهن غير الاعتيادية للنساء) من جامعة الإمارات في العين، وعادت إلى الوزراة بعد انتهاء دراستها، لتعمل مهندسةً في قسم المناقصات والعقود. ما الذي يجعلها تُقحم أنفها في عالم الرجل، وكأنها مُساويةٌ له؟ هذا ما أريد أن أعرفه.

كنتُ آمل لو أستطيعُ أن أُعمِلَ الفكر ثانيةً فيما أخبرني به مصطفى للتوّ في المجلس، لكنّ هذا الأمر يجب أن ينتظر الآن.

فجأةً، أصبحت غرفة الجلوس الرحبة ضيّقةً مع كلّ هؤلاء البشر فيها. وها قد وصل زائرٌ جديد.

ولجت أمّي إلى الغرفة مُتعبةً، وهي تحمل عكازاً في يدها، ويبدو عليها بعض النحول، مرتديةً كلّ تلك الكمّيات من الذهب ذات التصاميم التقليدية. أبقت عينيها مُثبتتين من خلال برقعها على الأرض، مثل شاةٍ ترعى. «ماما العودة!» أخذ الصغار في الغناء والوثوب لمعانقتها، مُتدافعين حول ركبتيها كموجةٍ ضخمة، مُمرّغين وجوههم في كاحليها.

«أبعدوهم عنّي»، صرخت أمّي متذمّرةً، «هل تريدونني أن أقع على الأرض وأكسر عظامي؟» جرّت منى الأطفال وسحبتهم جميعاً نحو المطبخ، لتقوم الخادمات هناك بإطعامهم.

قالت أمل: «يُمكننا القول، بكلّ فخر، إنك المرأة الوحيدة في سنّك هذه التي لم تُعانِ من أيّ كسورٍ في عظامها».

«تف، تف»، تفلت «ماما العودة» بصقاتٍ مزيفة على برقعها، لتبعد عين الحسد! ثم أخذت بتحريك يدها أمام وجهها وفرك أصابعها، لتوفير المزيد من الحماية. «هب هب.. ملحٌ في عينك لإزالة العين الحاسدة».

«قولوا «ما شاء الله» قالت عائشة وهي تحمل زبديةً أُخرى، كانت تُشتمّ منها رائحة «مرق الروبيان».

«ما شاء الله!» أخذ الجميع يردّد في انسجام، وأخذنا دورنا الواحد تلو الآخر في الترحيب بـ «ماما العودة».

حملَ اثنان من الأطفال الكبار كرسياً وطاولةً صغيرة لأمّي التي كانت في السابعة والثمانين من العمر، ولا تُعاني سوى من تيبّس المفاصل وضعفٍ خفيفٍ في السمع. أما بقيتنا فجلسوا على الأرض. كان يتوسط الطعام صينيتان كبيرتان من الأرزّ المخلوط باللحم، وصينية من الأرز الأبيض الخالص ليؤكل مع ثلاثة أنواع من المرق وصنفين من السمك المقليّ. كان ثمة أطباقٌ توضع على حواف الحصائر ملأى بالفجل والمخللات الهندية والتمر. أمّا عُلب الكوكا كولا، والسفن أب والميراندا الغازية فكانت إلى جانبي، بالإضافة إلى إبريقين من شراب الليمبو وزجاجة صلصلة الفلفل الحار «تباسكو».

وبينما كنّا منكبّين فوق الحصائر، بدأنا باغتراف الأرزّ واللحم بيدنا اليُمنى. كانت الغرفة هادئة، وكأنّ أحدهم قد أطفأ المفتاح المسؤول عن المشاحنات التي كانت تدور سابقاً. كنا نبدو كقطيعٍ من الذئاب. عائشة كانت الشخص الوحيد الذي يأكل ببطء، وهي تُدير برقعها بشكلٍ رصين إلى أحد الجانبين مع كل لقمةٍ تتناولها. كان ثمة شيءٌ من الكياسة، أو يُمكنني القول المهابة، في الطريقة التي كانت تحوّل بها الأرزّ إلى كُراتٍ بحجم الدحاحل، ملوّثةً فقط رأس إبهامها والإصبعين اللتين تليانه.

ومع البدء بملء بطوننا، بدأت مناقشةٌ حيّة بالظهور: موضوع فشل السبّاك في إيجاد مصدر التسرّب، وخادمتانا الجديدتان اللتان تمّ توظيفهما بدل الخادمة التي أعدناها إلى الفلبين. قالت عائشة وهي تهزّ رأسها: «أنا لا أعرف كيف سأستطيع تدبّر الأمر. لقد برهنت الخادمتان على أنّهما بعيدتان كلّ البعد عن الكفاءة أو الذكاء، بالإضافة إلى استحالة تدريبهما». أيُّ نقاشٍ بين النساء حول الخدم كفيلٌ بأن يستحضر كلّ رأيٍّ عنيد، ويمكن أن يستمرّ حتى نهاية وجبة الطعام.

وباستثناء نادية، ذات الوجه الصبوح، لم يكُن مُحيّا أيٍّ من بناتي مُريحاً للعين: كانت حواجبهنّ ترتفع وتنخفض كجناحيْ خفاش، وأفواههن مُتضيّقة، وعيونهنّ مُتغضّنة ومُتجعّدة مثل البرقوق المجفّف. كانت وجوههنّ قاسية وأصواتهنّ منسجمة مع تلك القسوة، صوتٌ خفيضٌ من الضغينة وحبّ الانتقام، فحيحُ أفعى، هو ما كان يرسم كلماتهنّ الخارجة من أفواههنّ. لم أنظرْ إليهنّ. جمعتُ ملء يدي بالأرزّ الأبيض وسكبتُ فوقه مرق الدجاج؛ خلطتُ المزيج ليأخذ التجانس المناسب، بحيث لا يكون جافاً كثيراً ولا كثير المرق.

قالت أمل: «أمّي، أعتقد أنك كنتِ طيّبة كثيراً جداً مع تلك الخادمة، لقد منحتِها النقود من أجل إجراء عملية المثانة لأمّها، مصاريف مدرسة أولادها في الفلبين، حتى أنك دفعت لإصلاح أسنانها النخرة».

«نعم»، قالت أصغر بناتي نوف التي كانت بعمر مريم، لكنّها- مثل توأمها بدر- لا تزال تكافح لإنهاء المدرسة. «عندما وصلتْ، كانت أسنانها صفراء وسوداء، لكنها غادرت بصفٍّ من الأنياب البيضاء».

ضحك المراهقون بينما كُنتُ أنهي قولبة كتلةٍ من الأرزّ الطري.

كانت كتلة الأرزّ مُنسجمةً ككرةٍ في راحة يدي. وأنا أجلسُ محدودباً فوق الحصير، دسستها في فمي بحركةٍ سريعة واحدة، بينما كنتُ أنظر إلى شمّا بطرف عيني، فرفعت إصبعها وكانت على وشك أن تبدأ بتقريع المجموعة بسبب انعدام التعاطف لديهم تجاه المعدمين. لكنّ أمل قطعت عليها الطريق قائلةً: «لا تنسوا الثياب! لقد أعطيتِها يا أمّي الكثير من الملابس...»

«والأحذية، أيضاً»، أضافت منى وقد احمرّ وجهها وهي تتذكر تلك الخادمة الخائنة. «وفي النهاية، ماذا فعلتْ - ما الذي فعلته تلك الفتاة المخادعة - لتكافئنا على صنيعنا معها؟» توقفتْ لبُرهة، لتراقب الوجوه المذهولة حولها، على الرغم من أنّها قصةٌ يُمكن للجميع أن يُعيد سردها. «أخذتْ تُلاطف الرجال في مسكنها خلف المنزل، أيضاً. تحت سمعنا وبصرنا مباشرةً!»

قالت عائشة: «ما زلت لا أستطيع أن أفهم لماذا فعلت هذا بنا».

«لأنّها أفعى»، قالت نوف وهي تضحك كالممسوسة. لم يصدر عن الآخرين أيّ ردّ فعل، وسادت فترةٌ من الصمت، مع خفوت

المجزرة الكلامية. كان الصوت الوحيد المسموع هو صوت أمّي تطحن الثلج بأسنانها، وهي العادة التي اكتسبتها في اليوم الذي اكتشفت فيه وجود الثلج. كانت أمّي هادئة، وهذا هو أسلوبها في تصفية المعلومات، حيث تحتفظ بما يقوّي معتقداتها، وتطرح الباقي بعيداً. وعندما يكون من حاجة لتقديم ملاحظة، فإنها تقوم بها بصوتٍ نابع من الحكمة الذاتية. أخذت أساورها تصلصل، بينما كانت تتحرّك على كرسيها.

«من الأفضل دائماً أن تكون لديك خادمةٌ غبية من أن تكون ذكية»، أعلنت أمّي. فتح إعلانها هذا جولةً أخرى من النقاش، لكنّي لا أستطيع أن أتابعه؛ لأنّ الجميع يتكلّمون في الوقت نفسه، لذلك شغلتُ رأسي بما سبق أن قاله لي مصطفى.

«مُلحّن»، قالَ مصطفى، «هذا يعني أنّ أحدهم يرغب في أن يُصبح مُطرباً».

«ما الذي تعنيه بأحدهم؟ توقّف عن التكلّم بالألغاز، وأخبرني!»

بدأت الشعرات على رأسه بالوقوف. غمسَ أصابعه في كأس الماء، وأعاد الشعرات إلى مكانها. «دلال، ابنتك».

«كيف يُمكن أن يحدث ذلك؟ ألا تعرف مقدار الفضيحة التي ستتسبّب بها؟ ما الذي تحاول إثباته؟» ثم سألتُ مصطفى سؤالاً سخيفاً وبلا معنى، في الوقت نفسه: «كيف يُمكن لأمّها أن تسمح بذلك؟»

آه، تلك الزُهرة! لقد كانت طفلةً منبوذة. تيتّمت في سنّ الخامسة عشرة، يوم توفي والداها في حادث سير، أخذها بعدها جدّاها لأمّها وهُما راغبان عنها، وقاما بإطعامها وإكسائها. قام جدّاها بواجبهما في توفير سقفٍ يؤويها. كانا يحرصان على الإشارة إلى تضحياتهما يومياً. أنا أنقذتها من كلّ ذلك.

«لا أعتقد أنّه يجب أن تُصاب بالهلع يا بيه»، قال مصطفى بصوتٍ بالكاد يُسمع. «أنت تعرف فرص دخول هذا العمل».

«كلا، لا أعرف».

نظرَ إليّ. «حسناً، إنّها ضئيلة».

«ما نسبة ضآلتها؟»

«صغيرة جداً، جداً. دقيقة. يُمكن أن أقول بحجم النقطة».

«صغيرة لدرجة أن تظهر في برنامجٍ تلفزيوني، هنا، في دبي؟». ضربتُ الوسادة على بطني، وأمالَ مصطفى رأسه إلى الوراء كمن تلقّى ضربة. «لقد تدبّرتْ أمرها، ألم تفعل؟» دلال ماجد: هذا هو الاسم الذي استخدمته في العرض. أعتقد أنه يُفترض بي أن أكون مُمتناً أنهما لم تستخدما اسم عائلتي. ومع ذلك، شعرت أنّني مكشوف، وهذا الأمر لم يفعل شيئاً ليُعزّي كبريائي المجروح جرّاء عصيانهما أوامري. «لقد استمرّ الأمر ثلاثة أشهر. كانت تظهر في ذلك العرض كلّ ليلة خميس. يا للخزي!»

«رجاءً يا بيه، هدّئ أعصابك»، قال مصطفى، «إن شاء الله، سينتهي هذا الموقف برمّته إلى لاشيء».

«كيف يُمكنني أن أهدّئ أعصابي؟» صرختُ عالياً، وصالبتُ ذراعيّ وأنا أستشيطُ غضباً، فيما مصطفى يُحدّق في قدميه، ويتلهّى بإدارة إبهاميه، بينما كان ينتظر اللحظة لتمرّ، لكنّ رأسي كان يطفح بصور زُهرة.

كانت قطّةً عمياء، هذا ما كانت عليه. لقد علّمتها أن تفتح عينيها وتنظر للعالم. لقد لملمتُ شظاياها في صدري وبنيت الثقة داخلها، الثقة التي تستخدمها الآن لإيذائي، لإفساد ابنتنا. هذه هي حقارة الموضوع.

لم تضطرب زُهرة عندما اكتشفتُ أنّ ابنتي كانت تُغنّي في بثٍّ تلفزيوني على الهواء. عندما أثرتُ معها هذا الموضوع، كان ثمة صريفٌ ضجرٌ في صوتها، وأنا متأكد أنّها كانت تكبح تثاؤبها. قالت حينها: «لا يُمكنك أن تُملي عليّ ما أفعله، أنا لم أعد متزوجةً منك»، أو شيئاً من هذا القبيل. استشطتُ حينها غضباً، واتخذتُ قراراً في تلك اللحظة بالذات يقضي بالتوقّف عن إرسال النقود إليها. كنتُ أنتظرُ كلّ يومٍ تلقّي اعتذارٍ منها. تخيّلتها تتذلّل وتعِدُ ألا تقف ضدّ كلمتي ثانيةً. مرّت الأيام وأنا أنتظر، ولم يحدث شيء.

كان عقلي يدقّ كساعةٍ مختلة الوظيفة، بينما كنتُ أحاول أن أستنتج بالضبط متى فقدت زُهرة احترامها لي. وكأنّما لم يكن بيننا تاريخ، وكأنّما الفتاة التي تظهر على الشاشات تحت الأضواء

اللامعة ليست ابنتي، معروضة لأيّ رجلٍ كي ينظر إليها ويحلم بها بطريقةٍ شهوانية.

بعدها بأشهرٍ، أخبرني مصطفى أنّها أخذت دلال وغادرت الدولة، وأنّهما تعيشان في شقةٍ في القاهرة.

«كيف تتدبران أمورهما؟ ثمة إيجار الشقة، ونفقات الطعام والملابس، والمواصلات. أنا لم أرسل لها درهماً منذ ما يزيد عن السنة».

«حسناً، يُمكنني التحقّق من هذا الأمر».

زممتُ شفتيّ وثبّتُّ عينيّ على مصطفى وهو يحني رأسه. «اسمعني، لا يُمكن أن نسمح لهما بأن تخرجا عن السيطرة».

ركّز مصطفى اهتمامه ونهض واقفاً كجنديّ بارع. وبينما كانت جمجمته عرضةً لتيّار مكيّف الهواء، بدأت شعراته تتقافز وترتجف كرسومات «الرجل العصا» الذي يتمّ تشغيله بالبطارية. ابتعد مصطفى عن تيّار الهواء ومسّد شعره معيداً إياه إلى وضعه الطبيعي: «يجب علينا أن نكبح جماحهما يا بيه».

«نعم، يجب أن نُبقي أعيننا عليهما»، أخذت أخاطب نفسي الآن، وأفرك صدغيّ بأصابعي الملوثة بالطعام، وأنا مذهولٌ ممّا حولي. التصقت بعض حبيبات الأرزّ برأسي، وتقاطر خطٌّ من المرق على جانب من وجهي. تجمّدت عائلتي من الدهشة لرؤية ذلك المنظر، لكنّهم لم يعلّقوا بأيّ شيء، لعلمهم أنني مُستغرقٌ في تفكيرٍ عميق.

كانت أمّي هي من كسر الصمت، من خلال ضربها عظماً في طبقها. وعندما لم يخرج نخاع العظم جرّاء الضربة، أخذت تنخس العظم تحت برقعها وتمتصه. كان الصوت يُشبه صوت ماء يُشفَطُ إلى أسفل بالوعة. أسرعت عائشة إلى الحمّام لتجلب لي منشفة رطبة، استخدمتُها لأمسح وجهي. استؤنفت الثرثرة، وكأنّ التلفّظ المندفع بجملةٍ غامضة وتلويث وجهي كانا أحداثاً طبيعيّة للغاية. هذه المرّة كان الحديث يدور حول مريم.

«لماذا يجب أن تدرس في الخارج؟» قالت نوف معترضة.

«لأنّها أذكى منك»، قال بدر. «إذا حصلتِ على المستوى نفسه من العلامات، يُمكنك حينها الذهاب إلى الخارج أيضاً للدراسة. أنتِ حتى لا تعرفين ما الذي ترغبين في دراسته».

«هذا ليس صحيحاً»، قالت نوف.. «ما أرغب في دراسته موجودٌ في الخارج، في لندن». رفعت نوف يديها إلى وجهها ورسمت مربّعاً حول عينيها. «أريد ان أصبح مُصوّرةً فوتوغرافية، وأعمل لمصلحة واحدةٍ من تلك المجلات التي ترسلك إلى كلّ أصقاع العالم، إلى أماكن لم تطأها قدم البشر بعد. لقد رأيت أوّل البارحة صورةً لأجمل أدغالٍ على الإطلاق. كان ثمة ضوءٌ يمرّ عبر الأشجار – وهو أمرٌ لا يُمكن أن يلاحظه إلا من يحمل عين مصوّرٍ فوتوغرافي – وحينها فكّرت، نعم، هذا ما أُريد أن أكون».

«أنتِ تعرفين أنه لا يُمكن إزالة طين الأدغال باستخدام مستحضرات إزالة المكياج؟» قال بدر. «حينها يجب أن تستخدمي مُنظّف الحمّامات. ولكن يجب أن تكوني حذرة، لأنه يُمكن أن يتسبّب بتقشير بشرة وجهك». عندها أخذت نوف تتلمّس وجنتيها. «وأيّ نوع من أحذية الكعب العالي سترتدين: الكعب المستدق أم المسطح؟» قال بدر وهو يضحك ضحكةً خافتة.

«كعوب عالية؟ مزيل مكياج؟» قلتْ. «أيّ حديثٍ هذا؟ كيف تعرفْ عن هذه الأمور»؟

مدّت نوف لسانها لبدر تهكماً، وشنّت عليه هجوماً قوامه الصفعات الخفيفة. وعوضاً عن صدّها، بقيت يدا بدر مطويّتين وذابلتين في دفاعٍ لا طائل منه. وعندما لمح بدر مسحة الأسى في وجهي، سَعَلَ وحاول أن يُخفي ابتسامته الحمقاء.

«هل يُمكن أن تُرسلني إلى لندن لأدرس التصوير الضوئي، يا أبي؟» سألت نوف.

كان ثمة سمك سردين أمامي، التقطتُّ واحدةً، وأخذت أنزع الجلد عن اللحم.

«لا جدوى من سؤال أبينا مثل هذا السؤال، عندما تكون درجاتك مُتدنّية جداً». قال أحمد.

تجاهلته نوف: «هل يمكن ذلك يا أبي؟»

«تشب! تشب! اصمتي!» قال سيف: «نحن لا نُرسل بناتنا للدراسة في الخارج».

«تماماً مثلما لم نُرسل مريم إلى القاهرة؟» قالت نوف. «أنت تظنّ أنّها ذكية وأنني غبية، أليس كذلك؟ قُولوها، جميعكم!»

نَدّتْ عن أمّي آهةٌ للمرة الثانية التي يُذكر فيها اسم مريم. رفعت كلتا يديها نحو السماء وقالت: «يا الله، أعدها لنا سالمةً مُعافاة». كان صوتها ناعماً كقطرات المطر. «أبعِد الشيطان عنها. يا الله احفظها من شرّ الشيطان». تجشّأت أمّي، ثم، وباندفاعةٍ مفاجئة من القوّة قالت، «ماجد، يكفي أفكاراً عصرية؛ إرسال الفتيات ليعشن بعيداً عن كنف عائلاتهنّ، مع وجود الغرباء حولهنّ. يجب أن تُعيد مريم إلينا في الحال!»

«كلا»، صرخت شمّا مُحتجّةً، وهي تهزّ رأسها. «سيكون ذلك في منتهى القسوة. لدى مريم إمكانات كبيرة».

«تنتمي الفتيات إلى المنزل»، قالت «ماما العودة» مُصرّة.

«الوضع حالياً ليس كما كان في السابق» قالت شمّا، مع تنهيدة انزعاج ناجمة عن جهل المرأة العجوز. «النساء اليوم في الخارج، يعملن جنباً إلى جنب مع الرجال. لقد أثبتن أنه بمقدورهنّ الوقوف على أقدامهنّ».

أومأت عائشة برأسها، الأمر الذي جعلني أتساءل أيّ نوع آخر من الهراء تغذّيها به أختها عندما تكونان بمفردهما. لا أُحبّ

تأثير شمّا على زوجتي، وتسميمها عقلها، لذلك قمت بصياغة ملاحظةٍ عقلية للتكلّم مع عائشة لاحقاً بخصوص هذا الموضوع. لن أمنعها من رؤية أختها، إنما سأجعل زوجتي تفهم أنّ رؤيتها لأختها أمرٌ يُثير استيائي.

«يجب أن نقبل أن المرأة تستطيع أن تكون مُنتجةً في مكان العمل، بالإضافة إلى حفاظها على منزلها بالوجه الصحيح، وإنجابها الأطفال».

كعادتها دائماً في خلط الدور المنوط بالنساء. كنتُ على وشك أن أبدأ بتوبيخها، حين سبقني سيف إلى ذلك. «مع فائِق احترامي، يا خالتي، كيف يُمكنك أن تعلمي ذلك؟ ليس لديك أطفال». أسكتتها جلافته، وتوجّب عليّ كظم الضحكة في مؤخرة حنجرتي، بينما كنتُ أمدّ يدي لأتناول سمكة السردين الثانية.

«حسناً، متى ستُعيدها.«قالت «ماما العودة».

تمالكتُ أعصابي وتجاهلت إلحاحها، فهي أُمّي في كلّ حال.

قالت منى: «لقد درسَتْ سنتين في كلّية طب الأسنان هنا، في جامعة عجمان. لا أفهم لماذا لمْ تستطع أن تُكملَ دراستها هنا».

«نعم يا أبي»، قالت نوف وهي تميل برأسها بحماسة، وعيناها ترفرفان فوق وجهي كذبابةٍ فوق جرحٍ متقيّح. «لماذا أرسلتها إلى القاهرة؟»

لستُ متأكداً لماذا يريدون إعادة مريم. وكأنّهم ليسوا هُم من لم يُعيروها أيّ اهتمام طيلة تلك السنين التي عاشتها معنا بعد وفاة والدها. «إنّه الشيء الوحيد الذي سألتني إياه». طيلة ذلك الوقت، لم تكنْ مريم أكثر من حضورٍ كئيب. كيف أخبرهم أنني وافقت حتى لا يتحتّم عليّ أن أنظر إلى ذلك الوجه الحجري وتلك العيون الناضحة بالاتهام دائماً؟» بالإضافة إلى ذلك، كانت دائماً الأولى في صفّها»، قلتُ وأنا أنظر إلى أمّي لأتأكد من إدراكها أن هذه هي نهاية هذا النقاش الخاص بمريم. ومن خلال شقوق برقعها، كان يُمكن رؤية عينيها تضيقان وكأنها كانت تتألّم من برودتي. وأضفت: «إنها تُبلي حسناً هناك، وسوف ترجع عندما تنهي دراستها».

واسى أحمد «ماما العودة» من خلال إيماءةٍ رزينة برأسه. «أبي يعرف أفضل من الجميع. يجب أن تتركي أمور العائلة له».

فتحت «ماما العودة» عينيها بحركةٍ مفاجئة. التقطت العظم من صحنها وحملته كأنّه عصا.«حسناً، أنا أعتقد أنها يجب أن تكون هنا»، قالت مُتأففةً، ومسحت الوجوه حولها بحثاً عن استجابةٍ ما. وعندما لم تحظَ بأيّ إجابات، تنهدت ورفعت رأسها. غاصت عيناها، كأنهما ستائر تتدحرج على طول نافذة تنسدل على أفكارها. «أدعو الله أن يُبقي كلّ ذلك الشرّ بعيداً عنها»، قالت أمّي متأوهةً، ثمّ، وبصوتٍ مُتعب، أخذت تتلو دعاءً لأخي المتوفى

حارب. أبقيت ملامح وجهي خاليةً من أيّ تعبير. وحالما انتهت أمّي من دعائها، حشرتْ ذلك العظم في فمها، مُزدردةً ما تبقّى من نخاع العظم، عبر شفطةٍ قويةٍ كلاعبٍ رياضيّ.

الصوت عبارة عن إشارة. أخذ أحفادي ينقلبون عصبيين حين بدأت أمّهاتهم يناقشن عاداتهم المتعلّقة بالخروج إلى بيت الخلاء، مع إيلاء من لديه مشاكل في الإمساك اهتماماً خاصاً. لم يذكر أحدٌ خالد وعرض الزواج المرفوض. تمّ تأجيل هذا الأمر لوقتٍ آخر. همس بدر شيئاً في أُذن نوف التي وكزته هذه المرة بدون رحمة. تجاهلتُ الصرخة العالية التي أطلقها بدر وحاولتُ أن أجد السلوى في الاضطراب والمشاحنات، في العتاهة والتفاهة، في رياء هذه العائلة. كلّ شيء كما يجب أن يكون، مُسالمٌ وتحت السيطرة، وعلى كلا الصعيدين: في خصوصية منزلي، وبعيداً عن النظرة الفاحصة للمجتمع في الخارج.

8

دلال

تُطبِقُ عليك إمبابا بهوائها الثقيل من الغلوّ. تغصّ شوارعها بتيارٍ مُطردٍ من الثرثرة والاعتراضات. يشتكي رجلٌ ذو أسنان ذهبية من ارتفاع سعر الوقود، وهو ينتظر الميكانيكيّ ليبدّل له زيت سيارته في ورشة إصلاح السيارات المفتوحة الأبواب. وبجانب الجدران المسودة، كان ثمة عُصبةٌ من الأولاد الصغار الصاخبين، يلعبون ويتدافعون بالمناكب، مع ضوضاء عالية، مُحاولين طردَ صرير الطفولة من أصواتهم.

انزلقت أمّي من جانبهم، حتّى دون أن تنظر إليهم. كانت تبدو وضّاءةً وأنيقة ولا تنتمي إلى هذا المكان، ببزّتها الكحلية اللون، والمؤلفة من سُترةٍ ذات أزرار تحتضن وسطها الضامر، وتنورةٍ تصل إلى تحت ركبتيها تماماً. تابعت أُمّي سيرها، عَبَرتْ مبنىً نصف مكتمل ومقهىً مؤقتاً على ناصية الشارع: ثلاث كراسٍ منخفضة كانت مصفوفةً بجانب قدرٍ موضوعٍ على موقدٍ غازيّ بدائي مغروس في مكعّبٍ إسمنتي ناتئ من الرصيف، دون منطق أو حِسّ. بالنسبة إلى الأجواء، كان «راديو ترانزستور» صغيراً يطلق واحدةً من تلك الأغاني الراقصة الشائعة من الموسيقى الشعبية.

كنتُ أتبع أمّي، وأنا أستشيطُ غضباً مع توقّع أن ننتظر لساعات من أجل موعدٍ لن يأتي. هَدَرَ باصٌ بقربنا، كان مُكتظاً بذلك الخليط الاعتياديّ من الأطراف المهروسة والوجوه المضغوطة باتجاه النوافذ، مع فيضٍ من البشر المتعلّقين بالباب المفتوح في الخلف، وأولئك الجاثمين على سطح الباص. كان الغطاء الخلفيّ للمحرك مفتوحاً، لتجنّب الإحماء الزائد للمحرك. غطّت سحابةٌ رعدية سوداء من الأدخنة رَجلاً مع حمولة عربته من الفجل، عربته التي كان يجرّها حمارٌ ذو وجهٍ لطيف. ومع سماعي رنيناً طارئاً، استدرتُ لأرى صبياً مُسرعاً نحوي على دراجته؛ كان يوازنُ على رأسه طبقاً يحوي أكداساً من الخبز المصريّ الطازج. انحرفت العجلة الأمامية نحو اليمين، اصطدم بي جانبياً بينما كان يُعدّل وضعية الجزء العلويّ من جسمه نحو اليسار، كيلا يقع الطبق على الأرض. وقبل أن أتمكّن من الإتيان بأيّ ردّ فعل لما حدَث، انهال عليّ شتماً، دون أن يوقفَ دراجته.

«أغلقْ فمك، أيّها الحيوان»، رددتُ عليه، وأنا أهزّ قبضتي متوعدةً إياه. لكنه كان قد ذهب، شاقاً طريقه عبرَ طوفان المشاة المتثاقلين، والبائعين المنادين على بضائعهم، والعربات التي تجرّها البغال. لمحتُ شاباً طويلاً نحيلاً كان دائم الارتداء للقميص المخطّط نفسه. كنتُ قد رأيته حتى الآن في ثلاث مناسبات مختلفة: مرّتين في إمبابا، ومرّة خارج مبنى الملحّن. من هو هذا الشاب، وما الذي يريده؟ وعندما ذكرتُ أمره لأمّي،

طلبت مني أن أكفّ عن التفكير الأحمق. كنتُ على وشك أن أُشير إليه، عندما اختفى وسط الحشود.

كان الميكروباص بجانب شارع «السودان» تماماً، مستعدّاً لأن ينطلق في رحلته. كان ثمة خمسة أشخاصٍ يقفون بجانب باب الراكب الأمامي، لكنّ السائق لم يكن يسمح لهم بالصعود، لأنّه كان قد حجز تلك المقاعد الثمينة لنا، تماماً كما كان يفعل طيلة الأسبوع الفائت. أسرعتُ لألحق بأمّي.

كان للسائق حسنين حضورٌ مُخيف. وليسدّ الباب، قام- بكلّ بساطة- بدفع صدره الشبيه بصدور المصارعين، تاركاً الركّاب خائفين من عمل أيّ شيء، عدا التوسّل لطبيعته الفُضلى، والرجاء منه أن يسمح لهم بالصعود، وهم يشتكون بسبب حاجتهم الماسة للوصول إلى مقصدهم. لكنّ حسنين لا يتراجع: «هذه المقاعد محجوزة»، قال نابحاً بصوتٍ عالٍ. وبالرغم من أنّه يفترض تطبيق سياسة من يصل أولاً يصعد أولاً، فإنّ أحداً لا يجرؤ على مناقشة هذه النقطة مع حسنين. أمّا الركّاب الخائبون فتجمّعوا جانباً وأخذوا يمسحون الطريق بحثاً عن «ميكروباص» آخر، بينما كنّا ننتقل أنا وأمّي بحذرٍ شديد إلى مقدّمة الصفوف.

جلستْ أمّي بجانب السائق، بينما جلستُ أنا بجانب النافذة، وأبقيتها مفتوحةً لأطرد نتانة التعرّق الآسِن والأنفاس المتخثرة. رحّبَ بنا حسنين بابتسامةٍ خجولة، ثم- وبعدما أطبق أصابعه

بإحكامٍ حول عجلة المقود- قاد السيارة بصمت، متظاهراً أنه لم يلحظ الطريقة التي كانت تصطدم بها ذراع أمّي بذراعه في كل مرّة تقع عجلة الباص في واحدةٍ من حُفر الطريق. كانت رحلةً قصيرة، وشقّت ابتسامةٌ خجولة أُخرى شفاه حسنين بينما كان يودّعنا وعيناه تلمعان مُتطلّعاً إلى رؤيتنا ثانيةً، عندما يأتي ليقلّنا في وقتٍ لاحق.

كان لدى السكرتيرة خصلاتٌ من الشعر الأشقر الباهت، تتناسب ولون بشرتها الرمادي. نظرتْ إلينا بفمٍ مفتوح، وكأنّنا قاطعنا تيّاراً من الأفكار المعقّدة التي كانت تتشكّلُ في رأسها. كانت ثمة قطعة من العلكة الوردية تنتشر فوق لسانها. أومأت إلينا برأسها، مشيرةً إلى وجوب أن نجلس في المقعد، وكأنّها لم ترنا من قبل.

كما هي العادة دائماً، كانت رائحة الانتظار العصبيّ تثقل كاهل الهواء الساكن؛ وتنهدتُ لما سنلاقيه من الانتظار الثقيل أمامنا. ربما لم يكن عليّ أن أسمح لعقلي بأن يُبحر بعيداً، ويمتلئ بالصور المشرقة للمعرفة الآنية، والشهرة السريعة. بين الفينة والأخرى، كانت تتمّ المناداة على واحدةٍ من المرشحات المفعمات بالأمل، مع أمّها. كانت الدقائق تتجمّع وتمرّ بطيئةً، بينما كنتُ ألجأ إلى مخزوني من الصبر. ومع ذلك، كان ثمة بعض العزاء في أنّ هذا الملحّن يصرف الكثير من الوقت مع كلّ فتاة. كان يُمكن- في بعض الأحيان- رؤية تعبيرٍ ضخم عن النصر فوق وجوه الأمّهات المغادرات، بالرغم من أنّ البنات كُنّ يُغادرن دائماً وهُنّ سادرات،

كأنهنّ غير متأكدات كيف جرت المقابلة. إنما، وفي معظم الأوقات، كانت الأمّ وابنتها تغادران وقد بدا عليهما الاضطراب، الأمر الذي يجعلني أتساءل ما الذي أخبرهما به الملحّن.

مرّةً أُخرى، ارتدت زُهرة قناع تصنُّعِها الراقي، وأخذت تحاول أن تقنع السكرتيرة بموهبتي:«إن صوت ابنتي دلال استثنائي. فيه جودةٌ نادرة، بحيث إنّ ملحناً كبيراً مثل شريف بيه سيميّزه فوراً». ابتسمت بنعومة. «ولكن، بالطبع، يتعيّن عليه أن يسمعه أولاً».

لم تتأثر السكرتيرة. نفخت بالوناً مُتقناً من اللُبان. انفجر البالون، وقامت بلعقه مباشرةً إلى فمها، قبل أن يلتصق بشفتيها.

«ابنتي أيضاً لديها تلك الجودة النادرة نفسها»، قالت إحدى الأمّهات بلكنةٍ ريفية.

«ليس بهذه النُدرة»، ردّت عليها زُهرة بحدّة، واستدارت ثانيةً إلى السكرتيرة.

«انظري»، قالت السكرتيرة، «أنا هنا أتبع الأوامر فقط. قد تعتقدين أنّه لا يفعل شيئاً سوى الجلوس في الداخل، ينتظرك. لكن شريف بيه فنان. هو أيضاً لديه ألحانه التي يحتاج إلى صياغتها. هذا هو عمله، وهو يقوم به في الوقت الذي يجري مقابلاته. لذلك- وباختصار- هو رجلٌ مشغول». قالت عابسةً. «ولكن يُمكنك الانتظار إذا أردت».

أخذتُ أُحدّق بسكرتيرة شريف نصر، وهي محشورةٌ خلف مكتبها المضلّع. إنّها لا تُسهّل الأمور علينا، وللمرة المائة أخذتُ

أتساءل إذا كانت تُضمر بعض الحقد تجاهي، بسبب ذلك التعليق الذي همستُ به لأمّي في أول يومٍ من أيام انتظارنا: كنتُ قد نعتُّها آنذاك بـ «البقرة الكسولة». كانت عيناها المتهدلتان خاليتين من أيّ تعبير، وكشفتها السُفلى تتمطّطُ على طول المسافة نحو ذقنها، بينما كانت تمضغ لبانها. لم يندّ عنها أيّ رد فعل آنذاك، أمّا الآن، فأنا متأكدة أنها كانت قد سمعتني، وقررتْ أن تجعل حياتنا صعبة. استمرت طيلة الأسابيع الثلاثة الماضية تقريباً في رفضنا وصرفنا للمنزل. لم تنجح أيٌّ من محاولات أمّي في كسب ودّها.

حاولت أمّي استمالتها في البداية من خلال النُكات الخفيفة والكلمات اللطيفة؛ ثم جاء دور الهدية: مرطبانان صغيران من جبنة الدهن «كرافت»، وهو جزءٌ من إمدادات اللذائذ الغذائية التي شملت شوكولاتة «ماكنتوش» وبسكوت الزبدة الدانمركي الذي تمّ إحضاره خصيصاً من دبي (يعتقد الكثيرون من سكان القاهرة أن أيّ شيء يأتي من خارج البلاد هو ذو جودةٍ أفضل). كان ثمة ومضةٌ من الشك في هاتين العينين البقريتين، حيث حملت السكرتيرة المرطبان نحو الأعلى، لكن أمّي شرحت لها بسرعة إنّها جبنة طازجة تمّ جلبها قبل يومٍ واحد بواسطة أحد الأقارب الخليجيين الأثرياء الزائرين. «وانظري»، أضافت زُهرة، وهي تلتقط المرطبان الآخر. «عندما تستهلكين الجبنة داخله، يُمكنك استخدام المرطبان للماء، وحتى للشاي». ونقرت بإصبعها على طرفه. «جيّد، إنّه زجاجٌ قوي».

تنهدتُ وسحبتُ مجلتي، أُقلّب الصفحات وصولاً إلى منتصف المجلة اللماع، حيث تنتشر صور مونيكا فياض في صفحتين. كانت تحضن ركبتيها، وهي ترتدي ثوباً فضفاضاً بلونٍ ورديّ فاتح، وشفاه مضمومة ملأى بالرغبة والمنى. أخذتُ أحدّق بغيرةٍ إلى أنفها الصغير، وأفرك ذلك البروز الصغير الذي يشوّه استقامة أنفي. اعتادت مريم أن تشهق من الدهشة كلما أُخبرها أنّ أوّل شيء سأصلحه بعد حصولي على قدرٍ كافٍ من النقود هو أنفي.

«ميزةٌ شخصية»، كانت تصرخ. «إنّه يعطيك ميزةً شخصية».

كنتُ أضحك وأقول، «ميزة شخصية للفتاة الفقيرة، يا حلوتي. ما أُريده هو الميزة الشخصية للفتاة الغنية».

«ولكن يجب ألا تتلاعبي بما منحك الله إياه، وهو يبدو رائعاً، حتى مع وجود ذلك العيب الصغير»، قالت مريم بإصرار.

كنتُ أجيبها دائماً: «لا عيوب للناس الأغنياء والمشهورين!»
«قنبلة لبنان: طفولة مونيكا المعَذَّبة». هكذا بدا عنوان المقال. في الثالثة من عمرها، كانت تُعاني من الكوابيس التي جعلتها تستيقظ وهي تنضحُ عرقاً، وفي السابعة، وقعت من على السلالم وكسرت ذراعها، وفي العاشرة، وقع لها حادثٌ فظيع! أضاعها والداها لمدة ساعة كاملة في مطعم بالهواء الطلق، بينما كانوا في طريقهم لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في الجبال. وكُلما قرأتُ

أكثر، سخرت من سخافة هذه الأحداث، من خلال طقطقة لساني. أين هو الألم؟ أين هي المأساة؟ لماذا لا يمكنهم الكتابة عن شيءٍ أكثر فائدة؟ على سبيل المثال: ما هي الخطوات التي اتبعتها لتصبح شهيرة؟

أغلقتُ المجلة وانحسرتُ في الكرسيّ، أنظر بوجهٍ كالح إلى الناس في الغرفة المستطيلة الواسعة. كنا نجلس مقابل بعضنا البعض، في كراسٍ مرتّبة على طول الجدران. كان ثمة امرأةٌ سمينة تحيك الصوف بهدوء، واثنتان أخريان تتصفحان أوراق الجرائد. أمّا الأخريات فلم يكُنّ يفعلن شيئاً سوى التحديق في المجهول، كانت عيونهنّ تطفح أحلاماً، في حالةٍ من الصبر البديع.

انحنيتُ مقتربةً من أمّي وهمستُ، بصوتٍ حادّ وسريع، «لمَ علينا أن نجلس طيلة الوقت في مكانٍ واحد؟»

«ما الذي تقترحين أن نفعله»، قالت ذلك وفمها بالكاد يتحرك. «أن نعود إلى دبي وأيدينا فارغة، كفاشلتين؟»

«كلا، ما أعنيه، لماذا لا نحاول في الوقت ذاته مع مُلحنين آخرين؟»

هزّت برأسها. «انظري كم استغرقنا من الوقت حتى استطعنا أن نصل إلى هنا أخيراً. يتمتّع شريف بيه بتأثيرٍ أكثر مّما يمكنك أن تتخيلي، وسوف نظفر به في نهاية المطاف». كان لدى أمّي ثقةٌ كبيرة به، مُلحّن النجوم الذي لم يُقدّم شيئاً يستحقّ العناء طيلة الخمسة

عشر عاماً الماضية. يبدو أنها لا تعير موضوع لجوئه إلى تلحين الدعايات التجارية الغنائية اهتماماً، والتي أثبتت أنّها بديلٌ يدرّ دخلاً جيداً، بينما هو ينتظر الإلهام ليعود، كي يُمسك بخيوطه من جديد.

تنهدتُ وهمستْ، «لا يوجد أمل يا أمّي، في الحقيقة. لا أستطيع بعد الآن أن أجلس ساكنة وأنتظر. يتوجّب عليّ عمل شيءٍ آخر». بالطبع، لم أكن أعني ما أقوله، لكنني كُنت أتساءل ما إذا كان ذلك سيدفعها إلى التفكير في حلٍّ أفضل.

«لا يُمكنك أن تفعلي شيئاً ذا قيمة»، قالت أمّي. «أنت لم تُكملي دراستك حتى».

لأوّل مرّة، أردت أن أقتحم ذلك الباب وأطالب بأن يسمع صوتي، لكنّ الأمور لا تجري على هذا النحو. وكحال كلّ روحٍ حبلى بالأمل في هذه الغرفة، أحتاج إلى شخصٍ يتكلّم بشأني. يجب أن أُبقي البراءة الجليّة لعينيّ اللتين تشبهان عينَيْ الظبية، وأن ألعب دور الغزالة المتأنّقة، لأُثير غرائز الحماية لدى الملحّن، بينما تُعمِلُ أمّي سحرها لتغرس فيه الإعجاب والاهتمام المشوب بالرغبة. قد ينجح هذا الأمر، وقد لا ينجح.

أخذتُ أراقب الشاب الوحيد في الغرفة؛ كانت تفاحة آدم- بحجم يُقارب حجم ثمرة البرقوق- تنتأ من رقبته الشبيهة برقبة «ابن عُرس». كان يبدو غريباً وسط هذا الحشد من فِرَق الأمّهات والبنات. كان، بين الفينة والأُخرى، ينحني للأمام، ثمّ ينهض

نصف نهضة، ويحوم حول المقعد، وينتفض بشكلٍ خفيف، وكأنّه كان خائفاً من أن يكون الكرسيّ قد علق بمؤخرته. كان تصرّفه هذا يدفعني إلى الضحك بفتور، لكنها ضحكةٌ قصيرة للغاية، أعود بعدها إلى رحاب الملل المضجر من الانتظار.

فُتِح باب مكتب شريف بيه، وخرجت منه إحدى الأمّهات تدفع ابنتها خارجاً؛ الواضح أنهما كانتا مُحتدّتين من حصيلة الاجتماع. اعتدلتُ في جلستي وكُلّي تشوّف، ونظرتُ إلى السكرتيرة التي كانت تخربش على ورقةٍ أمامها. «أعتقد أنه حان الوقت لدخولنا»، قالت أمّي مخاطبةً السكرتيرة. «أنتِ لا تعلمين كم مضى علينا من الوقت ونحن ننتظر بصبر...»

رفعت السكرتيرة يدها. «لستِ أنت من يتّخذ القرارات هنا».

«نعم، ولكنك ستوافقين على أنّ هذا الوضع برمّته قد وصل إلى حدودٍ سخيفة»، قالت زُهرة، مع ابتسامةٍ خفيفة. «كلّ هذه الأسابيع، هذا أمرٌ لم يُسمع به من قبل».

«أنا لا أحسب الوقت، سيدتي»، قالت السكرتيرة.

«حسناً، ربما يجب عليك ذلك، سيدتي»، قلتُ وأنا أضع قبضة يدي على خصري.

«أنتِ، أيّتها الشابة، يجب أن تتعلّمي كيف تضبطين مشاعرك»، قالت السكرتيرة مُحذّرةً، وهي تلوّح بقلمها الرصاص تجاهي.

«ومع ذلك، فهي على حقّ»، قالت إحدى الأمّهات الجالسات في نهاية الغرفة. «يجب أن تحترمي وقتنا».

«من الأسهل الحصول على موعدٍ مع الرئيس»، قالت أمٌّ أخرى متذمّرةً، وكان قد مضى عليها ستة أيام من الانتظار فقط.

«حسناً، ربما يُمكنكِ الذهاب لرؤية الرئيس واستكشاف ما إذا كان يستطيع مساعدتك»، ردّت السكرتيرة.

«أيّتها السيدات، أيّتها السيدات، اهدأن» قال الشاب، وبحركةٍ واحدة مُتزامنة نَخَرت النساء وصالبن أيديهن على صدورهن.

كان وقت إغلاق المكتب يقترب، وكانت «البقرة الماضغة» قد بدأت بإعدادنا لخيبة الأمل المتمثلة في ضياع يومٍ آخر، من خلال تبديل الأوراق أمامها وترتيب ملفاتها، وهو الطّقس الذي تتّبعه حالما تصبح جاهزةً لإغلاق المكتب. كان آخر عملٍ تقوم به هو تمرير سبابتها على طول حافة المكتب، لتفحص بسرعةٍ كمية الغبار المتراكم، وتخفّف منها من خلال النفخ عليها قبل أن تُعلن: «سنغلق المكتب الآن. لن يكون بإمكان شريف بيه رؤية أيّ أحد آخر اليوم».

ضاق صدري من اليأس. قلتُ لها، «أنتِ لن تدعينا ندخل، أليس كذلك؟ حتى ولو لم يكنْ أحدٌ في الداخل. ستطلبين منا المغادرة ثانية».

تجهّمت في وجهي: «لقد شرحتُ مُسبقاً كيف تجري الأمور هنا. ليس عليكِ أن تأتي إن لم تحبّي ذلك».

«نحن نأتي لأننا بحاجة لأن نأتي»، قالت الأمّ الريفية.

«الشخص المحتاج يجب ألَّا يشتكي»، قالت السكرتيرة، وهي تمزّق ربطةً سميكة من الورق للتأكيد.

قالت أمّي:«لا حاجة للفظاظة. الواضح أنّ هذه المرأة قد قطعت مسافةً بعيدة لترى الملحن».

ومن دون سابق إنذار، قامت المرأة حائكة الصوف بمفاجأتنا جميعاً، من خلال قفزها من مقعدها، والسير بخُطاً سريعة إلى طاولة السكرتيرة. أخذت المرأة تلوّح بكامل صرّة العمل- الصوف، والمخارز، والرقعة ذات اللونين الوردي والأزرق- في وجه السكرتيرة قائلةً: «لقد بلغ الصبر مني مُنتهاه!»

تلك كانت الشرارة التي أوقدت الحريق. وقبل أن أستطيع التفكير، كُنتُ قد نهضتُ وانضممت إلى حشد الأمّهات المخاصمات والبنات الممتعضات، تاركةً أُمّي ورائي. حتى إنّ الشاب دبّت فيه الحماسة. وبينما كان يقف على المحيط الخارجي للمجموعة، دخل في أجواء المماحكة بصوتٍ أكثر حِدّةً من بقية الأصوات.

اندفعتُ إلى الأمام وضربت على طاولة السكرتيرة: «ما رأيك لو تقرعين ذلك الباب وتخبرينه أننا لن نُصرَفَ من هُنا ثانية!»

«وإن لم تفعلي ذلك، فنحن من سيفعله». قالت المرأة السمينة وهي تلوّح بمخارزها في الهواء.

«لن يُفيدكم كلّ هذا الهراء»، قالت السكرتيرة وهي تحمي وجهها، بينما كانت تنسحب باتجاه مكتب شريف بيه.

«أنا أقترح أن نندفع جميعاً إلى داخل تلك الغرفة ونطالب بأن يقابلنا. الآن!»

وفي تلك اللحظة، فُتح الباب على مصراعيه، وخرج شريف نصر.

* * *

كانت ساقا أمّي هما ما أوصلنا إلى مكتب شريف بيه. وبالرغم من أنني لم أكُن قادرةً على رؤية عينيه نصف المختبئتين وراء اللون العنبري لنظّارته ذات الإطار السميك، فيمكنني القول إنّه كان يُعاني من متاعب في إشاحتهما بعيداً عنهما: ساقٌ فوق الأُخرى، باهتتان وتلمعان خلال البريق المتألق للجوارب. بكلّ بساطة، أعرضَ شريف نصر عن شكاوى السكرتيرة، وقرّر أن يلتقينا في الحال. مددت لساني للسكرتيرة، بينما كنتُ أتبع أمّي إلى مكتبه.

أعمدةٌ من الضوء المتبّل بذرّات الغبار الصغيرة المتطايرة كانت تنسكبُ من خلال زُجاج بابين كبيرين يُفتحان على شُرفتين. كانت رائحة الغرفة تشي باستخدامها كمخدع. تغاضيتُ عن الرائحة النتنة المعششة للسجائر ووجبات الكباب القديم،

وأخذتُ أحدّق في الأسقف العالية والزخارف المقوسة الخيالية. شريف نصر في منتصف الخمسينيات من عمره، ذو شاربٍ رفيع كقلم رصاص، وشعر مُسرّح على شكل تلال بواسطة كريم الشعر «بريلكريم»، مع منديلٍ أبيض مثلث الشكل يبرز من الجيب العلوي لسترته ذات اللون «الكراميلي» والمصنوعة من صوف الإنجليزي، وكأنّنا عدنا بقفزةٍ كبيرة إلى عصرٍ سابق.

صحيحٌ أنّ مكتبه يُذكّر بمنازل الأثرياء الرومانسيين في كل تلك الأفلام المصرية القديمة بالأبيض والأسود، لكنّ التشابه ينتهي هنا، لأنّ ما تكدّس في هذه الغرفة هو أكبر مجموعة من الأثاث غير المتناسق التي رأيتها في حياتي على الإطلاق. تقفُ طاولةٌ عتيقة الطراز، ذات حوافّ مذهبة ومقوسة، مثل إشارة الفاصلة، على أربعة أرجلٍ هشّة بين أريكتين لحميتيّ اللون. مصابيح ظليلية مزينة بأهدابٍ شريطية كانت تنتصب على طاولاتٍ جانبية بزجاجٍ أسود، وكأنّه جرى جلب كلّ قطعةٍ من منزلٍ مختلف.

انتقلَ إلى الجانب الآخر من الغرفة، حيث يوجد مكتبٌ خشبيّ ضخم. لم يكُن شريف بيه رجلاً ثقيل الوزن، لكنّ الكرسيّ الدوّار أصدر صوت هسيس، عندما جلس فيه مسترخياً. كان قد ثبّت مرفقية بإحكامٍ على الطاولة، حين قال: «لا أُحب أن أجري مقابلةً مع أيّ شخصٍ، إن لم تكُن أخواتي معي. نحن نتّخذ القرارات معاً، وكما تعلمن؛ لأنهنّ يملكن الموهبة في هذه الأمور، من الأسهل عليهنّ إيجاد ما أبحثُ عنه أنا، لكنهنّ غادرن باكراً اليوم».

تبادلتُ وأمّي النظرات، والسؤال نفسه يدور في مخيلتينا. كيف يُمكن ذلك؟ كيف أمكنهنّ المغادرة دون أن نراهُنّ؟ نَشَقَ شريف بيه وأشار إلينا لنجلس، وكأنه غاضبٌ من أننا لم نجلس حتى الآن. غاصت بنا الأريكة اللينة. رجع رأسي إلى الخلف، ساحباً معه بقية جسمي، متفاجئاً بما حدَث، بينما كانت أمّي سريعةً في الانتقال إلى حافة الأريكة. وبينما كنتُ أسحب نفسي نحو الأعلى، كانت أمّي قد انحنت إلى الأمام وضمّت بأمانٍ ساقيها الجميلتين، الواحدة فوق الأخرى. كانت ثمة ابتسامةٌ بهيّة على وجهها،كانت مستعدةً للبدء.

ارتفع حاجبا شريف نصر الرفيعان فوق نظاراته. «حسناً، أين كنتُ؟ في الحقيقة، كنتُ على وشك المغادرة. ولكن لاحقاً، حسناً..» حَوَّلَ عينيه باتجاه ساعة يده وسعل. «لديّ القليل من الوقت، و...» وسرح بنظره نحو إحدى الشرفتين. وبينما بقيت أمّي تركز نظراتها عليه مع تلك الابتسامة الرقيقة التي تحتفظ بها لهذه النوعية من الأشخاص، استدرتُ أنا مع أشدّ قدرٍ من الحرص لأعرف ما الذي شدّ انتباهه. كان الشيء الوحيد المثير للاهتمام هو ذَكرُ حمامة كان يحاول إثارة إعجاب إحدى الإناث، بالكثير من رفرفة الجناحين والحركات البهلوانية. لم يكُن من جديد في هذا المشهد، مع وجود كلّ طيور الحمام الأُخرى هناك. سمعتُ صوتَ حفيفٍ، وعدتُ بنظري لأجده يخربش شيئاً بالقلم الرصاص. آه! إنّه الإلهام.

أخذنا نراقبه. لم ننبُس ببنت شفة. غريزياً، نحن نعلم أنّه يتوجّب علينا أن نبقى هادئتين وننتظر. لقد تطلّبت ترجمة هذا الإلهام إلى نوتةٍ موسيقية الكثير من الوقت. وبين الفينة والأُخرى، كانت تلك النظرة تُطِلُّ نحو البعيد، مركّزةً باتجاه العتمة الخفيفة في الخارج. سُرعان ما أصابني الملل، فأخذتُ أنعم النظر في تلك الخزانة الزجاجية الكبيرة خلفه، والتي تعرض الجوائز المختلفة التي حصل عليها. على الرفوف، كانت ميداليات، ولوحات، وشهادات، وحتى نصب تذكاري كريستالي على شكل وجه نفرتيتي. كان أيضاً ثمة صور فوتوغرافية لشريف نصر الشاب الوسيم، تُظهره مع بعض أساطين الموسيقى العربية والعالمية.

في إحدى الصور النصفية كان يقف مع عبد الحليم حافظ، ينظر إلى الأرض، وكأنّ وميض ضوء الكاميرا أصابه بالعمى. أما مع أم كلثوم، رمز الموسيقى والوحدة والقومية العربية، فاستطاع أن يرسم ابتسامةً خجولة، لكنه كان يرفع كتفيه عالياً جداً، وكأنّه خائفٌ من أن تعضّه! كان يبدو في الكثير من الصور الفوتوغرافية غير مستعد عندما أعملت الكاميرا فعلها. كان يقف بجانب الكثير من المطربين - كبار المطربين- وجميعهم أموات.

توقفّ برهةً لينقر على المكتب بظفر سبابته، وهو الظفر الذي كان يُبقيه طويلاً للعزف على العود. وعندما عُدت للنظر إليه، كان يُحدّق بنا، لكنّي كنتُ أعرف أنّه لا يُلاحظ وجودنا. في أية حال، ابتسمنا له، تحسباً. ابتسم ابتسامةً عريضة، وأصدر صوتاً

كان نصفه صفيراً، والنصف الآخر نخيراً، ثم أعاد تركيز نظره على النوتة الموسيقة أمامه. «هذه هي طريقة عمل العقل الموسيقي»، همست لي أُمّي، بينما ترقرقت عيناها من فرط الإعجاب: «هذا ما يقصدونه عندما يقولون عبقري».

«غريب!!» همستُ لها.

«هس».

أخذ يُشخبط بعصبية، مُصدراً أصوات طقطقة بفمه، وهي الأصواتُ التي كنتُ متأكدةً أنها اللحن الذي كان يؤلّفه. رنّ الهاتف فجأةً، فتيبّس وأخذ ينظر إليه. «ماذا؟» أخذ يصرخ نابحاً في السماعة. كان صوت المرأة المتصلة يخرج من أنفها، كئيباً قليلاً. وباعتبار أنّ الجميع يعلمون أنه أعزب، فقد خمنّت مباشرةً أنّها إحدى أخواته. تنفّس شريف نصر بعمق ثم قال، «كلا، لم أقصد أن أصرخ. كلّ ما في الأمر أنني مشغول الآن». توقّفٌ قصير. «نعم، أعرف أنك تنتظرينني. سآتي حالما أستطيع». توقّفٌ قصير. «حسناً». توقّفٌ قصير. «نعم، حسناً». توقّفٌ قصير. «حسناً، حسناً، سأتناول غدائي بارداً». أقفل السمّاعة ونحّى الأوراق أمامه جانباً. «حسناً»، قال وهو يسحب سيجارة ويضعها في فلتر بلاستيكي، «ما الذي تُريدانه؟»

«حسنا، يُمكننا أن نبدأ بإعطائك نبذةً عن خلفيتنا»، قالت أمّي.

نظر إلى ساعة يده، وبدا أنّه على وشك أن يرفض اقتراحها،

عندما بدأت أمّي بمدح موهبته ومنزلته الأسطورية، وأعقبت ذلك بالجزء الذي حفظته عن ظهر قلب: موهبتي، مُثابرتي، والدرجة العالية لأدائي طيلة تلك الأسابيع في برنامج «ليالي دبي». كنتُ أستطيع أن أنضمّ إليها كثنائيّ. كنتُ أعرف أين ستُسرع في حديثها وأين ستُبطئ. كما كان بإمكاني أن أقحم التوقفات القصيرة، والتي يُفترض أن تكون في مواضع استراتيجية، لتترك مجالاً للتأمّل ومراجعة ما قيل. ولكن كان لديّ الدور الذي سألعبه، والمتمثل في الإيماء برأسي أو هزّه في لحظاتٍ مهمّة. كانت ابتسامةٌ خجولة على وجهي تمرّستُ بها أمام المرآة، مصحوبةٌ بنظرةٍ جانبية منخفضة قليلاً، بينما تكون أمّي قد أنهت عرضها بكيل المديح لحظّي الجيّد المتمثل ليس في الجمال فحسب، بل في صوتٍ يجعل البلابل غَيْرَى مني.

كان ثمة الكثير من المعلومات، لكنّ الجزء الخاص بها كان سريعاً – سبع دقائق بالضبط، تمّ التدرّب عليه وتوقيته – للتأكّد من عدم انجراف اهتمام المستمع بعيداً. كانت أمّي تبقيه أسير حضورها، من خلال موهبتها في الرواية القصصية وساقيها اللتين كان يسترق النظر إليهما بين الفينة والأخرى، وبين نفثات سيجارته.

«حسناً، كلّ هذا يبدو جيداً، سيدة... أر...»

«زُهرة»، قالت أمي.

«ستّ زُهرة». قال وهو يومئ برأسه.«كما قلت، كلّ هذا يبدو جيداً، هذا، حياتك هذه، والموهبة التي أحضرتها معك». ثم مال على كرسيه إلى الخلف.«لكنني أسمع هذا النوع من الأشياء كلّ يوم».

«بالطبع، أنت على حق. ما الذي كنت أفكر فيه، أخبرك بكلّ هذا القدر في لقائنا الأول؟» قالتها بشكلٍ طبيعي، فقد تمّ التدرّب على هذا الجزء أيضاً.

«وفي أيّة حال، أنا لا أستطيع أن أقول أيّ شيء، قبل أن أسمع صوت هذه الشابة». وأشار إليّ بظفر إصبعه الطويل.

«دلال».

«نعم، دلال. اسم جميل. كما أنّ له معنىً جميلاً أيضاً: أن تُغرم بها. ويُمكنني القول أنك أمٌّ تحبّ ابنتها حباً شديداً».

«أنت لطيفٌ جداً».

«همم». أخذ يُحدّق في أبواب الشرفة مرّةً أُخرى، وأخذتُ أتساءل ما إذا كان الإلهام قد عاد إليه عندما- وبحركةٍ مفاجئة- مال إلى الأمام وأطفأ سيجارته. وفي النهاية قال، «الحقيقة، يا ست زُهرة، أفضّل أن تأتيا مرّةً أُخرى، عندما تكون أخواتي هنا؛ عندها سنقدّم لكما تقييماً أكثر شموليةً واستفاضة». ضيّق عينيه وهو ينظر إلى ساعة يده. وكان بذلك يُنهي المقابلة، دون أن يسمع صوتي.

وبشكلٍ غير متوقع، صفّقت ماما بيديها، ذلك التصفيق الذي كان له تأثير الصاعقة في يومٍ مُشمس. أنا أُجفِلت، وارتعش شريف نصر. «قفي، قفي!» طَلَبَتْ مني. وكانت قد وقفت على قدميها حين بدأتُ أنهض. ومع وقوفها خلفي، أمسكت بطرفي ذراعيّ الاثنتين، وأخذت تضغط عليهما بطريقةٍ مؤلمة بعض الشيء. هذا ليس جزءاً من مِراننا، هذا ما كنتُ أفكّر فيه بينما كانت تدفعني إلى جانب مكتبه. أخرستِ الصدمة شريف بيه، كانت شفتاه مشدودتين على شكل خطٍّ يمرّ موازياً لشاربه.

قالت أمّي: « دلال، غنّي الآن!».

9

مريـم

كانت العيادة تقع في الطابق الرابع من مبنى طبّ الأسنان. شَقَقتُ طريقي وسط حشدٍ من المرضى في رواق الانتظار الرطب. يعمل الطلبة على مرضى متطوعين، هم يحصلون على علاج الأسنان مجاناً، ونحن نحصل على الخبرة، في المقابل. يُمكن أن يكون الرجال المتعرّقون في قمصانهم سائقي سيارات أجرة، موظفين مدنيين، أو عُمّال بناء. أمّا أولئك الذين يرتدون الجلابية المصرية، فيمكن أن يكونوا بوّابين أو فلاحين اضطرهم الأمر إلى ركوب ثلاثة أو أربعة باصات للوصول إلى هنا. كان ثمة ثلاثة رُضّع يبكون، وبعض الأطفال المضطربين الذين كانوا يتقافزون أو يتململون بجانب آبائهم. احتلّ المحظوظون منهم المقاعد، بينما كان الآخرون يقفون حيث استطاعوا.

أخذَ رجلٌ يلوّح بكيسٍ بلاستيكي أمام وجهي. إنّه بائِع الأسنان. قال البائع، «أربعون جنيهاً لثلاث أسنان». كان يبيع الأسنان للطلبة، بحيث يمكنهم التدرّب على معالجة القنوات الجذرية. وبما أنّ شيلتي كانت تحيط بوجهي بأناقة، وصولاً إلى معطفي الطبّي، فقد ميّزني بأنني خليجية، وبالتالي قام آلياً بمضاعفة السعر أربع مرات، مقارنةً بالسعر الذي يعرضه على الطالب المصري.

لكنّ معالجة القنوات الجذرية لن تكون قبل السنة الأخيرة لي، وحالياً، يدور الأمر حول الحشوات والقلع.

ثمة سياسةٌ غير رسمية تتمثّل في أنّ من يصل أولاً يُعالَج أولاً، بالرغم من أنّ بعض المرضى لديهم مواعيد مُسبقة. وفي حال وجود «فتوّات»، ينتهي الأمر بأن يطول الانتظار بالمرضى الخجولين إلى أكثر ممّا يجب. جاء استفزاز اليوم من فلاح «فتوّة» يضع عِمّةً على رأسه، وكان يُصرّ على أن أبدأ بعلاجه فوراً. «دعني أدخل أولاً وأرى ما الذي يحدث»، قلتُ له عندما سدّ طريقي، وشكّ إصبعاً في مؤخرة فمه، ليريني موضع النخر؛ لكنّه تنحّى جانباً عندما صرخَ به حارس الأمن.

وما إن ولجتُ حتى زكمت أنفي الرائحةُ المعتادة التي كانت مزيجاً من النظافة والاتساخ، والتي تتميّز بها العيادة؛ ذلك المزيج من الديتول والعرق المتصبّب. كانت غرفةً ساطعة مُضاءة بمصابيح النيون، وجدرانها بلون الخردل. تغوص غابةٌ من الأنابيب في الوحدات السنِّيَّة المختلفة التي تفصل بينها قواطع ألمنيوم بارتفاع الخصر. وبوجود أكثر من خمسين بالمائة من طلاب السنة الثالثة والرابعة والخامسة يحفرون ويحشون ويقلعون الأسنان، كانت العيادة تعجّ بصخب رشفات الامتصاص، وهسيس الضواغط، وجلجلة الأدوات السنِّيَّة، ودردشات الطلبة، والمشي المتثاقل للكعوب العالية. وبين الحين والآخر، كان أحد المرضى يصرخ، فيتوقف الطلبة عن أعمالهم لبرهة، ليروا من يكون صاحب الصوت.

سألتُ مدير العيادة عن ملفّ مرضاي، وكان يجلسُ خلف مكتبٍ خشبيّ قرب المدخل. انحنى المدير إلى الخلف، باتجاه جدارٍ عليه صورةٌ مؤطرة للرئيس حسني مبارك. أخبرني أن شريكتي غادة سبق لها أن أخذت الملفّ. لمحتها أمامي مباشرةً، فسرتُ باتجاهها، متخطيةً في طريقي الكراسي السنِّيَّة التي كان مرضىً بأفواهٍ مفتوحة يشغلونها، ويقف على رأس كلٍّ منهم زوجٌ من الطلبة- تحت الأضواء- أحدهما يفحص، أو يحفر، أو يحشو، بينما كانت مهمة الطالب الآخر تقديم يد المساعدة.

«اليوم دوري في التدريب. ودورك في المساعدة، ولكن- بما أنك تأخرت- فلقد مضيتُ قدماً وأعددتُ كلّ شيء». تمّ تسريح شعر غادة الأجعد من خلال ضفيرتين محبوكتين. وبينما كانت تمتص طرف إحدى الجديلتين، أخذت تُشير إلى المعدات السنِّيَّة اللامعة: القبضة، مرآة الفم، المسبار، الملاقط، المثقاب، والتي عقّمتها ورتّبتها على الطاولة. توجهتُ إلى المغسلة وأخذت أفرك يديّ تحت الصنبور. تابعت غادة قائلةً: «المشكلة أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً، لأنه يرفض أن يفتح فمه».

كان شاباً ضعيف البنية، بوجهٍ نحيف. كانت ذراعاه مُتصالبتين عالياً فوق صدره، وكأنّه كان يتحدّانا أن نفصلهما بعضهما عن بعض. كان يبدو كطفلٍ غاضِب، شفتاه مُغلقتان على شكل خطٍّ حادّ، حتى بدا خدّاه مُقعرين كحفرتين. «قالَ إنه يُعاني من ألمٍ في

مؤخرة فمه». وجّهت غادة تعليقها للرجل. «يحتاج إلى حشوةٍ على الأرجح، لكنني لستُ قادرة على إخباره أيّ شيء، ما لم يفتح فمه!» وهنا استحالت نبرتها إلى نزقٍ مُتفجر.

«لقد أخبرتكِ، لن أسمح لك بالعمل على أسناني ما لم يكن ذلك بحضور طبيبٍ حقيقيّ»، أخذ يُدمدم، فاتحاً فمه بالنزر اليسير الكافي لتخرج منه الكلمات. «أنتما الاثنتان طالبتان، بحقّ الإله، ما الذي تعلمانه عن الطبّ؟»

تلت ذلك دفعةٌ من الصرخات أشبه بالعواء. «إياهـ، إياهـ، إياهـ!»

«هل تسمعين ذلك، لا أرغب في أن أجد نفسي في مثل هذا الموقف».

«نحن لن نفعل أيّ شيء ما لم يقم الدكتور بفحصك أولاً»، قلتُ له، وأنا أنظر في أرجاء العيادة لعلّني أعثر عليه. وعوضاً عن ذلك، لمحتُ عادل. كانت مشيته أشبه بقفزاتٍ خفيفة لشخصٍ مُطمئن البال، وهو يجول العيادة. توقّف لبرهةٍ قصيرة كي يتحدث مع المدير، قبل أن ينضمّ إلى شريكه في الحُجيرة بجانب المدخل تماماً. هناك كانت ترتسم تلك الابتسامة العريضة الهنيئة التي تجعل عينيه تتغضنان. أخذ وجهه يلين ووجهي يقسو، بينما كنتُ أحاول أن أكتشف كيف يُمكنني التسلل خارج الغرفة دون أن يُلاحظني. الجوّ حار. أرخيت شيلتي، ورفعتُ رأسي باتجاه مروحة السقف التي كانت تئنّ وتَصِرُّ، وتحرّك شعرات غرّتي، لكنها تفعل القليل لتخفّف من حدّة الحرارة. لو كانت وحدتنا

عند الطرف القصيّ، لتمكنت من التقاط النسمة حال مرورها عبر النافذة المفتوحة. نزعتُ شيلتي ونثرتُ شعري قبل أن أدبسه على شكل كعكة وأغطيه بقبعة الجراحة، وهي طريقةٌ ألطف وأسهل للاختلاط بالتلاميذ الآخرين. أبحرتْ نظرة عادل باتجاهي وتابعت مسيرها..لم يلحظ وجودي.

لقد استطعتُ، وببساطة، تفادي عادل خلال الأسبوعين الفائتين، وذلك من خلال تغيير روتين نشاطي اليومي، بحيث لا يتقاطع مع روتينه في أيّ مكانٍ يكون فيه. لقد تتبعته لفترةٍ طويلة، فحفظت عن ظهر قلب خطوط سيره في حرم الجامعة. أعرف جدول محاضراته، وقبل تلك الأمسية الغريبة السخيفة في محل عصائر فرغلي، خدمتني تلك المعرفة جيداً، فقد كُنت أظهر مُصادفةً في أيّ مكانٍ يحضر فيه.

اعتدتُ الجلوس في فترات الأصيل المتأخرة تحت شجرة «الجاكاراندا» التي تنتصب على مسافةٍ مريحة من الملعب، حيث اعتاد أن يلعب كرة القدم. أمّا في قاعات المحاضرات، فكنتُ أنزلق في المقاعد الخشبية الطويلة على بُعد صفٍّ أو صفّين من مكان جلوسه، وهو قُربٌ مُناسب يمنحني الفرصة لرؤية مؤخرة رأسه. ومع فساد هواء القاعة، نتيجة الحرارة المرتفعة، كان يغفو قليلاً. كان شعره قد أصبح دبقاً، والتصق بمؤخرة عنقه، لكنّ ذلك لم يكُن ليزعجه أثناء إغفاءته، وهي عادةٌ تدرّب عليها جيداً، حيث كان يُبقي ظهره مُستقيماً ورأسه فقط منُحرفاً قليلاً.

لم يكُنْ من الصعب أبداً إيجاده، وبالتالي فمن السهل جداً تجنّبه، بحيث أعود غير مرئيةٍ في جامعةٍ تضمّ ستة عشر ألف طالب. في فترة ما بين المحاضرات، كنتُ أذوب بين أسراب الطلبة المتدافعين، تاركةً نفسي إليهم يجرفونني على طول تلك الممرات العابقة برائحة الدخان، بغضّ النظر إلى أين هم ذاهبون. وفي حال عرفتُ أنّه ذاهبٌ لحضور محاضرةٍ ما، كنتُ انتظر إلى أن يدخل قاعة المحاضرة، ثم أجلس في آخر صفّ من المقاعد.

غير أنّه– قبل بضعة أيام– وجدني في المكتبة، وهي المكان الوحيد الذي أتخلّى فيه عن كلّ احتياطاتي، لأنّ نسبة ظهوره هناك معدومة. بدا مرتاحاً لأنه وجدني، وكأنه كان يبحث عني في طول القاهرة وعرضها. وبعد المجاملات المعهودة، سألني لماذا توقفت عن إعطاء الدروس. «ربما يجدر بك الحصول على مدرّسٍ خصوصي، مثل الآخرين». كان هذا ما اقترحته عليه. شعرتُ بالفخر كيف بقيت ملامح وجهي خاليةً من التعابير وأنا أقول ذلك. سَحَنَ فمه على شكل نصف ابتسامة، وبدا مذهولاً ومُرتاحاً في الوقت نفسه. انتظر أن أقّدم له تفاصيل أكثر عن هذا القرار، لكنني استدرت ومشيت بعيداً.

«انتظري، ثمة أكثر من ذلك»، قالت غادة وهي تميل برأسها ساخرةً. «لماذا لا تخبر شريكتي هنا عن مُتطلباتك الأُخرى؟» كانت تنظر إلى مريضنا عابسةً، وعيناها المتورمان تكادان تخرجان من محجريهما. «هو لن يفتح فمه ما لم نضمن له عدم معاناته من أيّ ألم».

«ذلك، أيضاً»، قال ناخراً.

«لقد صبرت عليك بما فيه الكفاية»، قالت غادة، ولوّحت للدكتور الذي- بعدما استمع إلى روايتها- حلّ المشكلة من خلال إمساكه المريض من ياقة قميصه، وانتزاعه من على الكرسيّ.

مريضنا الثاني كان فتىً شجاعاً، لا يتجاوز عمره السادسة عشرة، فتحَ فمه واسعاً بقدر ما يستطيع. كانت عيناه صفراوين، وبقي يُحدّق في السقف بينما كان الدكتور يحدّثنا باللغة الإنجليزية، «يجب أخذ أقصى درجات الحذر، أعتقد أنّ هذا الصبي مصابٌ باليرقان، ولعلّه يعاني من التهاب الكبد الوبائي (سي)».

تراجعت غادة إلى الخلف، وأصرّت أن أقوم أنا بفحص الصبيّ.

«لكنّه دورك»، قلتُ لها، وأنا أنتظر أن يقف الدكتور بصفّي.

«لقد عملتُ كرئيسة لساعاتٍ أطول ممّا عملتِ أنتِ». قالت غادة.

اتخذ الدكتور قراره. صفّق بيديه. «مريم، افحصي أسنانه».

استدرتُ بعيداً عن المريض، كي لا أجرح شعوره، ضاعفتُ من مستلزمات الوقاية، من خلال ارتداء زوجٍ ثانٍ من القفازات. وبوجود نظارات الوقاية الطبية المثبتة علىٰ جبيني، والقناع الجراحي الذي يُغطّي وجهي، أخذت أنظر بتمعّن في فم الصبي، أحمل المرآة الطبّية بيد، والمسبار باليد الأُخرى. طرقت على الأسنان، فعبس الفتى في وجهي.«يعاني المريض من تسوّسٍ

في الضرس الثاني السفلي الأيمن»، أعلنتُ ذلك بنبرةٍ سلطوية. أبقى الدكتور عينيه مُثبتتين لبعض الوقت من فوق كتفي، وهَمْهَم، علامة الموافقة. وبعد المزيد من السبر، قرّرتُ أنّه يحتاج إلى ثلاث حشوات، وربما قلع ذلك الضرس، نتيجة تسوّسه بالكامل. ومع طلبي صورة أشعة، أكد الدكتور تشخيصي المبدئي، ومنحني الإذن بالشروع بالعمل، ثم تابع مسيره ليفحص فريقاً آخر من الطلبة.

كانت غادة تتجاذب أطراف الحديث مع الطلبة في الوحدة خلفنا، حول الثوب الذي ارتدته في حفل زفاف ابنة عمّها، بينما كنتُ أغرس إبرة المخدر في لثّة المريض. وفيما كنتُ أنتظر سريان تأثير المخدّر في الفم، انحرف بصري بعيداً نحو عادل. كان يقوم بدور المساعد، ويجري نقاشاتٍ مع ثلاثة طلبة آخرين في ثلاث وحدات مختلفة. متى سيتعلّم أن يُركّز على شيءٍ واحد؟ هل سيُمسك بذراعي عندما أهمّ بالخروج مسرعةً من باب العيادة؟ كيف يجب أن أتصرّف أمام كلّ هؤلاء البشر؟ فجأةً، توقّف عادل عن الكلام ونظر حوله، مادّاً عنقه فوق الحواجز الداخلية. إنّه يبحث عني، أنا متأكدة من ذلك. سبّب لي هذا الأمر رعشةً من الحبور في كل أنحاء جسمي. سأحفظ هذه الصورة لوقتٍ لاحق، كي أضمّها حين أضمّ وسادتي.

«أشعر كما لو كان ثمة نملٌ يدبّ في فمي»، قال مريضي.

مزّقت الحقيبة المعقّمة، وأخرجت المثقب العالي السرعة، ووصلته بقابسه. كانت يدي ثابتة، بينما كنت أوجّه المثقب بدورانٍ

هادف فوق سنّ المريض. أصاب رشاش البصاق والماء نظارات الحماية الطبية. كان التسوّس طرياً، وأخذ في التفتّت سريعاً، لذلك خفّفت من الضغط قليلاً. ومع أزيز المثقاب المتواصل، تذكرتُ أبي الذي كان واثقاً بنفسه، مثلي أنا الآن. إنه يراني؛ ومن وراء قناعي أخذت أبتسم للصورة. ما الذي كان يُمكن أن يُفكر فيه، وهو يراني بهذه الصورة: متوازنة.. واثقة للغاية، وفي طريقي لأن أصبح طبيبة أسنان حقيقية؟ كان أبي سيُميل برأسه جانباً ويفتح راحتيه نحو السماء، ويهمس ما شاء الله، ليُظهر تقديره لإنجازي، ثمّ سيروي طرفةً حول أنّه لن يكون بمقدوره أن يفتح فمه ثانيةً، لأنّ ابنته ستلمح الأسنان السيئة وستغيب عنها الابتسامة، أو شيء من هذا القبيل.

كان التسوّس أعمق ممّا توقعت. لستُ متأكدةً من أنني يجب أن أستمرّ أم لا. ماذا لو تكسّرت السنّ؟ لم أعد أستطيع أن أرى، لأنّ فم المريض امتلأ بالماء. «شفط!» أمسكت غادة بالخرطوم في فم الفتى بزاويةٍ مُربِكة. انحنت إلى الأمام وكأنّها مشدودةٌ بحبل، وأبقت رأسها متجهاً بعيداً. أطفأتُ المثقب وطلبت من الصبيّ أن يغسل فمه. أعدتُ كرسيّي إلى الخلف، وانفجرتُ في وجه غادة قائلةً: «لا أستطيع العمل هكذا. يُفترض بك أن تُساعديني، وليس أن تنجرفي إلى الوحدة الثانية للثرثرة هناك. يجب أن تبقي قريبةً مني». لم أُعِر نفورها اهتماماً، بينما كانت تقترب مني خطوةً صغيرة. «في أيّة حال، أُريد رأيك. لقد حفرتُ ميلّيمترين، على ما أعتقد. هل أتابع؟».

وعندما لم تستطع غادة بدورها أن تُقرّر، نادينا الدكتور الذي استخدم المجرفة الملعقية، وأخذ يقوّر بواسطتها تسوّساً طرياً. «انتقلا إلى السرعة الدنيا في قبضة الحفر، حتى يزول التسوّس بالكامل»، كانت تلك تعليماته.

انخفضت حدّة أزيز المثقب، وابتعدت غادة ثانيةً لتثرثر مع جيراننا، حيث قدّمت هذه المرّة موجزاً مفصلاً عن وصفة الكعكة الجديدة التي حصلت عليها. ثمة الكثير من الطلبة على شاكلة غادة، يأخذون معهم ضجيج القاهرة وفوضاها أينما ذهبوا. «ربما أمكنك أن تكوني أكثر إفادةً»، ناديتها حال انتهائها من سرد قائمة المكوّنات، «إذا بدأت بإعطاء مريضنا الشاب هذا بعض المعلومات بخصوص نظافته الشخصية. إن لم نُثقّفهم، سيستمرون بالعودة مراراً وتكراراً. لمَ لا ترينه كيف يتوجّب عليه أن يفرّش أسنانه بعد كل وجبة؟».

«لا أعتقد أنّ مزاجه يسمح له بسماع أيّ شيء أقوله»، قالت غادة وهي تمشي عائدةً بخطواتٍ بطيئة. «انظري إلى الألم في وجهه».

أخذ الصبي يدمدم، فسحبت خرطوم الشفط من فمه، وعندها قال، «أنا لا أملك فرشاة أسنان».

«هذا هو لبّ الموضوع»، قالت غادة وهي ترفع حاجبها وكأنّها ربحت النقاش للتوّ. «لا فائدة تُرجى في الحديث عن شيءٍ هو لا يملكه، أليس كذلك؟ في أيّة حال، لا يوجد وقت لتقديم النصائح. يجب أن تنتهي من حشو الأسنان بسرعة، بحيث لا

نخسر فترة بعد الظهر بكاملها»، أخرجت غادة مكونات حشوة الأسنان وأسرعت لمزجها في الآلة.

تقترب الجلسة من نهايتها. أخذ الطلبة في الاستعداد للخروج، من خلال إعادة أدوات المعالجة السنِّيَّة إلى القيّمين في منطقة التعقيم، وتسليم ملفّات مرضاهم إلى مدير العيادة. لم أعد أستطيع رؤية عادل، لكنّ غادة كانت في طريقها إليّ وهي تمشي بخطواتٍ سريعة. تنهّدَتْ غادة أيضاً. هززتُ برأسي لسلوكها غير المناسب: أيّ مريضٍ سيثق بطبيب أسنانٍ يُغنّي؟ أفرغت الكبسولة في وعاء زجاجي، قبل أن ترفع حامل الحشوة وتناولني إياه.

بعد نقل وتكثيف ثماني عبوات من الحشوة.. توقّفتُ لبرهة لأفحص عملي. إنّه مُتقنٌ واحترافيّ. كلّ ما أريده الآن هو حضور الدكتور ليخبرني بذلك. كنت على وشك أن أنظر وأناديه عندما أحسست بنَفَسٍ ثقيلٍ خلفي. أدرتُ الكرسيّ ووضعت حامل الحشوات، وأجفلت عندما وجدت الفلّاح «الفتوّة» من منطقة الانتظار ينظر إليّ والشرر يتطاير من عينيه. يبدو أنّه تمكّن من الانسلال إلى العيادة، أثناء انشغال الحارس عنها. عَدَتْ غادة نحو الركن وهي تصرخ صرخاتٍ حادّة، عندما بدأ يلوّح بذراعيه ويصرخ: «لقد قلتِ إنك لن تتأخري. وكان ذلك منذ أكثر من ساعة!» كان يبدو أنه مستعدٌّ ليضرب.

تجمّدتُ في الكرسي. أردتُ أن أمسح الغرفة بعينيّ، لعلّي أجد الدكتور كي يسرع إلينا ويُمسك الفلّاح من ياقته، لكنّي لا أجرؤ

على التحرّك. تجمّع حشدٌ حولنا بسرعةٍ مُدهشة. ترك كلّ الطلبة الذين كانوا لا يزالون في العيادة مرضاهم المربكين وراءهم، وأفواههم ملأى بالأدوات المعدنية، ليتجمّعوا حول وحدتي. وقف طالبان بجانب الفلّاح وأخذا يحاولان تملّقه ليهدأ، لكنه كان غاضباً كثورٍ جريح، مُتّهمني بالكذب عليه، بينما قام طالبٌ ثالث بليّ ذراع الفلّاح، في محاولةٍ منه لإخراجه عنوةً، غير أنّ الفلّاح أوقعه أرضاً، وسمعتُ إثرها صوت ارتطام وجَلجلة.

كنتُ لا أزال مُسمّرةً في كرسيَّ، أمسك بالمقابض بقوّة، لدرجة أنّي فقدتُ الإحساس بأصابعي، عندما اندفع أحدهم بقوّة. نظرتُ خلسةً، وبشكلٍ متكرر، وأدركتُ أنه عادل. أطبق عادل على فم الفلّاح، وأخذ يشدّ بكلّ قوّته. حينها ردّدت الجدران صدى عويل الفلاح. ومع انكساره من ألم السنّ المتعفنة، تمكّن الحرّاس من سحبه إلى الخارج.

حدثَ الأمر بسرعةٍ كبيرة. كنتُ بالكاد أشعر بوجود الدكتور، عندما أخذ يؤكّد لي أنّ الخطر قد زال. قامت إحدى الفتيات بتحريك الهواء أمام وجهي لأهدأ، بينما قامت فتاةٌ أُخرى بالتربيت بمنديلها- والذي كانت رائحته تشبه رائحة مطبخٍ قديم- على جبهتي.. «نحن مُعرّضون للعنف»، قالت غادة الّتي قفزت من الزاوية، بعدما قرّرتْ أنّ الوضع قد أصبح آمناً.

«ولكن يوجد أمن، يوجد حارسا أمن عند الباب. أين همُا؟» قال أحدهم.

«اثنان ليس بالعدد الكافي. يجب أن نُرسل عريضةً إلى العميد نطالب فيها بزيادة عدد حرّاس الأمن في غرفة الانتظار، لمنع حدوث شيءٍ من هذا القبيل مرّةً أخرى»، تابعت غادة. ومع ازدياد شجاعتها من خلال موجة الموافقة الحارّة حولها، تابعت قائلةً: «نريد أمناً أكثر في هذا المكان!»

كان الدكتور قد اكتفى بما حدث. صرخ على الطلبة أن يعودوا إلى مرضاهم ويُنهوا أعمالهم. وبينما كنتُ أحدّق في تراجعهم الممتعض، أخذتُ أبحث عن عادل، لكنّه كان قد اختفى.

10

ماجد

لقد حدثَ الأمر ثانيةً. حلمٌ أستيقظُ منه مرتجفاً. لم تكن ثمة نساءٌ هذه المرّة، فقط أخي حارب. كانت غترته معصوبةً على رأسه بالأسلوب القديم، كومة مُلخبطة من القماش على رأسه. لم يكنْ يرتدي كندورته، فقط القميص الداخلي الملطّخ بالطين، وإزاره المضموم بين ساقيه، والمنتهي بعقدةٍ ملفوفة على خصره. كان يبدو تماماً كهيئته منذ سنين خلت، حين كان يعمل في بستان النخل، مُستخدماً أدوات الزراعة من العهد القديم: سكيناً ذات نصل مُثلّم، لتشذيب جذع شجرة النخيل الليفي، وفأساً ذات رأسٍ صغير وحاد، لتكسير القطع الصخرية في التربة. بدا وكأنّه كان على وشك أن يلفّ حبلاً ليفياً حول شجرة النخيل ويطوّق به خصره، ليحمل ثقل وزنه أثناء تسلّقه لتشذيب تاج الشجرة. لا أستطيع أن أتذكّر شيئاً ممّا قاله في الحُلم، أتذكّر فقط سيماء خيبة الأمل العميقة في عينيه.

لمَ أحلُمُ بـحارب في تلك الأيام، قبل هبوط الثروة علينا، أيّام كانت العائلة بكاملها تعيش معاً في منزل أبي في رأس الخيمة؟ عالقاً في زحمة السير، كان هذا هو السؤال الذي يشغل مخيلتي.

أخذتُ أنقر على عجلة القيادة وأدمدم بشتيمةٍ لذلك الرتل الطويل من السيارات أمامي. أصبحتُ مقتنعاً أنّه قد تمّت برمجة الشارة الضوئية في ذلك التقاطع لتبقى حمراء لوقتٍ أطول من زمن بقائها خضراء بثلاثة أضعاف. ثمة أعمال طرق على الطريقين الآخرين الموصلين من منزلي في الوحيدة إلى المكتب. كانت الساعة 9:45 صباحاً، ولا أزال هنا، عالقاً في طريقٍ مُكتظٍّ بالسيارات المتجهة إلى العديد من المقاصد النشطة: سوق ديرة إلى اليمين، الشارقة إلى اليسار، ومباشرةً إلى الأمام، الجانب الآخر من الخور، بَرْ دبي. وبالرغم من أنّ الوقت قد تخطّى ساعة الذروة المعتادة، لا يزال هذا التقاطع مُزدحماً.

«قُدْ ببطء». هذا ما كان يقوله حارب. «زِنْ كلّ شيءٍ من كلّ زاوية، قبل أن تقفز». كنتُ دائماً أومئ برأسي موافقاً، بدافع الاحترام الذي أكنّه لأخي الكبير، حتى ولو كنتُ لا أوافقه الرأي. كان يُمكن لنصيحته أن تكون مفيدةً، لو كانت هذه مدينةً خاملة، لكنّ دبي برهنت أنّها أيّ شيء عدا أن تكون مدينةً خاملة. إنه العام 1995م، وأنا أتساءل ما الذي كان سيفعله مع كلّ هذه الفنادق، والمراكز التجارية، والحدائق العامّة، والمنتزهات المائية الجديدة، والمجمّعات المكتبية والعمارات السكنية التي تتزايد كالفطر، وتدفّق الوافدين في اندفاع محموم للحصول على الثروة أو الأمن، أو كليهما معاً. يبدو أنّ كلّ شيء حصل بعد وفاته منذ سبع سنوات، انطلاق الفعاليات الرياضية العالمية: التنس،

الغولف، السنوكر، سباق القوارب، بالإضافة إلى المعارض والمهرجانات المتواصلة، والتي تجلب تيّاراً مُطَّرداً من الناس من شتى أرجاء المعمورة. لقد اشتمّ حارب رائحتها، لكنّه لم يعش طويلاً بما يكفي ليشاهد ويعايش هذا التصاعد الجديد والمفاجئ.

ثمة جسرٌ عُلويّ في إحدى نهايتيْ «جسر آل مكتوم»، وثمة خططٌ للمزيد منها في نقاطٍ مُختلفة في المدينة. أحياناً أَضِلّ طريقي في شبكة الطرق الجديدة المتبرعمة كلّ يوم. أخبرني ابني أحمد، أول البارحة، أنّ حديثاً يدور عن خطةٍ طموحة لشقّ طرقٍ سريعة بستّ مسارات، لتخفيف تدفّق السيارات، حيث إنّ المدينة تتوسّع باطّراد. وعندما لاحظ تعابيري الممتعضة، أضاف: «لكنه أمرٌ جيّد، يا أبي. هذا يعني قدوم المزيد من البشر إلى هنا، جالبين معهم المزيد من الفُرص».

«ولمَ تحتاج إلى الفُرص؟» قلتُ بصوتٍ فظٍّ ممزوجٍ بالانزعاج. «لقد أنجزتُ كلّ العمل، وأنتم مستقرّون في أعمالكم». وبينما أُفكّر الآن في ما قُلتُه آنذاك، يبدو مثل شيءٍ كان الرجل العجوز- المقاوم لتقبّل التغيير- سيقوله. أنزلتُ نظاراتي الشمسية للأسفل، بحيث علقَتْ على أرنبة أنفي، ورحتُ أتفحّص انعكاس صورتي في مرآة الرؤية الخلفية. إنّه وجهٌ صُلب، وجهٌ يبدو أقسى من سنواته الثلاثٍ والستين. وعندما رفعتُ حاجبيّ، ارتسمت ثلاثة خطوطٍ على جبهتي، أمّا في ما عدا ذلك، فبشرتي سميكة وريانة بالدم، مع خلوّها من أيّ خطوطٍ تدلّ على التقدّم في السن.

كانت عيناي غارقتين في التأمل، ذلك الظلّ الأكثر إعتاماً للّون البنّي، والمؤطّر بزوجٍ من حلقات الحزن بالكاد مرئية، وهي التي أتفحصها لأرى إن كانت قد ابتلعت أكثر من قزحيتي عينيّ. لا أذكر أنّي رأيت تلك الحلقات في عينيْ حارب، لذلك كانت عيناه أكثر بريقاً، بلون عسل الجبال الكثيف لشجرة السدر. تمتلك ابنته مريم تانيك العينين نفسيهما، صافيتين ووقادتين. عندما كانت صغيرة، كانت عيناها تُضيئان بملايين التعابير المختلفة. وبعدما كبرت مريم، وكانت تنظر بهما إليّ، كانتا تصبّان عبئاً ثقيلاً من اللوم على كاهلي.

ثمة صورةٌ تجمعني بأخي، مأخوذة في مزرعة أبي. كنّا نقف بأفضل طريقةٍ نعرفها، متيبسين كجذوع شجر النخيل المحيط بنا، أمام مضخّة الماء الجياشة التي كانت تُفرغ المياه الجوفية في صهريج إسمنتي. على خلفية الصورة تاريخ، وبينما كنتُ أحاول أن أتذكّره، انحرف بصري باتجاه السائقين الآخرين المسمّرين خلف نوافذهم المغلقة، مُتعبون يُحدّقون في الأفق أمامهم، بينما يضرب هواء المكيّف وجوههم بقوّة. ولو كانوا يعلمون أنّ استخدام بوق السيارة لا يُعتبر خرقاً للقانون، لكانوا بالتأكيد قد تسبّبوا ببعض الضجّة الآن.

لِمَ لا أستطيع تذكّر التاريخ؟ في النهاية، كنتُ أنا من كتبه؛ لأنّ حارب تعلّم الكتابة بعد ذلك بكثير. هل كان العام 1959م،

أم بعده، يوم أنشأ حارب شركته في دبي؟ استحال لون الإشارة الضوئية إلى الأخضر، وأخذ سائق سيارة أجرة يحاول أن يحشر نفسه أمامي؛ لم أسمح له بالمرور، وعندما استمرّ في محاولته إدخال مقدّمة سيارته ضربتُ بوق سيارتي، مُبقياً راحة يدي عليه. أصاب صوت البوق الهادر السائقين الآخرين بالصدمة. لا شك في أنّهم افترضوا أنّها حالةٌ طبّية طارئة، كونهم أخذوا ينحرفون بسياراتهم جانباً لإفساح الطريق لي. انقلب اللون إلى الأحمر، لكنني قطعت الإشارة في أيّ حال.

طفتُ حول دوّار برج الساعة، بينما كنتُ لا أزال متحيّراً من التاريخ. هل كان قبل أن تتعطّل مضخة الماء؟ أعرف أنّها تعطّلت في العام 1963م؛ لأنّه العام الذي أرسل أبي فيه حارب كلّ تلك المسافة إلى دبي لإصلاحها.

دفع أخي رُوبيتين أجرة ركوب، لينضمّ إلى خمسة عشر راكباً آخرين في مؤخرة شاحنة «فورد» مُتهالكة من طراز «تي»، بقيت في الخدمة بأعجوبة من خلال ابتكارات مالكها. استقرّ حارب بين ماعز المسافرين وأكياس الليمون الأخضر. كان عليهم أن ينتظروا إلى أن ينخفض المدّ قبل أن ينطلقوا على طول الشاطئ في رحلةٍ كانت تستغرق ستّ ساعات. كان الرمل كثيفاً وموحلاً. وعندما كانت الشاحنة تعلق، كان حارب وبقية المسافرين يترجّلون منها ليساعدوا في تحريرها. كانوا يهزّون الشاحنة ويحشرون ألواح «الصفيح المعدنية»

تحت الإطارات العالقة، قبل أن يبدؤوا بالدفع بكامل وزنهم، حتى تتحرّك السيارة هادرةً إلى الأمام وكأنّها وحشٌ خارج من مستنقع.

عاد حارب بعد ثلاثة أسابيع. وحين وصل، أنزَلَ مضخة أبي التي جرى إصلاحها، مع ستّ مضخات أُخرى جديدة. سأله رجل أعمالٍ هندي كان قد التقاه ما إذا كان مهتماً ببيعها في رأس الخيمة. وبعد أسبوع كان حارب قد باع مضخات المياه الستّ، وأخذ يُخطط لرحلته التالية إلى دبي لجلب المزيد منها.

أنا أتجه شرقاً على شارع المطار، ورأسي مليء بقصص حارب عن دبي وخورها النشط آنذاك، والذي كان يطفح بمراكب «البُّوم» السابحة وهي تنقل البضائع، وزوارق التجديف التي تحمل البشر من ضفةٍ إلى أُخرى. انضمّ إلينا جيراننا من مزارعين وأصدقاء، ليسمعوا عن التجار الذين أخذوا بالتوافد إلى دبي مع بضائعهم من الهند، وباكستان، وإيران، وحتى من زنجبار البعيدة. ومع ضجيج القرع السريع المتواصل لمضخّة الماء التي أُصلحت مؤخراً، كانوا يجلسون على حصائر من خوص النخيل في مكانٍ ظليل من البستان، يتناولون التمر المكوّم في وعاء في الوسط. كنتُ أقدّم لهم القهوة العربية، وفق التقليد المتبع: كمية لا تزيد عن ثلاث رشفات، تُسكب في الفناجين، بينما كُنّا نستمع إلى حارب وهو يتكلّم عن شبكة المدينة من الأزقّة الرملية، والتي تعبّدت جرّاء المرور المتواصل فوقها من قبل البائعين والزوار، وعن الحمّالين الذين ينقلون الأحمال الثقيلة على عرباتٍ خشبية كانت تهدر وهي

تسير على عجلتين. أبواب المتاجر كانت مشرعة وممتلئة بالبضائع التي تتراوح بين العكاكيز، والخناجر، ودلاء القهوة النحاسية، وصولاً إلى أكياس الأرزّ ولفائف الأقمشة. كانت التوابل مرصوفةً على شكل أهرامات صغيرة، والذهب اللامع يُعرض في واجهاتٍ زجاجية، وصفوف من الأطعمة الموضوعة في العُلب.

وبما أنّه لم يسبقْ لي أن زرت دبي، كنتُ أتوق للانضمام إلى أخي في إحدى رحلاته، لكن كان لديّ وظيفة: جمع الرسوم الجمركية من ذلك العدد القليل من السفن والمراكب الصغيرة التي كانت ترسو في ميناء رأس الخيمة الخامل، فلقد وظّفتني الشركة الإنجليزية التي كانت مسؤولةً عن الإدارة الجمركية، وكانوا يدفعون لي راتباً جيداً، ووضعوني في مكتبٍ صغير في القسم الخلفي من المقرّ الرئيس للشركة، والمؤلف من طابقٍ واحد، وهو المكتب الذي كنتُ أتقاسمه مع مديري دايفيد دادلي، من مقاطعة «ساسكس»، وهي مكانٌ يقع في الجنوب الإنجليزي، وتكتنفه التلال الخضراء والكثير من المطر. ومن خلال العمل تحت إدارة دايفيد، تعلّمتُ التكلّم والقراءة والكتابة باللغة الإنجليزية. علّمني كيف أحسب الأرباح والخسائر، وكيف أحفظها مسرودةً بانتظام في دفتر الأستاذ العام.

عندما سألت دايفيد إذا كنتُ أستطيع أن أقوم برحلةٍ مع أخي، قال، «دبي؟! هل تُدرك ماذا يمكن أن يحدث في رحلةٍ كهذه، غير مضمونة العواقب؟» وتحت حاجبيه المنفوشين، تضاءلت عيناه حتى أصبحتا مُجرّد نقطتين خضراوين لامعتين. «لو ذهبتَ وأنت

تُزمع قضاء أسبوع هناك، فقد ينتهي بك الأمر عالقاً لمدة شهر، قد تتعطّل الشاحنة التي تسافر إلى دبي نهائياً، وهو أمرٌ يحدث طيلة الوقت، أنت تعلم ذلك». طَقطَقَ دايفيد بلسانه، وأخذ يسحب الهواء عبر أسنانه وكأنّه يتألّم. «أنت توافق- على ما أظنّ- أنّه لن يكون من الحكمة بمكانٍ أن تُقدِمَ على مثل هذه الرحلة، وذلك بالنظر إلى مسؤولياتك هنا». أومأتُ برأسي موافقاً، وأنا حريصٌ كلّ الحرص على أن أتكيّف مع حصافة رأيه.

هكذا تجري الأمور مع الإنجليز. عوضاً عن رفض طلبك بصراحة، يجعلونك تشعر وكأنك أنت من اتخذ القرار. وحتى مع هذا الإدراك، كنتُ لا أزال أشعر أنني مميّز لكوني أعمل معهم. كانوا أذكياء ومُثقفين جداً، كانوا عمليين ومُنظمين جداً. غالباً ما كان دايفيد يدعوني لأنضمّ إليه في ذلك البار الصغير، والذي كان جزءاً من المجمّع حيث كان يعيش هو وبقية البريطانيين الوافدين. كانت رائحة الكلاب تفوح من البار، بسبب وجود كلبتين يسيل لعابهما، مُمدّدتين تحت الطاولات الخشبية. سألني حارب ذات مرّة ما الذي أفعله مع أولئك الإنجليز، فشرحت له أنّ السبب يعود إلى لعبة رمي السهام. من الطبيعي أنني لم أذكر له أنّ البيرة التي نحتسيها هي التي تجعل هذه اللعبة أكثر إمتاعاً.

هدرت طائرةٌ فوق رأسي، وأدركتُ أنني قد أغفلتُ مخرج العودة إلى الوراء. لقد تخطّيتُ المطار الآن. المدينة خلفي،

والصحراء أخذت تمتدّ على كلا جانبي الطريق المؤلف من مسارين: تلال نظيفة من الكثبان الرملية الشاحبة. ثلاثون دقيقة أُخرى ويُمكن أن أصل إلى مزرعتي في الخوانيج، بشجرات نخيلها التسعمائة التي تُنتج خمسةً من أفضل أنواع التمور: الخنيزي، البرحي، اللولو، السكري، والخلاص.

كنتُ أحبّ أن أتابع طريقي، وأتجاوز المكتب برمّته. كنتُ أستطيع- بسهولة- أن أغفل الذهاب إلى العمل ليومٍ واحد، ولكن سيأتي سعيد في وقتٍ لاحقٍ اليوم، ليخبرني ما الذي خلص إليه من زيارته ذياب المطوع، الرجل الذي رفض ابني خالد. كما أنّ لدى مصطفى أخباراً من القاهرة بخصوص دلال وأمّها. وأنا يتوجّب عليّ البحث عن الصورة. أعلم أنّها في المكتب، ولكن لا أتذكّر أين وضعتها. عيناي مُثبتتان على الطريق الآن، بحثاً عن مخرج العودة التالي. أيّ سنةٍ تمّ التقاط تلك الصورة؟

11
مريـم

بحثتُ عن عادل لأكثرَ من أسبوع. كنتُ أُنعمُ النظرَ في قاعات المحاضرات والعيادات، وأطوفُ حول تلك الأبنية الشبيهة بالمباني الحكومية على أرض الجامعة. كنتُ أتعمّد أن أبقى في المكتبة وقتاً أطول ممّا أحتاج، لعلّه جاء يبحثُ عنّي هناك. هأنذا هنا ثانيةً، مُسمّرةً خلف الطاولة، مع كُتبٍ مفتوحة، والكثير من الرسومات لكلّ الأشكال السنِّيَّة التي تنتشر أمامي. تنهدتُ، ولملمتُ أشيائي. سيصل السائق قريباً ليُعيدني إلى السكن.

في الخارج، كانت السماء- على رحابتها- تزدانُ بلونٍ لازورديّ، مع بعض الكرات القطنية القليلة من الغيوم. كانت بقعةٌ عشبية أمام المكتبة تُزيّن أطرافَها أشجارٌ صغيرة شُذِّبَت أوراقها على شكل مربعات أنيقة. تجاوزتُ تلك البقعة، وعيناي تحومان بحثاً عن عادل، وانتقلتُ إلى الممرّ الرئيس، وهو ممرٌّ عريض، تجثُم على جانبيه تماثيل لأبي الهول. كنتُ قد راجعتُ في ذهني العديد من سيناريوهات كيفيّة الاقتراب منه: سأسير نحوه وأقول مرحباً، ثم سأشكره على تدخّله البطوليّ، وأُهنئه على رد فعله السريع. وإذا استطعتُ أن أحافظ على صوتي ثابتاً،

فقد أثني على غريزته الحادّة المتمثلة في الإطباق على مصدر الألم عند الفلّاح.. وبعدها يُمكن أن نصبح صديقين.

وكما هي العادةُ دائماً، تنتشر مجموعاتٌ من الطلبة يتجاذبون أطراف الحديث أو يُراجعون كُراساتهم فوق المرج الأخضر، يتجمّعون معاً حسب جنسياتهم أو اهتماماتهم المشتركة. كان ثمة عنقودٌ من الطالبات السودانيات، برؤوسهنّ المتشحة بحجاباتٍ ملوّنة، يتضاحكن معاً. ووراء ذلك المكان، كانت مجموعةٌ من المصريين الأثرياء والمشرقيين المتأنقين- فتيات وفتياناً - يجلسون متكاسلين على شكل حلقةٍ واسعة، ينحو سلوكهم نحو الضجر والتبرّم. كانوا يجلسون بعيداً عن الآخرين، وفقاً لاعتقادهم بأنّهم أرقى منهم، لسببٍ بسيط يتمثل في كونهم يعتنقون الأسلوب الغربيّ في العيش. وبين مُداعباتهم الخفيفة، كانوا يرمقون الآخرين بنظراتٍ باردة. كانت وجوههم البليدة تعكس الضجر، مع مقدارٍ وافرٍ من الازدراء، كما كانوا يدخنون، ولم يكن تدخينهم مقصوراً على السجائر فحسب، فلقد شممتُ رائحة الحشيش بينما كُنتُ أتخطاهم بسرعة.

كانت أمامهم مجموعةٌ كبيرة من الشباب الخليجيين، بشكلٍ خاص من السعودية والكويت وقطر، مع القليل من البحرينيين والإماراتيين. ثم كانت مجموعةٌ مختلطة من الخليجيين، فتياناً وفتيات، يجلسون جانباً بعض الشيء، وحديثهم يتّسم بالرسمية الحذرة والمظهر المدروس. يمكن لكلمةٍ أو بادرة حميمية

واحدة أن تحرّك الألسُن بالشائعات التي ستضرب الهواء ليصبح ريحاً عاصفةً يمكن أن تحمل أخبار السلوك غير المحمود إلى موطن الفتاة. لذلك، يبقى كلّ تصرفٍ ضمن السلوك القويم، في هذا المكان العام. كانت الفتيات يتجمّعن معاً، واقفاتٍ بصرامة أو جالساتٍ على المقاعد، أما الفتيان فكانوا يحاولون أن يظهروا بمظهرٍ أقرب إلى قلّة الاهتمام بهنّ، وبينهم مساحةٌ ظاهرة كانت تقتحمها- بين الفينة والأخرى- فتاةٌ جريئة تدخل بينهم لتقارن بين دفترها ودفتر أحد الطلبة الشباب.

انضممتُ إليهم لفترةٍ وجيزة، كي لا أوصم بالتكبّر. كان الفضول يطلّ من أعينهم. يُمكنني القول إنّهم كانوا ينتظرون اللحظة المناسبة ليسألوني عن الهجوم الذي تعرّضت له في عيادة الأسنان، لكني- وفي الوقت المناسب- لمحتُ السائق يتوقّف أمام بوابة الجامعة. كانت فتاةٌ من السكن تجلس في المقعد الخلفي للسيارة، أقلّها السائق قبلي من جامعةٍ أُخرى. وحالما ودّعتُ المجموعة واستدرت، ظهر عادل فجأةً، في منتصف الطريق بين المجموعة والسيارة. تلاشت كلّ السطور التي تدرّبت على حفظها، وكلّ ما صدر عنّي كان صرخةً مشوّشة. كيف أمكنني أن أبحث عنه بتلك المثابرة، ولم أتمكن من إيجاده؟

تعالي معي! كانت الرسالة شديدة الوضوح في وجهه المضطرب. لماذا يتوجب أن يحدث ذلك الآن بالتحديد، أمام

هذه المجموعة من الطلبة الذين كانت أعينهم تختلج بحثاً عن أيّ إشارة لتصرّفٍ غير لائق؟ كنتُ أرغب بشدّة في أن أجده، والآن أتمنى أن يختفي، ببساطة.

تأرجحتُ ما بين قدمٍ وأُخرى، محاولةً أن أُقرّر ما الذي سأفعله.. وأخيراً قرّرتُ أنّ أسير باتجاه السيارة، وإذا حاول عادل أن يقف في طريقي، فسأُسقطه أرضاً.

«مريم، أحتاجُ لأن أراك».

قال ذلك حين مررتُ بجانبه، وأنا في طريقي مسرعةً نحو سيارة السكن. كانت الفتاة في المقعد الخلفي منحنيةً إلى الأمام، على وشك أن تراني، لكني غيّرت اتجاهي فجأةً، فأخذت أعبر المرجة الخضراء. كانت كلّ خطوةٍ أخطوها تأخذني بعيداً عن السيارة. تبعني عادل. لم أكن أسمع وقع خطواته، لكنني كنتُ أعرف أنّه خلفي.

* * *

أخذني عادل إلى واحدٍ من المقاهي المفتوحة في الجيزة، على طول ضفة نهر النيل. كان اسمه الفخم «كازينو البرنسيسة» مكتوباً على لوحةٍ باهتة معلّقة بشكلٍ مائل على تعريشةٍ مسيّجة. كان المدخل يقود إلى ممرّ ضيّق مغطّىً بطبقةٍ عشبية اصطناعية، يؤدي إلى النهر.

كان عادل هادئاً في السيارة، مُسمّراً عينيه إلى الأمام، بينما كان يُناور بالسيارة عبر طُرقات القاهرة. كنتُ أُحدّق من النافذة، وأُمَسِّد غُرّتي، مذهولةً من تصرّفي الخارج عن المألوف، مع أنني- وبشكلٍ مُثير للاستغراب- كنتُ لا أزال أتمرّغ في خضمّ نشوة ذلك التصرّف. ما الذي دفعني لأغيّر المسار بشكلٍ مُفاجئ، دون أن أحسب حساباً للعواقب؟ لمَ لمْ أُقفِل عائدةً عندما تخطّاني عادل؟ كُلّ ما فعلته كان اللحاق به إلى سيارته. كم سينتظرني سائق السكن قبل أن يعود ويرفع تقريراً بأنني مفقودة؟ نعم مفقودة!

لم أُفكّر مرتين. قادتني العفوية، كما اعتادت أن تفعل عندما كنتُ طفلةً واثقة من معرفة أنه- بغض النظر عن المتاعب التي أجد نفسي متورطةً فيها- سيكون أبي موجوداً للأخذ بيدي، إذ كان بمثابة العمود الفقري الفولاذي الذي يبقيني قويةً وصلبة. كان هذا قبل أن يتعرّض للسكتة الدماغية الأولى.

كان جوٌّ من الإهمال يسود «كازينو البرنسيسة»، وقد بدا ذلك واضحاً في الكراسي الباهتة العتيقة، وأغطية الطاولات البلاستيكية ذات اللون القرنفليّ الشاحبة، وأعمدة المصابيح القصيرة المغروسة في الأرض بشكلٍ مائل، وفي نظرة الاستحواذ والتملّك المنبعثة من أعين القطط الكسالى. لكنني لا أكترث لكلّ ذلك، لأنّ ما هو مُهمّ، بالنسبة إليّ، هو أنّه مكانٌ قد تمّ اختياره بعناية: بعيداً عن طُرُق السيّاح، وقلّما يقصده الخليجيون؛ كما أنّه

لا يحوي أولئك الفتيات الصغيرات الملحاحات اللواتي يبعن العقود المصنوعة من أزهار الفلّ الحلوة، أو الصبية المسلّحين بأشرطة كاسيتات الأغاني الرومانسية المعروضة للبيع، أو المصوّرين الذين يُصرّون على التقاط صورٍ تخلّد الذكريات.

لستُ متأكدة لماذا يُطلق عليه اسم «كازينو»، حيث لا توجد ألعاب قمار في المقاهي المحاذية للنهر. ولكن توجد تلك النفحة من الرومانسية؛ فهي أمكنةٌ يُمكن للعاشق أن يجلس فيها ويحدّق في النيل ويُقارن بين مشاعر الحُبّ المضطرمة داخله وبين اتساع النهر. تُمثّل هذه المقاهي محطّات استرخاء في خضمّ المدينة المزدحمة. المعيار هنا أن تأخذ وقتك ولا تستعجل الأمور، بالرغم من أنّه يوجد دائماً نادلٌ يحوم حول الطاولات، يقوم بوزن تقدّم الحوارات الجارية بين العُشاق، ويحرص على مقاطعة تلك الحوارات من خلال طرح سؤالٍ أو تعليق في لحظةٍ حساسة للغاية من لحظات الإفصاح الرقيق، أو التعبير الملتاع، أو المجاهرة الحميمة بالحب.

أعتقدُ أنّ هذا النادل كان يُضايق الثُنائيات الستة الذين كانوا قد تحلّقوا حول طاولاتهم، لأنّ إحساساً بالراحة سرى على وجوههم، بينما كان النادل يحوّل اهتمامه عنهم نحونا. قادنا نحو طاولةٍ بجانب النهر، وعاود أفراد الثُنائيات التركيز بعضهم على بعض من جديد. يُمكنني القول إنّ الجميع كان يعيش ربيع غرامياته، وذلك من خلال الطريقة التي كانوا يميلون فيها بأكتافهم إلى الأمام، بينما

رؤوسهم مائلة جانباً، وآذانهم مشرئبة لتلتقط كلّ كلمةٍ مهموسة، وكلّ حفيف إيماءة، وكذلك من خلال لمعان عيونهم واتساعها، لتدوين كلّ حالةٍ مزاجية أو تعبير.

جلب النادل طلبنا من الشاي، مع عبوةٍ كبيرة من الماء البارد. وبعد جلوسنا على حافة النهر، تحت شجرةٍ يلتفّ شريطٌ بلاستيكي من الأضواء حولها، أخذنا ننفخ بخار كؤوس الشاي. كان الهواء بارداً ورطباً. أرخيتُ «شيلتي» وبدأ الهواء ينفذ إلى غرّتي. لم أكن أعرف ما يتعيّن عليّ قوله لكسر الصمت المتخثّر بيننا، منذ أن غادرنا حرم الجامعة.

لديّ الكثير من الأسئلة لطرحها على عادل. أريد أن أعرف ما إذا كانوا قد استجوبوه كما فعلوا معي. أولاً استجوَبني أساتذة الجامعة، ثم اثنان من أمن الجامعة - دوّنا بعض الملاحظات على الورق - وأخيراً الملحق الثقافيّ الذي وصل من سفارتنا ليسمع أقوالي ويكتب شكوىً رسمية يُطالب فيها بتطبيق المزيد من إجراءات الأمن في الجامعات. ثمة الكثير للتحدّث بشأنه، وموضوع شُكرِهِ أيضاً. يجب ألا أنسى أن أشكره.

كانت كؤوس الشاي في منتصفها عندما عاد النادل وانحنى فوق الطاولة، وكأنّه على وشك أن يُفشي سرّاً عميقاً. «لدينا ليمونادة باردة، ومشروبات غازية، وأفضل قهوة تركية. أو أيّ شيء آخر ترغب فيه. هل أُحضر لك أيّ شيء، يا بيه؟»

هزّ عادل رأسه، وعندما انسحب النادل قلتُ: «يبدو أنّ الكثير من الطلبة يشتكون من فقدان الأمن في الكلّية. هل سمعت أيّ شيء؟»

هزّ عادل رأسه، بينما كان النادل في اللحظة نفسها يُقحم نفسه في وسطنا من جديد: «والشيشة، أيضاً. لقد نسيتُ أن أذكر الشيشة. لدينا نكهة العسل أو أيّ نكهة أُخرى: التفاح، المانجو، عرق السوس».

هذه المرّة نهضَ عادل ووضع ذراعه بشكلٍ أخوي فوق كتفيْ النادل، وقاده بضع خطواتٍ بعيداً عن الطاولة. لم يكن بإمكاني سماع ما قاله، لكنني لمحت البقشيش الذي دسّه له وهو يصافحه. كما شاهد ثُنائيٌّ هذا الموقف، فتجهّمت الفتاة مُعترضةً، وهمست لشريكها بتعليق؛ ربما كانت تقول له إنّ أولئك الخليجيين يظنّون أنهم يستطيعون شراء العالم! لكن ما الذي كان باستطاعة عادل فعله عندما تستحيل الخصوصية إلى ترفٍ لا يُمكن الحصول عليه إلا من خلال شرائه؟

«الواضح أنّه كان مجنوناً»، قُلتُ عندما عاد عادل.

«من هو؟»

«الفلّاح. لقد سمعتُ أنّهم وجهوا إليه تهمةً، وأُرسل إلى السجن. لا أحد يعرف كم سيطول سجنه. هل اتصلوا بك ليطرحوا بعض الأسئلة؟»

«ولماذا قد يفعلون ذلك؟» كان التعبير على وجهه جاداً. «هل أنتِ متأكدةً أنك رأيتِ ما تعتقدينَ أنك رأيتِ؟» كان ثمة ومضةُ ابتسامةٍ خبيثة، قمعها عادل بنشقةٍ من الهواء. «أنا مُتأكد أنكِ مُخطئة، لم أكن أنا الشخص الذي رأيتهِ هناك».

«حسناً، شكراً لك لعدم كونك هناك»، قُلتُ هذا مع إيماءةٍ من رأسي، أردتُ لها أن تكونَ خفيفةً ومرحة، لكنها أتتْ كثيفة، كالهواء حولنا، الهواء الذي توقّف عن الحركة تماماً. استدرتُ نحو النهر وأخذت أحدّق في الخيط المتلاشي لمغيب الشمس. ومع أنني شعرتُ بالإحراج يعود، تمتمتُ: «لا شك في أنّكَ ضِعتَ في الفوضى التي عمّت المكان».

أطلق عادل ضحكةً حماسية، ومعها أتى نسيمٌ مُفاجئ. بدا وكأنّ الجوّ كان ينتظر إشارةً من عادل. هبّاتٌ متموّجة أخذت تدور حولنا، سبّبت حفيف الأوراق، وحرّضت القطط على التطواف في المكان، جميعها في وقتٍ واحد، وهي تهدف إلى ممارسة بعض ألعاب القطط. نادى عادل على «النادل» وطلب شيشة، وبعدها انطلق لسانه بالكلام، وهو الأمر الذي وافق مُبتغاي بشكلٍ جيد.

عادل من إمارة الفجيرة ذات الطبيعة الجبلية، وهي الإمارة الوحيدة في دولة الإمارات العربية المتحدة التي يطلّ شريطها الساحلي على خليج عُمان. ينتمي عادل لأسرةٍ من الطبقة الوسطى،

فأبوه موظّفٌ كمُحاسبٍ حكوميّ. وهو الصبي الوحيد بين شقيقاته السِتّ، والثاني في الترتيب. اتكأ عادل إلى الخلف في كرسيّه، ومن بين نفثات شيشته، أخبرني أنّه أوّل فردٍ في عائلته يدرس في الخارج. أخبرني أنّهم فخورون به، وغمرني إحساسٌ بالحنوّ تجاهه عندما عبّر عن خوفه من أن يخذلهم. أصررتُ على مُتابعة دروسنا، لنتأكّد من عدم حدوث هذا الأمر. لكنّ عادل تابع الحديث، ووصف شقّته في المهندسين التي يشترك فيها مع طالبين آخرين: «أحياناً لا تفضي بنا الأمور إلى الخير»، قال ذلك مع غمزة، وأخذَ نَفَساً عميقاً جعل الشيشة تُقرقر بشراسة.

لستُ مُتأكدة ممّا كان عادل يعنيه، ولم أسأل. عوضاً عن ذلك، همهمت بصوتٍ هادئ، وانجرف عقلي بعيداً. بالنسبة إليّ، ياللبساطة والوضوح والانسجام بين الرجل والمرأة عندما لا تكون بينهما ثمة مصلحة أو توقعات، هذا هو الشكل الذي يجب أن تكون الأمور عليه.

حلّ الغروب وأخذ النهر يضرب ويموج، وكأنّه يستعدّ لليلةٍ من الراحة. كانت الشمس تتسكّع مُنخفضةً في السماء، وكأنّها تستعدّ لسحب ضوئها. كنتُ أراقبها بينما كان شعاعها الأخير الزاهي- وهو عبارةٌ عن شريطٍ ياقوتيّ يتذبذب في النيل- يختفي قبل أن أعود بنظري إلى المقهى لأرى النادل وهو يُزعِجُ ثُنائياً آخر. كان النادل يشعر بالسعادة لإحساسه أنّه موجود طيلة الوقت. كان يُنادي على «النادل» لتفريغ منفضة السجائر ومسح

قماش طاولات الثنائيّات، وعندما يمتنعون عن الدفع له، كي ينصرف عنهم، يُقرّر أنّ الوقت قد حان لتعديل وضع الطاولة. «في الحال!» يقولُ مُصرّاً بحركةٍ مسرحية، وهو ينزع ورقةً من دفتر ملاحظاته ويطويها على شكل حشوةٍ سميكة، ليدسّها تحت ساق الطاولة. وعندما تعبّر المرأة عن رغبتها بصوتٍ عالٍ فيما إذا كانت ترغب بكأسٍ أخرى من الليمونادة، يقوم النادل بطقطقة أصابعه لتأكيد الطلب، قبل أن تسنح لها الفرصة لتغيير رأيها، فيمضي بعدها مزهواً بانتصاره، إلى طاولةٍ أُخرى، حيث يبدأ جولة إزعاجٍ جديدة.

«إنّه دوركِ الآن»، قال عادل وهو ينحني إلى الأمام. «أخبريني عن نفسك».

فاجأني عادل على حين غُرّة. «أنا؟ ما الذي يُمكن قوله؟».

أمال برأسه إلى الخلف، ونفخ نَفَساً طويلاً من التبغ المعسّل. لاحقتُ سحابة الدُخان بنظري وهي تدوّم وتبتعد من فوق الحائط المنخفض الذي يفصلنا عن النهر. كان لون المياه على جانب النهر يشبه لون ماء غسل الصحون العكر. أمكنني رؤية العيدان والأعشاب التي جرفها التيار، وهي تستريح متجمّعةً بجانب الحائط؛ كانت تشكّل عشّاً تبرز منه خرقةٌ رمادية، وعبوة صودا فارغة، وقطعةٌ كرتونية مُخضلة بالماء، وكيسٌ بلاستيكيّ أصفر اللون فاقع.

«ما أعنيه، هو لماذا اخترتِ هذا التخصص الصعب؟ لماذا لم تختاري شيئاً أسهل، مثل الأدب أو التاريخ؟ صحيح أنّه يُمكنك جني الكثير من المال كطبيبة أسنان، ولكن لا يبدو أنك تحتاجين إلى المال. فأنتِ ثرية. أنتِ لا تحتاجين لأن تعملي. يُمكنك فقط أن تجلسي مُسندةً ظهرك للحائِط، دون أن تقومي بأيّ عمل». كانت نبرة صوته لطيفة. لم تكن تحمل الغيرة في طياتها، مجرّد الفضول فقط.

لا يعرف عادل أنّ ثروتي الشخصية ليست بالملايين، إنّها تكفي فقط للاستمرار. كان أبي ينوي أن يسجل بعض الممتلكات والأراضي باسمي، لضمان مُستقبلي، لكنه- حين قرّر أن يضع هذا الأمر موضع التنفيذ- كان الأوان قد فات.

غمرني إحساسٌ غريب ملأ حنجرتي. انقبض صدري وبدأت ألعب بكرسيّي، مُمسكةً بالسحّاب المعطوب للوسادة تحتي، ساحبةً إياه في هذا الاتجاه أو ذاك، محاولةً إجباره على أن يُغلَقَ فوقَ الحشوة الإسفنجية المقضومة. كان عادل مُدركاً أنّه قد أصاب وتراً حساساً. سحبَ نفثةً من الشيشة وأخذ يرمقني باهتمام. كنتُ مأخوذةً بنخوته عندما لم يقُل شيئاً آخر عن الموضوع.

بعض الفتيات في السكن سألنني هذه الأسئلة. كُنّ قد أحصين مُسبقاً كمية الأموال التي تمتلكها عائلتي، وذلك اعتماداً على قُصاصات التقديرات المختلفة للمجتمع، والخاصة بثروة عائلة

النسيمي. في سياق ردّي، كنتُ أُقلّل من أهمية المال، وأشرعُ في تقديم محاضرةٍ تتمحور حول أهمية خدمة المجتمع وردّ الجميل لحكومتنا السخيّة، من خلال التعلّم وجلب مهاراتٍ أساسية للوطن. إنّه شرحٌ باهت، شيءٌ يُمكن تقديمه لصحافيّ أو موظف حكوميّ. لكنّه نفعني جيداً، حيث توقفت الفتيات عن طرح الأسئلة. أما بالنسبة إلى عادل فوجدتُ نفسي أقول:«أنا أحتاج إلى الشعور بقيمتي الذاتية، وبجدارتي».

توقّف عادل. كان ثمة انقطاعٌ لذلك الجيشان الثابت الإيقاع لماء الشيشة، وأخذت أبحثُ عن شيءٍ أُركّز فيه. كانت ثمة علبة السكّر المعدنية. أمسكتُ ملعقة الشاي، وأخذتُ أكشطُ السكّر المتصلّب على حوافها. كان عقلي مشوشاً، غير مُصدِّقٍ لما قد تفوهّت به الآن.

وضعَ عادل خرطوم الشيشة على الطاولة وانحنى إلى الأمام. يريدني أن أبثَّ له همومي، ولكن كيف يُمكنني ذلك مع كلّ هذا الكمّ من تقريع الذات الذي يعتريني، مع هذا الإحساس العميق بالذَنب، عُمقَ النهر الذي يجري بجانبي، والكثيف كثافة الطمي في قاعه؟ لقد كنتُ هناك. لقد شاهدتُ كلّ ما حدث. لم أقُلْ شيئاً. سمحتُ للأمر أن يتمّ.

تتدافع الصور في رأسي: سرير المستشفى حيث كان أبي يرقد مُحاطاً بوسادتين اثنتين، وهو يتعافى بعد سقوطه إثر تعرّضه

للسكتة الدماغية، وحبّات السبحة التي لا تتحرّك، الساكنة سكون اليد التي تحملها، الفم المفتوح والعينان الدامعتان الممتنتان بشدة لله لإبقائه على قيد الحياة، ولشقيقه للاعتناء به. الأوراق أمامه وكاتب العدل يسأله: «هل تفهم وأنت بكامل إدراكك ماذا يعني هذا؟».

أعرفُ أنّه يتوجب علينا المغادرة خلال الدقائق القليلة القادمة، إذا ما أردنا أن نصل إلى السكن قبل التاسعة، لكنّ شعوراً بالثقل ثبطني. استرخى رأسي على ذقني، وحوّلت نظرتي. أطلقتْ بعوضةٌ طنينها الحادّ حول جبهتي، بينما توقّف الهواء المزاجيّ عن الحركة ثانيةً. قرصتني البعوضة، لكنني لم أُعرها اهتماماً لأحكّ موضع عضّتها. لم أجرؤ على أن تلتقي نظراتي بنظرات عادل، كلمةٌ واحدة، نظرةٌ واحدة منه يُمكن أن تُضعِف لساني وتتسبّب في إطلاق كلّ ما هو مُحتجزٌ تحته.

«حسناً»، قال عادل.. «كيف هي ابنة عمّك؟ ماذا كان اسمها؟ «دلال».. نعم، هذا هو، «دلال». هل هي صديقتك المفضّلة؟».

كنتُ مُمتنةً جدّاً لتغيير موضوع الحديث، لدرجة أنّي أجبته مباشرةً. «نعم، هي كذلك».

«هل كنتما مُقرّبتين عندما كنتما صغيرتين؟»

قلت: «آه، نعم»، ومع عودته إلى شيشته، انجرف عقلي بعيداً إلى الماضي، وأخذتُ أفكّر كيف تكوّنت صداقتنا غير المحتملة.

أوّل شيءٍ صدمني حول «دلال» كان جُرأتها. كنتُ مع نوف في ساحة المدرسة عندما بحثتْ دلال عنها وأخبرتها أنْ لا مفرّ من الحقيقة القائلة إنّهما شقيقتان. وقفت دلال قبالتنا واضعةً قبضتيها حول خصرها، مُتباهيةً بهذا الأمر. حينها، انعقد لساننا من الإنكار.

كانت دلال فتاةً صغيرة ذات مظهرٍ غريب، ولا تشبهنا على الإطلاق. كانت ضفيرتاها مُنساحتين نتيجة الرطوبة، وتنبثقان من مشبكيْ الشعر الورديين على كِلا جانبيْ وجهها. كانت إحدى عينيها ترفض أن تفتح بشكلٍ كامل، وأنفها أفطس، بحيث أنّي- تحت وهج شمس الصباح- لم أكن أستطيع أن أرى الخط، فقط نقطتين صغيرتين تنبثقان في منتصف وجهها الذي كان أبيض بلون الحليب.

شَهِد منزل عمّي ماجد اضطراباً شديداً، عندما أخبرتهم نوف لاحقاً بما حدَث، وهو الأمر الذي أجّج فضولي. هل كانت دلال ابنة عمي السرّية حقاً؟ أين تعيش؟ ما الذي دفعها لتظهر فجأةً في حياتنا؟

نعتت نوف دلال بالنصّابة، وطالبتني بألا أتكلّم معها مُطلقاً. حافظتُ على ذلك الوعد، دون أن يعني ذلك أنني لم أستطع التكلّم مع دلال بشكلٍ مباشر. تطوّرت صداقتنا ببطء (حيث كُنّا مُختلفتين كثيراً)، لكنّها ازدهرت بعدما عاد أبي من رحلة استشفائه في ألمانيا. كان وقتاً مشحوناً بالقلاقل في منزلي، حيث حاول أبي أن يُعالج خيانة أخيه له. لذلك لم يكُنْ لديه وقتٌ لي، وانتهى بي المطاف أبحثُ عن دلال. توحّدنا أنا وهي في بؤسنا. نفثنا شعورنا

المكبوت بالغضب والإحباط على الرجل المسؤول عن كلّ مآسينا، عمّي، أبيها، مُقسِمَتين أن نردّ له الصاع بطريقةٍ أو بأُخرى.

كانت أفكاري قد وصلت في تطوافها إلى هذا البُعد، عندما أدركتُ أنّ عادل كان يطرق الطاولة بخرطوم الشيشة، ويُعيدني إلى لحظة الواقع. «لقد سألتك سؤالاً فقط»، قال عادل، «ثلاث مرات!»

«آسفة. ماذا كان السؤال؟»

«في أيّة حال، ابنة عمّك دلال، ما الذي تفعله هنا في القاهرة؟»

«إنّها تريد أن تُصبح مُغنّية».

«مُغنّية، ها؟»

أومأتُ برأسي. «لديها صوتٌ جميل».

«قد يُمكننا أن نلتقي معها قريباً، ويُمكنها أن تُغنّي لنا».

«ستُحبُّ دلال ذلك»، قلتُ. «المشكلة أنّها عندما تبدأ، فلن تتمكن من إيقافها».

ضحك عادل ضحكةً خافتة، ووضع خرطوم الشيشة في فمه من جديد. سَحبَ نَفَساً عميقاً، جاعلاً الماء ينفجر في فقاعاتٍ صغيرة. إنّه صوتٌ عذبٌ يجعلني أُفكّر في مجموعةٍ سعيدة من النساء المهذارات. دلفَ النادل نحو طاولتنا ثانيةً. يبدو أنّ وقت الخصوصية الذي اشتريناه بالبقشيش قد انقضى. طلبيةٌ ثانيةٌ من كأسين آخرين من الشاي سترضيه وتجعله يُغادرنا، بينما غاص كل منا في كرسيه وأخذنا نتحدّث عن دلال وطرائفها.

12

ماجد

من خلال الجدران الزجاجية لصالة العرض، يقف جرّارٌ مُتألق؛ وحالما أدخُلُ «السُّمر الأخضر المحدودة»، يلتقط الفرّاش قطعةً قماشية ويبدأ بمسح غطاء محرّك الجرّار بضرباتٍ سريعة. إنّه جرّارٌ للعرض، له رافعة تحميل أمامية، وذو لونٍ أخضر فاقع، مع محاور عجلات صفراء. يقف الجرّار على بلاطاتٍ فاقعة البياض بزاويةٍ مائلة، في مواجهة محراثٍ إزميليّ أحمر بلون الطماطم. تقع منطقة الاستقبال في الجانب الأيمن من صالة العرض، حيث يجلس مصطفى عادةً، وأنضم إليه أراقب السيارات التي تعبر في الخارج، في شارع المطار، مع اقتراب وقت الإغلاق. لمحتُ مصطفى من خلال أكوامٍ من الفُرشات ولفافات الأنابيب البلاستيكية المستخدمة للريِّ بالتنقيط، إذ كان مشغولاً مع أحد الزبائن.

إنّها الصالة الرحبة نفسها التي اشتراها أخي حارب بعدما سجّل الشركة، لكنّها لم تبدُ أبداً هكذا عندما كان على قيد الحياة، إذا اعتدنا أن نراها مظلمةً ومغبرة، وطلاء جدرانها بدرجاتٍ غير متناسقة من اللون البيج، كما بقيت الأرضية باهتةً في قاعدتها الإسمنتية الأصلية، بينما كان الموظفون محشورين خلف المكاتب المعدنية

التي كانت تلامس كتلاً عالية من إطارات الشاحنات وأكواماً من قطع الغيار. أبدى أخي قليلاً من الاهتمام بمسألة عصرنة أو ترتيب «السُّمر الأخضر».

عندما تولّيتُ الإدارة، أعدتُ ترتيب الشركة. قمتُ بفصل المكاتب ووضعها في الخلف، من أجل الخصوصية. أمُرُّ الآن في صفٍّ من مساحات العمل التي تفصل بينها قواطع زجاجية تمتلئ بالمحاسبين – المصريين والهنود – الذين يشدّون ظهورهم عندما يعلمون بوجودي، ويرفعون أنظارهم عن أوراقهم ودفاترهم وحواسيبهم المركّبة حديثاً. ترتسم على وجوههم الجامدة ابتساماتُ الاحترام المتواضعة، وأقوم بدوري بالردّ على تحيتهم بإيماءةٍ من رأسي، وأستدير إلى الطرف الآخر، مارّاً بغرفةٍ كبيرة نستخدمها للتخزين، وأتوقّف قليلاً في المدخل المفتوح لأوّل مكتب. يجلس سيف متراخياً في كرسيّه الدوار، وظهره لي. كانت سمّاعة الهاتف مُستندةً إلى كتفه وهو يتكلّم بصوتٍ هامس. كان يتكلّم مع امرأة، وهذه المرأة ليست زوجته. يُمكنني تأكيد ذلك، لأنّ صوته كان ينضح غراماً.

كان أحمد في المكتب الثاني مُنهمكاً بقراءة جريدته، لكنّه لمحني فقفز واقفاً على قدميه مثل جنديّ، وتعابير وجهه تقول إنّه مستعدّ لاستيعاب أيّ رغبة لي، حيث بدأ بسرد قائمةٍ عن التطورات الأخيرة– بضع أسئلة من شركات مهتمة، بعض التحديثات التي طرأت على مختلف العقود التي كنّا نقوم

بتنفيذها – وهي الأمور التي حدثت منذ وصوله في الثامنة تماماً. «ألم يبرأ قلب أخيك المفطور بعد؟» سألته وأنا أنظر بأسىً إلى الطاولة الأخرى في المكتب المشترك، والذي ما برح شاغراً منذ أسبوعين، عندما حزم خالد أغراضه فجأةً وغادر إلى «بانكوك» دون إخباري. هزّ أحمد رأسه، وهو يتنهّد تعبيراً عن تعاطفه. نخرتُ بصوتٍ مرتفع، وقام أحمد بالمناداة على سيف الذي اندفع واقفاً إلى جانبه، مُمسكاً بملفٍّ أخضر أمام صدره. وكما هي العادة دائماً، فإنّ لدى أولادي فكرةً يرغبون في أن أوافق عليها. كنتُ قد أجّلتُ مُسبقاً احتمال سماع آخر فكرة مُنذ فترةٍ طويلة، لذلك أشرتُ إليهما ليتبعاني، وفكرةٌ واحدة تدور في رأسي: الانتهاء من هذا الأمر بسرعة، وبالتالي أن يتركاني بسلام، فأستطيع حينها البحث عن الصورة.

يقع مكتبي مع مكتب سكرتيرتي في نهاية الرواق، وهو يضمّ منطقة جلوس تبدو كأنها غائرةٌ، لأنّها أوطأ بكثير من الطاولة الضخمة. وعندما يكون لديّ زوار، أنضم إليهم على المقاعد الجلدية الناعمة، كي ألا أبدو كأنني أترفّع عليهم، فيبدو أنّ في الأمر قلّة احترام، لكنّي لا أمانع في القيام به مع أبنائي. عندما جلستُ وراء طاولتي، سحب سيف ما بدا كأنّه عقدٌ سميك من الملفِّ الأخضر وقدّمه لي. كان مطبوعاً ومُنمّقاً، وبدا لي أنه يزيد عن عشرين صفحةً مُضجِرة تحتاج إلى القراءة. «ما هذا؟» قلتُ وأنا أوازنه كسمكةٍ ميتة في راحة يدي.

تنحنح وقال، «هذا اقتراحنا لرفع الشركة إلى الأعلى، إلى المستوى التالي».

«آه؟ أنت تعني أقرب إلى السماء؟» وضحكتُ لهذا التلاعب اللفظيّ. ابتسم أحمد، لكنّ سيف رمش بعينيه فقط، حيث إنه يتصف دائماً بمشاعر متناقضة تجاه ذلك الشيء المسمّى فُكاهة.

«يوجد تحليلٌ للسوق»، قال أحمد وهو ينظر بعمقٍ وإمعان، بينما كانت يداه مشبوكتين بشكلٍ مُسترسِل، وسبابتاه تضربان بعضهما البعض.»ستجد أفكاراً جيِّدة فيه».

«حقاً؟» وضعتُ نظارتي الخاصة بالقراءة.

كان أحمد على وشك المتابعة - كان يُمكن لصوته الناعم أن يكون قادراً على جذب انتباهي - لكنّ سيف- بطبيعته الثائرة- أفسد كلّ شيء. «نعم، يا أبي، إنّه حقيقي»، قال سيف بصوته الفظّ الذي ينضح تبرماً. «ثمة اقتراحاتٌ تتعلّق بما يتعيّن علينا القيام به لتوسعة العمل عندما يشهد السوق ارتفاعاً، وتوسعة نطاق أعمالنا عندما يحدث انخفاضٌ في السوق». لم أُحِبّ نبرة صوته التي كانت تقترب من حدود الصفاقة. لقد تسبّبتْ بتعكير مزاجي في الحال.

«هذا سهل. عندما يرتفع السوق، نجني الأموال، وعندما ينخفض السوق، نخفض المصروفات». قُلتُ مُستهزئاً، بينما كُنتُ أُقلّب الأوراق. «هل هذا ما تعلمتماه في دورات الأعمال

التي حضرتماها؟ كان يتعيّن عليكما أن تسألاني عوضاً عن إضاعة الوقت – وقت الشركة ووقتي – من خلال صياغة هذا الهراء».

«لكنّ هذا كُله علميّ. كلّه مبنيّ على مبادئ الأعمال السليمة. ستجد فيه توجّهات السوق، والتوقّعات أيضاً».

ضحكتُ قائلاً: «وبالتالي يُمكنك أن تخبرني ما الذي سوف يحدث بعد سنة من الآن؟»

«أرجوك، اقرأه فقط!» إنّه أمرٌ وليس طلباً.

اخترتُ ورقةً عشوائيا ملأى بالرسومات البيانية المتعددة الألوان، والتي توضح تحليل السوق الذي ذكره أحمد. قلّبتُ ورقتين أخريين قبل أن أغلق المقترح. «لا أستطيع أن أنظر في هذا الأمر الآن»، أخبرتهما بذلك وأنا أسحب نظارات القراءة من على عينيّ. «لديّ الكثير من العمل. يتعيّن عليّ مُراجعة سحوباتنا المالية، من أجل شيءٍ واحد فقط: ما الذي نُنفق دراهمنا عليه، وكم نوفّر، وما هي الكمّية المخصّصة لرواتبكما، من أجل أن تعيشا باحترام. هذا ما أنا مستعدّ لأن أُتعِبَ عينيّ من أجله: النقود التي تدخل وتخرج، وليس تلك الموسوعة التي أحضرتماها لي».

اسوَدَّ وجه سيف. نظرَ إلى أخيه الذي هزّ رأسه بطريقةٍ تقول: لقد فشلتَ فشلاً ذريعاً. قد يقول البعض: إنّه يجب أن أُعطي أولادي صلاحية أكبر في الشركة، لكنّ ثمة الكثير من الجوع في أعيُنهم،

زوجان من أضواء المصابيح الدائمة التغيير، الدائمة الاضطراب نتيجة الطمع. ثمة طَرقٌ، بالكاد يُسمَع. أعتقد أنه مصطفى، وعندما يلوحُ من خلال الرواق، أُلوِّح له بيدي ليدخل. «مصطفى، الأولاد لديهم أفكار - أيضاً مرة أخرى!!» دفعتُ المقترح إلى طرف الطاولة، واتكأت للخلف في كرسيّي. «أعطِه لمصطفى ليلقي نظرةً عليه»، قلتُ لسيف. «يُمكنه أن يُخبرني إن كان يستحقّ الاهتمام». نظرتُ عابساً إلى وجهه المذهول. «أيّ شيء آخر؟»

«كلا»، قال مُتمتماً.

حالما غادر ولداي الغرفة، أخذ مصطفى يتسكع قرب طاولتي وهو يقول: «لم يكُن سعيداً بالنكتة التي أطلقتَها، يا بيه». وبابتسامةٍ عريضة عصبية، أخذ يمسح صلعته من الشرق إلى الجنوب.

«لم تكن نكتة. اقرأ ما كُتِبَ في الملفّ وأخبرني به».

«حاضر يا بيه». غَطَسَ للأسفل وابتلعته الأريكة، وانثنت قدماه وظهره بانحناءةٍ خرقاء، وأخذ يسرد آخر الأحداث في القاهرة، كما وردت من الرجال الأربعة الذين وظّفهم (وكانوا يعملون في مناوبات) لتعقّب زُهرة ودلال. فَتَحَ مصطفى دفتر ملاحظات صغيراً، وأخذ يقرأ الملاحظات التفصيلية التي خطّها فيه. أخبرني أنّ «العيون» قد أكدوا له أنّ زُهرة ودلال- خلال التسعة عشر يوماً المنصرمة- كانتا تزوران الملحّن ذاته. «والآن هي زياراتٌ ليلية أيضاً»، قال بعيونٍ متورّمة، «زيارات ليلية متأخرة».

«وما الذي يُفترضُ أن يعنيه ذلك؟»

«لا أعرف، يا بيه». اتكأ للخلف، بملامِح المهزوم.

الكثير من الشروحات، ولكن لا نتيجة، هذا ما توصّلتُ إليه، آخذاً في الاعتبار ما إذا كان من الأنسب أن أسافر لأرى بنفسي. ينتابني الفضول لأرى كيف هي ظروف معيشتهما. تُحبّ زُهرة رغد العيش. كيف تتدبّر أمورها وسط أوساخ إمبابا؟ تصوّرتُ قدميها الجميلتين تطوفان حول أكوام النفايات في الشوارع، وأنفها الدقيق ينحو جانباً في كلّ مرّةٍ تضرب غيمةٌ من عوادم السيارات وجهها. ملأتني هذه الصور بفرحٍ غامِر. نعم، إنّها- على الأغلب- تعضّ أصابعها ندماً على اليوم الذي تركت فيه دُبي و«منزل الشعبية» في المنخول.

كان «منزل الشعبية» يقع في وسط متاهةٍ من الطرقات الرملية الضيّقة، المطروقة كثيراً من المارة، والتي تصلّبت وتحوّلت إلى اللون الرماديّ الداكن، والتي تُفتح غالباً على قطعة أرضٍ فارغة اتخذها الأولاد ملعباً لكرة القدم. بُني المنزل، وكان كبيراً بالنسبة إلى قطعة الأرض. لم تكُنْ باحته أكثر من مربّعٍ ضيّق غُرست شجرة غاف في منتصف أرضيّته الإسمنتية.

بقي «بيت الشعبية» مؤجّراً لسنواتٍ عدّة لامرأةٍ عجوز، أرملة لم يكنْ باستطاعتها دفع تكلفة صيانته. كانت جدران المنزل متقشرةً والأنابيب ترشح، والشقوق ملأى بالنمل في الأرضيات

والسجادات البالية، ووحدات التكييف التي تجأر لكنها لا توفّر التبريد عندما تشتدّ درجة الحرارة في الصيف. توفّيت الأرملة العجوز في الوقت المناسب تماماً: حين قرّرتُ أن أُرسل زُهرة للعيش هُناك، كعقابٍ لها على ما فَعَلَتْه.

أفضل السنين التي عشتها مع زُهرة كانت السنين الأولى. بعدها، فقدت سلوكها الجذّاب، واستبدلته بالسخرية المتعجرفة التي جعلتني أرغب في كسرها، حيث استحالت إلى مخلوقةٍ جاحدة بطلباتها الحرونة. لم يكُنْ ما تطلُبه هو إشهارُ زواجنا فقط، وهو الأمر الذي لطالما أكّدتُ لها أنني سأقوم به في الوقت المناسب؛ لكنّها بدأت بالإلحاح عليّ لأهجر عائشة وأنتقل للعيش معها. يا للوقاحة! بعدها، أعلنتْ في أحد الأيام أنّها قد سئمتْ الانتظار، وأنّها ستُعلن زواجنا بنفسها. كان تهديداً لم آخذه على محمل الجدّ، لكنّه كان تهديداً مثل بقية التهديدات، وله تأثيرٌ عظيم في دفعي بعيداً عنها. أصبحت مشاعري باردة، وتوقّفت عن زيارتها. ثم أتت هي بنفسها.

كانت عشيّة عيد الأضحى.. الاحتفال بالعيد الكبير. كنتُ أراقب عائشة وهي تُعِدّ الحلويات والمكسرات، وتسكبها في الصِحاف كجزءٍ من استعداداتها لسيل الزوّار الذين سيملؤون المنزل خلال الأيّام الأربعة التالية. رنّ الجرس، وذهبت الخادمة لتفتح الباب. لم أستطع تمييز زُهرة عند دخولها؛ فقد كانت ترتدي برقعاً وعباءة. الواضح أنّها ظنّت أنّ هذا الأمر سيُضفي مزيداً من المصداقيّة على

ما ستقوله. كانت دلال - كانت في سنّ الثامنة حينها- برأسها الكبير ومعصميها النحيلتين للغاية، بحيث يُمكن لأيٍّ كان أن ينتزعها من قبضة أمّها المحكمة - هي التي أحدثت فيّ الهزّة، وجعلتني أدرك حجم المأساة التي كانت على وشك الحدوث.

«إنّه جبان! إنّه سكّير!»، صرخت زُهرة.

استدارت عائشة نحوي وسألت: «مَن هي هذه المرأة؟»

«هذه المرأة؟» قالت زُهرة وهي تدفع بدلال إلى الأمام. «يتوجب عليك أن تسأليه هو مَن هي هذه الفتاة الصغيرة!»

بعدها حصل شيءٌ غريب. بدأ صوت زُهرة يهتزّ، وبدأت الكلمات تسقطُ منها مُضطربة. ربما شعرتْ فجأةً بالرهبة من ضخامة منزلي، أو حتّى من عائشة التي كانت تُحدّق فيها بذعرٍ ممتزج بالحيرة. «ما هذا؟» استمرّت تسأل. «من أنتِ؟ ما الذي تُحاولين أن تقوليه؟»

لم يكُن من وقتٍ أضيّعه. اختلقتُ ضجّةً كُبرى، أخذتُ ألوّح بذراعيّ لإخافتها. رفعتُ صوتي عالياً جداً لدرجة أنّ عائشة، وهي في خضمّ بلواها واضطرابها، صَمّت أذنيها. جذبتُ زُهرة ودلال بالقوّة خارج المنزل، وأمرتُ طاقم الخدم بإرسالهما بعيداً، بواسطة سيارة أجرة. حتّى الآن لا أستطيع استيعاب كيف أمكنني أن أستجمع أعصابي بهذه السرعة. أوقفتُ نوبة الغضب التي تملّكتني، وقفلتُ عائداً إلى المنزل لمواجهة عائشة. «إنّها امرأةٌ مجنونة»، قلتُ لها.

كان من الصعب الحُكم كم تأثّرت عائشة بما جرى، وما إذا كانت قد صدّقت ما سمعته، لكنّني لم أكن لأحقّق في هذه النقطة. »من أين يأتي هؤلاء الشحاذون؟ من الذي يسمح لهم بدخول البلد؟« كان يُمكن أن أنجو من ذلك الشجار لو سمَح لي القدر بذلك.

بعد أسبوع، اقتحمت ابنتي نوف المنزل وهي تحمل أنباءً مفادها أنّ فتاةً أُخرى في مدرستها الخاصة تحمل اسم العائلة ذاته. «لقد تقدّمتْ نحوي بشكلٍ مُباشر وقالت إنّنا أخوات! اسأل مريم، كانت معي. نحن لم نرَ هذه الفتاة أبداً من قبل، إنّها أصغر مننا بصفّين دراسيين». كانت نوف مُنفعلة، وتختنق بكلماتها. «أخوات؟! كيف يُمكن أن يحدث هذا؟ هي لا تُشبهنا البتة، كما أنها تتكلّم بلكنةٍ مصرية».

لم أُدرِكْ أنَّهنَّ كُنَّ يذهبن إلى مدرسة البنات نفسها، وهذه المرّة لم يكن من مفرّ من صلة القُربى. فهمتْ عائشة الأمر. أتذكّر رؤيتي أختها في منزلنا في تلك الفترة أكثر من المعتاد. لا شك في أنّها كانت ترجوها أن تهجرني. بقيت أتوقّع أن آتي إلى البيت يوماً فلا أجد زوجتي. لكنّ عائشة بقيت في البيت، انطوائيةً بشكلٍ هادئ، منيعةً مع ذلك الوجه الخالي من الملامح. كان من الصعب تخمين ما كان يدور في رأسها.

لم يكُنِ الأمر كذلك مع أبنائي وبناتي - كان أربعةٌ منهم كباراً ومتزوجين- وبالتالي افترضوا أنّهم يملكون الحقّ بتقديم الطلبات.

تيبّست تعابير سيف وأحمد، واستمرّا في طرح السؤال التالي: «وماذا بعد؟» من جهةٍ أُخرى، منى وأمل خلقتا جعجعةً باحتجاجهما وإعلانهما عن مقدار الألم والأسى الذي سببته. كما أنّهما سحبتا الفتاتين الأخريين، ناديا ونوف إلى نوباتٍ من الدموع والبكاء الهستيري، وهي الأمور التي كنتُ أعرف أنّني أستطيع وضع حدٍّ لها، لو اعترفتُ وأقررتُ بخطئي، وأظهرتُ بعض الندم، أو حتى كذبت لأزعم تعرّضي للخداع، من قبيل: «لقد حدث الأمر في لحظة ضعف. لقد كانت غاويةً خدعتني لأقع في حبائل زواجٍ لم أكُن أريده. لا شك في أنّها استخدمت السحر، وأعمت بصيرتي به. ثم وُلِدَت الطفلة – وهو الأمر الذي لا بدّ أنّه قد خُطِّطَ له جيداً أيضاً– بحيث تمكّنتْ من تقييدي. ولا أحد يعرف بهذا الأمر.. نعم، بالطبع سأُطلّقها». هذا ما كانوا ينتظرونه مني. هذا ما كانت العائلة بكاملها تتوقّعه، ولكن كان عليهم أن يعرفوا أنّه لم يكُنْ بإمكانهم أبداً أن يُرهبوني ويُجبروني على تقديم اعتراف، سواء أكان حقيقياً أم مُختلقاً.

في البداية، اعتزمتُ أن أُطلّق زُهرة مباشرةً، لكنّ رد فعلهم أخرج تلك الفكرة من رأسي بعيداً. أيّ حقٍّ يملكون للحُكم عليّ؟ لقد أبقيتهم جميعاً يُخمّنون نواياي، وهذا الأمر شملَ زُهرة أيضاً، والتي تعيّن عليها احتمال عذاب الانسحاب، إلى أن قرّرتُ أخيراً قطع علاقتنا. أسترجع ذكرى تلك الأيام بإحساسٍ شامل بالرضى. بعد انتقال زُهرة إلى «الشعبية»، أخذتُ في قطع مواردها المالية تباعاً، وكان الأمر بمثابة تذكيرٍ شهريّ لها كم كانت محظوظةً

لوجودي في حياتها. في النهاية، لم يكُنْ بإمكانها إبقاء دلال في المدرسة الخاصة، ولم يكُن لديها من خيار سوى نقلها إلى مدرسة حكومية. لقد أطلتُ عذاب عائلتي العقليّ، ببساطة، من أجل ترسيخ الحقيقة المتمثّلة في أنّ القرار كان قراري أنا وحدي.

في ذلك الوقت، وفي خضمّ سخونة الموقف، أنحيتُ باللائمة عليهم، مُتّهماً إيّاهم بهجري، وفي النهاية قاموا بعمل الشيء الوحيد الذي يستطيعون القيام به: وهو نسيان الأمر. عادت الأمور إلى طبيعتها بعد أسابيع، ولم يتمّ ذكر أيّ شيء من جديد، لا عن زوجتي الأخرى، ولا عن الطفلة.

* * *

كان طرقٌ على الباب، ودخلَ سعيد. كنتُ أتوقّع أن يُخبرني أنّهم ارتأوا أنّ خالداً كبيرٌ جداً بالنسبة إلى الفتاة، أو ربما أنّ والد الفتاة قرّرَ أن ابنته يجب أن تتزوّج من أحد أبناء عمومتها، ليضمن أن تبقى الأموال ضمن نطاق العائلة؛ في الحقيقة كُلّ هذا كان متوقعاً، كلّ هذا كان معقولاً. كان من الأفضل لو أنّ خالد ترك عائلته تختار الفتاة له - كما فعلنا مع إخوته، وكما تمّ ترتيب زواجي من عائشة-عوضاً عن البحث عن زواج الحب- كان ذلك سيكون أفضل، أسهل للعقل وألطف للقلب.

نهضتُ لأرحّب بسعيد من خلال قبلةٍ على الأنف ومصافحةٍ حارّة، بينما كان مصطفى ينسلّ خارج الغرفة. وحالما جلسنا على

الأريكة، ربّت سعيد على رأسه وقال: «لقد رأيتُ الرجل العجوز، وهو مجنونٌ تماماً». ضحك سعيد بفتور. «لذلك يجب ألا تأخذ شيئاً على محمل الجدّ، لأنّ عقله غير سويّ، وبدأ يتخيّل بعض الأمور».

تنحنحتُ وطلبت منه الشروع في الحديث من البداية.

«لقد قُمتُ بأربع زيارات، ومع ذلك – وبعد استخدام كلّ مواهبي لمعالجة المسألة دون أن أُثير شكوكه – أعني، في النهاية، من أنا؟ أنا لستُ أبا العريس ولا أخاه، خرجتُ دون نتيجة».

«ثُمَّ ماذا؟»

«ذهبتُ البارحة مرّةً أُخرى، وفي هذه المرّة، وجدتهُ يتحدّثُ حول مُختلف رجال الأعمال في دبي – وأنت تعرف كيف يُحبّ هؤلاء الرجال المسنّون التحدّث عن كيف قام هؤلاء الناس بتكوين ثرواتهم – وهو الأمر الذي وضعه في حالةٍ مزاجية جيدة. أخيراً!» أصدر سعيد ضحكةً عالية، بدت وكأنّها صوت آلةٍ صدئة. «يا للخيال! يا للقصّة الغريبة! بالكاد تستحقّ الإعادة».

«ماذا قال؟»

«نعم، حسناً». مسحَ سعيد وجهه. »تحدّثنا بشكلٍ وديّ، مجرّد حديثٍ عادي، وحرصت أن يقود ذلك الحديث إلى مختلف العائلات المميزة هنا في دبي، وذكرتُ اسمك، لأرى إن كنتُ أستطيع أن أحرّضه لإبداء أيّ نوعٍ من التعليق».

«و...؟»

«في البداية، تَنَشّق».

«تَنَشّق؟»

أومأ سعيد برأسه. ومن خلال أسنانه، أطلق صوت هسيس يدلّ على التفهّم. «كما تعلم، فهو يحمل تلك العصا الطبّية التي استبدلت العكازة التي كان يحملها عندما ضعفت رجله نتيجة إصابته بالسكّري. حسناً، أمسكَ بتلك العصا وأخذَ يطرُقُ بها على الأرض».

«لماذا؟»

«أخبرني أنّ ابنك أرادَ أن يتزوّج ابنته، وأنه أقسم ألا يسمح بذلك أبداً».

«لماذا؟ ما الذي فعله الفتى؟»

«هذا ما سألته إياه. («الأمر لا يتعلّق بالفتى»، قال الرجل بفظاظةٍ «أنتَ مُجبرٌ على أن تُسامحه على ذلك، فقط لأنّه رجل عجوز». «إنّه الأب. لا أستطيع أن أُعطي ابنتي لابن رجلٍ مسؤول عن وفاة أخيه»).

لثانيةٍ لم أكُن مُتأكداً أنني قد سمعته بشكلٍ صحيح. «لمَ قد يقول أمراً كهذا؟ يعرف الجميع أنّ حارب توفي إثر إصابته بسكتةٍ دماغية». عدلتُ من جلستي على الأريكة لأهدّئ من الغضب الذي تملّكني. «هذا القذر! لماذا ينشرْ هكذا حديثاً خبيثاً عنّي».

هزئ سعيد بكامل الحادثة من خلال التلويح بذراعه. «أيّ أهميةٍ للأمر، في أيّة حال؟ من الذي سيُعيرُ سقطات لسان رجلٍ عجوز أحمق الاهتمام؟ إنّ دماغه ذاوٍ كحبّة جوزٍ فاسدة».

تجتاحني الحرارة، نارٌ بطيئة تعتمل في داخلي وتستقرّ في الأوردة المتيبّسة في عنقي. أُريد أن أكون لوحدي. وكأنّما سعيد قرأ أفكاري، فنظر إلى ساعته ونهض ليُغادر، مقدّماً عذره الجاهز: لقد تأخّر عن موعده. أغلق سعيد الباب خلفه بهدوء وهو يخرج.

لقد تحدّثَ الناس عندما آلت مُلكية «السُّمر الأخضر» إليّ؛ ومن خلال مجتمعٍ صغير شديد الترابط، كمجتمع دبي، فإنّه من السذاجة الافتراض أن تمضي الحادثة دون أن يُلاحظها أحد، وخصوصاً مُنذ بدأ حارب التعبير عن غضبه لأيّ شخصٍ مُستعدّ أن يستمع إليه. لم أكن ذلك الشخص الذي يسأل عن التفاصيل، لكنّني أعلم أنّ الكثيرين قد خاضوا غمار نقاشاتٍ تتمحور حول ما إذا كنتُ محقّاً في فعل ما فعلته.

بالرغم من ذلك، وبعد أيّ انتقالٍ زلزاليّ، فإنّ الأمور تهدأ وتستقر. كنتُ متأكداً أنّ هذا هو ما حدث، مُقتنعاً أنّ سمعتي المصانة ومركزي العالي لم يتأثرا بشكلٍ جديّ - حتّى الآن- عندما أخذ ذياب المطوع المتيبّس، في لومي بسبب وفاة أخي.

أدرتُ بصري نحو الخزانة في الزاوية، وتذكّرتُ فجأةً أنني وضعتُ الصورة هُناك. نهضتُ وأخذت أفتح الدرج في أسفل

الخزانة. كنتُ أقفُ مُترهّلاً على رُكبتين مطويتين، وبدأت أُمحّص بالفواتير والإيصالات القديمة وغيرها من قُصاصات الورق المرمية والمنسية مع بعض الدبابيس الورقية، وأقلام الرصاص المثلّمة، وأقلام الحبر الجافة.

كانت الصورة مودعةً بين صفحات دفترٍ قديم. أشبعت فضولي أولاً، وأومأتُ للتاريخ على خلفية الصورة. كان التاريخ 1963م، مباشرةً بعدما أتمّ حارب صفقة المبيعات الأولى تلك. كان الشَبَه بيننا في شبابنا صادماً: كانت لنا، نحن الاثنين، أكتافٌ عريضة وقوية، وظهرٌ مستقيم. لاحقاً سيكون لدينا الكرش نفسه أيضاً، وهو حشوةٌ سميكة تبدأ بالتمدّد نحو الجانبين، وصولاً إلى خصرينا. دايفيد هو الذي التقط الصورة، وأستطيع أن أتذكّر اقتراحه لنا بأن نقف بحيث يكون بستان النخيل خلفنا، لكنّ حارب كان فخوراً جداً بمضخّة المياه التي جرى إصلاحها، فأصرّ أن نقف بالقرب منها. خلفنا كان يظهر الأنبوب المعدني، وهو ينحني إلى الخلف بزاويةٍ خرقاء، كان فمه يصبّ دفق الماء في الخزّان.

مسحتُ سطح الصورة. وبالرغم من أنّ حارب كان يكبرني بتسعة أعوام، فقد بدونا قريبين في السنّ: رجالٌ بأجسامٍ قوية وصدور يملؤها الفخر مندفعةٌ نحو الأمام، لدرجة أنّ أطراف أثوابنا كانت تصل إلى أعلى كواحلنا فقط. كان دايفيد قد طلبَ

منّا أن نبتسم، لكننا- لعدم معرفتنا كيف كنا سنبدو وأسناننا تظهر في الصورة- قررنا أن نقف بتجهّمٍ رجوليّ.

كان الأخ المشهور، الأخ الأشدّ وداً، والأكثر حديثاً. فقط بفضل علاقاته الجيدة مع الناس، استطاع تأمين تلك العقود الكبيرة في أبوظبي والعين. ومع بدء مشاريع الزراعة في البلد، كان الوقت مناسباً، وأخذت العقود تنهال علينا. نعم، لقد أسس حارب الشركة، وكان محظوظاً بدرجةٍ كافية، إذ تمكّن من ضمان موجوداتها، لكنّي أنا من أطلق الشركة إلى أعلى مستوى. سيكون الأمر جيداً لو أن ذياب المطوع هو وحده مَن كان يظنّ أنّي أنا من تسبّب بموت أخي حارب. ولكن ماذا لو كان ثمة آخرون، كُلّ رجال الأعمال والمعارف، أولئك الذين لم يبدُ منهم أبداً أيّ شيءٍ أقلّ من أعلى درجات الاحترام تجاهي؟

أخذتُ أتصفّح وجه أخي، باحثاً عن الكرب الذي حلمتُ أنني رأيته في عينيه. من الصعب إيجاده. كانت غرته مائلةً كثيراً نحو الأسفل على جبهته، مُلقيةً بظلّها فوق مُعظم وجهه. وبهذا، استنتجتُ أنّ ذلك الحُلم السيّء لم يكُنْ أكثر من نتيجةٍ لعُسر الهضم، المتوقع بعد وجبة العشاء الثقيلة من الكباب والبصل، الليلة الماضية.

13

دلال

في بداية كلّ جلسة، كنتُ أُغنّي بضعة أسطر من واحدةٍ من أغاني «أم كلثوم»، لأساعد في تدفّق الإبداع عند شريف بيه الذي يبدأ حينها بالطقطقة بلسانه، كإيقاعٍ يُصاحب غنائي. كانت سيجارته- مع انضغاطها بين اثنتين من أصابعه- تترك خلفها خيطاً متموّجاً من الدخان، بينما تنزلق يده في الهواء من جانبٍ لآخر. يملأ صوتي الغرفة، بينما يهزّ شريف بيه رأسه من الطرب.

إنّه أحد الطقوس التي يُصرّ شريف بيه عليها. وكانت أمّي، في كل مرّة أشتكي إليها عن عبثيّة ما أخذ يبدو وكأنه تقليدٌ مُقدّس، تُصِرّ على أنّه «فنّانٌ حقيقي». نظاراته على الطاولة، ومن دونها تبدو أجفانه كأنّها غير محميّة، تبدو كأنّها قد فقدت معالمها وذابت في بقية وجهه. إنّها تُضعِفُ وتخفي عينيه السوداوين كسواد بذور البطيخ، والموحلتين كالعصير. كانت أجفانه تطرُف مثل أجنحةٍ عثّة، بينما كان يُلقي نظراتٍ مُتأنّية على أُمّي.

الليلة، لم تتكئ أمّي نحو الخلف. كانت ذقنها تستريح على براجم يديها، لتُشاهدني. كان وجهها يفتقر إلى ذلك الاستحسان الأهوج، وكانت ترتسم عليه فقط ابتسامةٌ مصطنعة تُفصح عن

صبرٍ طال أمده. كانت ساقاها مُتصالبتين وهي تهزّ قدميها. كانت تزفر بقوّة بين الحين والآخر، للدلالة على أنّ بعض الامتعاض العميق سينفجر عاجلاً. أخذ صوتي يشتدّ مع ذلك التوقّع، وأسرعتُ لإنهاء وصلة الأداء.

«برافو! برافو! بداية ممتازة لهذه الأُمسية»، قال شريف بيه وهو يدور ببطء نحو الجدار ليتناول عوده المتكئ عليه. حضَنَ الآلة، وأخذ ينقر على بعض أوتارها ويُدَوزِنُها.

«نعم، «دلالي» مُتناغمة في أدائها»، قالت ماما، «ولكن أنتَ... حسناً. يبدو أنّه ليس بمقدورك تمهيدُ طريقنا». بعد أسابيع من الاستنهاض الدمِث والتلميحات التشجيعية التي كانت تهدف إلى حثّه بهذا الاتجاه، قرّرتْ أمّي أن تسلك الطريق المستقيم نحو مصدر إحباطنا.

أُجفِلَ شريف بيه. إنّها المرّة الأولى التي تتكلّم فيها معه بهذه الطريقة. وضع العود جانباً، وفركَ عينيه قبل أن يغطّيهما بنظاراته. «هل أنتِ غاضبةٌ مني؟» سأل.

«أنا فقط أتساءل إذا كان ... كلّ هذا... سيؤدّي إلى أيّ نتيجة».

«لستُ متأكداً ممّا تعنيه، يا ستّ زُهرة»، قال بعناية.

مشيتُ إلى الأريكة. «إنّها تعني أنّ الأمر قد بدأ قبل شهر، ولا نزال نُراوح مكاننا»، قُلتُ وأنا أضعُ نفسي بجانبها.

«دلال! توقّفي! كلّ ما قُلته هو أنني تعيسة للغاية جرّاء شعوري أننا لا نُؤخذ على محمل الجدّ». وجّهتْ تلك الكلمات لي بدقّةٍ مُتأنية، من خلال همسةٍ مُصَمّمَةٍ لأن يسمعها شريف بيه.

كان ردّ فعله مُباشراً. وثب من خلف مكتبه وقفز مواجهاً لنا. «لقد جرحتني كلماتك، يا ستّ زُهرة. كيف أمكنك أن تقولي شيئاً كهذا؟»

«أنتِ ترين، يا دلال»، تابعت «ماما» دون أن تنظر إليه، كان صوتها مستقرّاً، «إنّ رؤيتنا في هذا الموضع الميؤوس منه – أنا المرأة المطلّقة، وأنت الفتاة دون أبٍ يحميك – تدفع الناس إلى عدم احترامنا».

«أنا أحترمكما»، قال شريف بيه.

«حسناً، ماذا تسمّي هذا إذاً؟» تدخّلتُ من خلال تلويحة بذراعي.«كلّ هذا الوقت وأنت لم تُنشئ لي أيّ لحنٍ صغير، أو تفتح لنا أيّة أبواب. يجب أن تكون على معرفة بكلّ العاملين في هذا الوسط. لماذا لمْ تعرّفنا عليهم؟»

«آهـ آهـ آهـ» كانت ضحكة خافتة من أعماق الحنجرة، لكنّها خالية من الفُكاهة.

«إذا عرّفنا على الآخرين، نحصل على الظهور الصحيح»، قلتُ بإصرار، واستدرتُ ثانيةً نحو أُمّي. «انظري إلينا، نلتقي في منتصف الليل، ونُضيّع وقتنا، من أجل ماذا؟»

لوّح شريف بيه بإصبعه لي. «لسانك حادّ جداً بالنسبة إلى صبيّةٍ في مُقتبل عمرها».

قالت «ماما»: «إنّه على حقّ يا دلال. أنا لم أُربِّكِ لتتكلّمي بهذه الطريقة».

«استمعي لأمّك أيتها الفتاة الصغيرة»، قال شريف بيه.

«إنّها الحقيقة يا ماما»، قُلتُ متأوهةً.. «إنّه يعرف كلّ الأشخاص المناسبين الذين لديهم حفلات يستطيع الدخول إليها وتقديمنا لهم؛ لكنه لا يرغب في ذلك».

«لقد طُلِبَ إلينا أن نأتي في هذه الساعة الفظيعة»، قالت «ماما» وهي تومئ برأسها بخضوع، «ويُتوقع منّا أن نبقى خلف هذه الأبواب الموصدة. في النهاية، ليس من أحدٍ يسأل عنا».

«هذه هي النقطة بالضبط، يا «ماما»: إنّه لا يهتمّ لأمرنا».

«شيءٌ واحد يجب أن تفهميه، يا دلال، هو أنّ هذا الوسط مليء بالنفاق. كيفما استدرت، ثمة أشخاصٌ حولك تعتقدين أنّهم يهتمّون لأمرك. ولكن كلا، كلّه تمثيل. جميعهم مُتشابهون، يضعون مصالحك النبيلة جانباً، ليبدؤوا في استغلالك».

«لا تتحدّثي بهذه الطريقة، رجاءً»، صرخ. «أنت تجعلينني أبدو كأنني وحش».

نَظَرتْ إليه، والتقت عيناهما. كلّ شيء ساكن. كلّ شيء متوتّر. أصابني الملل من انتظار تلك اللحظة كي تمرّ، وأخذتُ أُحدّق في اللوح الخشبي الواقف في زاوية الغرفة. خلف ذلك اللوح مدخلٌ آخر للغرفة، إنّه طريقٌ بديل يستخدمه للوصول إلى مكتبه، دون المرور بالسكرتيرة. إنّه الباب الذي ننسلّ منه عندما يُسدل الليل أستاره.

في النهاية، أشاح شريف بيه بنظره وهو ينفخ الهواء.«نعم، الانتظار صعب، وأنا أعرف كم كانت الحياة قاسيةً عليكما. في الحقيقة، لا أستطيع النوم ليلاً وأنا أفكّر في القسوة التي تعيّن عليكما احتمالها في الخليج».

«لا يتوجب عليك أن تأرّق بسببنا»، قالت «ماما»، مع ارتعاشة ضعف مُقنعةٍ للغاية، لدرجة أنّي أردتُ أن أحيّيها؛ كانت تتحشرج في كلامها.

طوّح شريف بيه بيديه في الهواء: «لا أستطيع فعل شيءٍ لمنعه. الفنّان دائماً حساس، وهذا ضد مصلح ته!»

أومأتْ أمّي برأسها. «ليس من العدل أن نطلب منك المزيد. لقد كُنتَ لطيفاً جداً معنا. لكنني أظن أننا يجب أن نفترق الآن».

نَشَقَ الهواء وأخذ يُتمتم، «ليكُن ذلك، كلّ شخص لديه قدره الذي يتبعه».

تنهدت أمّي وقالت لي: «ما يؤلمني، يا ابنتي، هو عدم الاحترام. ولكن، في النهاية، نحن أُناسٌ لدينا كرامتنا. يجب أن نذهب الآن، يا دلال».

كلّ هذا الوقت الضائِع! كم يُمكنني أن أتحمّل أكثر من ذلك؟ لم أستطع إخفاء يأسي.«كلا، يا ماما، يجب ألا نتعجّل الأمور»، شرعتُ أتحدّث، لكنّها كانت قد نهضت وأخذت تمشي بشكلٍ جانبيّ بين قطع الأثاث المختلفة، إلى أن اختفت خلف اللوح الخشبيّ. توقعتُ أن ينهض شريف بيه ويقدّم بعض الأعذار لنا كي تعود، لكنّه لم يفعل. توقعتُ أن تعود أمّي مع عذرٍ ذكيّ تُقدّمه، لكنّها لم تفعل. كانت قد وصلتْ إلى المصعد، وأخذت تضرب بقدمها على الأرض، وكأنّ تبرّمها قد يستعجل المصعد للوصول.

«الوقتُ مُبكرٌ جداً للمُغادرة»، قلتُ محتجةً. «لن يصل حسنين إلى هنا الآن». وبالرغم من أنّه من الملائم أن يكون لدينا سائق الميكروباص ليقلّنا كلّ مساء ويعود بنا إلى البيت في ساعات الليل المتأخرة- بعد ما حصل البارحة، عندما أقسمَ أن يحمينا في حال احتاج الأمر - فإنّ فكرة رؤيته تجعلني أتأوّه من الألم. إنّه مثل الآخرين، المساعدين والوسطاء، أبناء الشارع الذين يريدون أن يكونوا جزءاً من حياتنا. كم منهم ادّعى معرفته بأشخاصٍ في عالم النجوم، وبأنه سيكون بطاقة وصولنا إلى النجاح؟

منذ فترةٍ ليس ببعيدة، كان عبدو الجزار الذي شرعَ في استقصاءٍ عميق. بين هداياه من اللحم والعظم، عَمِلَ ما باستطاعته ليتأكد

أنّنا قد فهمنا أنّه يبذل أقصى جهده لمساعدتنا. «لقد اتصلت، لكنّ الرجل كان قد غادر المدينة.. لقد قابلت مُساعده (أنتم تعرفون كيف تسير الأمور، جميعهم لديهم مُساعدون) وقال إنّ الأمور جيدة وكأنها قد أُنجِزَت.. عاجلاً، عاجلاً، أنا قريبٌ جداً من هذا الأمر». لم أمانِع التمثيليّة المصطنعة من أساسها. ما أزعجني هو أنّ «ماما» كانت تُفشي لهم بتفاصيل عن حياتنا غير ضرورية البتة، وبالتالي أخذوا يشعرون أنّ لديهم الحق في الدخول إليها.

كان عبدو الجزار يُريدها. مُنذ شهرين، وقبيل أن ترفع بوجهه بطاقة الرفض، ناداني حيث كُنتُ أمرّ أمام دكانه. كان يقف بين الذبائح المعلّقة على القُضبان، ابتسم ابتسامةً عريضة ولوّح تجاه مؤونةٍ مجانية لتغذية المطلّقة البهيّة الطلعة.«انظري كم هي طريّة وخالية من العروق؟» قال، وهو يُمسك بقطعة اللحم الغضة لأراها.«إنها من الرِدف!» ضربَ عليها بيده الأُخرى، وكأنّه يضرب على مؤخرة امرأة. «سَتَشُدُّ من أزرك، أنت وأمّك أيضاً». بالطبع، تصنّعتُ اهتمامي، وهو الأمر الذي كان في غاية الصعوبة مع الرطوبة، ورائحة اللحم، والذباب المزعِج.«كيف هي أمّك، في أية حال؟» تابعَ وهو يلفّ قطعة ورق حول اللحم ويربطها بخيط، ثم خفض صوته وأعمَلَ عيناه تحديقاً فيّ. «لمَ لمْ تتزوّج أمّك ثانيةً؟ هل تخلّت عن الفكرة نهائياً؟» هززتُ كتفيّ، وضربَ بيده اليُمنى على قلبه لإيضاح تواضعه وحنانه، ثم أتبع تلك الإيماءة بنظرةٍ نحو الأسفل، للتعبير عن نواياه الطيبة.

لاحقاً، عندما أخبرتُ أمي، لم تُضِع وقتها في التخلّص منه. قامت في اليوم التالي بإعطائه ورقةً نقدية من فئة خمسة جنهيات، كنوعٍ من العرفان بالجميل لجهوده في مساعدتنا. كان سيرفض ذلك مُستخدماً جعجعته المبتذلة النمطية لشخصٍ من طبقته الاجتماعية، لكنّ أمّي أخذته على حين غرّة. وقبل أن يستطيع إبداء أيّ ردّ فعل، كُنّا قد مشينا خارج دكانه. توقّفَ عن التحدّث إلينا بعد ذلك. أصبح يُحدّق بنا بعينين ملؤهما التحدّي، عندما نمرّ بالقرب من دكانه. ومنذ ذلك الحين، تعلّمنا أن نستمتع بتناول لحم الدجاج.

أصبحنا في الشارع، وهبّت نسمةٌ جلبت معها رائحة حديقة «نادي الرماية» في الجوار. لم أفقد الأمل. أنا مُقتنعة أنّ هذا الأمر هو مُجرّد مكيدة لإثارة الخوف في قلب شريف بيه. بالتأكيد، ستتلكأ عند مدخل المبنى، لتعطيه الفرصة كي ينزل إلى الأسفل مسرعاً ويرجونا أن نعود. أسرعتُ وراءها، بينما كانت تشقّ طريقها في الشوارع التي تصطف الأشجار على جانبيها، مذهولةً من خطواتها الجريئة. في النهاية، أصبحنا نمشي مُبتعدتين عن «عبقريّ عالم الموسيقى، الفنّان ضمن الفنّانين»، كما اعتادت أن تصفه مراراً وتكراراً. لقد ألّف شريف بيه موسيقى أيّام شبابها، تلك الألحان التي أحالت رأسها إلى رأسٍ ينضحُ بأحلام اليقظة الرومانسية. بالتأكيد، هي لن تتخلّى عنه بسرعة.

لم أكُنِ الوحيدةَ التي أخذتها الدهشة جرّاء الرحيل المبكر لأمّي. العيون التي أرسلها أبي لمراقبتنا - كان ثمة اثنان منهم

الليلة – قد تفاجؤوا أيضاً. وبينما كانت أمّي تمرّ بجانبهم بسرعة، كان أحدهم سريعاً في تصنّع البحث عن شيءٍ مهمّ في جيبه، أمّا الآخر فانحنى إلى الأرض ليربط شريط حذائه، بالرغم من أنّه كان ينتعل صندلاً. يا للثُنائيّ الأحمق!

انتهى بنا المطاف في شارع وزارة الزراعة. إنّها التاسعة والنصف ليلاً. أخذ الغبار والأبخرة تمتطي العواصف التي تُثيرها السيارات المسرعة والباصات الهادرة. «لمَ كُلّ هذا؟» صرختُ بصوت أعلى من الضجة حولي.

«سنتكلّم عن هذا الأمر عندما نصل إلى المنزل»، قالت أمّي وهي ترفع رأسها كأنّها تبحث بقلق عن سيارة أجرة. تباطأت العديد من هذه السيارات بجانبنا، لكنّها تجاهلتها.

أنا مصعوقة. كلّ ذلك الجُهد، طيلة ذلك الوقت، كلّ ذلك الأمل، لمَ كان كلّ ذلك؟ «أريد أن أعرف الآن!»

«هذا ليس الزمان أو المكان المناسبين»، قالت «ماما» حالما كانت سيارة أجرة تهتزّ وهي تقف. أخذت أمّي خطوةً إلى الوراء، ثم أُخرى إلى الأمام، وكأنّها تحاول أن تتذكّر ما الذي كانت على وشك أن تفعله. وعندما فتحتِ الباب، رفضتُ أن أدخل.

«الآن، ماما، الآن»، قلتُ بعناد، وأنا أضرب بقدمي على الإسفلت».

«أنتِ لن تتكلّمي معي بهذه الطريقة في منتصف الشارع»، قالت مُعنّفةً.

«لا يُمكننا الاستمرار في التسكّع من مكانٍ لآخر، وهو ما يُفضي بنا دائما إلى المجهول»، قلتُ مُتأفّفةً. «لقد تعبت. لا أستطيع الاستمرار بهذا الأمر أطول من ذلك».

أحكمتْ قبضة يدها حول مقبض الباب. «لا يُمكنك الاستمرار بهذا الأمر أطول من ذلك؟ هل أزعجتِ نفسك يوماً بالتفكير بشأني؟ هاه؟»

نظرتُ بعيداً. كان أحد العيون قد عبر الشارع، وقد استخلصَ أنّ موقعه غير ذي جدوى، كونه بعيداً جداً ليسمعنا؛ أما الآخر فكان أقرب، وهاهو- مرّةً أُخرى- يربط شريط حذائه الوهمي. اعتقدتُ أنّ سائق سيارة الأجرة سينتظر قليلاً، يلتقط أجزاء من نقاشنا عبر النافذة المفتوحة ويُضيف القليل من حكمته عليه. لكنّه لم يكن مهتمّاً. صرخَ على «ماما» أن تُغلق الباب، وانطلق بسيارته وهي تزعق. يا لهذه الليلة المتقلبة المزاج! ثم سمعتُ صوت بوق سيارة.

كانت سيارة «مرسيدس»، قد تمّ الاعتناء بها بشكلٍ جيّد، ذات لونٍ عاجيّ، مع لونٍ خمريّ من الداخل. كان السائق- ببذّته الرسمية- يلوّح لنا بيده وهو يرتدي القفازات. ومن خلال ستارةٍ من دخان السيجارة في المقعد الخلفي، رأينا وجه شريف بيه القَلِقْ ينظرُ من خلال النافذة. رفضنا- أنا وأمّي- عرضه لإيصالنا، ومشينا بعيداً عن السيارة، مُتجاهلتين توسلاته لمناقشة الأمور. تبعتنا السيارة بينما كنا ننسحب إلى شارعٍ أصغر، وإلى هناك تبعنا الجاسوسان أيضاً.

كانت لحظةً مهيبة عندما قفز شريف بيه من السيارة واندفع نحونا. ومع نشوتي الغامرة بهذا الانعطاف المرغوب الذي حصل في مسار الأمسية، خبّأتُ ابتسامتي قدر ما أستطيع، ووقفتُ أراقبه وقد تمّ اقتلاعه من شرنقته في الشقة، وكيف يبدو كأنّه ضائِعٌ في شوارع القاهرة. أدركتُ فجأةً أنّه مفتونٌ بحبّ أمّي. كان يرجوها أن تتعقّل، وأن تعود إلى المكتب، حيث يمكن التحدّث كراشدين.

بدت أمّي هادئةً مثل القمر وهي تتّهمه بأنّه يعتبرنا أمراً مُسلّماً به، مُعتقداً أنّنا سنعود إليه دائماً. أردتُ أن أرفع ذراعيّ من الفرحة عندما رفعت مطالبها على الشكل التالي:«لا مزيد من إبقائنا في الظلّ. عليك تقديمنا لكلّ الأشخاص المهمّين في عالم الموسيقى، بحيث يُمكنهم سماع دلال تُغنّي».

«نعم، وبعد ذلك لا داعي لأن تُزعج نفسك معنا أبداً»، قلتُ ذلك، وأنا أنظر من فوق كتفي إلى الجاسوسين، لأتأكّد من أنّهما قد سمعاني بشكلٍ جيّد ومُلائم. أخيراً سيحظيان بشيءٍ ذي قيمة ينقلانه إلى أبي. «نحن سنتولّى الأمر بعد ذلك».

«كلا، يا دلال، أنت مُخطئة»، قالت ماما. «إنّها رحلة.. رحلةٌ طويلة، وأنا- نيابةً عنك- سأكون محظوظةً لأشارك شريف بيه فيها».

عندها، تكوّرت شفتا شريف بيه في محاولةٍ خرقاء للابتسام، وشعرت بالأسى تجاهه، ولكن للحظةٍ قصيرة فقط.

14

مريـم

«هل تشعرين بتحسّن؟ ماذا قال الطبيب؟»

أسندتُ نفسي إلى الوسادة، وكان ذلك كافياً ليُشكّل دعوةً لتامي، وهي طالبةٌ في السنة الأولى، وواحدة من اثنتين من زميلاتي في الشقة، لتدخل على رؤوس أصابعها إلى الغرفة، وتجلس على أحد طرفيْ السرير. كانت الستائر مُسدلةً والغرفة مُعتمة، مغمورةً باللون الأزرق الهادئ لضوء الصباح. ومع ذلك، لَمَحتُ ذلك الفضول في عينيها العفريتيتين. لقد أحسّتْ بوجود شيءٍ أكثر من القصة التي اخترعْتُها بعد وصولي إلى السكن قبيل منتصف الليلة السابقة.

«قال الطبيب لا شك في أنّه فيروس»، قلتُ وأنا أربّتُ على رأسي الذي كانت حرارته مرتفعة قليلاً. شككتُ في أنّ الإبرة التي أعطانيها قد سبّبت ردّ فعلٍ تحسسي. «قد يكونُ مُعدياً»، أضفتُ قائلةً، على أمل أن يدفعها ذلك للمُغادرة.

أخذت تامي تتصرّف وكأنّها تتمتّع بمناعةٍ ضد الجراثيم. «كيف يُمكن أن تَغُطّي بالنوم في المكتبة؟ ألم يقم طاقم العمل هناك بتفقّدها قبل إقفالها، للتأكد من عدم وجود أيّ طالبٍ فيها؟»

«لا أعرفُ حقاً، يا تامي، ولكن عندما استيقظت، أدركتُ أنّني كنتُ أجلس في زاويةٍ يُمكن أن يغفل النظر عنها بسهولة».

«همم». مطّت شفتها باتجاهي، دليل عدم التصديق الواضح، ووجدتُ نفسي أتمنّى لو أنّها لم تطرح الغطاء الذي كانت تستخدمه لتغطية كامل وجهها. لكن تامي كانت تبحث عن التغيير منذ لحظة وصولها إلى القاهرة، وبدأت باسمها الذي غيّرته من ذلك الاسم الموحي بالصرامة «فاطِمة» إلى اسمٍ أخفّ منه، وهو «فطامي»، ولاحقاً- ومن خلال مرح اللفظة بطريقةٍ سريعة- غيّرته مرّةً أخرى إلى «تامي»، ونتيجةً للحرية الجديدة التي وجدت نفسها في خضمّها، كونها بعيدةً عن أبيها وإخوانها، وأولاد عمومتها، وكلّ أقاربها وجيرانها الذكور في تلك القرية الواحة الصغيرة «نحوه» (في عمق جبال الإمارات الشمالية)، فقد بدأت تتعامل مع موضوع لباسها بشكلٍ مُختلفٍ أيضاً. أخذت ترتدي لمحاضراتها الصباحية في الكلّية قميصاً من الساتان، بلونٍ أحمر قانٍ، يلتفّ ضيقاً جدّاً حول صدرها. كان القميص ينثني تحت تنورةٍ سوداء طويلة رفيعة، يعلوه حزامٌ تحت أضلاع صدرها مباشرةً، مؤلف من إبزيم زجاجي لامع، الغرض منه لفت النظر إلى خصرها الأهيف. أمّا شيلتها التي اعتادت أن تلفّها مرّتين حول رقبتها، فأصبحت طويلةً منذ أرختها، ولم تعد الآن أكثر من توشية فوق شعرٍ مُجزّع بالأصفر، مفروقٍ على الجانب، ويسقط كذيل حصان فوق خدّها.«كيف حدثَ أنّك لم تستقيفي مع كلّ تلك الضجّة التي أحدثها الناس وهُم يُغادرون المكتبة؟»

شعرتُ أنّي قد استحلتُ تحت نظرها الثاقب إلى إحدى شخصيات مؤامرة. هززت كتفيّ مع تنهيدةٍ يائسة. إنها الأسئلة نفسها التي طرحتها عليّ أبلة كريمة. كان عمّ عيد، البوّاب، يذرع المكان جيئةً وذهاباً، عندما توقفت سيارة الأجرة أمام باب السكن. كان شعوره بالارتياح لوصولي سالمةً فوريّاً. كنتُ المقيمة المفقودة، وأخذت يداه ترتعشان بينما كان يرفعهما عالياً في السماء ليشكر الله على عودتي سالمة.

«أين كُنتِ، يا ستّ مريم؟ لقد انتابنا قلقٌ شديدٌ»، قال عم عيد. لم أُجِبه، هززتُ رأسي فقط وأنا في حالة حنقٍ مُشوّش. التفكير البطيء في الحالات الطارئة، كنتُ قد أعددتُ مُسبقاً بضعة أعذار، لكنني لم أستطع أن أقرّر أيّاً منها سأستخدم. فتحَ باب السكن المعدني ذو الزجاج الأكمد، لإضفاء المزيد من الخصوصية. «أبلة كريمة في حال قلقٍ شديدٍ، أيضاً. إنّها تُطلّ كلّ عشر دقائق لتسألني ما إذا كنتِ قد وصلتِ أم لا».

ارتحتُ بعض الشيء عند ذكر هذه المشرفة على وجه الخصوص. إنّها أكثر المشرفات وداعةً.«هل اتصلت بأحد؟» سألتْ. اتصالٌ واحد، هذا كلّ ما يحتاجه الأمر لوضع حدٍّ لدراستي في القاهرة، ومُستقبلي المدروس واستقلاليتي.

«ليس بعد. لكنّها أرادت أن تفعل ذلك، مرّاتٍ عديدة. لقد هدّدتْ بأن تتصل إن لم تصلي عند منتصف الليل».

دعوتُ لها في سرّي. ومن بين الأبلات الأربع، هي الوحيدة التي تُعاني من داء التردّد، عندما لا تسير الأمور وفقاً للبروتوكول. لو أنّها كانت أبلة تغريد، لما تردّدت للحظة في رفع تقريرٍ بي، وأنا متأكدة من أنّ الملحق الثقافيّ سيكون واقفاً ينتظر معها، ويداه مُتصالبتان أمام صدره، وقدمه تضرب الأرض، مع شعورٍ عميق بالسُخط جرّاء كسر أكثر القواعد قداسةً. تبعني عم عيد عبرَ المدخل، وصولاً إلى الباب الزجاجيّ التالي، والذي كان مُزيّناً بغطاءٍ بلاستيكي يعرض بجعاتٍ تنزلق فوق نهر. إنّه الباب الذي لا يُسمح لأيّ رجلٍ بتخطيه، وهنا توقّف عم عيد ونظر حوله كأنه قد أضاع طريقه. من جهةٍ، هو يعرف أنّه يتوجّب عليه العودة إلى موضعه. ومن جهةٍ أُخرى، كانت أُذناه تتحرّقان شوقاً لسماع روايتي.

كان عم عيد محظوظاً. انفتح باب البجعة، وظهرت أبلة كريمة وهي تتهادى نازلةً الدرج كالبطّة. كانت ذات رقبةٍ طويلة وأنف كالمنقار، كانت تدفعني دائماً إلى التفكير باللقالق التي تخوضُ في روافد نهر النيل. صفّقت بيديها جرّاء الغضب، وشرعت تسرد- وبشكلٍ متواصل- قائمةً طويلة من الأسئلة، متوقّفةً فقط عندما ينفذ الهواء من صدرها ويتحتّم عليها تعويضه بجرعة هواء ضخمة. وعندما أخبرتها: «لقد غفوتُ في المكتبة، لا أعرف كيف؟»، صفّقت بيدها أكثر - ربما لتبرّد الحرارة التي أخذت تعتمل داخلها - وشرعت في طرح مجموعةٍ أُخرى من الأسئلة.»كما تعلمين، يتعيّن عليّ رفع تقريرٍ عن هذه الحادثة»،

حذّرتني. حينها، ترنّحتُ جانباً، وانحنيتُ على الجدار، وقلت: «أعتقد أنّني يجب أن أرى طبيباً».

دَلَفت العنود بهدوءٍ إلى غرفتي وهي تحمل بأطراف أصابعها زوجاً من الصنادل. إنّها زميلة سكني الثانية، وهي طالبة سنة ثانية فنون جميلة. لديها جفونٌ ثقيلة وعينان ثقيلتان هابطتان تطفحان حزناً. «أتعلمين، الأرجح أنّه قد تمّ رفع تقريرٍ بك»، قالت العنود وهي تضع نفسها بتثاقلٍ إلى جانب تامي.

«كلا، لم يُرفع بها أيّ تقرير»، قالت تامي. «وإلا لكان الملحق هنا ليبحث في التفاصيل ويُعاقبها».

«لا يزال الوقت مُبكراً»، وكما هو دائماً، كان صوت العنود غير مجد، مع ميزة الجدّية في طيّاته. «سيكون هنا في القريب العاجل». عندها، انحنت العنود وبدأت بربط فردتيْ الصندل إلى قدميها.

«لا يهمّ»، قلتُ. «لا سيطرة لي على ما حدث. وإن لم يُصدّقني، فثمة دائماً تقرير الطبيب».

«وماذا كَتَبَ الطبيب بالضبط؟» سألت تامي، وكأنّها كانت قلقة حول الإعلان عن مرضٍ غريب.

أخذتُ أشعر بثقلٍ في عينيّ، فأغلقتهما. لعلّه الإحساس بالذنب المزعِج جرّاء ذلك الكمّ من الأكاذيب التي اختلقتها. ولكن ما كان عساي أفعل؟ أخبرهنّ بتهوّري الخفيّ مع عادل؟

أظنّ أنّ دلال كانت ستفخر بأدائي. لقد مثّلتُ بأفضل ما أستطيع، مع أنّي كُنت في معظم الوقت مُقتنعةً أنّ الجميع يستطيع رؤية الحقيقة من خلال ملامحي. أضاء الطبيب مصباحاً صغيراً في فمي المفتوح، وأخذ يُنعم النظر في مؤخرة حنجرتي، ثمّ أخذَ يلوي منخريّ بحثاً عن التهاب. بدا غير مُقتنع. لذلك قلتُ له: «أشعر بدوارٍ في رأسي».

«بالدُوار؟» سألَ الطبيب.

«نعم. وثمة ضغط في عينيّ، ولا أستطيع التنفّس بسهولة، أيضاً». كنتُ أتلعثم مع كلّ مرضٍ مُختلقٍ أذكره.

ثمّ ظهرَت سمّاعات الطبيب..

«معدتي تؤلمني، أيضاً».

أعتقدْ أنّي قد وصفت العديد من الآلام، وكلّ واحدٍ منها لا علاقة له بالآخر، لأنّ الطبيب أخَذ يُهمهم ويحكّ رأسه.

لمعتْ عينا تامي. «ربما أُغميَ عليكِ! ربما هذا ما حصل في المكتبة».

هززتُ رأسي بضعف. ثمة وخزٌ في أطرافي، وهو الأمر الذي جعلني أقلق ثانيةً بخصوص الحقنة التي أعطانيها. ماذا كانت؟ ربما أراد الطبيب أن يُعلّمني درساً لادعائي أنّي مريضة. ربما شعرَ بالإهانة لما فعلتُه لاحقاً، لكنّه كان يُمكن أن يرفض قبول ما قُدِّمَ له، حيث إنه- ولأول مرة في حياتي- دسستُ له رشوةً ليمنحني تشخيصاً مرضياً مزيّفاً.

لم يكُنِ الأمر سهلاً بوجود هذا العدد الكبير من الأشخاص في الغرفة، لكنّ ما ساعد هو أنّهم كانوا في حركةٍ دائمة، يفتحون النافذة للحصول على بعض الهواء النقيّ، ثم يعاودون إغلاقها عندما يتسبّب هواء الليل بتبريد الغرفة بسرعةٍ كبيرة. كانوا يُسرعون إلى المطبخ لإعداد ما يستطيعون من علاجاتٍ للعلل التي كنتُ أُعاني منها. كان ثمة الزعتر لالتهاب الحنجرة، النعناع لألم معدتي، والبابونج لإبطاء تسارع نبضات قلبي. في وسط هذه المعمعة، دسستُ يدي في حقيبتي، وأخرجتُ رزمةً من أوراق النقد التي لم يكُنْ لديّ وقتٌ لأعدّها. رفع الطبيب حاجبيه من الدهشة، لكنّي دسستُ الرزمة بسرعة في راحة يده، بينما كان يقيس نبضي. لم يكُن عليّ أن أقول أيّ شيءٍ بعدها، فَهِم الطبيب القصة بكاملها.

اعتراني شعورٌ مفاجئ بالإعياء، وأخذتُ أتثاءب. قرّرت الفتيات أنّ الوقت قد حان للمغادرة إلى محاضراتهنّ وتركي أنال إغفاءةً بلا أحلام.

❋ ❋ ❋

إنّه أوّل المساء، وضَوءُ الغسق ليس أكثر من بصيصٍ رماديّ على حافة النافذة المسدلة الستارة. الجوّ هادئ.. وبينما أنا أتمطّط لأنفض النوم عن أطرافي، أخذتُ أحدّق أمامي. مُثاءبةٌ عريضة انتهت بابتسامة، عند تذكّري عادل.

أخذتُ أفركُ مؤخرة رأسي، وأتلمّس بأصابعي شعري الكهرمانيّ الكثيف، مانحةً إياه الفرصة لينتشر على شكل مروحة على الوسادة. انتابتني قشعريرة بينما كنتُ أفكّر بكلّ التعابير المختلفة التي ارتسمت على مُحيّاه ليلة أمس.

كنتُ مُمدّدةً على السرير، كنجم البحر، والأغطية مُبعثرة. أخذتُ أُحدّق في السقف مُبتسمةً، قبل أن أُدرك وجود أصواتٍ خارج الباب مُباشرةً. كان جدالاً وهمساتٍ مُتحمّسة بين تامي وشخص آخر. كان ثمة «أبلة» في الخارج، لا يُمكنني تحديد أيٍّ منهن، لكنّها تُصرّ على رؤيتي. للحظةٍ بدا الأمر مُحيّراً لي. لا تأتي «الأبلات» إلى شُققنا ما لم يكُن ثمة رجلٌ في الخارج - طبيب، كهربائي، سبّاك - ويتأكدن حينها من تحذيرنا لتغطية رؤوسنا، أو ارتداء ملابسنا، حيث إنّنا نتسكّع عادةً حول الغرف ونحن نرتدي الأردية، أو البيجامات، أو أثواب النوم.

سمعتُ تامي تتكلّم معها بحدّة، وتخبرها أنّه لا يُمكنها الدخول، لأنّي أتلقّى قسطاً من الراحة. ومثلنا جميعاً في السكن، تعتبر تامي أنّ الشقة هي حيّزها الخاص، وبالتالي فهي تخفيه عن العيون بحماسة. حالةٌ واحدة من الحالات التي يسهل الدخول فيها، وستكون «الأبلات» سعيدات بدسّ أنوفهنّ في شؤوننا بشكلٍ دائم.

لتقوية موقعهنّ، أو نتيجة الإحباط، سيّدت «الأبلات» أنفسهنّ على بقية طاقم العمل: مُساعداتِهنّ، والدادات اللواتي يقمن

بخدمتهنّ وتنظيف الأماكن العامة في المبنى، رجال الأمن، السائقين، والبوّابين. مطالبهنّ لا تنتهي، وهنّ يُصررن على معرفة كلّ تفصيلٍ ممّا يجري في السكن: من قال ذلك، من حَضَر، ومن ذَهَب.

معظم مُناكفات الفتيات مع «الأبلات» تكون حول حجوزات السيارة. عندما ترغب إحدى الطالبات بالخروج، سواء لحضور المحاضرات في الجامعة، أم التسوّق، أم المهام، أم زيارات الاستجمام، فعليها أن تعبّئ نموذج طلب، قبل ليلة، مع أوقات المغادرة والعودة، ثم يُسلّم الطلب إلى «الأبلة» للتنسيق. تقوم «الأبلات» بوضع خطّ سير السائقين لليوم التالي، ومجموعات الطالبات في السيارات، وفقاً لتوقيتاتهنّ ومقاصدهنّ. حينها، تبدأ المشاحنات حتماً. إنّها تشبه صراع القطط المناطقي، نوبات صراخ وتهديدات شرسة سرعان ما تهدأ ويعود السلام مؤقّتاً حتى الليلة التالية. الشجار مع «الأبلات» هو حدثٌ يوميّ، جزءٌ من الحياة في السكن.

بعض «الأبلات» أكثر تسامحاً، أو أنّهن يتعاملن مع المشاكل بسياسة تنحيتها جانباً، ولكن ليس هذه «الأبلة» التي تقف خارج باب غرفتي. هي الآن تتكلّم بصوتٍ أعلى، وبالتالي يُمكنني تمييز الصوت على أنّه صوت «أبلة تغريد». ترتدي «أبلة تغريد» تنّورةً تتوقّف على مسافة ثلاث أصابع تحت الركبة، للدلالة على كونها شخصيةً عصرية، وتمشي بخطواتٍ راسخة، في زوجٍ من الأحذية السوداء المغلقة ذات الكعب المرتفع قليلاً، للدلالة على واقعيّةٍ

رفيعة. «أبلة تغريد» ماكرة، ولديها من الكيد ما يُمكّنها من افتعال جبالٍ من المشاكل. خلال السنوات الخمس التي أمضتها في العمل في السكن، كانت السبب وراء طرد ثلاث طالبات.

«إنّ مصلحة كلّ فتاةٍ في هذا السكن هي مسؤوليتي»، قالت «أبلة تغريد». إنّها خارج بابي تماماً. الآن، وفي أيّ لحظةٍ ستقتحم الغرفة وتضغط على زرّ الضوء، بحيثُ يمكنها أن تضبطني أبدو بكامل صحّتي. سحبتُ اللحاف إلى أعلى رقبتي، وأخذتُ أرفس بقدميّ لأُحدِثَ بعض الحرارة.

«حسناً، سأخبرها أن تنزل حالما تستفيق»، قالت تامي.

«أريدُ أن أتأكد أنّها بخير»، قالت «أبلة تغريد» بإلحاح.

«لقد أخبرتُكِ، إنّها نائمة!»

«يجب أن تستيقظ. لديّ رسالةٌ لها من عمّها». تسبّب هذا الجزء من الأخبار بموجة ذعر اجتاحتني كُلّي، وقضت على كلّ جزءٍ من التحفّظ داخلي بألا أقذف اللحاف جانباً وأقفز من السرير. عادةً، أتصلُ بالعائلة مرّةً كلّ اسبوع لأخبرهم أنّي بخير. لمْ يتّصل بي عمّي ماجد من قبل. هل يُعقل أنّ كلمةً ممّا جرى البارحة قد وصلت إليه؟ ماذا يُمكن أن يكون الأمر؟

فُتِحَ شقٌّ صغير في الباب، ودخل مقدارٌ ضئيل من الضوء، بينما كنتُ أختبئُ تحت اللحاف، مُتظاهرةً أنّني نائمة.«حبيبتي، هل

أنتِ مُستيقظة؟» كنتُ أعتقد أنّها قد تبقى لفترةٍ أطول عند الباب، لكنّها تقف الآن بجانب السرير، وصوتها حلوٌ وكأنّه مغمّس في العسل. تودّ «الأبلات» أن نقبلهنّ كأمّهات ثانيات، وكنصيرات، وكأصواتٍ مُرشدة للخبرة. إنّها طريقةٌ أخرى لتقوية موقعهنّ ووضع أنفسهنّ في مرتبة أعلى من بقية الطاقم. بعضهنّ، مثل «أبلة تغريد»، ترغب في الخوض أكثر بالحياة الخاصة للفتيات، وهي تبحث دائماً عن فُرصٍ، وذلك عندما تصبح واحدةٌ منّا ضعيفة بما يكفي لتبوح بسرٍّ أو اثنين. تقريباً، هذا الأمر مستحيل، لأنّنا وصمناها بعلامة شرطيّ الآداب. حتى الطالبات الجديدات يتمّ تحذيرهنّ منها منذ اللحظة الأولى لوضع قدمهنّ في السكن. «كيف تشعرين؟»، سألت «أبلة تغريد».

تأوهّتُ وكأنني استيقظتُ للتوّ، وانزلقتُ خارج اللحاف. أشحتُ بنظري عنها (خشية أن ترى ما يوجد داخل عينيّ) بينما كانت تلمس رأسي. إنّه ساخن، وسحبت يدها من على رأسي. «لقد اتصل عمّك»، قالت لي. «أخبرته أنّك مريضةٌ بعض الشيء ونائمة في غرفتك، لذلك قالَ إنّه سيتّصل لاحقاً».

انتظرتها لتخبرني بالمزيد. لكنّ «أبلة تغريد» اكتفت بالنظر إليّ، وهي تمطّ فمها الدقيق بحيث أصبح موازياً لفكّها المربّع. وتحت الضوء الخافت، لمعت عيناها الدائريتان مثل حصىً رطبة. وأعلى تانيك العينين، كان يوجد حاجبان موشومان، خطّان غليظان، يُعطيانها تعبير الاندهاش الدائم. «هل قالَ ماذا يُريد؟»

«كلا».

هذا جعل نوباتٍ من السخونة والبرودة تسري في جسدي في الوقت نفسه، وأخذت أتساءل مرّةً أُخرى ما إذا كُنت أعاني من حمّى حقيقية.

«صحيح!» وضربَتْ على فخديها.«سأُعلِمك إذا اتصلَ ثانيةً. وإلا، فانزلي بنفسك واتصلي به».

هي تودّ أن أفعل ذلك، أنا مُتأكدة. الهاتف العمومي في الطابق الأرضيّ قريبٌ كفايةً من مقرّها، بحيثُ يمكنها سماعُ كلّ صوتٍ ونَفَس. وإن لم يكُن ذلك التطفّل كافياً، فثمة أذنٌ ناقلة أُخرى: عاملة المقسم التي تطلب كلّ المكالمات الدولية. ثمة طقطقة كلّ بضع دقائق لتتأكد من أنّ المكالمة لا تزال جارية. حتى أنّها تقوم أحياناً بمقاطعة المحادثة، ومن خلال صوتها الشبيه ببحّة المزمار، تحذّرنا أنّ التكلفة قد بلغت حتى الآن كذا، وكأنّها هي من يدفع المصاريف! هذه ليست المرّة الأولى التي أتوق فيها إلى الراحة المتمثّلة في استخدام هاتفي المتحرّك الإماراتي، لكنّه لا يعمل هنا.

«وعلى سبيل إخبارك فقط، فقد ذكرَ أنّه قادم»، قالت «أبلة تغريد» بينما كانت في طريقها إلى الباب.

«هنااااا؟ متى»؟ قلت مُتلعثمةً.

«لا أعرف»، قالت «الأبلة»، وهي تغلق الباب وراءها.

أخذتُ أخدش اللحاف بأظافري، وانتقلتُ بأفكاري إلى غرفة المستشفى حيثُ كان أبي، حيث تعرّض قبل شهرين من ذلك لسكتةٍ دماغية أثّرت على جانبه الأيمن، مُستلقياً يتعافى جرّاء سقوطه الذي أدّى إلى إصابته بكسر في رجله السليمة.

استحال أبي مزاجياً خلال محنته تلك. لم أستطع أن أخمّن أيّهما كرهت أكثر: الانفعالات الوحشية التي كانت ترشح منه، أو وعكات الفتور ذات العين الكدرة التي أخذت تدوم في النهاية لساعات. بعدها أتت مرحلة ضعفه، وعلى وجه الخصوص في شهر نوفمبر 1987م. كان ينتحب، كان جسمه يختلج تحت تأثير النشيج المترع بالاختناقات، عندما مشى عمّي ماجد إليه وأخذ في تهدئته من خلال الحديث عن إرساله إلى ألمانيا للتعافي بوقتٍ أسرع وأفضل. بعدها بدءا يتحدّثان حول مشاكل الشركة.

غرفة السكن تزداد حرارةً. قذفتُ اللحاف جانباً ونهضت. ليست المرّة الأولى التي أخبر نفسي أنّه لم يُكنْ بإمكاني فعل شيءٍ آنذاك. لم أكن أستوعب ما الذي كان يجري، وحتى ولو كنتُ كذلك، ما الذي كان يُمكنني فعله لمنع حدوث النتيجة المأساوية؟ حتى ولو تكلّمت، من ذا الذي سيستمع إلى اعتراضات مهذارة في الحادية عشرة من عمرها؟ لكن، وبغضّ النظر عن الأعذار التي أُقدّمها، تبقى الحقيقة أنني قد خذلته. يتربّع عار هذه الحقيقة كأحبولةٍ حول رقبتي. إنّها تخنقني.

«السيولة المالية، هذا ما أنا قلقٌ بشأنه»، أخبر عمّي ماجد أبي. قد نحتاج إلى بيع بنايةٍ بسبب هذه الحرب العراقية الإيرانية المتواصلة. كُلّ تلك الهجمات على ناقلات النفط في الخليج، حسناً، دعني أقول إنّها تؤثّر على كلّ الأعمال، وقد أخذت البنوك تُصبح أكثر حذراً، لم تعد تقدّم أيّة قروض».

تأوّه أبي: «ما درجة الخطورة؟»

«حسناً، لقد تأثّر الاستيراد والتصدير، أيضاً. لكن لو تصرّفنا بسرعة، يُمكننا السيطرة على الوضع، أو على الأقل تقليل الضرر».

عند هذه النقطة، أخذت أشعر بالملل. طارت أفكاري نحو حقيبتي المدرسية وأدوات التسلية التي أمتلكها. تناولتُ الحقيبة وأخرجتُ من أحد جيوبها الجانبية بعض التماثيل المصغّرة الكبيرة الرأس، مع نصف أنبوب من شوكولا «سمارتيز».

«لا بدّ أنّك تستوعب، يا أخي»، قال عمّي ماجد. «أنا هنا من أجلك. أريدك فقط أن تُركّز على موضع شفائك. ومن خلال إذنك، سأفعل ما هو الأفضل للشركة».

«أنا أمنحك إذني».

«التواقيع».

«ماذا؟»

نظّف عمّي ماجد حنجرته وأدار نظره نحو الأرض. «حسناً، كما ترى، فأنا سأحتاج إلى تفويضٍ بالتوقيع»، قال بصوتٍ ضعيف، ثمّ أضاف وبنَفَسٍ مليء بالعزم والتصميم: «أنا أتحدّث عن تفويضٍ كامل، بحيث يُمكنني ضخّ بعض الحياة في العمل».

«بالطبع، بالطبع»، قال أبي. لك ذلك. نحن إخوة، وأنا أعلم أنّ كلّ ما تفعله هو لمصلحة العائلة».

«يجب أن يأتي الإذن من المحاكم. ثمة بعض الأوراق التي يتعيّن عليك توقيعها».

«نعم، نعم، بارك الله بك. رتّب هذا الأمر».

راوح عمّي ماجد بين قدميه، كان يبدو غير واثقٍ ممّا يتوجّب عليه فعله بعد ذلك. »إنّه في الخارج الآن».

كانت تماثيلي تتصارع بعنف، لكنّني توقّفت عن اللعب ونظرت إلى الباب. فاجأني وأحرجني وجود شخصٍ ينتظر في الرُدهة كلّ ذلك الوقت. هل سمع هياج أبي، شهقات البكاء كلّها من البداية؟

«مَن؟» سألَ أبي.

«كاتب العدل».

كان ثمة خمسة رجال. كنتُ أعرف مصطفى من المكتب، وكنتُ قد رأيتُ مُحامي عمّي ماجد مرّات عدّة، لكنّ الكاتب والرجلين

الآخرين اللذين حضرا بصفة شهود، كانوا غرباء. اعتقدتُ أنّ الكاتب كان ظريفاً عندما سألَ أبي، «هل أنتَ حارب النسيمي؟»

«ومن عساه يُمكن أن يكون؟» قُلتُ ذلك، وأنا أنفجر بضحكةٍ فاترة قُطِعَت بسرعة، نتيجة النظرة الشريرة التي وجّهها لي عمّي ماجد.

بالرغم من ذلك، لم يبدُ على الكاتب أنّه يأبه لهذا التدخل. كان رجلاً في مُقتبل العمر، بنظّاراتٍ ذات حوافّ معدنية. تلألأت عيناه وهو ينظر إليّ بينما كان يكبح ابتسامته. ثم أعاد السؤال، والذي أجاب عنه والدي تماماً مثلما أجبتْ: «ومن عساي يُمكن أن أكون؟» ولاعتقادي أنّ أبي كان يوافقني الرأي أنّه كان سؤالاً سخيفاً، فقد كنت على وشك أن أضحك ثانيةً عندما لاحظتُ أنّ أبي كان يُحدّق في الرجل بعينين ضجرتين. لقد كان حديث كبار، متضمّناً كلّ أحاجيه وأسراره، وعُدتُ إلى تماثيلي.«أنت تُريد «سمارتي»، أليس كذلك؟ سأريك»، قُلتُ لنفسي. التقط التمثال الثاني حبّة «سمارتي» وهرسها فوق رأس التمثال الأول. تكسرت القشرة الحمراء ولطخت حشوة الشوكولاته فوق وجهه.

«بموجب الإجراءات، فأنا أحتاج منك أن تُجيبني» قال الكاتب.

«نعم، نعم، أنت تستطيع أن ترى أنّه أنا»، قال أبي.

«هل أنت، وكونك في كامل قواك العقلية، تمنح أخاك ماجد النسيمي وكالة؟»

«كما تعلم، لقد انكسرت رجلي. كلّ ما أريده من هذا العالم هو الصحّة».

«أنت تفهم أنّه سيكون الشخص الوحيد المسؤول عن اتخاذ القرارات المتعلّقة بالشركة، من شراء، وبيع، وما شابه ذلك، وكما يراه هو مُناسباً؟»

«عليّ أن أسافر لأتعالج. أودّ أن أسألك، يا ابن اليوم، مَن الذي سيهتمّ بأمور الشركة؟»

«سيّدي، أُريد نعم أو كلا، كجواب».

«وما الذي كنتُ أخبرك إياه طيلة هذا الوقت، أيّها الشاب؟ ألا تعرف كيف تحترم كبار السن؟»

انتهت التماثيل من جدالها. تلطّخ كلا وجهيهما بالشوكولا التي بدأتُ بلعقها عنهما، بينما كنتُ أختلس النظر إلى وجه أبي المحمرّ.

«آسف يا عمّي»، قال الكاتب. «ولكن يتوجّب علينا إنجاز الأمور وفقاً للأنظمة، وهذا يعني أنّه يتوجّب عليك في الحقيقة أن تتلفّظ بالكلمة أمامي، وأمام هؤلاء الشهود».

«نعم، نعم، نعم!!» صرخ أبي. «هأنذا أقولها ثلاث مرّات. هل هذا كافٍ؟»

تعيّن على عمّي ماجد تهدئته قبل أن يتابعوا. بالإضافة إلى التوقيع الخاص بمنح الوكالة، كان ثمة حاجة لتواقيع على وثائق من الجمارك والسلطات البنكية، كلّها كانت في ملفٍّ جلبه مصطفى معه. نشر عمّي ماجد الأوراق أمام أبي الذي قام بالتوقيع عليها بيده الطيّبة.

15

دلال

جلستُ واضعةً رجلاً فوق أُخرى أمام مرآة باب الخزانة، ونصف شعري في اللفائِف. أضمّ فمي على شكل تبويزةٍ مغرية، وأحاول أشكالاً عدّة من تعابير الوجه، من خلال مزج الدهشة بدرجاتٍ مختلفة من البراءة؟ «أنا لا أفهم، هل يُمكِنكَ أن تشرح لي الأمر ثانيةً؟» اتسعتْ شفتاي قليلاً.«هذا لطفٌ منك: لولاكَ لكُنتُ ضعتْ». إنّها درجة الصوت المطلوبة، وتألقتُ بابتسامةٍ للخاطر الذي طاف بي، وهو أنّها كافيةٌ لخلق ذلك الانطباع الوهميّ بالدفء والإحساس.

أخذتُ نَفَساً عميقاً، وبالرغم من أنّ تدريبي الروتيني على مطابقة الدرجات الصوتية إلى التعابير الوجهية قد انتهى، فلا يزال يعلو وجهي البريق.«كيف تجري الأمور!!»هذا ما انفكّت أمّي تسألهُ. أصبح شريف بيه يصطحبنا الآن إلى حفلاتٍ خاصة، وهي- كما يقول- ملأى بالأشخاص المناسبين. هو يدعوهم «صانعي الحِرفة»، لذلك كان توقّعي أن يكونوا توّاقين لمثل موهبتي، أو على الأقلّ أن يُبدوا بعض الاهتمام. سيعرّفنا شريف بيه على أخواته بعد ظهر اليوم. نادت عليّ «ماما» كي أُسرع، بينما

كنتُ قد شرعتُ في معالجة الطرف الآخر من رأسي. كنتُ بالكاد قد مسّدت ثلاث خصلٍ من الشعر بالحرارة، وربطتها باللفائف، عندما شرعَ أحدهم بالطّرق على الباب.

«نريد التحدّث إلى الستّ التي يدعونها زُهرة!» إنّه أمرٌ وليس طلباً.

«افتحوا الباب!» كان ذلك صوتاً آخر.

«ماما، هل يُمكنك الإجابة عن ذلك؟»

أخذت الضربات تعلو.

دفعتُ اللفائف جانباً واندفعتُ إلى غرفتها. كانت أمّي تبدو كأنّها عروسٌ خجلى. كانت ترتدي طقماً بلون العاج، وتضع قرنفلةً رقيقة متناغمة معه فوق أُذنها. كان ثمة أمرٌ صامت للحظةٍ خصوصية، للصمت، بينما كانت تجلس على طرف السرير وتفتح علبة كريم «نيفيا» ببطء.

«ألمْ تسمعيني أُنادي؟» وعندما لم تُجِبْ، أشرتُ إلى الباب. «أحدهم عند الباب».

«حسناً، اذهبي وانظري من هو»، قالتْ.

«كيف؟» صرخت، مُشيرةً بكلتا يديّ إلى الشكل غير المكتمل لشعري. «بالإضافة إلى ذلك، هم يُنادون عليكِ أنت».

أخذت أمّي وقتها في فرك «النيفيا» على يديها، بالرغم من الضجيج عند الباب، والذي بدا كأنّه مئات القبضات الطارقة. «ليس

من مكانٍ يُمكنكِ الذهاب إليه، يا ستّ زُهرة»، نادت إحداهُنّ. «نحن نعلم أنّك هنا، ونحن لن نذهب. يتحتّم عليك مواجهتنا».

«ما الذي فعلتهِ؟» قُلتُ وقد استبدّ بي ذعرٌ فجائي، لإدراكي أنّهن الجارات، هنّ من يقفن عند الباب. كُنّ قد أطلقن ملاحظاتٍ زائفة حول أمّي مسبقاً، عندما شعرن بالتهديد باهتمام أزواجهنّ بها. لكنّ ذلك كان في الشارع، وقامت أمّي بوضع عداوتهنّ جانباً، ولم تأبه لها. الآن، هنّ هنا، وكما يبدو، لديهنّ نوايا واضحة وخطيرة.

لوّحت أمي بيدها المدهونة بالكريم أمام وجهها.«ما الذي تظنّه هؤلاء النسوة الغبيّات؟ أنّنا سنبقى في هذا الحيّ النَتِن إلى الأبد، أنّنا مهتمّاتٌ بسرقة أزواجهنّ العديمي الفائدة؟ أريدك أن تذهبي إليهنّ في الخارج، وتعالجي هذا الوضع».

«ما الذي تعنيه بـ...» لم أستطع إكمال الفكرة. «كلا، كلا، كلا، كلا». تخيّلت أنّني أفتح الباب لنساءٍ يرشقن البصاق من خلال أسنانهنّ التي تصطك غضباً، وأيديهنّ وأصابعهنّ جاهزةٌ لتمزيقي. «هل تسمعينهنّ؟ هنّ على استعدادٍ لسفك الدماء، وهنّ يسعين وراءك». ثمّ خطرت لي فكرة.«هل هذا اختبار؟»

«اختبار؟» كان ثمة اضطرامٌ بعينيها الرماديتين، مثل مرآةٍ انعكس عليها الضوء.«هذه هي الحياة!» انكمشتُ إلى الوراء عندما أخذت توبّخني. «إن لم يكن بإمكانك التعامل مع مجموعةٍ من آكلات الجِيف الثرثارات، فأيّ أملٍ لديك للنجاح في عالم الموسيقى؟»

هززتُ رأسي وكُلّي عزمٌ وتصميم. لن يكون ثمة تردّدٍ أثناء تعاملي معهنّ. في النهاية، هذه هي الحياة. فتحتُ الباب وأنا ألوّح بذراعي بفظاظة وأُزمجر على النساء: «ماذا؟ لقد أيقظتنّ الموتى!» لا شكّ في أنّ منظري كان مُخيفاً، بنصف شعري المنفوش والمجعّد والمتشابك مثل شبكة صيّاد السمك. ومع وجود عنصر المفاجأة إلى جانبي، تصرّفتُ قبل أن تسنح لهنّ الفرصة للتغلبّ عليّ. «ألا تستحين، تطرقن على أبواب الناس بهذه الطريقة؟»

المرأة في المقدّمة كانت زعيمة المجموعة. عرفتها لأنها كانت زوجة عبدو الجزار. تراجعتْ خطوةً إلى الخلف، ما دفع بالمجموعة إلى التراجع. كنتُ على وشك إنهاء المواجهة عندما اندفع شخصٌ خلالهنّ. ثمّ أصبح أبي في الغرفة، يقف فوقي بوجهه الصلب. رد فعليّ الأوّل كان الهرب. ركضتُ مُتخطّيةً إيّاه، ولكن كان رَجُلٌ يسدّ الباب، أغلَقَ الباب بركلةٍ من رجله.

«يكفي غباءً!» قال أبي، وصوته بالكاد مسموعٌ، واضعاً قبضته على الجانب الأشعث من شعري، ساحباً إيّاه بينما انكمشتُ خوفاً وبدأتُ أُصدر أصواتاً رعديدة. «لقد اكتفيتُ من ألاعيبكِ الجامحة». أجبرني على الجلوس على الأريكة، بينما كانت أمّي تخرجُ من غرفتها.

«أوه»، قالت، وهي تنقر على القرنفلة في شعرها. ونتيجةً لتوتّر أعصابها، لعدم تصديقها وجوده، أخذت أمّي تتحدّثُ إليه وكأنّه

ضيفٌ جليل قد شرّفنا بزيارته. لكنّها لم تكُن قادرةً على إنهاء جُملها. «كيفَ...؟ متى...؟ ماذا...؟»

«اجلسي!»

جلسنا بجانب بعضنا البعض، غاصت بنا الأريكة، بينما أخذ أبي يوبّخنا لاستخفافنا الفاضح باسمه الفاضل، بتصرّفنا الأرعن والأنانيّ تجاه العائلة. لم يكن بحاجة إلى الصراخ علينا أو إسكاتنا. كانت رؤيتنا له كافية: كلّ ذلك الدم المحتقن في وجهه، والأوردة الأرجوانية الثخينة في كلا جانبي رقبته.«إذاً، فقد ارتأيتِ أنّك مميّزة؟» قال مزمجراً.«سأخبركما الحقيقة، كلتاكما: أنتِ غير متميّزة. وأنتِ عادية إلى أقصى درجة!» ووجّه عينيه اللتين تقدحان ناراً باتجاهي.«لكنّها ليست غلطتك. إنّها غلطتي، لأنّني أنا من ارتكب الغلط المتمثّل في اختيار أمّك - هذا إذا أمكنكِ أن تطلقي عليها اسم أمّ- حيث ملأت رأسك بمثل هذه الأحلام، وجلبتك إلى هذا المكان القذر.. آه نعم، إنّها غلطتي. لكنّ هذا لا يعني أن أقف جانباً وأسمح لك بتدمير كلّ ما بنيتهُ!» أبقت أمّي نظرها ثابتاً على يديها اللامعتين بالكريم، مذعنةً لكلّ ما يقوله، دون أن يبدر منها أيّ اعتراض. وعندما أصدر أوامره بترك كلّ شيء والعودة إلى الوطن، أومأت برأسها موافقة. ومع انسحاقي تحت وطأة ذلك السيل المفاجئ من الأفكار التي تمثّل الهزيمة، فأفضل ما أمكنني القيام به هو إطلاق آهةٍ صغيرة. هذه هي النهاية، نهاية شيءٍ لم يبدأ مطلقاً. أشحتُ بنظري بعيداً، وشرعتُ في النحيب بهدوء.

بعدها، ساد صمتٌ مؤقّت. شككتُ أنّه قد هدأ بعض الشيء ليتمكّن من سماع شهقاتي. يمرّ الوقت، وخلال ذلك الصمت تخيّلتُه شامتاً بحالتي المأساوية، وبإباء أمّي المهزوز، وبالقوّة التي لا يزال يسيطر بها علينا نحن الاثنتين. في النهاية، وعندما رفعتُ نظري، كان قد تغيّر تماماً. كان وجهه قد فَقَدَ اللون الذي كان يعلوه قبل لحظات. كان وجهه قد أصبح بلون الرماد، كأنّ الصدمة قد استحوذت عليه. كان ينظر إلى الأرض متجهّماً، بينما يمسك بالكرسيّ بيدٍ واحدة ويطبق يده الأخرى بإحكام، بشكلٍ متكرّر. ثمّ قال كلماته الأخيرة، واكتشفتُ أنّ قوّته السابقة لم تخمد بعد: «انتبها لكلماتي جيّداً، أنتما الاثنتان، وإلا أُقسم بالله فإنّني أعدكما: سيكون لهذا الأمر عواقب».

عند ذلك، استدار وخرج من الشقة. كانت الجارات يقفن عند الباب ساكنات، يتبادلن الوقوف على أطراف أصابع أقدامهنّ، ويتهامسن بفضولٍ حول تلك الأقدار السيئة التي هبّت وجلبت معها ذلك الغريب من الخليج. صفقت أمّي الباب بعنفٍ في وجوههنّ، وأخذت تذرع الغرفة جيئةً وذهاباً. «اذهبي واغسلي وجهك» قالت لي.«واحرصي على أن تُصلحي ذلك الشعر. لا نريد أن نتأخر عن موعدنا مع شقيقات شريف بيه».

16

ماجد

تزحف الدقائق ببطء. يتعيّن عليّ أن أتحمّل هذا النشاط المتعلّق بالعمّ الصالح أكثر قليلاً، قبل أن أستطيع إعادة مريم إلى السكن من جديد. نحن في الطابق العلوي من «كازينو قصر النيل». وكما هي العادة دائماً، يعجّ هذا النوع العتيق من الكازينوهات- والذي كثيراً ما صُوِّر في الأفلام القديمة- بالسيّاح الخليجيين. ومثله مثل العديد من المقاهي على حافة النهر، فقد رُتّبت المقاعد وكأنّها على ظهر سفينةٍ كبيرة. على أحد الجانبين، يجري النيل تحتنا تماماً، بينما يوجد حائطٌ مزخرف ببلاطاتٍ زرقاء على الجانب الآخر.

الجوّ قارس هنا بجانب النهر. ارتديتُ سترةً فوق كندورتي الشتوية، الكحلية الصوفية، وانتعلت حذاءً عوضاً عن صندلي الاعتيادي. أخذتُ أحدّق بالماء، وشعرتُ أخيراً أنّ أعصابي قد هدأتْ بعد المواجهة في إمبابا. كنتُ جالساً في المقعد الخلفيّ للسيارة، مذهولاً من عدم القدرة على التصديق أنّ بإمكان زُهرة أن تعيش في مثل هذا المكان المريع، وأنّها قد سحبتْ ابنتي أيضاً معها للعيش هناك.

ظهرتْ بينما كنتُ أجول ببصري تجاه الواجهة العلوية، متوقفاً عند شرفة الطابق الخامس. لم أعتد على رؤية دلال من هذه المسافة. أخذتُ أحدّق فيها، حائراً من التغيّرات التي طرأت عليها. لم يعد لديها بعد الآن ذلك الوجه الكاريكاتوري، الأنف الشديد التسطح والعينان المتباعدتان، والرأس الضخم الذي يجلس على هيكلٍ مهزول. تلك الفتاة الصغيرة التي كانت تبدو كأنّها مصنوعةٌ من قطعِ غيار لمحركاتٍ مختلفة رُكّبت على بعضها بالإكراه، تبدو الآن وقد تفتّحت لتصبح شخصاً آخر يُسعد العينَ مرآه، بهيّة الطلعة، مع ذلك الألق للرخام المصقول في وجهها. مرّت المعاينة بسرعة، حيث أخذتُ أتململُ في مقعدي، وكلّي استنكارٌ لرؤيتها في ثوب الحمّام. كان شعرها رطباً، يتقاطر الماء منه، مثل حبال الغسيل الضعيفة المثبتة بين الحوافّ حولها. أتذكّر تمتمتي بشتيمةٍ موجهة لزُهرة، لسماحها لها بالظهور على الشرفة بهكذا مظهر، لعدم تنشئتها لها بالطريقة المناسبة، ولجرّها إياها كلّ تلك المسافة نحو مستقبلٍ لن يقود إلى خيرٍ أبداً.

بقي السائق صامتاً، بينما كنتُ أجلس في المقعد الخلفيّ، وعيناي مُثبتتان على مظهرها. استمالتني رغبةٌ شديدة في أن أطلب من السائق أن ينطلق، لكنّي- ولكوني سئمت من تقارير مصطفى الواهنة- قرّرت أنّه قد أصبح من الضروريّ أن أطير إلى القاهرة، وأقوم بأمرٍ ما بخصوص هاتين الاثنتين. كان من الضروريّ أن يُنظر إليّ على أنّني أكثر من تهديدٍ غير حقيقيّ. ومع الحاجة إلى

تولّي زمام الأمور، ومع اضطرام تلك القوة الواقعية الملموسة في كامل جسمي، نزلتُ من السيارة وسرت نحو المبنى، وبالكاد أشعر بالسائق يثب في أعقابي.

أعادتني الموسيقى العذبة المنبعثة من إحدى عبّارات النيل إلى الواقع، وأخذتُ نَفَساً عميقاً، بينما كنتُ أحاول أن أرسم ابتسامةً أبوية لمريم. مددتُ يدي لمحفظتي في الجيب الداخلي لسترتي، سألتُها ما إذا كانت تحتاج إلى أيّ شيء. هزّت رأسها وقالت:«لا نحتاج لأيّ مساعدة هنا، يا عمّي. يُقدّم لنا برنامج المنح الدراسية الحكومية أكثر ممّا نحتاجه». كانت حركتي هذه غير ذات جدوى، وسحبتُ منديلي عوضاً عن محفظتي، وأخذتُ أُربّت على جبهتي، بالرغم من أنّ الهواء كان بارداً. بدا وكأنّها- من خلال رفضها- تحطّ من شأني بطريقةٍ ما، وهو أمرٌ غريب، لأنه بالرغم من أنّ الهواء كان دائماً كثيفاً بيننا، فلا يوجد شيءٌ أمسكه ضدّها. تخاطبني مريم باحترام، وسلوكها نحوي ودّيّ، كما هو دائماً.

أحضر النادل طلبنا، وخلال الصمت الذي تلا، قرّرتُ أنه لا بدّ أنّي أتخيل أشياء، لا تزال مقدرتي على التمييز مشوشةً، نتيجة كلّ ما حصل خلال الساعتين السابقتين في شقة إمبابا.

حدثَ شيءٌ ما في منتصف مواجهتي مع دلال وأمّها: إحساسٌ واخز، وكأنّ مستعمرةً من النمل كانت تتقيأ من مفاصلي، مترافقاً

بتعرّقٍ بارد، كان قد بقي- والحمد لله- مختبئاً تحت طبقات ملابسي. أتذكّر أنّي ظننتُ أنّها لحظة هياج عابرة، على أغلب تقدير. ولكن بعد ذلك، تلقّيتُ إشارة إنذار أُخرى تمثلت في أنّ نبضي بدأ بالتسارع، وهو الأمر الذي تسبّب بدوارٍ في رأسي. أمسكتُ بالكرسيّ، مخافة أن تسقط ركبتاي تحت ثقل وزني. أيّ كارثةٍ ستكون تلك!! وجمعت كلّ قوّتي كي لا يحدث ذلك. لقد هزمتهنّ. لقد كسرتهما وحطّمت عزيمتهما. كنتُ في موقف قوّة أكثر منهما، ولم أكن لأسمح لمجمل تلك المواجهة أن تفشل.

وبينما كنتُ أنتظر أن يبرد شاي النعناع خاصتي، قرّرتُ اختبار نبرة صوت مريم مرّةً أُخرى: «كيف هي دراستك؟»

«جيّدة».

«أخبريني كيف تقضين أيامك في الجامعة».

أخذتْ تُحرّك العصير أمامها حتّى تمازجت ألوانه المتعدّدة وأصبح بلونٍ أصفر باهت، ثم سحبت القشة وأخذت وقتها في تمريرها بين شفتيها قبل أن تُجيب: «لا يوجد شيءٌ للتحدث به. كلّ الأمور جيّدة». لا يوجد أيّ خطأ هذه المرّة بوجود نبرة التحدّي في لهجتها. نظرتُ إليها بعينين ضيّقتين، بينما كانت تدسّ القشة في فمها، وبدأت بتدويمها كأنّها هراوةٌ من طرفٍ لآخر. في الحقيقة إنّه استهزاء، وإيماءةٌ لا تليق بشابّةٍ على الإطلاق! هذا شيءٌ جديد، ولستُ مُتأكداً من مصدر هذا الأمر. وبنظرةٍ عابسة،

نظّفتُ حنجرتي وغضنتُ حاجبيّ وأنا أنظر إليها. جعلها هذا تتوقّف؛ وضعتُ يديّ مُتصالبتين أمام صدري ونظرتُ بعيداً. أعلمُ أنّها تظنّ أنّني لا أملك الحقّ في أن أستولي على الشركة - ولعلّها تلومني لموته - ولكن ما الذي تعرفه هي؟! في الحقيقة، يجب أن تكون مُمتنّةً لما وفّرته لها طيلة كلّ هذه السنين منذ وفاة والدها.

فيما يتعلّق بالشركة، عاملني حارب كأخ، لكنّه لم يُفكّر أبداً في أن يجعلني شريكاً. بالإضافة إلى ذلك، وبالرغم من مرارة هذا الأمر، عملت في الشركة بإخلاص، وبتفانٍ مُنقطع النظير، لا تدركُ مريم أنّني قد جعلت «السُّمر الأخضر» متنوّعة القدرات، بحيث أصبحت تساوي أكثر من كونها وكالةً للجرارات والِمهادات والتنسيق والزراعة. يعود الفضل إليّ في بروزها كواحدةٍ من أبرز الشركات الناجحة في دبي. لقد أضفتُ الأراضي والممتلكات من خلال حسّي العملياتي الحادّ ومهارات سعيد الحصيفة في الإقناع، كونه سمساري. كان ذاك مُخاطرةً جانبية، وكُنّا أنا وسعيد داهيتين وشرسين، مُبدعين حقيقيين في صفقاتنا. كنا نشتري بسعرٍ رخيص، باستخدام القروض البنكية أو أموال الشركة، ونبيع بسعرٍ عالٍ، ونعود بالريع على «السُّمر الأخضر».

أخذتُ رشفةً من الشاي، وأخذتُ أتأمّل ما الذي حدثَ لكلّ هؤلاء الشباب من خلال تصرّفهم الالتهابي، بحيث انقلبوا فجأةً عنيدين كرؤوس الثيران، مع ازدراءٍ لكبارهم. فثمة دلال التي تستهزئ بقواعد الرضوخ، وخالد الذي ترك البلد وهرب

من مسؤولياته في العمل. لقد اتصلتُ به الشهر الماضي، وطالبته بالعودة مباشرةً من «بانكوك». ما الذي يفعله هُناك؟ لقد كتب لي رسالةً تطفح بالرثاء للذات. لقد رفضته المرأة التي أحبّها، وإن يكُن! هذا ما كنتُ أفكّر فيه، بينما كنتُ أجعّد الورقة وأقذفها على الجدار. «تفو عليك!» قلتُ بصوتٍ عالٍ، وأنا أُحاكي بصقة الاشمئزاز.

أخذتْ مريم تُصدر صوتاً مُريعاً بينما كانت تمتصّ آخر قطرات عصيرها بالقشة. ومع نضوب كأسها الطويل، لم يبقَ أمامها شيءٌ آخر ليُثير صفاقتها الجديدة.

فكّرتُ ملياً في التغيّر الذي طرأ عليها، وأخذت أتساءل ما إذا كان من الحكمة أن أبقيها هنا، بعيدةً جداً عن إشراف عائلتها. لا بدّ أنّه هذا المكان – هذه القاهرة – هو من جعلها هكذا. كانت «ماما العودة» مُتعنّتةً دائماً برأيها بخصوص تعليم الفتيات:«لقد تعلّمَتِ القراءة والحساب في المدرسة. وهذا كافٍ. لمَ يتعيّنُ عليها المتابعة وإضاعة شبابها بتعلّم المزيد، عوضاً عن الزواج والإنعام علينا بولادة الأطفال؟» أخذتُ أُراقب مريم وهي تمضغ نهاية القشة وتُحيلها إلى قطعٍ صغيرة، وأخذتُ أُفكّر أنّه قد حان الوقت لتزويجها، كي تُصبح مسؤولية رجلٍ آخر.

17

مريـم

ها قد حان الوقت، كُسِرَ الصمت من خلال ألحان المزامير والدفوف النشطة الصادرة من مكبرات الصوت. وعلى نحوٍ أعلى من صوت المروحة الهادرة، يرتفع التصفيق الإيقاعيّ الموزون للركاب المتشوقين للحصول على أكثر ما يُمكن من خلال جولتهم التي تمتدّ لعشرين دقيقة على نهر النيل. إنّها موسيقى مرحة موشّاة بالأضواء اللامعة وأجهزة إضاءة الديسكو، بشكلٍ مُبهرج.

ها قد حان الوقت، وأنا مُمتنّةٌ لهذه التسلية واللهو اللذين سيجعلان الدقائق تمرّ بسرعة أكبر، إلى أن ينقضي هذا التظاهر بالارتباط العائليّ. ثمة عُقابٌ ضخم من الضوء الأحمر الوامض يجثمُ في المقدّمة. يبدو كأنّه كان سيطير لولا أنّ أجنحته كانت صغيرةً، مُقارنةً بجسده. من جهةٍ أُخرى، كان لدى الدُلفينين الأبعاد الصحيحة. ومع وجودهما على كلا جانبيْ مؤخرة القارب، كانا يُضيئان بألوانٍ مختلفة، وبأوقاتٍ مختلفة.

استقلّينا أنا وعادل يوم الجمعة الماضي واحداً من هذه القوارب ذات الصوت الأزيزيّ، حيث انحشرنا وسط مجموعةٍ من

المصريين الذين قدموا إلى المدينة ذلك اليوم. أصبحنا أنا وعادل مُقرّبين بعضنا من بعض أكثر فأكثر، مُنذ ذلك المساء في «كازينو البرنسيسة» قبل ثلاثة أسابيع. كان ثمة مرحٌ ودُعابة على متن رحلة ذلك القارب، كانت ظهيرة يومٍ تميّز بالضحك والأُنس الذي لا يعرف الخجل. شعرتُ بقلبي خفيفاً لعوباً، كريشةٍ في مهبّ نسمة.

بعدها، ودون طويّةٍ أو خطّة، أخبرته كيف أنّ عمّي احتال عليّ وسلبني حقوقي وتسبّب بموت أبي. بدا عادل في البداية غير قادرٍ على التركيز، لكنّ ذلك لم يكن واحدةً من جلساتي التعليمية، وسرعان ما اعتدل في جلسته. عَلِمَ أنّه يُفترض به أن يسمع كامل القصة، كلا جانبيْ القصّة: الغدر والشفقة. لأوّل مرّة، لم تختنق حنجرتي من الانفعال، بينما كنتُ أصف له الصدمة التي ارتسمت على وجه أبي. لم يُصبِ الغبشُ عينيّ عندما أخبرت عادل بعدم استطاعة أبي التعبير، جرّاء عدم تصديقه كيف أنّ أخاه استطاع خداعه، أوّلاً لأصدقائه، ولاحقاً للمُحامين الذين كانوا يصلون إلى منزلنا مع ملفّاتٍ سميكة وتفسيرات مُسهبة.

بقيتُ خلال تلك الأيام السوداء بعيدةً عن أبي قدرَ ما أستطيع. أصبح أبي مُتقلّب المزاج. أصبح مهووساً جداً بموضوع استعادة الشركة، وبالتالي لم يعُد لديه صبرٌ تجاهي. كان يتكلّم معي بحدّة كلما نطقتُ بأيّ كلمة. لذلك انسحبتُ إلى غرفتي، لأَداء واجباتي المدرسية هناك، أو كنتُ ألتجئ إلى المطبخ، لأساعد الخادمات

في تقشير الفاكهة أو خبز الكعك. وفي الأيام التي كنت أظنّ أنّني سأنفجر، كنتُ أطلب من السائق أن يأخذني إلى منزل دلال. تملّكني الرُعب بعد وفاة أبي. لم يكُنْ أبي ليصاب بالسكتة الدماغية لو لم يُعرّضه عمّي لمثل تلك الضغوطات الشديدة. كنتُ، وللغرابة، منهجيةً في إخبار عادل بكلّ هذا، وكأنّني كنتُ أفتح جوارير مقفلة في خزانةٍ وأفرغها بانتظام.

لم ينبس عادل ببنت شفة، إلى أن انتهيتْ. ثمّ سألني:«في أيّة حال، لمَ عليكِ الرضوخ لهذه القواعد؟ ما الذي يستطيع عمّك أن يفعله معك؟»

«إنّه كبير العائلة»، قُلتْ؛ «إنّه يتحكّم بكلّ شيء».

«كلا، إنّه ليس كذلك. لديكِ المنحة الدراسية. لذلك أنتِ لستِ بحاجةٍ إليه. وحالما تتخرّجين، ستعملين وتبنين مُستقبلك، ولن تحتاجي إليه حينها، أيضاً».

كم تبدو الأمور سهلةً ويسيرة، كم تبدو خاليةً من الآلام.«لو أراد، يمكنه– في هذه اللحظة بالذات، وبكلّ سهولة– أن يُخرجني من الكلّية»، قُلتْ.

استبعدَ عادل هذا الأمر: «لمَ قد يفعل ذلك؟ ما الذي سيجنيه من ذلك؟ اسمعي»، قال وهو ينحني إلى الأمام: «أنتِ إنسانةٌ مستقلّة يا مريم، وحان الوقت لأن تُدركي ذلك».

ليس من المهمّ الآن أنّ انتباهه قد تشتّت ثانيةً، ومباشرةً بعد ذلك. ما يُهمّ هو الكلمات التي قالها: لقد كان ذلك أكثر النقاشات التي سمعتها حصافةً.. هززتُ برأسي وأنا أتذكّر ذلك، ورفعت نظري من على قشة كأس العصير التي كانت علامات الأسنان مُبهمةً لكثرة مضغها، إلى عمّي ماجد.

أنا لا أحتاجك!

كانت تلك الفكرة التي ومضت في رأسي بينما كنتُ أحدّق بنظراتي فيه بتحدٍّ. كان ثمة حرارةٌ في عينيه الكثيفتي الرموش. أخذ قلبي يضرب بقوّة، لكنّه كان الخفق المملوء بالتبجّح. أنا لا أحتاج أحداً للاعتناء بي: لا أنت ولا زوجتك، لا أولادك ولا أمّك. أنا مستقلّةٌ بنفسي!

تململ عمّي في مقعده بامتعاضٍ واضح. ازدراءٌ بيّن! هذا هو على الأغلب ما يدور في رأس عمّي في هذه اللحظة بالذات. تشاغل عمّي بتعديل شماغه الأحمر، مع أنّها كانت تتربّع متناسقةً بشكلٍ مثاليّ فوق رأسه. وعندما أخذ يُطقطق بأصابعه طلباً للفاتورة، انفجر في داخلي إحساسٌ بالنصر. لقد أوضحت له – من خلال تمرّدي الهادئ – أنّني لا أهتمّ بمنحه مايراه هو حقّه الطبيعي من التقدير والاحترام. سأخبر عادل بهذا الأمر، ودلال أيضاً، في المرّة القادمة التي تنضمّ إلينا.

نُشَكِّل ثلاثتنا معاً مجموعةً مرحة، كما يقترح عادل دائماً أن أدعوها، حيث إنّه يستمتع بقصصها المنكّهة. عندما يستمع إليها، تتألّق

عيناه السوداوان مثل ماءٍ في قعر بئر. أراقبه عندما ينظرُ إليها، الطريقة التي يُكوّر فيها ذقنه بينما تكون أُذنه مُنصبّةً تجاهها لالتقاط أيّ توريةٍ لفظية صغيرة. هذه المرّة، سأكون أنا مَن لديه القصّة الممتعة. أعرفُ أنّ دلال ستستمتع بسماع الطريقة التي هززتُ بها مشاعر أبيها.

عندما أصبحنا داخل السيارة، أخذتُ أبتسم ابتسامةً عريضة، وسرحتُ بأفكاري بعيداً. كان توقّف السيارة المتشنّج هو ما أعادني إلى أرض الواقع. طلبَ منّي عمّي ماجد الخروج قبل أن تسنح لي الفرصة لأحدّد اتجاهاتي، وساقني مروراً بالسكرتيرة التي تجلس في رُدهة مكاتب الملحق الثقافيّ. أخذ عقلي يدور بينما كنتُ أصارع لأفهم نواياه.

قفز الملحق الثقافيّ نصف قفزةٍ من مقعده، بينما كُنّا نندفع إلى مكتبه دون استئذان. «أنتم تُحيلون فتياتنا إلى مُتمرّدات وفظّات!» قذفَ عمّي ماجد بهذا الاتهام في وجه الرجل الشاب.

لا أعرف ما إذا كان الخوف أو الحاجة الحمقاء للكلام هي التي دفعتني إلى محاولة الدفاع عنه. «هذا ليس صحيحاً، عمّي».

«اخرسي!»

استحال وجهي كتلةً من الفحم الملتهب. ضممتُ ذراعيّ وأدركتُ أنّني قد فقدتُ السيطرة على بصري، حيث بدأت عيناي تتحرّكان بسرعة عبرَ الأرضية والجدران. انتهى بي المطاف أطرف بعينيّ بسرعة على السقف، لما بدا أنّه شعور بالمجهول.

«ما الذي تعلّمونه في السكن لفتياتنا المهذّبات؟ هل تعلمون أنّكم تفسدونهنّ جرّاء إشرافكم المتهاون؟»

«رجاءً، استرح يا عم»، قال الملحق الثقافيّ وهو يُسرع إلى الجانب الآخر من المكتب. وَضَع يده بيد عمّي بعناية، وأشار إلى أريكةٍ جلديّة سوداء.«قد يكون الأمر كما وصفتَه تماماً، يا عم. يُحتمل أنّنا نقوم بعمل شيءٍ بطريقةٍ خاطئة، ولكن يُمكننا التحدّث حول هذا الأمر، وإيجاد الحلّ». وكحانوتيّ لَبِق ينوي الحفاظ على زبونه الغاضب سعيداً، أخذ يتكلّم بلهجةٍ اعتذارية حُبلى بالاهتمام، لكنّه لم يُفلح في تهدئة عمّي.

أطلقَ عمّي كلّ الغضب الدفين المكبوت. أخذَ يهرفُ كرجلٍ سوقيّ، متوعّداً بتقديم شكوىً للسفارة ولوزارة التعليم العالي، حتى أنّه هدّدَ برفع قضيةٍ على الشاب المسكين. غيمةٌ من الهلع جمّدتني في مكاني، بينما كنتُ أحاول أن أستنبط ما الذي يعنيه كلّ هذا، وإلى أين سيؤدّي في نهاية المطاف. ثم قال عمّي بعدها: «إنّني أسحبُ ابنة أخي من تحت رعايتكم. يُمكنها أن تعود وتُكمل دراستها في دُبي».

لطمتُ فمي بكلتا يديّ وهززتُ رأسي. انهرتُ على الأرض، حيث كان وجهي على بُعد إنشاتٍ قليلة من قدم عمّي. صرخت السكرتيرة بصوتٍ أشبه بالعويل، وصاح فيها الملحق الثقافيّ: «ماء! شاي! عصير! حالاً!»

18

مريـم

«كلتاهما عازبتان وتعيشان معاً، حيث لم يتقدّم الخاطب الذي يستحق أيّاً منهما. وبما أنّ ذلك كان قدرهما، فإنّ مهمّة حياتهما أصبحت تدليل أخيهما.«الأخ الأصغر»، تخيّلوا! هذا ما يسمّون شريف بيه به، لأنّه الأصغر بينهم، لكنّه ليس أصغر بكثير، لا أعتقد ذلك. هاتان الأختان هما زوجٌ من النساء الممتلئات! أراهنكما على أنّ الأرزّ، والحمام المحشي، والمعكرونة بصلصة البيشاميل، هو ما تأكلانه كلّ يوم».

تأوّهنا، وعلى سبيل السُخرية، قام عادل بنفخ خدّيه وإرجاع ذقنه، بحيث تضاعف حجمها. ضحكت دلال، وكانت تبدو نضِرةً للغاية بخدّيها الورديّين، ومُستكينةً بالجاكيت المنتفخ والورديّ اللون الذي ترتديه. كانت ياقة الجاكيت من الريش تتراقص حول ذقنها. «كانتا هناك»، تابعت دلال، «تتظاهران بأنّهما غير مهتمّتين بمعرفة المزيد عنّا. الأخت الصغرى، الستّ فاتن، كانت تُقلّب أوراق مجلة، بينما الأخرى، الستّ ماجدة، أخرجت عدّتها لنسج الكروشيه».

«الواضح أنّها كانت تحاول أن تُرسل رسالة»، قلتُ معلّقةً، وأنا أرفع من نبرة صوتي بحيث أُقلّد بعض الجموح في صوت دلال،

«لذلك يتوجّب عليك أن تأخذي على محمل الجدّ امرأةً تحمل بيديها مخارز». كانت محاولةً عقيمة لتحويل انتباه عادل بعيداً عن دلال. القصّة الوحيدة المشوّقة التي يُمكن أن تضع قصّة دلال في الظلّ هي القصّة التي أفضّل نسيانها. لا يُمكنني أن أخبر أيّاً منهما بها!

لقد مرّ أسبوعان، وما زلتُ أصارع لأبتلع الإهانة التي لحقت بي. لقد كان ردّ فعلي كما أراد عمّي تماماً، السقوط عند قدميه بيأس، والتوسل إليه كي يُبقيني في القاهرة، في مشهدٍ شديد الانفعال، شديد التصنّع، شديد البعد عمّا أنا عليه في الحقيقة. لماذا لمْ أستطع أن أبقى مُتعالية؟ كان عليّ أن أتعامل باحتقار مع نظرته، ووجهه الأحمر القاني، وعبثه.

كان افتراضي الأوّل أنّه عرفَ بانجذابي إلى عادل، وبكلّ لقاءاتنا السرّية. ماذا لو أنّ أحدهم رآني ونقل الخبر إليه؟ لكان واجهني بهذا الأمر وجهاً لوجه.

ناشد الملحق الثقافيّ عمّي ألا يتعجّل قراره. «مريم طالبة مثالية»، قال الرجل، «ذكية، ولا شيء لديها أقلّ من العلامات العالية في كُلّيتها». أجابه عمّي: إنّ هذا الأمر غير مهمّ. أعرف أنّني بدوت مُثيرةً للشفقة. كنتُ أعرف في مؤخرة عقلي أنّني يجب أن أنهض، لكنّي لم أجد القوّة لفعل ذلك. وبينما كنتُ أفكّر بما جرى، أدركتُ أنّ الأمر حدث بسرعةٍ كبيرة، لكنّي- في ذلك الوقت- شعرت أنّني لن أتوقّف عن التوسّل لعمّي. ضَعُفَ صوتي بحيث أصبح عبارةً عن تغريدةٍ مبحوحة، وأحسست أنّ لساني قد انتفخ في فمي: أصبح

كبيراً جداً، وجافاً جداً، عبارة عن قطعةٍ مُتخمة من البؤس غير قادرة على التلفّظ بكلمة. كان إذلالاً أسعَدَ عمّي بالتأكيد، لأنه غيّر رأيه فجأةً، وقال إنّه يُمكنني البقاء. وضع هذا الأمر سلاسل من الأفكار التحذيرية التي تدوّي في اتجاهاتٍ مُختلفة في رأسي. ما الذي يعنيه كلّ هذا؟ لكني فهمتُ كلّ شيء، عندما نظرتُ إليه.

كان يقف هناك، تمثالاً من القوّة، يداه مُتصالبتان أمام صدره، وعنقه مرفوع، وفمه حازم. كانت عيناه عبارةً عن جمرتين باردتين تطلقان الشرر تعبيراً عن انتصارٍ وحشيّ. غشيني إدراكٌ رصين أنّه مهما قلت أو تصرّفت، فسيبقى عمّي ماجد دائماً قوّةً لا تُقهر، السيّد الجبّار الذي يرسم خطة الحياة لكلّ فردٍ من أفراد عائلة النسيمي.

لقد كان يهدف إلى زعزعتي، كسري. ولقد فعلَ ذلك. لقد حطّمني، وأنا سمحتُ له بذلك.

كانت دلال لا تزال تتحدّث عن الأخت ذات مخارز الكروشيه، وكان يبدو على عادل أنّه مُستغرقٌ في كلّ تفصيلٍ صغير. دفعتْ نسمةٌ مارّة بالريشات الوردية إلى فم دلال، فقام عادل بسرعة بكشطها بعيداً. انسحبت دلال، مُتصنّعةً الإحراج، وحاولتُ مرّة أخرى أن أحظى باهتمامه، من خلال دعابةٍ لم تخرج دفعةً واحدة: «ربما كان عليها أن تستخدم المخارز كسلاحٍ تطعن به والدتك في المكان الذي يؤلمها».

«يُمكنها أن تطعن في أيّ مكانٍ ترغب فيه، لكنّها لن تكون قادرةً على ردع أمّي». قالت دلال وهي تومئ برأسها بطريقةٍ متعجرفة

استبدادية.«أمّي قوية الإرادة ومُتفانية تجاهي، هذا هو الأمر. أمّي ستقوم بعمل أيّ شيء لي».

عند تلك النقطة بالذات فقدتُ صبري؛ لأنّ الشيء الوحيد الذي أعرفه عن زُهرة هو أنّها هي والحب لا يمتزجان. نخرتُ بصوتي:«ألا تظنّين أنّها تفكّر بنفسها كذلك؟»

«ما الذي تعرفينه عن حبّ الأمّ؟ وكأنّه لستِ أنتِ من لم تحظَ بأمٍّ على الإطلاق.»

مُتحجّرة القلب! كنتُ ملسوعةً ومُهانة لقولها شيئاً كهذا، وأمام عادل أيضاً. زممتُ شفتيّ وعبستُ بوجهها، أنتظرُ اعتذاراً فورياً. وعندما لم يأتِ أيّ اعتذار، أخذتُ أحدّق في المنطقة خلفها، مركزةً نظري على الملّاح. كانت جلابيته تصطفق مع الشراع الذي كان يسحبه ويحرّره بينما كان يوجّه القارب بقدمه.

لقد بدأ النهار بشكل عاصف. وباندفاعها المعهود، قرّرت دلال أنّه سيكون من الممتع أن نُبحر على متن «فلوكة». جرّتنا إلى نقطة صعود في المعادي، وهي جزءٌ من المدينة لا توجد فيها جسورٌ تعترض مسار رحلات «الفلوكة». كانت إجابة كلّ مالكي «الفلوكات» رفضاً صريحاً، مُشيرين إلى الطقس المتقلّب، ما عدا رجلاً مُحمَرّ الوجه يُدعى الريّس، أشار إلى قاربه الصغير ذي الشراع المفرد والمساحة المخصّصة لستة أفراد فقط، وأخبرنا أنه سوف يأخذنا، شرط أن تكون رحلةً قصيرة، وأن ندفع له ثلاثة أضعاف الأجرة العادية.

«يا بنات، يا بنات»، قال عادل. «نحن هنا لنرفّه عن أنفسنا، وليس لنتشاجر مثل زوجٍ من الببغاوات». كان ثمة صفّان من المقاعد يمتدّان على طول القارب، وكنتُ أجلس في مواجهة دلال وعادل اللذين كان ظهرهما للريّس.

«نعم، حقاً»، قالت دلال، وسددت ضربة لعوب إلى بطن عادل. في تلك اللحظة، مال القارب إلى جانبه ولامست بأصابعها أسفل بطنه. تلوّن وجه عادل بمسحةٍ قرمزية. لماذا عليها أن تُحرجه بهذا الشكل؟ ضممت ذراعيّ ونظرتُ بعيداً، مُحدّقةً بعينين ضيّقتين في منطقة الخطّ المتأرجح بين النهر والبرّ، وقد هدأتُ جرّاء تلك الغشاوة الناجمة عن الضباب المتمدّد. لقد هدأت الريح، وأخذ القارب الخشبيّ الصغير يتمايل على سطح الماء الرماديّ، مثل قطعة فلّين مُتخبطة.

قفزت دلال على قدميها وتسبّبت في أرجحة القارب. رفعت ذراعها إلى السماء، وهتفت: «آه، الشعور بالحرّية على هذا النهر المذهِل!»

«اجلسي!»

نظرتْ إليّ بابتسامةٍ عريضة. وبالرغم من أنّ عينيها كانتا مُختلفتين في الحجم، فقد كانتا تتألّقان بالتحدّي بشكلٍ متساوٍ وبرد فعل غير متوقع حاولت الإمساك بها. أخذت تُثرثر كجروٍ لعوب، وتتفادى إمساكي بها، بينما كان القارب يميل على أحد جانبيه. تشقلبت دلال وكادت تسقط على بطنها من فوق حافّة المركب، لو لمْ يتصرّف عادل بسرعة، فيمسك برسغها، وباءت بالفشل آمالي أن تخرج من الماء، ككرةٍ وردية مرتجفة مُتسخة

بأعشاب النهر الذابلة.. انتقلتُ إلى مقعدهما. أنعمتُ النظر إلى رسغها الذي استحال قطعةً متيبّسة في قبضته. طرح عادل نفسه في منتصف المقعد، وأجلسها بجانبه.

«ما الذي تحاولين أن تفعليه؟» كانت المرّة الأولى التي نسمع فيها صوت الريّس. «لن أسمح لأحدٍ بالسقوط من قاربي والغرق».

«لم يحدث أيّ ضرر»، ردّت عليه دلال.

«لمَ ترغبين في التلاعب بحياتك بهذا الشكل؟» صرخ الريّس. «أنت تسقطين في الماء، وأنا من يقع عليه اللوم».

تجاهلته دلال هذه المرة. رتّبت الريشات وجاهرت قائلةً: «آه، أليس من الممتع أن نكون نحن الثلاثة معاً بجانب بعضنا البعض.»

لكنّ الريّس لم يكُنْ قد انتهى بعد. «أنت تعتقدين أنّك لا تُقهرين فقط لكونك شابّة؟ هل تريدين أن أخبرك كم عدد الشباب الذين ابتلعهم النهر؟»

استدار عادل نحوه: «حسناً، يا عم، لقد فهمنا، لم يحدث أيّ شيء، لذلك دعونا نستمتع ببقية الرحلة».

«بقية الرحلة؟» قال الريّس باحتقار. »سأريك ماذا بقي من الرحلة». وعند ذلك، أدار «الفلوكة».. ثم توقّف. كانت بقعةٌ مُخادعة من الضباب قد زحفت فوقنا وغطّت القارب. لم يعد بإمكان الريّس معرفة الاتجاهات.

19

دلال

تعبقُ من «الفلوكة» رائحة الصدأ والخشب العَفِن. حالها كحال كلّ شيءٍ حولنا، فقدت سحرها منذ وقتٍ طويل. الجميع هادئون. ينتقل الضباب على شكل رقاقاتٍ سميكة، لدرجة أنّه- عندما أمدّ ذراعيّ- يُمكن رؤية أصابعي فقط، وهي تبدو كمقابض من عجين في هذا السديم. تتراقص أصابعي: يُمكنني رؤيتها الآن، لا يُمكنني رؤيتها الآن. أعمل ما في وسعي كي لا أُفكّر بأبي وكيف ظهر فجأةً عند الباب.

كان صوته عنيفاً كبندقية، بالرغم من أنّه لم يكن يُصدر الكثير من الضجيج. سرى في جسدي خوفٌ مُخدّر، بينما كان أبي يحفر ثقوباً في هيكل ثقتي ويقول ساخراً: «هذه التسلية السخيفة، هذه اللعبة المتمثّلة في أن تُصبحي مُغنّية». لم يكن بإمكاني عمل شيءٍ أكثر من أن أنكمش على نفسي بصمت، وكأنّ وجودي يعتمد على هذا الأمر. «تأكّدي أن تتوقفَ عن هذا الهُراء»، وجّه كلامه لأمّي، «وانزعي من رأسها كلّ تلك الأفكار في أن تُصبح مغنّية في يومٍ من الأيام. هذا لن يحدث. لن أسمح بذلك!» كنتُ آمل، في أعماق عقلي، أنّه حالما يخرج، أستطيع أن أجد طريقةً للحصول

على ما أُريد. لكنّ كلّ ذلك تبخّر عندما لمحتُ أمّي تومئ برأسها موافقة. كيف يُمكنني أن أتدبّر الأمور بدونها؟ ومع كلّ إيماءةٍ من رأسها، كنتُ أشعر أنّ حلمي بالسير إلى بقعة الضوء الباهرة للشهرة آخذٌ في التقلّص. وحتى الآن، ما زال يُحيّرني كيف أنّها استطاعت إخفاء نواياها بهذا الشكل الجيّد.

«اتركيهم يُفكّرون كما يشاؤون»، قالت لي أمّي حين غادرَ أبي، «دعيهم يشعرون بالرضى حول المعركة التي ربحوها، ثمّ تفعلين ما يحلو لك».

لم تصبح زيارة أبي ذكرى بعيدة بعد. كنتُ أودّ التحدّث إلى مريم حولها، لكنّ لا شيء في مريم شجّعني على ذلك. حتى الضباب لم يستطع أن يُخفّف من حدّة وجهها الصارم. استمرّت السكينَةُ الشبحية، ولملء الفراغ، أخذتُ أُدمدم بلحنٍ جذّاب لإعلانٍ تجاريّ حول الفلافل. كان واحداً من أكثر أغاني الإعلانات نجاحاً لشريف بيه، وأخذتُ أتساءل ما إذا كان شريف بيه قد فَقَدَ مقدرته على تلحين أغانٍ حقيقية، مع فقده الشباب وتقدّمه في السنّ.

«واه!» قال عادل مُدمدماً، حيث قرّر أخيراً أن يضفي بعض الدعابة على مجموعتنا الصغيرة المتبلّدة. انبثق وجهه من جيب الضباب الذي كان يُغلّفنا، مثل رأسٍ مقطوع. كان قريباً جداً لدرجة أنّي كنتُ أستطيع أن أشمّ رطوبة النهر العالقة فيه. وبالرغم من أنّه

لم يُجفلني، فلقد أفرحته عندما قفزتُ جانباً مع صرخة ذُعر. دفعتُ وجهه بعيداً، ثم صرخت صرخةً قصيرة حادّة عندما طبع قبلةً سريعة على راحة يدي. انفجر عادل ضاحكاً. بعدها، وعندما لاحظَ عدم تغيّر تعابير وجه مريم المتجهمة، كتم ضحكته بغتةً. لم يبقَ بعدها إلا صوت خرير المياه والريّس، وهو يتذمّر ويشتم في سرّه.

لقد ضلّ طريقه، أعرف ذلك. نحن نتموّج في كبسولةٍ من الهواء الرطب. «الطريق إمّا من هذا الاتجاه أو ذاك»، قلتُ وأنا أشتكي لعادل. «لمَ عليه أن يُعقّد الأمور، ويُدير القارب هُنا وهُناك؟ إذا ما التزم بخطٍّ مُستقيم، فسنجد أنفسنا في النهاية نصطدم باليابسة». كان الماء تحتنا يتحرّك ويضرب بعنفٍ على جانبيْ القارب، وفوقنا كان الشراع يصطفق كقطعة غسيل رطبة منشورة على الحبل. نظرتُ حولي مرّةً أُخرى، توّاقة لألتقط مشهد الأفق، وهو الحافة المعروفة بلونها الرماديّ، المختلطة بتلوّث المدينة. ومع فشلي بذلك، أغلقتُ عينيّ وجاهدتُ لألتقط أزيز السيارات البعيد. لا يوجد أيّ صوت، وأخذتُ أفكّر كيف أنّه من المستحيل - من العجيب - أن تصبح القاهرة هكذا فجأةً مدينةً صامتة. وبينما استمرّ القارب يتأرجح فوق النهر الذي أصبح يُشبه البحر المفتوح، شعرتُ أنّ المدينة قد خذلتني.

دمدمَ عادل ثانيةً، في محاولةٍ للترويح عني. لكنّ مزاجي كان قد تيبّس. منذُ اللحظة التي صعدنا فيها على متن المركب، كان عادل

يُرفرف بيني وبين مريم كنحلةٍ سعيدة غير قادرة على الجزم أيّ زهرة ريّانة أكثر بالرحيق. طلبتُ منه أن يستفهم من الريّس ما الذي يجري. وحالما انسلّ بعيداً نحو مؤخرة المركب، انسللتُ دون تخطيط لأكون أقرب إلى مريم، واثقةً أنّ القلق من أن تعلق في وسط النهر هو الذي جعلها جافّة معي. كانت تربّت على غرّتها.«توقفي»، قالت بصوتٍ كالهسيس عندما أخذتُ أُدغدغها تحت أنفها.

«هيا، يا ابنة العم، ما الذي دهاك؟ فقط استرخي. سنعود سالمين معافين».

«أنا لستُ قلقة حيال ذلك!»

«حسناً، ممَّ أنتِ قلقة إذاً؟» هذه ليست المرة الأولى التي أتساءل فيها ما إذا كانت مُنجذبةً لعادل. «هل تُحبينه؟» همستُ لها.

«لا تكوني سخيفة»، قالت باستهزاء، وهي تنحو بعيداً عني.«بيننا صداقةٌ طيبة فقط».

هل أستشعرُ القليل من الإحراج هنا، ابتسامةٌ صغيرة ربما؟ تفحّصت وجهها ملياً. «هيّا، يا مريم. تعلمين أنّك تستطيعين إخباري أيّ شيء»، قُلتُ بصوتٍ كالخرير، وأنا أقترب منها أكثر وأدفعها بكتفي.

«تُصبحين أحياناً مُزعجة جدّاً»، قالت بشكلٍ عنيف.«كان عليك أن تجرّينا إلى هذه الورطة، أليس كذلك؟ كان عليك أن

تسحبينا إلى هذا القارب في مثل هذا الطقس، وهانحن الآن تائهون. كلّ شيء يدور حولك. أنتِ أنانية للغاية». دفعتني جانباً. «اذهبي إلى ذلك الجانب واتركيني لوحدي».

انزلقتُ بعيداً وانحنيتُ، وأنا أُمرّر أصابعي فوق صفحة الماء. كسرتْ السارية التيّار المضجر، من خلال دويٍّ يخلع القلب، وكأنّ الخشب كان على وشك التكسر والسقوط فوقنا. وفجأةً صوت ارتطام.. طاااااخ!!

صرخنا. لم يتوقّع ضحية الضباب، اللقلق، أن يواجه قطعةً قريبة من الخشب، بينما كان يطير قريباً من سطح المياه. سقط اللقلق بيننا كواحدةٍ من قنابل النفايات في إمبابا. كان مصدوماً ويرتجف، وأخذ يركل بساقيه الطويلتين الرفيعتين وكأنّه يُمكنهما ضخّ بعض الهواء عبر قصبته الهوائية المتدلية.

صرختُ بصوتٍ كالعويل، وبدأت أنفخُ عليه، وكأنّ ذلك قد يمنحه ما يكفي من الحياة لينقلب ويطير بعيداً. مدّت مريم يدها لتصل إليه، وأنا فعلتُ الشيء نفسه. أمسكنا بالطير في الوقت ذاته. «اتركيه»، قالت مريم، لكنّني تشبّثتُ به بقوّة أكبر. إنّه مخلوقٌ تفوح منه رائحة السمك. توقّف الركل وحلّ محله ارتجافٌ مشؤوم، وكأنّ روح اللقلق كانت ترتفع بغير رغبة. تخيّلته يضربنا بمنقاره الشبيه بالمنجل. وعندما مات بين أيدينا، أخذنا نُحدّق فيه وكأنّه خدعنا.

أخذت مريم تشدّ، وتمزّق الجلد. أمّا أنا فانتزعت الجلد بشدّة، وانفلع أحد المفاصل. فقط عندما بدأت حشراتٌ صغيرة بالزحف من بين ريشه اللزج، رمينا بالطائر من على سطح القارب، فاختفى في كُرة الضباب. وتحت ضربات الأشرعة، لم أستطع أن أسمع صوت الارتطام بالماء.

❋ ❋ ❋

لقد مضى شهرٌ منذُ أن رأيت مريم آخر مرّة في ظهيرة ذلك اليوم الضبابيّ الرطب. حينها أنهينا اليوم بإيماءاتٍ جافّة ووعود غير صادقة بأنّنا سنرى بعضنا البعض في القريب العاجل. كانت ثمة ابتساماتٌ مثل تلك الابتسامة التي ترتسم على وجهي في كلّ حفلةٍ أحضرها. لم يكُنْ بإمكاننا أن نفترق عابستين دون أن نكلّم بعضنا البعض، على الأقلّ أمامَ عادل.

كان يبدو أنّه يستمتع بالمماحكات ودراما الطائر. بدا وكأنّه كان يتطلّع إلى الأمام بحيث نأخذ خطوةً إضافية، قد نصل إلى نقطةٍ نشدّ فيها شعر بعضنا البعض! ولكن في الحقيقة– ويتوجّب عليّ أن أنطق بالحقّ هنا– أنّنا، وفي نهاية اليوم، كنّا أنا ومريم نتوصّل إلى اتفاقٍ صامت مُقتضاه: إننا سنتجنّب رؤية بعضنا البعض في المستقبل القريب على أقلّ تقدير.

نفثتُ إحباطي في الهواء، مع حرصي على ألا أُعكّر صفو ابتسامتي التي تُظهر فقط اللمعة الأخفت من الأسنان (أمّي

تقول إنّك لا تعرفين مَن سينظر إليك). نظرةٌ واحدة لهذه الحفلة المتوسطة الحجم كافيةٌ لإقناعي أنّ الضيوف غير مهتمّين بأيّ شيءٍ ما عدا الطعام والترّهات السياسية. أمّا العازف التعيس فانطوى على نفسه في الزاوية منبوذاً، ينقر على أوتار عوده.

أعتقد أنّه، أيّاً تكن الإساءة التي وقعت بيني وبين مريم، يُمكن إصلاحها في مرحلةٍ لاحقة. من الأفضل أن أكون هادئة لفترة «بي كووول». هذا تعبيرٌ أمريكي يحبّ عادل استخدامه عندما أُصاب بالاضطراب أو الانفعال. «بي كووول». همستُ بتلك الكلمة تحت أنفاسي، وأنا أُغضّن فمي بالطريقة نفسها التي يقوم بها عادل بينما يمطّ الكلمة، ودائماً مُفسحاً المجال ليده لأن تنساب بخطٍّ مستقيم أمامه. إنّها إيماءةٌ، الغرض منها أن يبدو ارتجالياً، لكنّها تفشل في إخفاء الحدّة التي تقبع في عينيه، بينما يتفحّص كلّ رعشةٍ وخلجة فيّ.

تلك النظرة التي تكتنفها البدائية، والقليل من الحيوانية! ليست المرة الأولى التي أرى فيها هذه النظرة. المرّة الأولى التي لمحتُها فيها تلك النظرة كانت في عينيّ شابٍّ في دبي. الأمر حدث قبل سنوات، بعد فترةٍ وجيزة من امتلاء واستدارة تلك الخطوط المستقيمة لجسدي الأنثويّ. لم يكن ذلك الفتى قريباً بأيّ حال من جمال عادل. كان مخلوقاً صغيراً، وشعر لحيته الخفيف يُغطّي القليل جداً من وجهه الغائر الخدّين. كان يظهر في نهاية كلّ يومٍ مدرسيّ، بينما أشقّ طريقي خارجةً عبر البوابة. كان زجاج سيارته

«الموستانغ» دائماً نحو الأسفل، حتّى في الحرّ القائظ. كانت السيارة رماديةً، بلون الفئران، مع مقاعد حمراء وصوت محرّكٍ ضخم. كان ثمة مُلصقان يحملان شعار نادي الأهلي لكرة القدم على كلا جانبيْ لوحة تسجيل المركبة.

كان يُعلّق نظّاراته الشمسية على أرنبة أنفه، ويلوي مرفقه باتجاه الباب، بحيث كان نصف جسده يميل نحو الخارج عندما يقترب منّي. تجاهلته بينما كان يُحاول أن يجتذبني بتلك النظرات المفترسة. ثمّ- وفي أحد الأيام- غيّر تكتيكه ورفع شريط كاسيت عالياً وهو يُديره بين أصابعه. وعندما رماه لي، كانت دعوةٌ مفتوحة منه لآخذ المبادرة: كان قد خربش رقم هاتفه على شريط الكاسيت. لسوء حظّه، ضبطته المشرفة بالجرم المشهود، وتجهّم وجهها جرّاء صفاقته. أرسل لي قبلةً في الهواء واختفى بسيارته. قامت المشرفة برفع تقريرٍ عن تصرّفه هذا.

النتيجة كانت الأمر الإداريّ الاعتيادي، والعقاب الأكثر إذلالاً هو نشر اسمه في صفحة الحوادث والقضايا القانونية في جريدة البيان، مع صورةٍ رأسية له، بحيث بدا فيها كالمحكوم عليهم. لم أَرَه بعدها مُطلقاً، لكنّني متأكدة أنّه واظب على إبقاء نافذة سيارته مرتفعاً لفترةٍ طويلة بعد تلك الحادثة.

نرى بعضنا أنا وعادل من وقتٍ لآخر. وبالرغم من أنّني غير متأكدةٍ إلى أين سيقود هذا الأمر، فإنّني أستمتع بالغزل معه. ثمة شيءٌ

تحرّريّ في هذا الأمر، تسليةٌ أتطلّع إليها. لكنّي لا أستطيع أن أسأله إذا كان قد رأى مريم. يطرح عادل سؤالاً جانبياً من خلال تلويحه بيده. «إنّها زميلة»، يقول عادل، وتتّسع فتحتا أنفه، وكأنّ رائحةً نتنة مسّتهما. «إنّها لا تعدو كونها زميلة دراسة، هذا كلّ ما في الأمر».

هذه الحفلة مملّةٌ للغاية، بحيث وجدت أنّ أفكاري تنحرف باتجاه مريم من جديد. لعلّ السبب في ذلك أنّنا قد عانينا الكثير معاً، عندما كنا صغيرتين، ونحن نحاول أن نتفهّم ألم فقدان أبوينا - سواء خلال الحياة أم في الموت - والحلم بالمستقبل الذي سُرِقَ منّا. في الماضي، أيّاً كانت نوعية الشجارات التي تحصل بيننا، كان يُمكن وصفها بالتافهة، والضرورية لتقوية الرابط الأبديّ بيننا. كان يُمكنني سرد أفكارها الحقيقية، بينما كانت لا تزال تجري في عقلها. كان يُمكنني توقّع ما الذي ستقوله وكيف سيكون ردّ فعلها في كلّ موقف. لكنّها فاجأتني في «الفلوكة»، كانت المرّة الأولى التي تُصبح فيها مريم عصيةً على القراءة.

لقد ساء المزاج بسرعة، لدرجة أنّني لم أستطع أن أخبرها عن الأغنيات التي شرعت بأدائها في بعض هذه الحفلات (كلّها مع الحضور غير المناسبين، لأنّها لم تؤدِّ إلى أيّ شيء)، أو حول دوري الأول في التمثيل، والذي سأقوم به في القريب العاجل. لقد قابلت أمّي المخرج في واحدةٍ في هذه الحفلات، وأقنعته بطريقةٍ ما بأن يضمّني إلى طاقم الممثلين. مَن كان سيصدّق هذا؟ ولكن من كان سيصدّق أنّني ومريم سنتعارك من أجل طائرٍ ميت؟

وكُلّما تذكرتُ تلك الحشرات التي كانت تزحف خارجةً من الريش، أشعر بيديّ وسختين، وينتابني شعورٌ غامر بضرورة غسلهما بالصابون. تلك الكتلة المقرفة من الريش واللحم، ساخنة في راحة يدي: لقد فصل موت الطائر بيننا، مثل سياجٍ بأسلاكٍ شائكة. ما الذي كنا نحاول أن نبرهنه، ونحن نتجاذب الطائر بهذا الشكل؟ رفضتُ إغراء الإسراع إلى الحمّام، ومسحتُ يديّ بتنّورتي. نزعتُ تلك الأفكار من رأسي، لأنّ الجميع يعرف أنّ كثرة التفكير لا تفيد الروح.

«آه!» هاهي أمّي، تقود المخرج باتجاهي. أمّا شريف بيه فكان يبعد خطواتٍ وراءهم، يهزّ برأسه وهو ينظر إلى الأرض كمعزاةٍ تشتمُّ العشب الجافّ. شريف بيه لم يوافق على دوري وظهوري الأول في هذا الفيلم، وحذّر أمي من أنّ أضرار هذا الأمر أكثر من منافعه، على المدى البعيد، لكنّها لم تسمح له بالاستفاضة بهذا الأمر، وأسكتته بنظرةٍ صارمة.

نهضتُ. واتسعت ابتسامتي، ودفعتني الحماسة باتجاه المخرج. وبالرغم من أنّ هدفي ليس أن أصبح ممثلة، غير أنّ «ماما» قالت إنّها خطوةٌ مساعدة يُمكن أن تقرّبنا أكثر إلى الشهرة الكبيرة. إنّه دورٌ صغير: البطل، ونتيجة انفعاله جرّاء سوء تفاهمٍ مع خطيبته، يذهب إلى «شاطئ المعمورة». وبينما هو يطوف على طول الشاطئ مكسور القلب، إذ بكرةٍ شاطئية ترتطم به بالصدفة.

حينها يبدأ ظهوري في الفيلم. ألعبُ دور فتاةٍ أجنبية شابّة جميلة، تركض إلى المشهد لتستعيد الكرة، وتكون مُمتنّةً للغاية عندما يمدّ البطل يده ويعطيها الكرة، لدرجة أنّها تُكافئه بطبع قبلةٍ على خدّه. بالطبع خطيبة البطل ترى كلّ ذلك، وهو الأمر الذي يتسبّب بإثارة المزيد من المشاكل له.

«هل أنتِ مُستعدّة لليوم الكبير؟» سأل المخرج.

«بالطبع هي مستعدّة»، ردّت «ماما». «ستتناول هذا الأسبوع الدجاج المسلوق والخضروات، والماء فقط، النهار بطوله».

«قطعاً»، قال المخرج. «يجب أن يكون بطنها مسطّحاً في ثوب السباحة. يجب أن تكون مُقنِعةً كسائحةٍ أوروبية».

ضحكت أمّي والمخرج معاً. «كيف سأدخلُ إلى المشهد؟» سألتُ، وأنا مُصمّمةٌ على تنفيذ الأمر بشكلٍ صحيح. قد يكون دوراً صغيراً في الفيلم، لكنّ هذا الأمر قد يتسبّب في تقويض مستقبلي بكامله. «يمكنني أن أركض بغنج».

«في ساحة التصوير، يا عزيزتي، كلّ شيء سيظهر في ساحة التصوير»، قال المخرج، بينما ندت عن شريف بيه آهةٌ. الواضح أنّه غير راضٍ عن تركه وحيداً. نظر إليه المخرج، وهو سعيد. وضع يده على رقبة شريف بيه وقال مُخاطباً أمّي: «يبدو أنّ خطيبك هو من يعاني من التوتر. ها-ها. ها-ها-ها».

ظهرت امرأةٌ في منتصف العمر، وهي تُصرّ على تقديم المخرج لابنها في الحال. وحالما قادته بعيداً، أملتُ برأسي باتجاه أمّي. خطيب؟!

«إذاً لماذا يكون ذلك الرجل في أيّ مكانٍ تذهبين إليه؟ «سألت المرأة الجالسة بجواري.»ماذا يكون لك؟»

أعرف بالضبط ما يُفترض بي أن أقوله. لقد حفظتُ ذلك السطر عن ظهر قلب، ويُمكنني أن أسرده بنَفَسٍ واحد متواصل: شريف بيه الملحّن المحترم، هو صديقٌ مُقرّب للعائلة، نحّى أعماله جانباً من أجل مرافقتي أنا وأمّي، ليتأكد من أنّ أحداً لا يستغلّنا. عوضاً عن ذلك، أجبتُ بصراحة: «لا أعرف».

ها هو ذا، اختيار أمّي السخيف كزوج. بقيت الابتسامةُ ثابتةً على وجهي، بينما كنتُ أنظر إليه بازدراء وهو يتربّص قرب البوفيه. كان يرفع الأغطية المعدنية الواحد تلو الآخر ويشمّ الطعام. هل هذا من سيكون أبي؟ نقرت المرأة بلسانها.«حقاً؟» قالت.«إنّه ورطةٌ طاعن في السنّ، أليس كذلك؟»

«نعم، إنّه كذلك»، أجبتُ دون أن أفكّر أكثر من ذلك.»وهو سيكون زوج أمّي قريباً».

«همم»، قالت المرأة. «لا أعرف إن كان هذا الأمر شيئاً جيّداً، يا دلال. أقصد بالنسبة إلى مستقبلك المهنيّ».

«مستقبلي المهنيّ؟» استدرتُ لأنظر إليها للمرّة الأولى، ولم أستطع أن أمنع نفسي من التحديق بها، حيث يوجد الكثير ممّا يمكن النظر إليه. كانت امرأة ضخمة، عيناها بحجمٍ أزرار الصدف، كانتا بلونٍ أخضر مُصفَرّ، وتتلألآن.. حجابها المزَركش بلون البرونز، بحيث كان أغمق من لون بشرتها بدرجات، بالكاد يُمكن اعتباره شرعياً.. حيث كانت رقبتها مكشوفةً بالكامل! كانت تتدثّر بتربان يرتفع على شكل أنف جبلٍ مائل، عقده مُنتقاة في القمّة، موضوعة في مكانها من خلال دبوس زينة تركوازي اللون على شكل دمعة، يتماشى مع الأقراط المتدلّية من أُذنيها. هززتُ برأسي وسألتها «كيف تعرفين من أنا؟»

«أعرفُ أشياء مهمّة أكثر من اسمك، حبيبتشي». ضغطت أسنانها معاً، بحيث استحال حرف التاء في حبيبتي إلى «تش»، وهو تحريفٌ جذّاب لكلمةٍ بشكلٍ بارع جدّاً لدرجةٍ يُمكن استخدامها للتعبير عن الحميميّة، أو الصداقة، أو السخرية، أو الازدراء فقط، من خلال تغيير النبرة.«على سبيل المثال، أنا أعرف أنّك تملكين صوتاً ومهارة، وأنّ خلفيّتك الاجتماعية نصفها إماراتيّ والنصف الآخر مصريّ؛ آه، أمرٌ رائع!» ألقت يديها على جانبيها، وكأنها تفتح ستائر مسرح.«دعينا فقط نقول إنّه يُمكن أن تصبحي نجمةً لامعة بكلّ معنى الكلمة».

«هل التقينا من قبل؟»؛ حركاتُها المبهرجة حرّكتْ لديَّ مزيجاً من الحنق والضجر.

«آها، ها،ها» فكّرتْ تفكيراً عميقاً، ثمّ أمسكتْ بوجهي براحة يديها وكأنّه بطيخة.«حبيبتشي، يا حبيبتشي، أنتِ لا تحتاجين لأن تعرفيني. الشيء المهمّ هو أنّني أنا أعرفك، وأعرف إمكاناتك». حينها أفلتتْ وجهي وانسحبتْ بشكلٍ دراماتيكيّ إلى مقعدها.

«ما الذي تتحدّثين عنه؟»

هزّت رأسها، وتغضّن وجهها، وكأنّها كرعت للتوّ جرعةً باردة من قهوةٍ جدّ ثقيلة.«ما الذي يجعلونك تقومين به؟ حسناً، كلّ ما يُمكنني قوله هو:كوني حذرة».

عند ذلك، فقدتُ صبري حيال لعبة الأحاجي هذه. وفي نوبة استفزاز سألتها بحدّة:«من أنتِ؟»

تنهّدَتْ ونظرتْ إليّ وكأنّني أغبى مخلوقٍ على سطح الأرض، ثمّ أخذت تبحث قي حقيبتها، وسحبت بطاقة عمل تحمل اسمها.«نيفين لبيب»، قالت وهي تناولني البطاقة، «ولكن يُمكنك مُناداتي مدام نيفين. أنا معروفةٌ بهذا الاسم في عالم البي- زي- نيس». استخدَمَتِ الكلمة الإنجليزية، وهي تمطّ كلّ مقطعٍ منها بشكلٍ متكافئ. تفحّصتُ البطاقة بحثاً عن المسمّى الوظيفي خاصتها، لكنّه لم يكُن مطبوعاً.

«أيّ عمل؟»

«عمل الشهرة، بالطبع. أنا أصنع النجوم».

اتسعت عيناي عند هذا التبيان. تأكّدتُ ألا أُضيّع كلمة وهي تتكلّم بحدّة عن تجربتها في حقل إدارة المواهب الصاعدة. وحينما انتهتْ، كنتُ قد تسمّرتُ مكاني.

«أنتِ ترين، يا حياتشي، قد يكون حولك أُناسٌ يخبرونك أنّهم يعرفون ما يفعلون، أنّهم يتبعون الطريق القويم ليصلوا بكِ إلى القمّة. لكنّني أراهنك أنّك- في قرارة نفسك- تعرفين أنْ ثمة خطبٌ ما. همم، أعني بموهبةٍ كموهبتك، ألا يجب أن تكوني قد أصبحتِ شهيرةً الآن؟»

«أنتِ مُحقّة، يجب أن أكون قد دخلت عالم الشهرة مُسبقاً». ولم أعد أبتسم بعد ذلك. استحوذت عليّ الحاجة إلى التعاطف، وأنا أنظر إلى مدام نيفين. إنّها بعكس أمّي تماماً. بوجهٍ عريض ومتألّق مثل زهرة عبّاد الشمس، وذلك الصدر البارز، فإنّها تبدو مثل مصدر حمايةٍ عظيم. أردتُ أن أعانقها. «لقد كان الوضع صعباً جداً، كلّ ذلك الانتظار، كلّ ذلك الترقّب. إنّني مثل «اليويو». يومٌ في الأعلى، واليوم الآخر في الأسفل. أشعر أحياناً أنّني على وشك أن أفقد عقلي».

«نعم حبيبتشي، نعم. أنا أفهم أنّك بذلتِ الكثير من الطاقة، وكلّ ما حصلتِ عليه هو خيبة الأمل».

«الكثير من خيبة الأمل». قُلتُ متأوّهة.

«نعم»، قالت وهي تلوي شدقيها تفاصحاً، ثمّ توقّفت وكأنّها أصبحتْ راضيةً عن النجاح الذي حقّقتهُ في جلسة التنويم

المغناطيسي.«وجهةُ نظري، يا حياتشي، هي أنّني أتمتّع بالخبرة، والأكثر أهميةً بأحاسيس العمل، ويُمكنني القول بفخر أنّني أتمتّع بكلا الخاصّيتين، مُنذ وُلدت، إنّهما في جيناتي، يُمكنك أن تقولي ذلك، وعندما أرى شيئاً يُمكن أن يُدمّر الموهبة الكامنة، يتوجب عليّ حينها أن أتكلّم بصوتٍ عالٍ، وهأنذا أفعل. نصيحتي المجانية: لا تظهري في ذلك الفيلم بثوب السباحة. سيكرهك الناس والعامة، وستقضين على أيّ فرصةٍ تملكينها في مستقبلك الغنائيّ».

20

ماجد

لم يسمعني سعيد وأنا أدخل إلى «النيلي» قبل ساعة من موعدنا الاعتياديّ، في التاسعة مساءً. كان مُنحنياً، وأكمام كندورته مرفوعةٌ للأعلى، يُفرغ واحداً من صناديق بيرة «هينيكين» الكرتونية، وهي جزءٌ من إمداداتنا الشهريّة من المشروبات الكحوليّة. كان قد نقل الدفعة الأولى من العُلب إلى الثلاجة، ثمّ أطلق ضحكةً صدئة عندما شعر بوجودي.

«يا مرحبا! يا مرحبا!» قال سعيد، ونهض ليحيّيني من خلال ضغطةٍ على الأنف وتربيتةٍ على الظهر. كان مسروراً للغاية، إنّها ليلتنا الأولى مُنذ عودتي من القاهرة. يبدو الأمر وكأنّه احتفالٌ تأخّر طويلاً عن موعده، وشرع سعيد في سرد ما يُتوقّع حدوثه الليلة.

أيّام الأربعاء، نطلب عادةً من أحد مطعمين:«يا مال الشام» أو «الأوتوماتيك». يقوم مصطفى بطلب الطلبية ويرسلها حوالي منتصف الليل، وهو الوقت الذي نكون فيه بأمسّ الحاجة إلى القوت. في العادة، يكون الطبق الرئيس الذي نحصل عليه هو الكباب أو التكّة (ودائماً مع بصلٍ مشويّ إضافيّ)، وكلّ الضروريات المرافقة له من المقبّلات اللبنانية: ورق العنب

المحشيّ، الحمّص، المتبّل، وسلطات التبّولة والفتوّش، والزيتون الأسود المرّ ومخللات اللفت ذات اللون الوردي الفاقع. لكنّ الليلة، أصرّ صديقنا مطر على أن يطبخ بنفسه.

«أنت تعرف كم يُحبّ مطر أن يطبخ»، قال سعيد. سيصل مطر وهو يتضوّع بعطر «أولد سبايس» ويُغادر ورائحة زفر المطبخ عالقةٌ به.. «هنا تماماً! ونقر سعيد على الطاولة.»سيأخذ شرابه معه ويجلس هنا تماماً، ومعه السكّين ولوح التقطيع. وحالما يبدأ بتقطيع البصل، سيشرع في البكاء مثل امرأة». إنّه المشهد الذي لم يفشل قطّ في تحسين مزاجنا، ونحن ننفجر ضاحكين لمجرّد التفكير به».

«ولكن لا تبالِ بكلّ هذا»، أضاف سعيد مع غمزةٍ تآمرية. «لقد حضّرتُ مُفاجأةً لوقتٍ لاحق». ضرب بيده على صدغه، وأمال برأسه قليلاً، بعيونٍ حالمة، للإشارة إلى الرضى العميق.«نعم، ستكون سعيداً مثل جملٍ كسول يستريح بالقرب من بئر ماء».

لديّ فكرةٌ جيّدة عمّا يتحدّث عنه، لذلك أومأت برأسي واستمرّيت في الضحك الخفيف، بينما بدأ سعيد بإعطائي لمحةً عن المعضلة التي واجهها مع أبناء العم من غوَا، مدير الفندق وكبير المحاسبين. هُم يُزوّدوننا بإمداداتٍ منتظمة من المشروبات الكحوليّة، حيث تُصدَرُ رُخَص المشروبات الكحوليّة لغير المسلمين فقط، وبكميةٍ محدودة، وفقاً لمستوى الراتب.

«توماس جيّد، وكريم، ربما لأنّه مُحاطٌ بالمشروبات طوال اليوم، ولكن دييغو، حسناً، إنّه مذعورٌ طوال الوقت من أن تكتشف الشرطة أنّه يمِدّ المسلمين بالكحول. عندما رأيته، انكمش كدودةٍ، وكأنّه يقول: لا مشكلة في أن تغضب منّي، ولكن لا تضربني، قلتُ له: «لا تقلق، يا رجل»، أولئك المسيحيون من غوَا يتظاهرون بأنّ دماءهم أوروبية، ويظنّون أنّ كلمة «رجل» تجعلهم يبدون كالبيض. لا يهمّ إن كُنتَ لا تستطيع أن تراها في لون جلدهم الأسود! ضحكَ بفتور. «في أيّة حال»، قلتُ له،«لدى الشرطة أمورٌ أكثر أهمّيةً لتقوم بها. ألا تعلم أنّ المحاسبين هم أكثر البشر مللاً على ظهر الكوكب»؟ وأطلق سعيد قهقهةً حماسية. «تجمّد وجهه، وكأنّني شتمتُ أمّه، ثم كلح وجهه ورفض، رفض ببساطة».

«وماذا فعلت؟»

سحب سيجارةً من جيبه وأشعلها.«بالطبع، شتمتُ أمّه. بعدها أخته، ثم صفعته بهذه». خلعَ صندله من رجله، بينما نخرتُ بصوتي، وأنا أهزّ رأسي من فكرة أن يقوم رجلٌ كبير بالانكماش تحت تأثير صفعات الصندل.«بالطبع ليست صفعاتٍ قويّة»، أسرع ليُضيف، مع ابتسامةٍ مُتكلفة «إنما ما يكفي ليجعله يفهم أنّني لا أتساهل مع أولئك الذين ينقضون الاتفاقيات».

«هل بادلك الضرب؟» سألت، مع أنّني أعرف استحالة أن يقوم محاسبٌ خجول - بالإضافة إلى كونه أجنبياً، من جنسيةٍ

هندية، بالرغم من اعتقاده أنّ قلبه يضخّ دماء أوروبية – بضرب مواطنٍ أرعن مُتنمّر.

انحرف فم سعيد، وكأنّما يوجد وسخٌ بين أسنانه.«يخسي، السبال! (تعبير محلي يقصد به الإهانة)،كان «النغلُ» يرتجف من الصدمة. انكمش وتغضّن، حتى أصبح بحجم كرة، وكان عليّ أن أكبح جماح ألا أركله». رفعَ رأسه ووجّه ثلاثة أطواق من الدخان نحو السقف.

لم يكُن تصرّفه ما أغاظني، بل فقدان السيطرة. هذه الأيام، حين يُمكن للفتيات أن يتحدّين الرجال، تجعلني أستشيطُ غضباً، لكنّني أكبح جماح غضبي وأستخدمه بشكلٍ بنّاء. تملؤني بهجةٌ هادئة عندما أُفكّر بالطريقة التي عاملتُ بها كلاً من دلال ومريم. رميتُ في وجهيهما كلماتٍ وتعابير قاسية كالصخر، حرّكتُ خوفهما، وكسرت عزمهما، دون اللجوء إلى البربرية.

دلال وأمّها ستحزمان حقائبهما وتعودان إلى دبي، لا شك في ذلك. أمّا مريم، حسناً، فأنا الآن مقتنعٌ أنّ القاهرة لم تُخرِج إلا أسوأ ما فيها. لا أزال مُندهشاً من الطريقة التي اختبرتني بها. ما الذي كانت تُفكّر به؟ فجأةً قرّرتُ أن أعيدها وأزوّجها قبل نهاية العام.

هززتُ رأسي، في محاولةٍ لتفريغه من كلّ الأفكار، لأفسح مجالاً للمسرّات. وقعت عيناي على المشروبات الروحيّة الأثقل، اثنتي عشرة عبوةً من ويسكي «بلاك لايبل» كانت

محشورةً كمجموعة على الرف.«حسناً، لقد استطعتَ أن تجد شخصاً آخر لتأمين إمداداتنا، أليس كذلك»، قُلت. بالإضافة إلى عبوتيْ «فودكا» وعبوتيْ «جين»، وهو المشروب المفضّل للنساء اللائي ينضممن إلينا في بعض الأحيان.

ضحك ضحكةً خافتة وصبّ لي كأساً. أخذتُ الكأس، وتركته لينهي أياً من الأشياء التي يحتاج إلى عملها في المطبخ. جلستُ على الأريكة، وتنشقتُ بعمق. كان الجوّ يعبق برائحة البودرة المعتادة لمنظّف السجّاد ومعطّر الجوّ ذي الرائحة الوردية. أشعرُ بالشباب والحيوية. تمّ إنهاء كلّ الأمور العالقة في القاهرة، أخذتُ أفكّر بذلك، بينما كانت مكعّبات الثلج تُقعقع في كأسي.

سحبتُ سيجارةً من علبة «مارلبورو» حمراء على الطاولة. على عكس سعيد الذي يُدخّن علبةً كاملة كلّ يوم، أنا أُدخّن عندما أكون في «النيلي» فقط. نزعتُ صندلي، أشعلتُ السيجارة وأخذتُ نفساً عميقاً، وأنا أفركُ قدميّ العاريتين على السجادة التي كانت بلونٍ أزرق غامق (وهو اللون الأفضل لإخفاء ما ينسكبُ عليها). كانت الجدران بظلالٍ لونية زرقاء خفيفة، نحن مُحاطون باللون الأزرق. أكثر من مرّة - وعلى وجه الخصوص، عندما يُصبح رأسي خفيفاً من المشروب وأتعثّر بقطع الأثاث - أقول بطريقةٍ مازحةً: «إنّني أُعاني من دوار البحر». كلّ مرّة، ودون فشل، يُطلق الرفاق ضحكةً مُجلجلة. أعتقد أنّنا سنحظى بوقتٍ طيّب الليلة.

«هل كلّ شيء على ما يُرام عندك؟» صاح سعيد. «سأكون عندك حالاً».

«لا داعي للعجلة»، أردّ عليه وأنا أفركُ حافّة كأسي الباردة على طول شفتيّ.

* * *

كانت عيونهنّ نصف مُغلقة، وأفواههنّ مُتجمّدةً على شكل تبويزة الإغواء. الأذرع مُمتدّة نحو السقف والأيدي مُلتفّة. الصدور تهتزّ والخصور تلتفّ. ولكن بدأن بعد ذلك بالقفز على أقدامهنّ، فاقداتٍ الأناقة، كما يهرول الجمل على الإسفلت. صحنا وضحكنا على محاولات الفتيات البائسة لمسايرة إيقاع واحدةٍ من أغاني ميحد حمد القديمة.

أدار سعيد أصابعه تجاهي، مستفسراً كيف أجد الأمور، فأجبته بإيماءةٍ مزهوّة من رأسي ورفعت إبهامي:«رقم واحد!» لا يزال الوقت مُبكراً، واستحالت الأمور لتصبح مساءً رائعاً، مليئاً باختلاسات اللمس والتلمّس والاحتضان والملاطفة. مطر في المطبخ يُعِدّ «الكبسة»، وهي طبقٌ إماراتيّ مؤلّف من اللحم والأرزّ المطبوخين معاً، وهو غير تَعِب – أو أنّه لا يملّ أبداً من إخبارنا ذلك – يُمزج معها الطماطم، والبصل، والثوم، والليمون الجافّ، والخليط الخليجيّ الخاص من البهارات الهندية. بينما

يجلس صديقنا «ثاني» بجانبي، وهو ليس من زوّار «النيلي» المنتظمين، بل ينضمّ إلينا فقط بين الحين والآخر.

مصطفى كان هنا آنفاً، لكنه يبقى مدةً كافية لإبهاج المزاج، من خلال بعض المزاح. غادر مصطفى حالما وصلت الفتيات. طرحنا الغُترَ جانباً، وأبقينا جماجمنا الصلعاء مغطاةً بقحفية الرأس فقط. انزلقنا من على الأريكة، لنتجمّع على شكل نصف دائرة حول الطاولة في الصالة، حيث كُنّا نهرجُ مع الفتيات الراقصات ونُشجعهنّ.

«ما هو الشيء المضحك جداً؟» صاح مطر.

«انضمّ إلينا وسترى بنفسك»، ردّ عليه سعيد صارخاً.

شمّةٌ واحدة جعلت معدتي تهدر مثل الإطارات على الحصى. «ما هذه الرائحة الرائعة؟»

«فقط الأفضل: الكمّون، الكُركم، أوراق الكزبرة، الفلفل الأسود، الفليفلة الحمراء!» صاح مطر وهو يُعدّد اسم كلّ عشبةٍ أو تابل، وكأنّه يُعلن اسم فائزين في مسابقةٍ ما.

«من يهتمّ؟» قال سعيد. «تعالَ هنا».

«لقد انتهيتُ تقريباً»، قال مطر.

«هو نفسهُ!» تأفّفت زويا وهي تقمَعُ ضحكةً فاترة، بحيث يُمكنها أن تتصنّع أنّها مُنزعجة. «بوكا- بوك-بوك! بوكا- بوك-بوك!» لدى زويا شعرٌ أبيض مُصفَرّ، مفروقٌ في المنتصف،

وهو ناعمٌ لدرجة أنّ فروة رأسها الورديّة تلمع في كلّ مرّة تهزّ رأسها.»لا تغيّر في الموسيقى، هبيبي. ألم تسأم؟» كانت كلماتها غليظّة ومُتداخلة، وهو الأمر الناجم عن جذورها الأوكرانية، وثلاثة كؤوس من الفودكا؟

الفتاة الأخرى تدعى غالينا. تشجّعت جرّاء شكوى زويا، وأخذت ترجونا أن نضع بعض الموسيقى الغربية. كان فمها أحمر كحبّة فراولة يانعة، وعيناها زرقاوين كالياقوت، ومع هذا المزيج الجذّاب، سيكون من المستحيل على الرجال أن يرفضوا طلباتها. لكنّ ثمة غلظةً في صوتها لا ينبغي لأيّ امرأةٍ أن يكون لديها مثلها؛ غلظة أعتقد أنّني يجب أن أربطها بتلك السنين التي كانت تواجه فيها رياح الشتاء العاتية في بلدها الأمّ روسيا، وهو ما جعلني أجفلُ منها.

شهدنا مؤخراً دفقاً من الفتيات من بلاد المناخات الباردة من الشمال. قبل ذلك، كانت الفتيات اللائي يرسلهنّ أبو جورج – وهو سوريّ صديق لسعيد، يعمل في بوتيك ملابس داخلية نسائية – من البلدان المجاورة، من الهند أو إيران، أو من مناطق أبعد من ذلك، من الشام أو حتى من الفلبين. وأيّاً يكن، فقد كنّ يأتين بسيارة أجرة، وكنّا نرحّب بهنّ في «النيلي».

كانت الفتاتان ترتديان «الجينز» و«تي شيرت» يزحف لأعلى بطونهنّ في كل مرّة يرفعن أذرعهنّ، ما يكشف عن بشرةٍ ناعمة

للغاية، بيضاء جداً، وكأنهنّ مغمّسات ببودرة أطفال. يُعتبر لون البشرة المشرق للفتاتين، والطرق الغربيّة المتهتّكة تغيّراً مُنعِشاً للعين، بالرغم من أنّهما لا تزالان غُرّتين، وتفتقدان إلى الرونق المرح عند مثيلاتهنّ الشرقيات. بقاماتهما الطويلة الحلوة، تفعلان ما هو متوقّع منهما لتسليتنا، لجعلنا نشعر أنّنا مميّزون، وهما لا تخفيان جوعهما للربح السريع. في النهاية، هما تسعيان وراء المال الذي يجعل الحياة أفضل.

ظهر مطر من المطبخ، ورمى نفسه بجانبنا على الأرض، ليحظى بقسطٍ من المتعة. كان ثاني يضمّ ذراعه المطويّة إلى صدره بيد، ويستخدم اليد الأخرى ليضرب بها على الإيقاع في الهواء، باذلاً أقصى جهده ليدرّب الفتاتين، ولدرجةٍ ما، ليزيل اغتراب اللحن عن مسامعهما. «دُم- بكّا- بكّا- بكّا! دُم- بكّا-بكّا- بكّا!»

«بوكا- بُك- بُك؟» أصرّت الفتاتان، وانفجرنا ضاحكين مرّةً أُخرى. وبعيونٍ ملؤها الدمع، لوّحتُ بإصبعي وأعلنت أنّ طلبهما قد تحقّق. قفزت زويا كطالبة مدرسة سعيدة. «دا، دا، موسيقى إنجليزية!»

غيّر ثاني شريط الكاسيت، ولكن- لمأساة زويا- كان مغنّياً عربياً آخر، وهذه المرة أبو بكر سالم، بصوته الصادح. أطلقت الفتاتان آهةً دراماتيكية، لكنهما وقفتا ترقصان ثانيةً، دون إضاعة أيّ وقت، محاولتين إدارة ردفيهما، مثل الراقصات الشرقيات.

«لا أمل!» صرخ مطر وهو ينهض من على الأرض برجلين مرتعشتين، ممسكاً الكأس بزاويةٍ مُتقلقلة. كنتُ أتساءل ما إذا كُنّا يجب أن نسمح له بالعودة إلى المطبخ، مع كلّ تلك السكاكين حوله. مَدّ يده إلى جيبه، وأخرج ورقتين نقديتين من فئة العشرة دراهم، وضع واحدةً على رأس زويا، والأخرى على رأس غالينا. ابتسمتُ ابتسامةً عريضة لتبجّحه. مطر هو الأكثر خجلاً في المجموعة. استعادتا النقود حالما سقطت على الأرض، وأخذتا تُحدّقان فيها. «هذا يعني أنّي قد أحببتُ رقصك»، قال موضحاً للفتاتين المندهشتين. كانت ابتسامةٌ عريضة بلهاء ترتسم على وجهه. «هذه هي الطريقة التي نُعبّر فيها عن تقديرنا للراقصات التقليديات في الأعراس».

أمسكت غالينا بالورقة النقدية من طرفها، وكأنّ أحداً قد بال عليها. لوّحت بها وقالت «تقديرٌ قليل جداً». فرّغت ابتسامةٌ متوحشة ضخامة فمها الشبيه بحبّة الفراولة. «أنت كبير، أنت طاعن في السنّ، أنت غنيّ. لماذا أنت بخيلٌ جداً؟».

أسرع مُبتعداً عنها، وهو يُريق بعضاً من شرابه على السجادة. كان مُحرجاً من استخفافها به، وأمامنا أيضاً! أخذ يُتمتم شيئاً ما حول أنّ الأمر لم يكُنْ أكثر من إيماءة مرح، قبل أن يُسرع إلى أمان وعزلة المطبخ.

«ما الذي تظنّين أنّك تفعلينه؟» قفز سعيد على قدميه ورفع قبضة يديه. نَكَصَت غالينا فزعاً، لكنّ سعيد لم يكن ليضربها. كان يعرف أنّ ضرب امرأةٍ عملٌ جبان.

«أنا لم أفعل شيئاً. كنتُ أمزح»، قالت غالينا.

«لا بأس، لا بأس»، قال ثاني وهو حريصٌ على المحافظة على الوئام.

«لا احترام!» أمسك سعيد بذراعها، وجرّها إلى المطبخ، بحيث تستطيع أن تعتذر لمطر. أخذنا نسترق النظر من خلال المدخل المفتوح، حيث اعتذرت بمحض إرادتها، حتى أنّها جلست في حضنه. أخذَ صديقنا ذو الأخلاق العالية يربّت على ظهرها، للدلالة على أنّ كلّ شيءٍ على ما يُرام. وحالما عادا، فعلت المجموعة ما بوسعها لاستعادة العربدة السابقة، من خلال تشغيل بعض الموسيقى البدوية «العيَّالة» النغمة لسميرة توفيق. وثب ثاني في الهواء، وقد جدّد حماسته؛ أمسك بواحدةٍ من خيزرانات البامبو الموضوعة في سلّةٍ بجانب آلة التسجيل، وأخذ يُديرها بين أصابعه بينما كان يرقص مع الإيقاع. انضمّ سعيد إليه، وقد أخذ خيزرانةً أُخرى، وأمسكها بسبابته وإبهامه. أخذا يؤدّيان معاً رقصة «العيالة» التقليدية، وهُما يلوّحان بخيزرانتيهما إلى اليمين ثم إلى اليسار بأرجحةٍ لطيفة، بينما كانا يهزّان رأسيهما وكأنّهما في غيبوبة.

كان يجب على ذلك أن يكون كافياً لتخفيف مزاجي، لكنّني نظرتُ ثانيةً إلى مطر. كانت عيناه المتهدلتان تحملان تعبير كلبٍ منبوذ. كان ينحطُّ في كُرسيّه، وينظر حول المطبخ، وقد بدت عليه الحيرة فيما يتوجّب عليه فعله الآن. من الواضح أنّه لا يزال

مُضطرباً. هذا جعل الدم يغلي في عروقي، وأخذتُ أفكّر في كلّ النساء اللائي وجدن متعةً في اللعب بعواطفي: زُهرة، دلال، والآن مريم.

وضعتُ عينيّ على زويا، لكنّني قررتُ أن أُخضِعَ غالينا عوضاً عنها، إلا أنّي لن أكون متساهلاً. سآخذها إلى غرفة النوم، سأعطيها درسا في الأخلاق حتى تعرف من تكون وتقر بخطئها وتتوسل إليّ أن أطلق سراحها.

الموسيقى تصدح عالياً، لكنّ سعيد وثاني مُتجمّدان، مذهولان من حركتي واندفاعي المفاجئ بينهما. معصم غالينا النحيف في يدي؛ أخذتُ أجذبها بشدةّ نحو غرفة النوم. انفجر سعيد في قوقأةٍ مبحوحة كان يُمكنني سماعها، حتى بعدما أغلقت باب غرفة النوم.

عيناي تشتعلان. أنهرٌ صغيرةٌ من العرق تجري على طول جانبيْ جبهتي.

أخذ أنفها الصغير يختلج، وحشرتُ إصبعين في منخريها. كانت يدي الأخرى تُمسك برقبتها. «ليكُنْ هذا درساً لك!» هي لا تفهم العربية، لكنّها فعلت ما بوسعها لتردّ. انفجر لهاثٌ وصرير من شفتيها المرتعشتين. وبشكلٍ غريب، أخذتا تتحوّلان إلى اللون الأزرق ذاته لجدران «النيلي».

صرختُ في رأسي، وبطريقةٍ ما، سمعوني. كانت الأيادي تُحيط بي. ومثل مجسات الأخطبوط، كانت تلك الأذرع تنزلق تحت إبطي، وتُمسك بمعصميّ، وتُحيط ببطني، وتسحب ركبتيّ بشدة. سحبوني من على السرير ودفعوني جانباً. ضربتُ الهواء، وهو الأمر الذي تسبّب بدوارٍ في رأسي، وبينما كنتُ أتكوّم على الأرض، اسودّت عيناي.

سُعالٌ أجشّ متواصل أعادني إلى الحياة. نظرتُ إلى السرير.. كان سعيد، ومطر، وثاني يتجمّعون حوله. كانت أيضاً الفتاة الأُخرى- نسيت اسمها - ذات الشعر الأبيض المصفرّ. كانت تصرخ وتُشير بإصبعها نحوي، الأمر الذي جعل رأسي يرتجف. وقف ثاني في طريقها، لكنّها دفعته جانباً وقفزت عليّ. أخذت تصفعني وتبصق عليّ، قبل أن يتمكّن ثاني من سحبها بعيداً عني.

الكثير من الأمور حدثت حولي، وبسرعةٍ كبيرة، لدرجة أنّني لا أستطيع أن أستوعب ما الذي يجري. كنتُ على وشك أن أعترض، أن أُطالب بأن أعرف لماذا اقتحم أصدقائي لحظة خصوصيّتي، لكنّ شعوراً من التوجّس من شيءٍ ما أزاح تلك الرغبة. لقد وقع أمرٌ جللٌ للتوّ.

21

دلال

انتظرتُ مُعظم النهار لأمثّل الجزء الخاص بي. تحمّلتُ ليس فقط الاستيقاظ مبكراً وذباب الصباح، والرمل الدبق وحرارة مُنتصف النهار، بل أيضاً الشعور بالقلق حيال ما سيقوله المخرج عندما أخبره أنّني لن أرتدي مايوه السباحة في مشهدي؛ ولديّ أيضاً أمّي للتعامل معها.

كنتُ طيلة الأسبوع أودّ إخبارها عن اتفاقي مع مدام نيفين. تمحورت خطّتي حول انتظارها، لتبدأ بالدفاع عن اختيارها في أن تتزوّج شريف بيه. ثمّ، وببساطة، أريها العقد الموقّع، حينها، عليها أن تقبله.. في النهاية، هي التي بدأت اتخاذ القرارات السرّية. وعندما مرّت الأيام ولم تفتح موضوع شريف بيه، قرّرتُ أن أخبرها بأيّ حال. أقنعتُ نفسي أنّ الأمر بسيط، ملأتُ رئتيّ بالعزيمة. ولكن- للأسف- ثَبُتَ أنّ شجاعتي أقلّ صلابةً ممّا توقّعت. النتيجة: غمغماتٌ بلهاء، وإحساسٌ بالشجاعة ينكمش باطّراد، وهي أمورٌ لم أتوقّع أن تصدر عنّي. والآن تأخّر الوقت كثيراً، لقد نفد الوقت منّي.

حاولتُ أن أريحَ نفسي قدر المستطاع، لكنّني أرتدي «جينزاً» ضيّقاً يُمكنه أن يكون جلداً ثانياً لي. أجلس على بطانية بجانب

أُمّي، أشاهد التصوير من على مسافة. تثاءبتُ وأرجعتُ مرفقيّ للخلف، ضربتْ قدماي صندوق الغداء الفارغ. تسبّب هذا بزمجرةٍ طويلة في معدتي. كانت «ماما» قد أعطتني تفاحةً في وقتٍ سابق، ولكنها- دون أيّ تفكير- أعطت الشطيرة وعصير الجوافة لواحدٍ من طاقم العمل. كانت الشطيرة مُبتذلة الشكل، وقد استحالت رطبةً من الداخل، نتيجة شرائح الطماطم المسحوقة المتموضعة فوق قطعةٍ من الجبن الرومي، بالإضافة إلى قطعة خسٍّ ذابلة كانت تبرز إلى الخارج. لم أكنْ حينها جائعةً، بينما كنتُ أُراقبه وهو يلتهمها، لكنّ مجرّد التفكير فيها الآن يجعل لعُابي يسيل.

وبالرغم من أنّنا نجلس في ظلّ شجرة مورقة، كانت «ماما» ترتدي قبعةً حمراء ذات حوافّ كبيرة تتناسب مع النظّارات الشمسية التي تُغطّي مُعظم وجهها. كانت تجلس منتصبة الظهر، مُتزمّتة، وساقاها مطويتان تحتها جانبياً.«هذا أكثر الأيّام مللاً في حياتي!» أخذتُ أمزح. كانت محاولةً لكسر جمودها، لكنّها خرجت وكأنّها آهةُ تأفّف. انتظرتُ استجابةً منها، لصلابة جلوسها في إشارةٍ إلى أنّها تريد أن تثرثر. ستكون مُقدّمةً ممتازة لما يتوجّب عليّ قوله. لم تُجِبْ، اكتفتْ بالتحديق إلى الأمام نحو المخرج وطاقم العمل.

كانوا يُصوّرون في البقعة ذاتها طيلة الصباح. طوّق الطاقم ساحةً رملية، باستخدام شريط الاحتراس الأصفر. بدأ المكان يبدو كأنّه ساحة جريمة في واحدةٍ من سلسلة التحقيقات الأمريكية. كان

المخرج يصرخ مصدراً تعليماته عبر مكبّر الصوت، جاعلاً البطل (أصلع ومغموراً) والبطلة (تافهة ومغمورة أيضاً) يُكرّران سطور حوارهما مرّاتٍ ومرّات، أكثر من أن تُعَدّ.

وبالرغم من أنّ المخرج وجد منطقةً بعيدة عن حشود المعمورة، اكتشف بعض الأولاد الصغار وجوده، وجعلوا من الدخول تحت الشريط الأصفر لعبتهم المفضّلة. كانوا يبتهجون عندما لا يستطيع حتى أصغر أعضاء طاقم العمل سناً الإمساك بهم. كان هذا الأمر قبل ساعاتٍ عدّة، حين كانت فكرة صناعة فيلمٍ جديدةً وممتعة لنا جميعاً.

إنّه بعد الظهيرة المتأخّر.. وأخيراً هبّت نسمة، متسبّبةً في تقليب أمواجٍ على شكل حفيف صفعات، على طول حافة الشاطئ. أخذَ ضوء الشمس يُشعّ بحرارةٍ أكثر، بالرغم من أنّني أستطيع أن أميّز أنّ الضوء يتغيّر. «أليس من المفترض أن يحدث مشهدي في منتصف ما أمضوا النهار بطوله في تصويره؟ أعني، انظري، يا ماما». أمسكت بذراعي تحت أشعة الشمس ذات اللون البرتقالي، حيث بدت مختلفةً جدّاً عن تلك الأشعة الوهاجة السابقة. «أعني، من كان يظنّ أنّ...»

«لقد قدّمتُ الملاحظة إيّاها للمخرج هذا الصباح»، قالت أمّي: «ألن يلاحظ المشاهِد؟»، قال المخرج: «حسب خبرتي، لن يسمح المشاهدون العرب لمثل هذه الأمور التافهة بأن تزعجهم.

لقد تمّ تكييفهم للتغاضي عن مثل هذه التناقضات. إنهم يملؤون الفجوات فقط».

سعلتُ بضحكةٍ صامتة، وقد مثّل الأمر حافزاً لي لأعترف: «أنتِ تعرفين، ماما، لقد كنتُ أفكّر طيلة هذا الأسبوع، وربما من الأفضل ألّا أرتدي مايوه السباحة في هذا المشهد».

زلقتْ نظاراتها الشمسية إلى أرنبة أنفها: «ما الذي تتحدّثين عنه؟»

ناداني أحدهم من عند الشاطئ. إنّه مُدّرب كمال الأجسام الإضافي الذي ينحصر دوره في رمي الكرة الشاطئية التي تذهب في غير اتجاه. لوّح لي بيده، مُشيراً إلى أنّهم سيبدؤون تصوير دوري سريعاً. إنّها المرّة الخامسة التي يفعل ذلك. تجاهلته وركّزتُ على أمّي: «حسناً، كنتُ أسأل المحيطين بي، ووجدتُ أنّ مثل هذه الحركة يُمكن أن ترتدّ عليّ وتعلق بي متى أصبحتُ مشهورة. يبحث الصحافيون دائماً عن الفضائح. تخيّلي عناوين الصحف، يا ماما: «دلال العظيمة: عارية»، أو «دلال العظيمة: هل هي القدوة الصحيحة للشباب العربي؟»، أو «دلال العظيمة: شيء ما، شيء ما». توقّفتُ لبرهة، «حسناً، في أية حال، هذا ما كنتُ أفكّر به»».

أعادت نظاراتها إلى مكانها. «كم مرّة أخبرتك، يا دلال؟ يجب ألا تُضيّعي وقتك بالتفكير، حيث يتطلّب هذا الأمر نوعاً خاصاً من الذكاء. لماذا تركّزين على مثل هذه التفاصيل الصغيرة عندما توجد صورةٌ كبرى لتنظري إليها، عندما أكون أنا لديك لتعتمدي عليّ؟»

جَفّ فمي. من المحزن أنّها لم ترغب أبداً في سماع رأيي. نظرتُ باتجاه الشاطئ، حيث كان مُدرّب كمال الأجسام الإضافي على صواب هذه المرّة. في النهاية، لقد أخرجت كلّ تلك المشاهد التي لا تُحصى من النقاشات الساخنة بين البطل والبطلة أداءً يستحقّ الذكر. بدا المخرج راضياً. توقّف عن إعطاء التعليمات عبر مُكبّر الصوت؛ أخذ طاقم العمل في التصفيق، فرفع ذراعيه، وأخذ يهرول حول الحدّ الداخلي للشريط الأصفر، وكأنّه فاز للتوّ في مبارة ملاكمة.

«حسناً، انهضي»، قالت بلهجةٍ آمرة. «إنّهم ينادون عليك».

«أشعر أنّ الأمر خطأ»، قلت، دون أن أبرح مكاني.

«انظري»، قالت: «لا بدّ أنّ تردّدك نابعٌ من شعورك بالاضطراب – ومن لا يشعر بالاضطراب؟ هممم؟– لكنّها بزّة سباحة رائعة، عليها أزهار وكشاكش». نزعت قبّعتها ونظاراتها الشمسية ونظرت إليّ بحدّة. «وسترتدينها».

«كلّ أغنيةٍ تخرج من فمك ستزيد في انتفاخ جيبها». لقد كان يوماً مُرهقاً، لكنّ فورة غضب أمّي نفضت التعب عن أوصالي. أخذت تلوّح بالاتفاقية في الهواء، مثل مضرب الذباب، قبل أن تدفعها قريباً من وجهي، بحيث كان بإمكاني أن أشمّ رائحة الحبر. »هل تكلّفت عناء قراءة ما هو مكتوبٌ هنا؟ إنّها تقول إنّ سبعين بالمائة من النقود التي تجنيها في حفلاتك ستذهب إليها».

«نعم، ولكن على الأقلّ ستكون ثمة حفلات وسهرات، خاصّة وعامّة. انظري ثانيةً، يا ماما. أنت تُضيّعين كلّ النقاط الجيّدة، كلّ الأمور المطلوب منها تنفيذها: ثلاثة ألبومات، وثلاثة فيديو كليب للأغاني الرئيسة». خلقتُ صورةً عقلية لكلّ ما سأرتديه، وكيف سأتحرّك في هذه الفيديوهات الموسيقية، والتي ستُعاد مراراً وتكراراً في مختلف القنوات التلفزيونية الفضائية. كنتُ أودّ أن أستفيض في الكلام حول هذه الصورة، وأتركها تزدهر، لكنّه ليس الوقت المناسب. أخذت أمّي تنتفض وهي واقفةٌ على قدميها، بدت مثل عصفور دُوري علق في طينٍ لزج. برز عرقٌ أزرق صلبٌ من منتصف جبهتها. لم أرَها بهذا الهِياج منذ أن أخرجها والدي من حياته كزوجةٍ، ووضع نهايةً لأيّ أملٍ للراحة في حياتنا. «ولا تنسي»، أضفتُ وأنا في ثورةٍ من الانفعال: «وهي ستدير حياتي، ستعرّفني إلى الأشخاص المناسبين، وتبني مستقبلي المهني، أيضاً».

«يتوجّب عليك دفع ثلاثين بالمائة من تكلفة إنتاج كلّ ألبوم. من أين ستحصلين على النقود؟»

«هذا سهل. سأتدبّر الأمر». إنّه شيءٌ لم أفكّر فيه من قبل.

«اسمعي ما سأقوله دلال، خمسةٌ وثمانون بالمائة من أرباح مبيعات الكاسيتات ستذهب إلى جيبها».

كنتُ مُقتنعةً أنّي وقّعتُ على صفقةٍ عادلة، لكنّ «ماما» تشوّش

رأسي، ولا تنفكّ ترمي بهذه الأرقام الكبيرة في وجهي. هل كنتُ مُتعجّلةً في التوقيع على عقدٍ لمدة ثلاث سنوات؟ بالتأكيد لا يُمكن أن تكون مدام نيفين قد استغلّتني. أين مريم عندما أحتاج إليها؟ ستكون قادرةً على أن تقدّم لي تحليلاً عادلاً. أدرتُ عينيّ وتمتمتُ في سرِّي «على الأقلّ ستكون لي أشرطة كاسيت».

«ماذا كان ذلك؟»

أودّ الإشارة إلى أنّ حصّة مدام نيفين مرتفعة، والسبب في ذلك يعود إلى أنّها هي الخبيرة. إنّها الشخص الذي سيقوم بكلّ العمل، هذا ما برحت مديرتي المبهرجة تخبرني به في الحفلة. حالما أومأتُ برأسي موافقةً، سحبتْ ورقتين من محفظتها، بشكلٍ طبيعي، كما يسحب المرء منديلاً. يتوجّب عليّ الاعتراف بأنّي لم أنظر في الأحرف الأنيقة بعناية، كما كان ينبغي. اكتفيتُ بشرحها عن النقاط الرئيسة. تضاعفت سرعة جريان الدم في عروقي، وشعرتُ أنّ أطراف أصابعي سمنت من الفرصة، عندما ناولتني قلم حبر مذهّباً للتوقيع به. تقابلنا في اليوم التالي الثامنة صباحاً – أووه باكراً جدّاً!– في مكتب التوثيق، لجعل الأمور قانونيةً: تمّ جلب شاهدَيْن من الشارع، وقام الموظّف الرسميّ بالتوقيع والختم على كلتي نسختيْ العقد بحبرٍ باهت، لكنّه جذّاب، بظلالٍ لونية زرقاء مخضرّة. كم كان الأمر سهلاً، وأيّة سعادةٍ غمرتني جرّاء القيام بهذه الخطوة الشجاعة؛ والأمر الأهمّ، هو فكرة أنّني قد رددتُ الصاع لأمّي، جرّاء خطبتها لذلك الذابل المدعو شريف بيه، دون أن تخبرني.

«في كلّ الأحوال، من هي هذه المدعوة نيفين لبيب؟ ما الذي تعرفينه عنها؟»

لقد تأخّر الوقت، وأخذ رأسي يدور جرّاء أسئلتها كلّها. يا لهذا اليوم! لقد أغضبتُ أمّي عندما التزمتُ سريعاً بقراري ألا أرتدي المايوه. وبعدها تعيّن عليّ أن أواجه امتعاض المخرج الذي استمرّ لبضع دقائق فقط، لأنّه كان مهتمّاً بموضوع فقدان ضوء النهار؛ والحقيقة أنّه تفهّم موقفي عندما شرحتُه له. بينما لم تتفهّم أمّي ذلك. في النهاية، وقبل أن نستقلّ الباص عائدين إلى القاهرة، أخبرتها عن موضوع العقد.

في ذلك الباص المعتم- ولكن المرح- كان ثمة إحساسٌ من اللطافة والتعب البهيج الذي لا يُمكن إلا لنهارٍ بجانب الشاطئ أن يخلقه. وحالما تحركنا، أخرج أحد أفراد الطاقم طبلة، أمسك بها تحت إبطه، وانثنت أصابعه على طول حافتها، ليُخرج سلسلةً من الضربات، ثم ظهر دفٌّ، جلس صاحبه على بُعد مقعدين من كرسيّ السائق، رفعه عالياً وأخذ يهزّه ليضيف صوتاً متنافراً مصاحباً لصوت الطبلة. بدت الحلقات المعدنية على طول الحافة كأنّها أسماك ذهبية تتلألأ على سطح بحرٍ من الحبر.

حفّز هذا الثُنائيّ على إطلاق أغنية «سالمة يا سلامة رحنا وجينا بالسلامة». أخذ الركاب يصفّقون ويتمايلون. كان إيقاعاً لا يُقاوم، وبين الحين والآخر كان السائق يضيف بعض المقاطع من بوق

الحافلة. لقد بذلتُ كلّ جهدي لأقاوم فكرة الانضمام إليهم، لكنّ أمّي هناك، تجلس بجانبي في مؤخّرة الباص، تُحدّق من خلال الزجاج العاكس لوجهها المتجمد في الليل الحالك الظلمة.

كانت الوجبات الخفيفة والمشروبات الغازية تظهر بين الأغاني، وتنتقل من يدٍ إلى أُخرى. حملت الرياح التي كانت تهبّ عبر النوافذ المفتوحة رائحة البيض وبذور اللب المحمّص. رفضت أمّي أن تأكل. وأنا لم آكل، حيث أخذتُ أبلع ريقي عوضاً عن ذلك، بينما كنتُ أركّز على موضوع كسر جمودها. أحببتُ أنّي تصرّفت على نحوٍ ناضج، حين تكلّمتُ قليلاً عن شخصية مدام نيفين النشطة، ووعدتها أن أريها العقد حالما نصل إلى المنزل. لكنّ «ماما» بقيت صامتةً طوال الرحلة التي استغرقت خمس ساعات عبر الصحراء.

لم تكُنْ أمارةً جيّدة. في نهاية المطاف، كانت أول مرّة أعصيها فيها. كان بإمكاني أن أتركها وأنضمّ إلى الآخرين، أغنّي وأرقص وأصفّق وأتناول الطعام. بالكاد تناولتُ أيّ شيءٍ طيلة النهار، ومعدتي الخاوية كانت تتذمّر، لكنّي بقيت في مكاني، ابنة تتكئ على حبل الأمل الرفيع بأن تتنهّد أمّها وتقول «أيّاً كان ما تشعرين به يا عزيزتي، فهو الأفضل لك». أو ربما كان عليها أن تربّت على كتفي وتمنحني نظرةً حنونة ملؤها الإعجاب الخاص الذي لا يُمكن إلا لأمّ أن تمنحه لطفلتها، كلّ تلك النعومة العاطفية، أحلام لا غير.

«كيف أمكنكِ الوثوق بها دون أن تعرفي من أيّ حماٍ مسنونٍ قد صُنِعَت؟» أخذت أمّي تهذر، لكنّني أتصوّر وجه مدام نيفين ناصعاً وواضحاً، وأخذ بعض الشكّ يذوب وتحلّ محلّه موجةٌ جديدة من التحدّي. أنا الآن لا أريد شيئاً أكثر من الخروج من هذه الشقّة، وعدم العودة إليها. أبداً. أنا متأكدةٌ أنّ مدام نيفين ستقبلني. في نهاية المطاف، هي الآن شريكتي الرسمية، الأمر الذي يجعلها حاميتي أيضاً. ولكن سيُنظر إلى الانسحاب الآن على أنّه هزيمة، لذلك بقيت في الشقّة.

استحالت عينا أمي باهتتين، بحيث أصبحتا بلون الثلج الذائب. أصبح من الصعب النظر إليهما. «تهانينا»، قالت أمي«ستكونين ملكاً لها طيلة السنوات القليلة القادمة».

واضعةً يديّ أمام صدري، حدّقتُ ببصري في الجدار وأنا أتساءل لماذا لا أشعر بالرضى الذي توقّعته من رؤية أمّي مذعورةً، ومن إثباتي لها أنّني أستطيع اتخاذ القرارات بنفسي.

«كيف أمكنكِ أن تفعلي هذا؟» أخذتْ تقول بصوتٍ كالهسيس.«كيف أمكنكِ أن ترمي بكلّ شيءٍ عملنا لأجله؟» انتظرتْ إجابةً منّي، لكنِّي لم أنبس ببنت شفة. زاد هذا الأمر من غضبها. طوّحت بالعقد في الهواء، ودلفت إلى الشرفة.

كنتُ مذهولةً من قدرتي على ضبط أعصابي، وهو الأمر الذي أرهقها، وكنتُ فخورةً بعض الشيء بهذا الأمر، أيضاً. قرّرتُ

حينها ومباشرةً أن أُتقِن إظهار الوجه العديم الانفعال، من خلال التدرّب عليه أمام المرآة. سأحتاج إليه عندما أغدو مشهورة. إذا قرّر أحد الصحافيين – وسيكون الكثيرون منهم دون شك يرغب في إجراء مقابلاتٍ معي – أن يتجرّأ ويطرح سؤالاً لا أرغب في الإجابة عنه، يُمكنني حينها استحضار هذا التعبير التمثاليّ. سيكون صمتي الطويل، ووجهي النّكِد كافيين لقتل كلّ خلية فضول فيه. هاهـ!

حسناً، ربما لا. في مرحلةٍ ما، في منتصف حلم اليقظة خاصّتي، زحفت أمّي عائدةً من الشرفة، وقد استعادت حيويّتها جرّاء الهواء النتن الذي كان يهبّ من الشارع في الأسفل. «كيف أمكنكِ أن تكوني أنانيةً لهذه الدرجة؟ لقد وضعتُ احتياجاتكِ أمام احتياجاتي، بحيث تُصبحين ناجحةً وتعيشين برغدٍ في المستقبل، فلا تقعين تحت رحمة أبيك، ولا تحتاجين لأحدٍ بعد ذلك».

زفرتُ: »هذه كذبة! كيف يُمكنكِ أن تقولي شيئاً كهذا، بينما كُلّ ما أردتِه هو أن تُقاسمي شريف بيه سريره؟ لم تستشيريني عندما قرّرتِ أن تتّخذيه زوجاً لك، هل فعلتِ؟» تصوّرتُ جسديهما يتعانقان، جسميهما ينثنيان بشكلٍ متوائِمٍ دقيق، مثل ملعقتين، الواحدة فوق الأخرى.«إنّه أمرٌ مُقرف!»

رفعتْ يدها وانتظرتُ الصفعة. أملتُ رأسي جانباً، بحيث أصبحت صفحة خدّي مفتوحةً بالكامل أمامها، إنّه تجاسرٌ على

ما قد يأتي. أخذتْ فكرةٌ تئنُّ في رأسي وتكبر، كإلحاح مرجلٍ يصيح: أُقسمُ إذا ما صفعتني، فلن أُكلّمها ثانيةً. أنا لم أعُد طفلةً.

لكنّ أمّي كوّرت براجمها على شكل قبضة، وكأنّها قررت أنّ الصفعة ليست بالأمر الكافي، فاللكمة قد تكون أكثر ملائمةً لإحداث ثقبٍ في ثورة ابنتها. ما الذي سيتسبّبُ به هذا الأمر لوجهي؟ هل يُمكن أن أصبح شهيرةً بالمطربة ذات الصوت البلبلي والأسنان الأمامية المكسورة؟ لقد قالت مدام نيفين إنّه- للحصول على أفضل نتيجةٍ في عالم الشهرة والموسيقى، يجب أن يترافق الصوت الرخيم مع الجمال. مذعورةً، سقطتُ على الأرض وبقيتُ هناك، مكوّمةً مثل سلحفاة.

«آه، انهضي».

«كلا».

«حتى أنّك أسخفُ ممّا كنتُ أظنّ».

لم أنظر إلى الأعلى. أنا متأكدة أنّها تنتظر أن أكشف لها بقعةً طريّة. الشيء الثاني الذي سمعته كان صوت باب غرفتها يُغلق بصوتٍ عالٍ.

22

ماجد

يعبق «النيلي» برائحة السجائر والكحول والبصل النتنة. أصرّ سعيد على أن أبقى في «النيلي»، وأدعه يذهب هو ليتولّى الأمور. كان رأسي يدور، وقد غبت عن الوعي على الأرض. يجب أن يعود قريباً. فتحتُ باب الشرفة وتأوّهتُ نتيجة الألم المتبقّي في رأسي. أخذتُ أسترق النظر للأسفل، متوقّعاً أن أرى سيارة سعيد «النيسان باترول» تنحرف عن الطريق لتدخل في منطقة وقوف السيارات، أن أراه يقفز خارج السيارة بابتسامةٍ مُطمئنة تحمل بشائر نجاحه في تولّي موضوع الليلة الماضية الكريه.

إنّها الظهيرة. ما الذي يؤخّره حتى الآن؟ تيّارٌ من الضجر دفعني لطلب رقم هاتفه الخلوي بشكلٍ متكرّر. (آه، أين الرجل؟!) وعندما بقي الرقم مفصولاً، عُدتُ إلى الشقّة بخُطاً غاضبة، بينما كنتُ لا أزال مصدوماً من فكرة أنّ الأمور بكاملها قد أصبحت خارج السيطرة.

تملّكتني نوبةٌ غريبة - هذه هي الكلمة التي يُمكن وصفها بها - جولةٌ من الضعف والارتجاف التي كانت تدفعني للذهاب إلى الحمّام، حيث كنتُ أتقيّأ. لقد استحالت شفاه الفراولة لـغالينا إلى

اللون الأزرق. كيف لم أرَ ذلك؟ كانت تقاوم. كانت تختنق. كيف لم أسمع ذلك؟ رشقتُ وجهي بالماء البارد، ثم أخذتُ أحدّق في المرآة؛ لقد فَقَدَ لونه، كورقة عشبٍ ميتة. لعنتُ ماء إبليس الذي أعماني، لعنته لإضعاف ضميري إلى النقطة التي قتلتُ فيها الفتاة تقريباً.

في غرفة الجلوس، تجهّمتُ وأنا أنظر إلى الكؤوس الفارغة ورماد السجائر على الطاولة، إلى الوسائد المبعثرة على الأرض والخيزرانات التي استخدمناها في تلك الرقصة السخيفة. ثمة شيءٌ آخر: سُبحة الكهرمان التي أعطاني إيّاها حارب. التقطتُ السُبحة وجلستُ على الأريكة، مُتسائلاً مَن الذي استرجعها من درج الخزانة.

اشترى أخي السُبحة في بدايات السبعينيات، حين بدأت الشركة بجني الأموال الحقيقية. دفعَ مبلغاً ضخماً من ألفيْ روبية هندية لتاجرٍ من «بومباي». كانت المرّة الأولى التي يشتري فيها شيئاً ثميناً، واختار أن يُقدّمها هديةً لي.

«لأنّنا واحد»، قال حارب. إنّ الحُكم عليه من خلال تعبيره هذا يعني أنّه آمَنَ بها لتكون حقيقةً عميقة. من المستحيل أن نتخاصم، ووجدتُني حينها أومئ بعنف، مُقتنعاً بتماثلنا. في النهاية، نحن أخوةٌ نشأنا في المنزل نفسه، كنّا جزءاً من أهل النخيل.

عندما كنتُ صبياً، غالباً ما كنتُ أُساعد حارب في بستان النخيل، نُزيل الأوراق الميتة والمخلّفات من أقنية المياه المحفورة، أو في تقليم الأشجار. كنّا نضع حبال أمان حول وسطنا، ونتزاحم ونحن

نصعد أشجار النخيل في مسابقةٍ لنرى من هو الأسرع. لم يكن من المهمّ كثيراً بالنسبة إليه أنّني كنتُ أفوز دائماً. لكنّي، في المرّات التي يكون هو الرابح، كنتُ أغرق في مزاجٍ سوداويّ كئيب. كان حينها يصفعني ويطلب منّي ألا أكون دلوعاً هكذا. بعدها، وكأنّه يتذكّر الفارق في العمر بيننا، كان يقرصني في خدّي، إلى أن يستحيل أحمر: وهذا برهانٌ على أنّ حبّه لي لم يكن أقلّ ألماً من الصفعات. كنتُ حينها في العاشرة من العمر، وحارب يكبرني بتسع سنين.

غارقاً في الذكريات، كنتُ بالكاد مُدركاً أنّ السبحة تنزلقُ بين أصابعي، تُطقطق على شكل إيقاعٍ متواصل يُهدّئ من روعي. وجدتني أُستَجرُّ أبعد وأبعد إلى ذلك الماضي الذي تشاركته مع حارب. تحت قبّة السماء التي كانت تحتجز الضوء القاسي والشمس الحارقة، كنّا نرفع رؤوسنا عالياً، لنلتقط آهة النسمة. إنّه السِّيح الذي تتبعثر فوقه أشجار السُّمر الصحراوية التي تأخذ شكل مظلّةٍ تاجيّة.

كم مرّة جرّني على طول الفلاة الفسيحة للوادي، لجمع العسل؟ وبوجود تلك الجرّة الفخارية ذات الفتح الواسعة، المربوطة على خصره، كان حارب يستمتع بالبحث، وبعد أن يقوم باقتطاع قرص العسل من القفير، وتخزينه بأمان في الجرّة تحت قطعة القماش الخفيف، كان يُصرّ على مُشاركة القرص مع الجيران. وبابتسامةٍ عريضة، كان يُراقب وجهي وهو يتمعّج، بينما كنتُ أقسم اللقيا.

أتنشّق الغبار الجافّ. كنا حُفاةً على الأرض الحارقة، مُرتدين كندوراتٍ رثّةً وأُزُر لَفَحَتْهَا الشمس مرفوعةً عالياً ومعقودة بإحكامٍ إلى خصورنا، كُنّا ننطلق على راحات أقدامنا من بقعةٍ ظليلة إلى أُخرى، ننتقل بشكلٍ مُتعرّج لتجنّب بسلات النباتات الجافّة، ذات الشكل اللولبيّ الشائِك، والتجمّعات المبعثرة، والنصف المطمورة لأشواك السُّمر. مرّة، فيما كنّا نهرول عائدين على طول السِّيح، بعدما وجدنا قفيراً ضخماً بشكلٍ مميز، وطئتُ بكامل ثقلي على واحدةٍ من هذه الأشواك الإبريّة الحادّة. أتذكّر أنّني أخذتُ أتشكّى كامرأة، حين وقعتُ على ظهري، ورفعتُ قدمي بحيث أمكَن لحارب أن ينتزعها.

بالإضافة إلى نحلاتٍ شارداتٍ عدّة كانت تتبع رائحة عسلها من خلال مطاردةٍ مشوّشة، كانت مجموعةٌ من الذباب الطنّان تحوم حول الجرّة. غير الذباب مساره اعتماداً على رائحة الدم في أخمص قدمي.. لعنتُ الذباب.. لعنتُ الشوكة.. ولعنتُ الشجرة.

في تلك اللحظة، وكتسويةٍ مقابل إصابتي، قرّرتُ أنّني لن أوزّع العسل بالتساوي بعد ذلك. الحروق الشمسية، العرق، والحفرة الواجفة في قدمي: كانت كلّها كافيةً لإقناعي بأنّني يجب أن أحتفظ بأكثر ما أجرؤ على الاحتفاظ به من عسل الجرّة، والذي أعتبره من حقّي قانوناً. فعلتُ ذلك دون إحساسٍ بالذنب، وبمرور الوقت، أصبحتُ أكثر جرأةً، أخذتُ أضيف أكثر قليلاً، وصرتُ مُستعداً دائماً لمناقشة قضيّتي، إذا ما اكتشف حارب أنّني احتفظتُ بأكثر من حصّتي. حارب لم يكتشف ذلك قط.

أخذتُ أبحثُ عن إشارةٍ للتجانس بيننا. كنتُ أفكّر عميقاً بهذا الأمر، وكيف أنّني وأخي تشاركنا النشأة، لكننا لم نتشارك طريقة التفكير، حين رنّ هاتفي؛ كان سعيد قد وصل.

قادَ السيارة خارج الزحام، إلى طريقٍ فارغ نسبياً. قدّم لي سيجارة وأشعلتها، أخذتُ ثلاث سحباتٍ طويلة عميقة. يدخل الدخان عبر فمي ويخرج من أنفي. يضرب النيكوتين دماغي، لكنّه يفشل في تهدئتي. «أخبرني».

فرك سعيد بقايا الشعر على وجنتيه. «حسناً، لقد جلبنا الطبيب».

«ماذا؟»

«لا تقلق. إنّه رجلٌ كتوم طاعن في السنّ، يستخدمه أبو جورج للتعامل مع كلّ حالات المشاكل الطبّية المتعلّقة بهؤلاء الفتيات. وفقاً للطبيب، لم يُكسر فيها شيء، فقط بعض الكدمات هنا». ووضع يده على رقبته.

كان يجب أن يؤدّي هذا إلى تهدئتي، لكنّ التجهّم الملتصق بوجهي منذ الليلة الماضية بقي في مكانه. كانت الأسئلة تلوح في عقلي كشريطٍ شائك.«توقّفْ عن تقديم المعلومات بالقطّارة! ما الذي تُريده الكلبة؟»

«إنّها مُنفعلةٌ جداً. كانت ستذهب إلى الشرطة لو لم نتولَّ الأمر بشكلٍ عاجل»، قال سعيد. «لقد حذّرناها أنا وأبو جورج

كي تفكّر قبل أن تتصرف، لأنّها في بلدٍ مسلم محافظ. فتاةٌ في شقّةٍ مليئة بالرجال – وتحديداً فتاة تبيع خدماتها – هي فتاةٌ لن يصدّقها أحد! لقد أخبرناها أنّ أوّل شيءٍ ستقوله الشرطة هو «ما الذي كُنتِ تفعلينه هناك، في المقام الأول؟ أنتِ طلبتِ ذلك». أخبرناها أنّه سيُلقى بها في السجن، وبعد انتهاء محكوميّتها، سيتمّ ترحيلها».

تقرير الشرطة يُمكن أن يقود إلى قضيةٍ في المحكمة! سيكون الأمر كلمتها مقابل كلمتي. حتّى ولو جرت الأمور كلّها ضدّها، لا يوجد ضمان بأن تتسرّب كلمةٌ حول ما حدث إلى الخارج. المجتمع مُتقلّب. كلّ ما سيستلزمه الأمر هو همسةٌ شائنة. سأوصم بالعار. لن يؤثّر الموضوع على نجاحي كرجل أعمال، لكنّه سيسمني بالخزي في عيون نُظرائي، ويجعل منّي أضحوكة: ماجد النسيمي، المفضوح لاعتدائه بالضرب على العاهرات!

قال سعيد: «تُحبّ هذه النماذج الغربية أن تخلق ضجةً كبرى من لا شيء، لا احترام لديهنّ للتحفّظ. لقد تحدّثتُ إليها كأبٍ حنون، لطيف، أنت تعرف، وشرحت لها أنّها ليست الطريقة الصحيحة لحلّ مشكلةٍ صغيرة. والبقرة البلهاء، هذا ما هي عليه، استمرّت في صراخها العنيف». تنهّد سعيد من خلال أسنانه. «أعتقد أنّ الأمر راجعٌ إلى كونها مضطربة. نعم، مُنزعجة جداً».

الآن، آخر شيء أهتمّ به هو كم هي مُضطربة أو منزعجة. «نعم،

نعم، بالطبع عليها أن تتصرّف بهذه الطريقة»، قلتُ ذلك وأسناني مُطبقةٌ بإحكام.«هذه الدراما بكاملها ليست أكثر من عملية خداع صغيرة مُحكمة. أليس هذا ما هُنّ هؤلاء الفتيات عليه؟ دائماً يُمثّلن هذا الدور أو ذاك».

فتح فمه، لكنّ نظرةً واحدة من عينيّ المتورمتين جعلته يعود ويثبتّ نظره ثانيةً على الطريق. كان يقود باتجاه منزلي. قال: «أبو جورج بقي معها، وأصرَّ أن يعطيها الطبيب بعض المهدئات. إنّها هادئةٌ الآن، في وضعٍ أفضل لتسمتع إلى ما يقوله. دعنا فقط ننتظر ونرى ما الذي سيحدثٌ. لا تقلق، سوف يُحلّ كلّ شيء. إن شاء الله».

«يُحلّ؟ ماذا، هل ستهبط ملائكةٌ من السماء لإنهاء هذا الأمر؟ هل عرضتَ عليها نقوداً؟»

«لم تقبل أن تأخذ نقوداً».

«لماذا لم تقبل؟»

أخذَ نَفَساً عميقاً من خلال أسنانه الصفراء. تمرّ الدقائق ببطء، بينما أنتظر إجابةً منه. فجأةً فهمتْ. لقد فشل.

أخذ الغضب يعتمل في داخلي. كان يزحف كالحيّة، ثم يتوقّف. وعندما أخذ ينهشني من الداخل، ضربتُ لوحة العدّادات.«كان يتوجبّ عليّ أن أتعامل مع الوضع بنفسي! هذا كلّه خطأك أنت، أنت تعرف ذلك»، قُلتُ، «أنت وذلك النغل أبو جورج، تجلبان

هؤلاء الفتيات إلى «النيلي»! كانت نبرة صوتي ضارية وقاسية. «أقصى ما يُمكنك فعله هو إبقاء «النيلي» مليئاً بالمخزون. أيّ شيء أبعد من ذلك يُعتبر صعباً عليك. هل قمتَ في يوم من الأيام بعمل شيءٍ بالشكل الصحيح؟»

«الآن، انتظرْ لحظة». بدا وكأنّ مشاعره قد جُرِحت، ولكن- بحكم معرفتي بسعيد- فكلّ هذا تمثيلٌ بالتأكيد. «أنا -»...

«تشب، تشب، تشب! (اخرس)! كلا، أنتَ اسمعني. ستأخذني إلى منزلي حيث ستنتظرني بينما أُجدّد نشاطي، ثم ستأخذني إلى تلك القذرة لأتمكّن من وضع حدٍّ لهذه الفوضى».

في المنزل، وبينما كنتُ أستحمّ وأغيّر كندورتي بواحدةٍ جديدة، بقي الغضب العميق ممسكاً بي. تناولتُ رزمةً من أوراق المائة دولار من الخزنة، وزلقتها في جيبي. كانت عائشة خارج المنزل، لكنّها وصلت ووجدتني في المطبخ، أزدرد آخر قضمةٍ من الشطيرة.

«تبدو عيناك وكأنّ أحداً قد سكب الكيروسين فيها»، قالت.«ولماذا ينتظر سعيد في الخارج؟ أخبرني البوّاب أنّه أحضرك إلى المنزل. أين سيارتك؟»

«في الكراج».

«ما مشكلتها؟»

«كيف لي أن أعرف؟ هل أبدو كميكانيكيّ؟»

«أعني، ما الذي حدث؟»

«لقد تعطلت».

«هل حدث ذلك الليلة الماضية؟ هل هذا سبب عدم مجيئك إلى البيت؟»

«ما الذي دهاك، يا امرأة؟ تريدين أن تعرفي المرض والعلاج؟» أسكتها هدير صوتي بغتةً.

❋ ❋ ❋

كنتُ أقود سيارة سعيد الذي جلس بجانبي ليدلّني على الطريق. كنتُ أقبض على عجلة القيادة بإحكام، بينما كنتُ أعبر «جسر آل مكتوم» وأتجه نحو «مينا بازار» في بَرْ دبي. وحالما وصلت إلى فندق «رامادا»، قمتُ بانعطافٍ عكسيّ، ودخلت أوّل واحدٍ من الشوارع الصغيرة خلف الفندق. الأبنية هنا من الحجم المتوسّط، لا ترتفع أكثر من عشرة طوابق، عبرنا أحدها، والتي تحوّلت إلى فندق. لم أتمكّن من قراءة الاسم، لكنّني رأيت اللوحة على المدخل: خدمة إيقاف سيارات النزلاء مع السائقين.

إنّها الساعة 2:15 بعد الظهر. باص المدرسة أمامي يتوقّف باستمرار عند المنحنيات والزوايا. أرغب بإنهاء هذا العمل مع

غالينا الروسية في أسرع وقت، لكنّي أُحجم عن تخطّي الباص. أخذتُ أحدّق في مجموعات الأطفال الصاخبة وهم يقفزون منه. يمنحني التأخير الفرصة للتفكير.

بقدر ما كنتُ أرغب في كسر عنقها حالما أراها، فإنّ السير بالخيار الجسدي سوف يُفاقم الوضع. ستكون غاضبة؛ أنا واثقٌ من هذا. ومن المحتمل أن تشتمني. قرّرتُ أن أرتفع فوق كلّ ذلك، وأتعامل معها باستخدام الكلمات فقط - كلمات قوية، وربما، لو كانت حساسة- بضع كلمات لطيفة، أيضاً، بينما أحثّها على أن تأخذ النقود. إنها رؤية الدولارات النظيفة والنضرة هي التي ستروّضها.

«هناك، هناك تماماً». أشار سعيد إلى مبنىً من ستّة طوابق بلون الطين، شرفات إسمنتية معلقة، وفجأةً لم أعد أطيق الانتظار لأواجهها. ضربتُ بوق السيارة، وفعلتِ السيارات الثلاث ورائي الشيء نفسه.

كان المصعد يعبق برائحة زيت جوز الهند الخاص بالشعر والعرق المبتذل. ضغط سعيد على زرّ. كان بهو الطابق الثاني فسيحاً ومُعتماً. كان ضجيج وقت الغداء ينضحُ من وراء أبواب الشقق، مع الرائحة اللاذعة للبصل المقليّ والكاري الهندي ذي التوابل الكثيرة.

كانت شقّتها الثالثة نحو الأمام، وأبو جورج في الخارج، ينقر على بعض الأرقام في هاتفه، بينما كان ينتظر وصولنا. كان

يرتدي قميصاً مُخططاً، مع ترك الأزرار العلوية مفتوحةً، بحيث تظهر منها سلسلةٌ ذهبية غليظة تستريح بين شعر صدره. كان بنطال «الجينز» الذي يرتديه ضيّقاً جداً، بحيث كانت كتل الدهن في وسطه معقوصةً على شكل أنبوبٍ حول خصره، ما جعلني أتعجّب لماذا يحتاج لأن يلبس حزام رعاة البقر ذاك في أعلى بنطاله. وضع هاتفه في جيبه، وأخبرني أنّ تأثير الحبّة التي أعطاها الطبيب لها قد انتهى. «الآن، لن يفيدنا أن يفقد أحدٌ ما أعصابه»، أضاف مع بعض التردّد، «يتوجّب علينا أن نكون هادئين».

«بالطبع»، قلتُ، ونظرتُ إليه نظرةً ثلجية.

«صحيح»، قال أبو جورج وهو يُمشط شعره بأصابعه- شعره اللامع والأملس المضمّخ بالزيت - قبل أن يستدير باتجاه شقّتها.. دقَّ أبو جورج على الباب، ولكن- لدهشتنا- فإنّ الباب المقابل له فُتِحَ قليلاً استجابةً للطرق. استدرنا فرأينا فتاةً صغيرة تضع علامة الإبهام البندي الحمراء على جبهتها. أخذتْ تُحدّق فينا بعينين كبيرتين سوداوين كانتا تطفحان ارتياباً. جثوتُ بمقدار طولها وزجرتها بالأوردو.«من ناداكِ أنت؟» قلتُ بصوتٍ كالهسيس.«عودي إلى الداخل». انسحبت الفتاة المذعورة في وقت هبت نسمة هواء بارد على ظهري.

لم يكُنْ أيٌّ منّا سريعاً بما فيه الكفاية. صفقت الروسية الباب قبل أن يُمكننا الانسياب عبره.«لا أريدُ أن أراه»، صرخت من وراء الباب المغلق بإنجليزيةٍ مكسرة.«اذهبوا بعيداً الآن».

هزّ أبو جورج رأسه. «إنهنّ حمقاواتٌ للغاية أحياناً، هؤلاء الفتيات». سحب أبو جورج سلسلةً تجلجل بالمفاتيح والأدوات، وأدخل واحداً منها في القفل، ومع بضع نخسات وانثناءات، فتحَ قفل الباب، وأصبحنا في الداخل.

لم تتفاجأ غالينا بدخولنا الناجح. كانت تقف وظهرها إلى النافذة في نهاية الغرفة، مُمسكةً بهاتف. «اقتربوا منّي فأتصل برجال الشرطة».

غريزياً، أشرتُ لسعيد أن ينزل إلى الأسفل وينتظر قرب السيارة، بحيث يستطيع تحذيرنا في حال وصول الشرطة. حاول أبو جورج أن يتباحث معها منطقياً. «هيّا، يا غالينا»، قال. «ما الذي تظنّينه؟ هل نحن هنا لإيذائك؟» مدّ يده ليضعها على صدره. «نحن أصدقاء».

بالنظر إليها، يُمكنها أن تكون أيّة سائحة غربية. كانت ترتدي لباساً صيفياً طويلاً ذا أزهارٍ بهية. مع وشاحٍ مربوط حول رقبتها، وهذا ما جعلني أتساءل عن مدى سوء الكدمة. وكأنّها كانت تقرأ أفكاري، إذ نزعت الوشاح. كانت الكدمة بُنية بلون التمر المتعفّن. «إنّه قاتل». بصقت التهمة وأضافت إليها المزيد من القوّة، من خلال شريطٍ من الكلمات البذيئة الروسية. «حاول قتلي».

«نحن هنا لنتحدّث فقط»، قلتُ، مُخرجاً النقود ومباشراً بعدّها الورقة بعد الأُخرى. «أنا هنا لأخبرك أنّ أيّ شيء تحتاجينه، أنا جاهز لتلبيته».

«لا تستطيع شرائي»، صرخت وهي توجّه الهاتف نحوي وكأنّه مُسدّس. «رجلٌ قذر!» كان فمها مُعوجاً بالاحتقار، ووقفتُ مذهولاً كيف أنّني قارنته مُسبقاً بحبّة الفراولة!

إنّها سخيفة، وهأنذا هنا، مُجبرٌ على تحمّل صفاقتها. حشوتُ النقود في جيبي، وهززتُ رأسي كي لا أفقد السيطرة على نفسي، ونظرتُ إلى الستائر المطرّزة على يمينها، والتي يجب أن تؤدّي إلى غرفة النوم. كانت الستائر تهتزّ وتطقطق مع كلّ نسمةٍ تهبّ من وحدة تكييف الهواء الصاخبة.

«غالينا، حبيبتي»، قال أبو جورج بصوتٍ ملؤه الضجر،«ضعي الهاتف جانباً». تردّدتْ قليلاً قبل أن تدفع به إلى حافّة النافذة التي كانت ضمن مجال يدها. مشى أبو جورج بضع خطوات باتجاهها. «أنتِ هنا بتأشيرةٍ سياحية مدّتها شهرٌ واحد. لماذا ترغبين في تدمير إقامتك؟ هيا يا غالينا، أنت لا ترغبين في ذلك».

استمرّ أبو جورج في تهدئة الفتاة. لم أكن مهتمّاً بهذا الانسجام بين قوّادٍ وعاهرة، لكنّني مُجبرٌ على الانتظار لأرى النتيجة. جلتُ بنظري في أنحاء الشقّة. إنّها مكانٌ بسيط مملوء بأثاثٍ يبدو أفضل قليلاً من أثاث عاملٍ أجير، إنّه على الأغلب أثاثٌ مرميّ لشخصٍ آخر وضعه بجانب حاويات القمامة في المدينة ليتمّ جمعه. كانت لديها أريكةٌ خضراء باهتة مليئة بالبقع، وكراسٍ بلاستيكية مليئة بالخدوش وبآثار حروق السجائر، ومصابيح مُتقلقلة رخيصة

مُغطاة بشالاتٍ قرمزية مُهلهلة. كان ثمة مجموعة من المراتب الإسفنجية منضدة على الجدار؛ الملاءاتُ المتجعدة في أعلاها تدلّ على أنّ الشقّة يتشاركها العديد من الأشخاص - الفتيات اللواتي يعملن في المجال نفسه، بلا شك - أو أنّها مكانٌ للعمل، وكرٌ للمتعة.

«لقد وعدتُ صديقنا في روسيا أنّي سأحميك»، قال لها أبو جورج، «لكنّني لن أكون قادراً على فعل أيّ شيء إذا ذهبتِ إلى الشرطة ورموك في السجن. ما الذي سيقوله صديقنا لو أخبرتُهُ كم كُنتِ غير منطقية؟»

تيبّست غالينا في مكانها عند ذِكر هذا الصديق (من هو هذا الشخص؟) «سأخبر سيرغي أنّه أراد قتلي» أخذتْ تُغمغم في صدرها.

«هيا، لا داعي للحديث كثيراً. يُمكننا إنهاء هذا الأمر الآن. كلّ ما أطلبه منك هو مساعدة صغيرة». وقام أبو جورج بعمل إشارة قرصٍ بأصابعه. »صغيرة - صغيرة فقط».

«لا صغيرة». استدارت لتنظر إليّ. كانت عيناها قاسيتين كحبّتيْ جليدْ زرقاوين. «هذا شيءٌ كبير».

«إنّه رجلٌ صالح، غالينا»، قال أبو جورج وهو يُحرّك ذراعية بسُخط. »هل تريدين هدم منزله؟ لديه زوجة، وأطفال، وأحفاد».

«نعم، لمَ ليس هو معهم؟ لأنّه رجلٌ عجوز فاحش».

بقايا صداع الخمرة لم تذهب نهائياً. أشعر بها بشدّة على شكل فورةٍ ساخنة تنفجر في رأسي. قطبتُ وجهي وأخذتُ أفرك جبهتي.. «اسمع، أبو جورج»، قلتُ وأسناني تصطكّ بعضها مع بعض، «أعتقد أنْ لا فائدة من المتابعة». استدرتُ نحو الفتاة وجرّبتُ ابتسامةً سمحة نبيلة، مع شدّ كلّ عضلةٍ وجهية وإقفالها في مكانها.«سأقول ما يتوجّب عليّ قوله مرّةً واحدة أخرى فقط: لم أقصد إيذاءك. أنا مُستعدّ لأن أعوّضك هذا الأمر». سحبتُ النقود وقذفتها في الهواء. تبخّرت ابتسامتي بينما كانت الأوراق النقدية تسبح باتجاه الأرض. «خذيها الآن! واخرجي من حياتي بسرعة!»

«أنا لا أريد مالك القذر»، صرخت. «أريدك أن تأتي إليّ على ركبتيك. أريدك أن تضع رأسك على الأرض بجانب قدمي. أريدك أن تتوسّلني لأعفو عنك».

نَضَبَ الصبر الذي كان لديّ. وفي محاولةٍ للسيطرة على أزمتي المستفحلة، صفّقتُ بيديّ. هذا الأمر المفاجئ جعلها تقفز. أمسكتْ بالهاتف واتصلت.«آلو، الشرطة؟»

كان ردّ فعلي سريعاً، الاندفاع نحو الأمام وطرح السمّاعة من يدها. سقطت على الأرض، حيث داس عليها أبو جورج برجله وكأنّها فأرٌ يعدو. رفعتْ ذراعها أمام وجهي، لكنّني انحرفتُ جانباً. إنّها في حالةٍ هستيرية! أمسكتها من الخلف وثبّتّها بقبضةٍ مُحكمة. كانت تُصارع، لكنّها لم تكن قادرةً على الإفلات.

وبطرف عيني، لمحتُ أبا جورج وهاتفه الخلوي مُلتصقٌ بأذنه. أضاء وجهه فرحاً. قال: «ألو.. ألو.. مرحباً.. سيرغي»..

لا أعرف من هو هذا السيرغي، لكنّ مُجرد ذكر اسمه كان له تأثيرٌ على غالينا لا يقلّ عن تأثير المعجزة. قبل لحظات كانت مُتشنجة الأطراف من الهستيريا، تقذف السباب في وجهي، لكنها أخذت ترتعش الآن كالهُلام، وأفلتُّها خشية أن تترك قبضتي ثقوباً في عظامها.

«إنّه يرغب في التحدّث إليك»، قال لها أبو جورج، وبغضّ النظر عن بلواها، أقحم هاتفه الخلوي في يدها.

تسمّرتُ في مكاني، غير قادرٍ على إبعاد عينيّ عنها، بينما جفّ اللون في وجهها، وانخفض صوتها ليصبح همساً. من قطّةٍ بريّة إلى أرنب: كنتُ مذهولاً من ذلك التحوّل. من هذا السيرغي، ولماذا هي خائفةٌ منه لهذه الدرجة؟ ومع انهماكها في المحادثة، انحرفت غالينا باتجاه النافذة، وهي تبدو كشخصٍ ينوء بأحمالٍ ثقيلة على كتفيه. استدرتُ نحو أبو جورج الذي كان مشغولاً بتبريد نفسه. أزال العرق عن وجهه بمنديلٍ مُنشّىً، ثم نَفَشَ قميصه وهو يحرّك نسمةً خلال شعرات صدره النديّة. وحالما لمحَ حيرتي، أشار إليّ بأن أتبعه إلى البهو.

لم تكنِ الفتاة الصغيرة المتطفّلة ذات علامة البندي على جبهتها هي الوحيدة التي سمعت الشجار. كلّ القاطنين في الطابق اللعين – مجموعات من العائلات الآسيوية، بمن فيهم جَدٌّ مُنكمش

الحجم ذو شعر رمادي – كانوا يختلسون النظر من شققهم. لوّح أبو جورج بذراعه وصرخ فيهم أن يعودوا إلى الداخل.

وحالما أصبحنا بمفردنا، خفضَ صوته، وكأنّ للجدران آذاناً. «سيرغي هو حاميهنّ في روسيا»، قال أبو جورج. «أعرفه منذ أيام دراستي في موسكو، في بداية الثمانينيات. لم نتواصل لمدةٍ طويلة لأنّه تورط في عددٍ من الصفقات المشبوهة. ولكن الآن، حسناً... ومع هذا الطلب على الفتيات الروسيات، ماذا يُمكنني أن أقول؟» لا شكّ في أنه كان ثمة تعبيرٌ استنكاريّ على وجهي، لأنّه أضاف بسرعة: «أنا لستُ مُقرّباً منه. أنا فقط مُقدِّم خدمات – للمتعة حصرياً– لا شيء أكثر من ذلك. لا مُخدّرات، لا غسيل أموال، لا سوق سوداء، لا رشوة. هذا ليس أنا»؛ أخذَ نَفَساً. لقد أعدنا تواصلنا معاً مؤخراً فقط. أنا أرتّب التأشيرات، هو يُرسل الفتيات هنا للعمل لمدّة شهر، ثم أُعيدهنّ ثانيةً، هذا كلّ شيء».

«إذاً هو قوادهنّ في روسيا، وأنت قوادهنّ هنا. ولكن أيّ سلطةٍ يملكها هذا الرجل على هؤلاء الفتيات؟»

«هو لم يقل، وأنا لم أسأل».

«ولمَ لمْ تتصل به من البداية، عوض السماح بحصول كلّ هذا... هذا الإزعاج المستمر؟»

«لقد فعلت، كنتُ أحاول الاتصال به منذ بدء هذا ... الإزعاج. الآن فقط تمكّنت من الوصول إليه».

«حسناً، أخبره أنّه لا يكفي أن يؤنّبها فقط. اشرح له أنّني مستعدّ لأدفع أيّ مبلغ من المال لأخرجها من حياتي. أريدها أن تعود إلى روسيا، مع تلك الكلبة الثانية ذات الشعر الأصفر المبيضّ. هل سمعتني؟»

«بالتأكيد».

تنفست الصعداء، وأبحتُ للسكينة أن تغمرني. ها قد وصلنا إلى نهاية هذه المحنة المأساوية. «إذاً، ما الذي سيفعله بها حالما تصل إلى هناك؟» كان ذلك فكرةً متأخرة، فضولاً.«يكسر رجليها؟ يقتلها؟»

«بالطبع كلا!» أُخِذَ أبو جورج بهذا السؤال.»بالرغم من أنّ هؤلاء الروس لديهم قواعد السلوك الخاصة بهم - حيث لا يملكون أيّاً من مناقبنا، يجب أن أعترف بذلك - أنا أعرف سيرغي، وهو بالتأكيد ليس قاتلاً». توقّف أبو جورج وبدا أنّه صُدم بموجةٍ من الذعر.«وماذا سيجعلني هذا الأمر أفعل، أُعيدها إلى روسيا لو كان سيرغي قاتلاً؟ حسناً، هو ليس بقاتل!» أدخل يده في جيبه، وأخرج صليباً صغيراً وضعه قريباً من فمه. نظر إلى الأعلى وأخذ يتمتم بشيءٍ للسماوات..«كلا، سيوبّخها فقط. هذا كلّ شيء. قد يصفعها قليلاً لمرّاتٍ عدّة، لكنّها معتادة على هذا الأمر. لا شيء أكثر من ذلك».

لا أُريد أن أسمع أكثر من ذلك. كنّا قد تركنا الباب مفتوحاً بعض الشيء، والآن عدنا لنجد غالينا تحبو على ركبتيها، تلتقط

النقود. نظرتْ إلى الأعلى ثم وقفتْ على قدميها، لكنّها لاتزال تنكمشُ ذُعراً. نكستْ رأسها وقالت متمتمةً: «أنا آسفة. لم أقصد قلّة الاحترام».

ببطء، وكأنّ رقبتها قد تنكسر، رفعتُ ذقنها: «ماذا كان ذلك؟»

«قُلتُ، أنا آسفة للغاية».

توقفت كي أُطيل اللحظة وأنظر عميقاً في عينيها الذاويتين. لعلّها غير نادمةٍ في أعماقها، لكنّ ذلك ليس مُهمّاً. ما رأيته كان كافياً: ارتياعٌ في وجه قذرٍ مُظلم. تخيّلتها هي والفتاة الأخرى تتبولان في سرواليهما، حالما تصبحان وجهاً لوجه أمام سيرغي. هو من سيتعامل معهما: سيوبّخهما مع بعض الصفعات، يريدني أبو جورج أن أصدّق الأمر، لكنّي لا أعتقد ذلك.

«رجاءً، أخبر سيرغي أنّك سامحتني؟»

«حسناً»، قُلتُ، وأفلتُّ فكّها. وعندما ارتدّت إلى الأرض لتلتقط ورقةً نقدية كانت تستقرّ بجانب قدمي، دِستُ على يدها. صرختْ غالينا عالياً. «لن تحتفظي بأيٍّ من هذه النقود»، قُلتُ.«ستجمعين النقود وتُعيدينها لي».

كظمتْ نشيجها وأومأت برأسها.

23

مريـم

تمّ إرسال الدعوة لكلّ فتاةٍ في السكن، لكنّني- مع بضع طالباتٍ أُخريات جديات- قرّرتُ ألا أحضر الحفلة. بُثينة التي تسكن في الطابق السابع كانت مَن رتّب للحفلة، لمناسبة انتهاء السنة الدراسية. ومع اقتراب يونيو، يُعتبر هذا وقتاً حرجاً من السنة. وبالرغم من أنّني كنتُ قد أنهيتُ امتحاناتي الكتابية للتوّ، فلا يزال يتوجب عليّ الإعداد للامتحانات الشفهية، وأولاها هذا الأسبوع.

أخذتُ أسمعُ قعقعة أواني الطبخ في المطبخ. على الأرجح تامي والعنود تقومان بترتيب المكوّنات للخادمة نعيمة التي ستقوم بإعداد الطبق لهما لتأخذاه إلى الأعلى. استحالت شقّتنا، خلال الأيام القليلة الماضية، إلى بحرٍ من الفوضى، بينما كانت الفتيات يتناقشن مطوّلاً في محاولةٍ لتحديد أية ملابس، أحذية، وأكسسوارات سيرتدين. كان الوضع وكأنّ إجازة الصيف قد حلّت مُسبقاً.

جلستُ وراء طاولتي، بظهرٍ مُستقيم، والكتاب أمامي، وأثنيتُ على نفسي بقوّة إرادتي: لا يستطيع أيّ شخصٍ أن يقاوم مرح

الحفلة. قلّبتُ صفحات الكتاب إلى فصل الجراحة الفكّية التقويمية. بعد بضع دقائق، تخيّلتُ أنّني وعادل نجلس معاً.

سيتزوّجني، كل شيءٍ يشير إلى هذا الاتجاه. إنّه شخصٌ محترم وحنون عندما أكون معه، وهذا يُمكن أن يعني فقط أنّه يستعدّ لحياةٍ يتقاسمها معي. أتخيّل الأطفال الذين سألدهم، يتشقلبون على العشب، أو يتراشقون بالمياه في البحر ويشبهونه بقوامه الرياضي. ستكون لهم رموشه الطويلة وفمي الواسع، وسيكون شعرهم نضراً وكثيفاً ولامعاً تحت أشعة الشمس.

مررتُ بإصبعي على طول سطور الكتاب، في محاولةٍ جديدة للتركيز. أغلقت الكتاب، وأخذتُ أخاطب الجدار أمامي، محاولةً أن أسترجع ما قرأته. رفعتُ صوتي، مُشدّدةً على كلّ مقطعٍ لفظيّ في المصطلحات الطبّية. وفي منتصف الجملة، نسيتُ كلّ شيء. أبحرتْ نظراتي نحو النافذة الكبيرة، حيث كان ذكر بلبل صاخب يغازل أنثى على درابزين الشرفة. كان الريش على رأسه الأسود مُنتصباً، ووجنتاه البيضاوان منبسطتان، ما جعل البقعتين الحمراوين لديه تنتفخان. إنّه كائنٌ صغيرٌ جذّاب. كان ينقر على درابزين الألمنيوم ويتنقّل جيئةً وذهاباً. كانت الأنثى شاحبةً وغير مهتمّة. وبرفّةٍ من جناحيها، طارت بعيداً.

أصدر الكرسيّ صريراً حينما نهضتُ لأحجب مثل هذه الأوضاع التي تصرف الانتباه. أغلقتُ الستائر، مُعتقدةً أنّ الأمر

يعتمد على خلق البيئة المناسبة فقط. ولكن الآن ثمة ضجةٌ أكبر تصدر من المطبخ، أصوات ضرب أدراج وقرع أواني الطبخ.«ما الذي يجري هناك؟» صرختُ وأنا أتكئ خارج الباب. وعندما زعقتِ الفتيات، مشيتُ لأطلب منهنّ التوقّف، لكنّ المشهد في المطبخ جعلني أتسمّر في مكاني.

«يا للفوضى». فتحتُ فمي من الدهشة. قهقهتِ الفتيات. كانت أبواب الخزانة مفتوحة بعنف، بينما يزدحم على النُضد كلّ قِدرٍ ومِقلاةٍ نملكها، بالإضافة إلى ستّ دجاجات منتوفة الريش، وعيدان الملوخية المكوّمة على شكل رُزم. أغلقتُ أبواب الخزانة بعنف.«ما الذي تُحاولن أن تفعلنه؟»

«هنا، أمسكي»، قالت تامي وهي تُلقي بدجاجةٍ إليّ.

لحمٌ رخوٌ استقرّ في راحتيّ المفتوحتين، تذكارٌ مُزعج لذلك اللقلق التعيس الذي أمسكنا به أنا ودلال كأنّه كان حبل الحياة. لستُ متأكدةً لماذا أمسكته، ولكن بدا من الضروري أن أفعل هذا في ذلك الوقت.

أخذ الدم يقطر عبر أصابعي.

«إيييه!» زعقتِ الفتيات، وعندما لم يندّ عنّي أيّ ردّ فعل، ضربتها تامي وأسقطتها من يدي. وقعت الدجاجة على الأرض مع صوت ارتطام.

«ماذا كان الغرض من فعلتك هذه؟» صاحت العنود.«هذا كفرٌ، إنها نعمة».

«إنّها ميتة»، قالت تامي.

«لم تكن ميتة من قبل. وهي الآن طعام. ويجب احترام الطعام».

ومع اكتفائي بثرثرتهما، رفعتُ يدي.«انظرن، افعلن ما ترغبن بفعله، ولكن أبقين أصواتكنّ خافتة، لأنني يجب أن أدرس».

«لكنّنا لا نسطيع»، قالت تامي نائحةً.«ثمة مأزق».

«لقد اتصلت نعيمة تقول إنّها لا تستطيع القدوم»، أخذت العنود تشرح.«ابنها الصغير مريض، ونحن الآن مريضات لأنّنا لا نعرف كيف نطبخ هذا الطبق ونُعِدّه لحفلة الليلة». كانت تتكلّم بنبرةٍ رتيبة مملّة. كانت نظاراتها الثخينة الإطار تتموضع تماماً تحت الجسر العريض لأنفها، بحيث توجّب عليها رفع ذقنها لرؤيتي بالشكل المناسب.«أنت تعرفين كيف هو شكل طبخنا». هزّت كتفيها استهجاناً، بينما تجهّم وجهي من ذكرى الوجبة الوحيدة التي طُلب مني اختبارها. أرزّ تامي كان يحوي ماءً أكثر من الحبيبات نفسها، بينما كانت كرات اللحم القاسية وكتل الملح في كاري العنود المقدّم مع الأرزّ على القدر نفسه من عدم الاستساغة.

«حسناً، قطّعن بعض الفواكه وأعددن سلطة الفواكه».

كانت العنود مذعورة. «مستحيل»، قالت.«ستقوم كلّ فتاةٍ بإعداد شيءٍ شهي. في النهاية هذا تقليدٌ إماراتيّ».

أومأتُ برأسي. بالتأكيد إنّه تقليدٌ يجب أن يؤخذ بجدّية، ثم قُلت: «المشكلة أنّني لم أُعِدَّ الملوخية من قبل».

«الأمرُ سهل»، قالت العنود متوسلةً.«فقط قطّعي كلّ شيء وضعيه في الـ ... الطنجرة، أو ... القِدر أو شيءٍ من هذا القبيل». دفعت نظاراتها نحو الأعلى وأشارت إلى كتاب الطبخ الذي يتّكئ على الجدار، كانت الصفحات مفتوحةً بواسطة علبة لبن وغلاية.«كلّ شيءٍ مكتوب هنا، في كتاب الطبخ للشيف رمزي».

«يجب أن تُساعدينا، رجاءً، رجاءً، رجاءً.» نزلت تامي على ركبتيها واحتضنت ساقيّ بشدّة. حماقتها المسرحية جعلتني أطلق ضحكةً خافتة. هذا ما تفعله القاهرة: إنّها تُخرج الجانب المرح والوقح فيك إلى العلن. بعيداً عن أبيها وإخوتها، انفجرت تامي بجذل. وبعيداً عن عمّي ومنزله ذي القواعد الخانقة والسيرة الحسنة، سمحتُ لمرحها أن يُصيبني بعدواه.

ومع ابتسامةٍ عريضة خبيثة، التقطتُ حزمةً من أوراق الملوخية وقُلت اسمها العلمي لنفسي «كوركوروس». لست طبّاخةً مثالية، غير أنّه– ولسببٍ ما– فإن النظر إلى المكوّنات الموجودة أمامي: بصل، ثوم، أوراق الكزبرة، يجعلني متحمسةً لأن أجرّب شيئاً جديداً. بالإضافة إلى ذلك، أخذت في الاعتبار قدرتي المنحسرة

على التركيز، فلربما كان من الأفضل أن أريح عقلي من الدراسة قليلاً.

أخذتِ الفتيات يقفزن عالياً بارتياح.«سنساعدك». قالت تامي وهي تتبختر بين الثلاجة والنُضد. «سنقوم بكلّ أعمال الفرم». سحبت تامي سكين فاكهة من الجارور.

«انظرن، فقط أبعدن كلّ تلك الدجاجات. لا أُريد أكثر من اثنتين».

صفّقت تامي بيديها وأخذت تنطّ إلى الأعلى والأسفل. «وستأتين إلى الحفلة، أليس كذلك؟»

دفعتُهنّ خارج المطبخ، وبدأتُ أقلّب أوراق الوصفة.

* * *

أخذت تامي تتنشق.«إنهنّ يحرقن المادة الباهظة الثمن».

ضغطتُّ زرّ المصعد بمرفقي ونظرتُ نحو أعلى، إلى الدرج. كان ثمة خطٌّ من الدخان ينتشر، وهو يسبح إلى الأسفل، من الطابق السابع. كان ذلك الخيط يتكسّر إلى غيماتٍ خفيفة كالريش في طابقنا، ثم يختفي. التقطتُ أثر الأريج المخادِع لرائحة البخور، قبل أن تطغى عليه رائحة الأوراق المغلية والثوم المقلّى في الملوخية التي أحملها.

«ما كان عليكنّ أن تتُعبن أنفسكنّ»، علّقت بثينة عندما وصلنا. كانت مُتأنّقة الملبس في قفطانٍ فلسطينيّ جميلٍ أسود، مع أشكالٍ من الأرابيسك الصغيرة، موشاةٍ بخيوطٍ زاهية الألوان. أخذتِ القدر من يدي ومرّرته لزميلتها في السكن نوال والتي أعطته بدورها للخادمة. وعلى عكسنا، اختارت مُضيفاتنا كعوب أحذيتهنّ بشكلٍ براغماتيّ. شعرتُ أنّني خرقاء وأنا أنحني كثيراً للأسفل لأتلقّى تحية بثينة، على الطريقة الإماراتية: مصافحة فاترة وسلسلة من القبلات في الهواء تُصدر أصوات طقطقة مثل بندقية ألعاب الأطفال.

«الكثير من الطعام!» صرخت نوال، والواضح أنّه اعتراها الذعر من وصول طبق طعامٍ آخر. كانت قد اختارت أن ترتدي ثوباً إماراتياً بلونٍ أزرق سماويّ، وهو حلّةٌ من الشيفون نصف الشفاف. وبالرغم من أنّه كان ذا قَصّة فضفاضة، فقد بَدَتْ فيه كسمكةٍ تُصارع في القليل من الماء، بينما كانت تحرّك ذراعيها جيئةً وذهاباً، وهي تحفّ القماش. رَفَعَتْ عنقها إلى الأعلى لترحّب بنا بالنقرات المفرقعة نفسها.

رفعت العنود ذقنها وأعلنت: «إنّها ملوخية، هذه ما هي؟»

وبالرغم من أنّ بثينة ونوال ابتسمتا ابتسامةً عريضة، فلم تكونا قادرتين على إخفاء توجّسهما. يبدو أنّ قدرات الطبخ الخاصة بزميلات سكني سيئة السمعة.«مريم طَبَختها»، أضافت تامي بسرعة، وهي تحفّ عباءتها، وكأنّها تُقدّم البطل في المسرحية.

انفرجت أسارير نوال، بينما تنفّست بثينة الصعداء وأومأت برأسها. أصابتني موافقتهما بموجةٍ من الفخر انتشرت على طول عظام وجنتيّ. أنا سعيدةٌ لأنّني قرّرتُ المجيء إلى الحفلة. بثينة ونوال هما الطالبتان الوحيدتان الناضجتان في السكن، إنّهما في أوائل الثلاثينيات؛ نُشير إليهما بصفة الكُبار.

بثينة ونوال مُدرّستان في جامعة الإمارات في العين، وهما في إجازةٍ دراسية للحصول على درجة الماجستير في الأدب العربي والتاريخ، على التوالي. كلتاهما غير متزوجة، حيث يبدو أنّهما تفضّلان تركيز طاقتهما فيما تدعوانه «الهدف النبيل في تحسين العقل البشريّ». ولهذا السبب، أعتقد أنّهما تأخذان كامل وقتهما لإنهاء درجتيهما. لم تمنحهما السنوات الإضافية في القاهرة المعرفة فقط، بل منحتهما أيضاً المقدرة على تغيير اللهجة. يُمكنهما الانتقال من اللهجة الإماراتية إلى المصرية والعودة إلى الإماراتية من جديد، بضغطة زر.

«إذاً، يا فاطمة»، قالت بثينة،«كيف تُبلين في دراستك؟»

«تامي».

«بالطبع، تامي»، قالت بثينة.«ولكن يتوجّب عليّ أن أقول إنّ فاطمة اسمٌ نبيل للغاية».

«في نهاية المطاف، إنّه اسم ابنة الرسول»، قالت نوال، وهي تُدير عينيها للدلالة على ضجرها من فتيات السنة الأولى

وفجاجتهنّ.«وأنتِ لا ترغبين به. هل تامي اسمك الرسميّ الآن؟ هل ستقومين بتغييره في جواز السفر أيضاً؟»

«لمْ أتخلَّ عن أيّ شيء. تامي هو لقبي، وأنا أحبّه!» وميضٌ ضارٍ غطّى عينيها الصغيرتين، لكنّه اختفى حالما انحرفت نظرتها إلى ما بعد المدخل، باتجاه غرفة الجلوس.«ياهاها!» صفّقت براحتيْ يديها من الفرحة. «بالونات!»

قلوبٌ صغيرة كانت معلّقةً على طول أشرطة البالونات؛ إنّها زينةٌ مزاجية على نحوٍ غريب، مع الأخذ في الاعتبار أنّها شقة «الكبار» ذوات العقل الأكاديميّ. لم تُضع تامي والعنود وقتيهما عند الباب. اندفعتا إلى غرفة الجلوس وبدأتا بشدّ الأشرطة. «الكبار» ابتسمتا بأدب، ولكوني شعرتُ أنّني مسؤولةٌ عن التصرّفات الصاخبة لزميلتيّ في السكن، بدأتُ أرجوهما بشكلٍ فاتر أن تتوقّفا. ولكن كانت ثمة أُخريات تشجّعنَ بزميلات سكني. انزلقتِ الفتيات اللائي وصلن قبلنا من على الأرائك، لينضممن إليهما. كانت كلّ واحدةٍ منهنّ ترتدي كعباً عالياً (بغضّ النظر عن طول الفتاة، الكعب العالي موجودٌ دائماً)، بعض الكعوب نحيفٌ ومُستدقّ الرأس، وبعضها الآخر ثخيناً كالقرميد. سحبتِ الفتياتُ بالوناً، وحالما أصبح قريباً بما فيه الكفاية، قفزن عالياً بما تسمح به السلامة في الكعوب الثقيلة، وضربنه مراتٍ عدة، قبل أن يعود سابحاً باتجاه السقف. صفّقت بيديّ لجذب الانتباه، لكنّ صوت ارتطام الأقدام بالأرض والضرب على البالون استمرّ، وكذلك

الصرخات والضحكات. استدرتُ نحو «الكبار» براحاتٍ مفتوحة، وهززتُ كتفيّ قائلةً: «في النهاية، إنّها حفلة».

«تعنين إنّها حديقة حيوان»، قالت نوال.

«ما أُريد معرفته، يا مريم»، قالت بثينة، «هو كيف أنّ شابةً مثلك، حساسة ومُتزنة من عائلةٍ بارزة، استطاعت أن تحتفظ بقواها العقلية، في وقتٍ كانت هاتان الاثنتان حولها طوال الوقت». توقفتْ لبرهةٍ لتنظر إلى تامي التي كانت تُقدّم عرضاً من خلال سماحها لعباءتها أن تنزلق من على كتفيها. كانت ساقاها ملفوفتين «بجينزٍ» ضيّق. وبينما كانت العباءة تتزحلقُ نحو الأسفل، وضعَتْها تحت قدمها، وبلفّةٍ رائعة، كوّرتها على شكل كرة، وركلتها في الهواء. أخذت الفتيات يُصفّقن، ورفعت تامي ذراعيها، بطلةٍ في بلوزة تحتضن جسدها وتتلألأ بالترترات الذهبية وترتفع إلى ما فوق سرّتها.

ضحكتُ ضحكةً خافتة. «أعتقد أنّهنّ مسلّيات، وصغيرات».

«لسن بذلك الصِغر»، قالت نوال السريعة الغضب، وأخذت تعبّ الهواء من خلال أسنانها، وكأنّها تتألّم. «انظري إليها، إنّها تظنّ أنّها في الملهى الليلي».

«كما قالت مريم، إنّها حفلة». نبرة بثينة أسكتت زميلتها في السكن.«والحفلة يجب أن تحتوي على القليل من الصخب والضحك». قطّبت نوال جبينها، لكنّ بثينة لم تكترث.«تعالي»،

خاطبتني. «يجب أن أتفقّد الطعام». طوت ذراعاً حول وسطي وقادتني نحو المطبخ. رفعت الغطاء عن كلّ واحدةٍ من القدور الأربع، والتي كانت لا تزال تسخن على الموقد، وتراجعت خطوة إلى الخلف لتتجنّب غيمة البخار التي كانت تخرج. أزاحت خادمتها ما استطاعت من على نُضد المطبخ، والتي كانت تغصّ بالطعام الذي جلبته الفتيات الأُخريات. على واحدةٍ من النُضد، وبالقرب من قدر الملوخية الخاصة بي، تمّ وضع صنفين من الأطباق المصرية المفضّلة: كسرولة من المعكرونة بصلصة البيشاميل، وطبق من اللحم والبطاطا والطماطم المطبقة. وعلى النُضد الأخرى، كانت تقبع التحليات: زبدية قليلة العمق من الكريم كراميل، وأخرى تحوي رز باللبن، وقدر مغلقة، خمّنتُ أنها تحوي اللقيمات، وهي حلوى لقمة القاضي الإماراتية الهشة المغموسة في بركةٍ من عُصارة التمر الكثيفة.

«أنا متأكدة أنّك مؤدّبة ووفية فقط»، تابعت بثينة. «وهو أمرٌ مفهوم بالنظر إلى نشأتك الراقية». غمزتني بعينها، ما جعلني غير متأكدة ممّا إذا كانت جادّةً في ما قالته. «لكنّ الأمر لا يتطلّب عبقريّاً ليدرك أنّهنّ يفقدنك صوابك بسخافتهنّ المتواصلة».

ابتسمتُ ابتسامةً عريضة. «هذا ما يفعلنه».

ضحكت بثينة بفتور، واغترفت ملء ملعقةٍ من الحساء الساخن، ورفعتها إلى شفتيها. أسرعت الخادمة إلى جانبها وهي تحمل اسفنجةً بيدها، وانبهرتُ بالطريقة التي تمّ تدريبها بها.

فعلى عكس نعيمة، جرى تدريب هذه الخادمة لتتوقّع حدوث الانسكابات على الأرض.

أنا أُجِلّ بثينة، للطريقة التي نظّمت بها حياتها، حيث إنّها- ولفترةٍ طويلة- التزمت طريق الانضباط والاستقلالية. بعد أن تُنهي دراساتها ستعود لتُدَرِّس في الجامعة. أتخيّلها تُدرِّس ليس فقط ما هو موجود في الكتب، بل أيضاً لفيفاً من دروس الحياة القيّمة.

«مممم». كانت آهة بُثينة تبدو كأنّها ملأى بالتقدير لكلّ نعمةٍ في الحياة. عندما استدارت وابتسمت لي، فكّرتُ أنه لو كان لديّ أمّ، فأنا أُحبّها أن تكون مُنظّمة وبارعة تماماً مثل بثينة. توقفت بُثينة عند القِدر الثانية، وبعدما تذوقتْ محتوياتها، كانت دقيقةً جداً في وصف ما ينقصها، لدرجة أنّي بدأت أُصاب بالقلق حول طعم ملوخيتي. ماذا لو لم تنل رضاها؟ وضعت اللوم على استهتاري، لقد نسيتُ أن أتأكد أنّ اللون كان غنياً، حيث إنّه يجب أن يكون عميق الاخضرار، أو أنّ الماء مفصول عن الأوراق المفرومة ناعماً. ثمة اختبارٌ أساسيّ يُحدّد الملوخية الجيّدة؛ ولاستعجالي إعداد كلّ شيء في وقته، نسيت أن أقوم بذلك الاختبار.

وكأنّها كانت تقرأ أفكاري، خطت بثينة باتجاه قِدري. غرفت مقدار ملعقةٍ ورفعته للتقييم. أومأت برأسها عندما سقط المزيج اللزج على شكل خيطٍ مستقيم مستمرّ بدون انقطاع - وهي علامةٌ على أنّ ملوخيتي قد اجتازت الاختبار - واستدارت عائدةً إلى الموقد.

«مريم، هل تعلمين أنّنا- جنس النساء- منذ أوّل شقهةٍ لنا، نُعدّ تعيسات». قالت بثينة وهي تختبر الكاري في القِدر الثالثة وتنقر بلسانها.«ليمون، أعتقد، و...» توقفت بثينة لبرهة وهي تفكّر ما هو الشيء الآخر المفقود.«نعم!» رشّة كمّون وثلاث عصرات من الليمون لاحقاً، ثمّ انتقلت إلى القِدر الرابعة.«هذه هي المأساة في طول العالم العربي. من اللحظة التي نبدأ نُدرك فيها ماهية الحياة حولنا، يُخبروننا أنّنا الجنس الأضعف، وأنّنا لا نستطيع أن نفعل شيئاً بأنفسنا، وأنّنا يجب أن نعتمد على الرجال – سواء أكانوا آباءنا، إخوتنا، أم أزواجنا – ليقودونا كالأغنام. ولكن توجد طريقةٌ لتجنّب هذا الأمر: من خلال استخدام ما يوجد هنا». ونقرت على صدغها بيدها الفارغة.«في النهاية، العقل هو ثروة وجودنا، الجزء فينا الذي يجب أن يُستحثّ ويُطَوَّر في كلّ يوم من أيّام وجودنا».

ليس هذا بالموضوع الذي يُلطّف مزاج حفلة، بل هو على تناقضٍ حادّ مع الضجّة في غرفة الجلوس. قامت إحداهنّ بتغيير مسجّل الكاسيت، وأخذ صوت المطرب الكويتي نبيل شعيل الرقيق يصدح صافياً ونقياً، وناعماً كالزبدة. كان هذا كافياً لوضع حدٍّ للدردشة. وعندما ينحسر الصوت، كانت الفتيات يتذمّرن.

«استمعي إليهنّ»، قالت بثينة وهي تضحك.«ستظنّين أنّه كان في الغرفة معهنّ».

عادت إلى ملوخيتي وأخذت تحرّكها، بينما كانت تسألني عن عائلتي، وهو ما أجبتها عنه بإجاباتٍ عامة.»«كما تعلمين، يقول

الناس إنّ والدك كان يتمتّع بلطفٍ من نوعٍ خاص، وهي ميزةٌ نادرة جعلت منه محبوباً من الجميع». لم تنتظرني لأؤكّد لها ذلك. يُمكنني القول إنّها التقطت ذلك في عينيّ اللتين أخذتا ترمشان وكأنّهما تغسلان هدباً عنيداً. «يقولون، أيضاً، إنّه كان رجلاً تقدّمياً في آرائه. يا للخسارة، أنّه سُلِبَ منك في وقتٍ مبكر من سنوات حياتك».

«الحمد لله على كثير نعمائه»، قُلتُ وأنا مغمورةٌ بالتقدير لهذه الفتاة التي بدت كأنّها تفهمني جيداً. أتمنّى لو كانت لديّ أختٌ مثلها: ذكية وخبيرة بشؤون الحياة، ولا تتأثر بما قد يظنّه المجتمع. لقد وضعها موقفها بمعزلٍ عن بقية فتيات السكن.

أيّة سَكينة سأتحصّل عليها لو تحدّثتُ مع بثينة حول عادل، وكيف يجعلني أشعر مثل جروٍ يُطارد ذيله. عليّ أن أُقِرّ أنّه- بالرغم من أنّني أُقَدِّر مودتّه تجاهي – وهي إيماءةٌ تدلّ على أنّه بات يعتبرني شريكة حياته المستقبلية – فأنا أفتقد جسارته التي اختفت. أحياناً، وعندما أكون معه، أتوق لنغزات الكهرباء التي اعتادت أن تسري في طول أوصالي، مثلما حدثَ عندما مرّرَ أصابعه على طول خدّي في نادي الطلبة. مؤخراً، بدأتُ أُشجّعه. عندما نجلس جنباً إلى جنب، أخذتُ أسمحُ لكتفي بالانحناء نحوه، مثل برعمٍ يتوق إلى ضوء الشمس. وعندما أكون أمامه، يُمكن أن تصطدمَ قدمي مصادفةً بقدمه، على أمل أن يقوم هو بأخذ مُبادرةٍ ما، مثل النقر على فخذي أو إمساك يدي؛ لكنّه لا يفعل ذلك، وبعدها أشعر أنّني حمقاء. لو أخبرتُ بثينة فجأةً أنّ

الأمر يُثير الجنون أن يكون لديك رجلٌ تحبّينه ويُبدي الكثير.. الكثير من الاحترام، فكيف ستتصرّفين حينها؟ أنا متأكدة أنّها ستتفهّم؛ لا شك في أنّها أحبّت أحداً ما في مرحلةٍ من حياتها.

تخيّلتُ أنّ بثينة أُختي. كانت ستقف إلى جانبي وتعطيني الثقة، خلال تلك السنوات المصيرية، عندما كنت أكبر في منزلٍ لم يكُنْ أبداً بيتاً. «إذاً ما الذي نستطيع أن نفعله، أعني نحن النساء، لنصبح أكثر، أ... لنصبح أكثر...» توقفتُ لبرهة كي أجد الكلمة المناسبة التي أعنيها، الخاصية التي ستُساعدني في مواجهة عمّي ذي العقل القاسي، والتي ستجعلني أتألّق عندما أكون مع عادل. كيف يُمكن لشخصٍ أن يُصلِحَ قَدَراً اختُطِفَ منه دون إذن؟..«... أقوى؟»

«تعنينَ توكيد الذات والكفاءة؟ مريم، مريم.. يا مريم، يحتاج هذا الأمر إلى جلسةٍ مناسبة. يُمكن أحياناً أن نتحدّث على انفراد، وأن نحتسي الشاي معاً، ونناقش كلّ المواضيع. حبيبتي، أنت تعرفين أنّه يُمكنك أن تُخبريني بكلّ شيء، أليس كذلك».

إنّه بوحٌ، وأومأتُ برأسي، لأنّها على حقّ: هذا ليس الوضع الصحيح لجلسة حوار مناسبة. كانت مشغولة بإضافة النكهات الأخيرة لأطباقها، وضيوفها يُحدِثون ضجّةً أكثر من اللازم في غرفة الجلوس. بدأن الآن بالغناء مع نبيل شعيل، بأصواتٍ أعلى من صوته، لكنّهنّ أخفقن في الوصول إلى النغمات العالية التي تسمح له موهبته بإظهارها. كُنّ كهُريراتٍ تموء وهي عالقةٌ في سفينةٍ تغرق. لقد حان الوقت لأعاود الانضمام إليهنّ.

اتكأتُ على الجدار في غرفة الجلوس، وأخذتُ أُراقب الفتيات وهُنّ يرقصن على الإيقاع المسترسل لأغنية محمد عبدو «أنا حبيبي». كانت الخطوات بسيطةً بشكلٍ خادع: كانت الرقصة تنضحُ إيحاءاتٍ وحرّيةً ترفع الروح. يكمُن الأمر في اليد اللطيفة المرفوعة، في استدارة الأصابع فوق الرأس مباشرةً، وكأنّها تقطرُ بعض البودرة السحرية. يكمنُ الأمر في الأوراك التي ترتفع وتنخفض مثل موجاتٍ لطيفة، والأكتاف التي تختلج وكأنّها تستجيب لبردٍ قارس يجري في العمود الفقري. يكمنُ الأمر في الحركات اللبقة لعضلات الرقبة. فجأةً، وبسرعة الصاعقة، يتذبذب الرأس وهو يُرسل أمواجاً من الشعر البرّاق، بينما تستقرّ اليد على الصدر، وكأنها تُثَبِّتُ قاطع طريق هارباً من خفقة القلب. هذا العرض ليس استرسالاً مجنوناً. إنّه انفجارٌ للطاقة، ولكن بشكلٍ مُحقّق ومضبوط. وإذا ما زاد الأمر عن ذلك، يصبح سوقياً. يوجد تصاعدٌ مضبوط من الحماسة في كلّ مراحل الرقصة.

أبصرتني تامي وجرّتني إلى وسط المجموعة. وحتى في غرفةٍ مليئة بفتياتٍ مُنهمكات بأفكارهنّ الخاصة، شعرتُ بالخجل بينما كنتُ أستقدِمَ مُكوّناً أساسياً للرقص بشكلٍ جذاب: الإيحاءات. تخيّلتُ دلال ومقدرتها على تحريك مُختلف أجزاء جسمها، كُلٍّ على حِدة، مع تأثيرٍ من التناسق العام، في الوقت نفسه. تخيلتُ عادل ينظر إليها بينما كنتُ أحاول تقليدها. لكنّ حركاتي كانت خرقاء، وبدأت مفاصلي بعمل احتجاجات قرقعةٍ مُتقطّعة. وبينما

كانت الأغنية تقترب من نهايتها، قرّرتُ أنّه يجب ألا يراني عادل أبداً وأنا أرقص. لقد كنتُ سمجةً، كبطريقٍ يتمايلُ على الثلج.

أطفأت نوال المسجّل وصفّقت بيديها لاسترعاء الانتباه. «الطعام جاهزٌ تقريباً! لذلك اجلسن وارتحن قليلاً». وبينما كانت تُصدر حفيفاً من ثوبها، أخذت تُشير إلى الكراسي والأرائك الفارغة. «هذا صحيح، منى، يُمكنك الجلوس هناك. وأنتِ يا العنود، تماماً بجانبها». أخذت تقود مجموعة الفتيات نحو الزاوية.

حشرت تامي نفسها بجانبي على الأريكة.«طبيعتها تعكير المزاج!» سمحت تامي لهسيس الهواء بالمرور عبر أسنانها. «في الحقيقة، كنتُ سأمشي الآن، لو لم أكُنْ جائعة. في هذه اللحظة!» جعل هذا الفتيات يضحكن، وبدأن بالدردشة. كان ثمة حديثٌ خفيف عن الامتحانات القادمة. ثم شرعت واحدةٌ منهنّ- وكانت ستعود قريباً إلى دبي لتتزوج ابن عمّها- بتقديم وصفٍ مُسهب عن فستان زفافها. أطلق هذا ألسنة الفتيات اللواتي أخذن يُثرثرن بحماسةٍ عن رؤيتهنّ لاحتفالات زواجهنّ في المستقبل. واحدةٌ أخذت تصف الأضواء الرومانسية ولون الورود على الطاولات. بينما ركزت أُخرى على الكوشة- الحلم، حيث ستكون هناك تنتظر عريسها. إنّه موضوعٌ مُحبّب، وانحنت تامي فوقي، بحيث يُمكنها الانضمام إلى الحديث.

انسلّت نوال من الجانب الآخر للغرفة، وجلست وسطنا، مُرتاحةً كدجاجةٍ تجلس فوق بيضها. لبضع دقائق، كانت تومئ

برأسها لهُنّ. ثمّ- وعند أوّل توقّفٍ مناسب- شنّت خطاباً نارياً عن رعونة المجتمع العربيّ، من خلال التركيز بشكلٍ كبير على موضوع الزواج وتبعاته. أخذت تُعدّد قائمةً بكلّ العللِ الممكنة: ارتفاع تكلفة الحفل، مطالب أهل العروس المتمثّلة في الهدايا الباهظة والنقود، وهو الأمر الذي يُجبر الشاب على أخذ القروض وبدء حياته تحت وطأة ديونٍ فاحشة.»وبالطبع، لا تنسينّ مُعدّل الطلاق، إنّه يرتفع إلى الأعلى يوماً بعد يوم».

وسواء بدافع الكياسة أم الحياء، أخذت بقية الفتيات بالاستماع إليها، لكنهنّ لم يُبدين أيّ جُهدٍ لاخفاء الكآبة على وجوههنّ. ظهرت بثينة من المطبخ مع خادمتها، وشرعت في ترتيب مُختلف صحون وصِحاف الطعام على طاولة الطعام.

«نعم، الطلاق»، تابعت نوال. «تذكّرن هذه الكلمة. أنا متأكدة أنّ الفتى المسكين لن ينساها، لأنّ كلّ الأموال التي أنفقها على الزواج ذهبت سُدىً». ضحكت نوال بشكلٍ خافت.»انظرن إلى أنفسكُنّ، عيونكنّ يلفّها ضباب الأوهام».

أردتُ أن أخبرها أنّ الحلم شيءٌ جميل، تكتيكٌ للاستمرار في الحياة. في السنوات التي تلت وفاة أبي، كنتُ أنطوي على نفسي في العديد من زوايا منزل عمّي ماجد، وأترك لعقلي حرّية التطواف، على أمل أن أجد مكاناً آمناً تَسود فيه العدالة والوئام. وحتى في الوقت الحاضر، فأنا أُرفرف بأحلامٍ تُصوغ المستقبل،

مع الرجل الذي أُحِبّ. داخل مُخيّلة المرء، كُلّ شيء مُمكن. ثمة حرّية للاحتفاء بطموحاتٍ حماسية تكون جريئةً جداً لأن تُقال على الملأ أو أن يُعمل بها.

أمالت نوال برأسها جانباً، وأخذت تُركّز على الفتيات، الواحدة بعد الأُخرى، وكأنّها تُريد أن تتأكّد أنّها قد بَدّدت كلّ روحٍ تختلج داخلهنّ، قبل أن تُطلق ابتسامة انتصارٍ عريضة.«انظرنَ إليّ»، وضربت على صدرها.«هل أبدو كأنّني أحتاج إلى زوج؟»

كنتُ على وشك أن أُعرض عن هذا الموضوع برُمّته، لكنّ رؤية وجوه الفتيات طويلةً وشاحبة كثمار المانجو المتيبّسة، دفعتني إلى القول: «لعلّك لا تحتاجين. لكنّ هذا لا يعني أنّ كلّ شخصٍ آخر يرغب فيما ترغبين به». ذُهِلتُ كيف بدا صوتي هادئاً. «أنتِ مُحقّةٌ في إشارتك إلى وجود الكثير من السلبيات. لكنّك بالتأكيد لا تقولين أنّه يجب على الفتاة أن تمتنع عن الزواج».

نخرَتْ نوال: «أنا أقول إنّه ليس حلاً لجلب السعادة».

«ليس دائماً»، قُلتُ، بينما كانت تامي تقرص فخذي لتحثّني على المتابعة.«لكنّه، في أحايين كثيرة، يكون هو الحلّ. سواء أحببنا ذلك أم لم نُحبّ، الزواج يجلب الأمن».

«المسؤولية»، أضافت إحدى الفتيات.

«الأطفال».

«مُشاركة الحياة»، قُلتُ، وأومأتِ الفتياتُ برأسهنّ. «بالإضافة إلى ذلك، مَن يستطيع أن يُقرّر ما هو الحلّ لجلب السعادة؟ هذا يعتمد على الشخص نفسه».

«نعم»، قالت تامي من غير تفكير. «والآن، ما سيجعلني سعيدةً للغاية هو أن أنهض وأرقص».

بقيت نوال مُركّزةً عليّ. «كلامك سليم أيّتها الفيلسوفة، ألستِ فيلسوفة، يا مريم؟ رمشت بعينها دلالة على غيضها. «لكنّكِ ما زلتِ شابة، وخبرتك محدودة. يُمكننا- عندما تكبرين- أن نُناقش هذا الأمر باستفاضةٍ أكبر».

«لا أعتقد أنّنا سنكون أبداً قادرتين على خوض نقاشٍ ملائم، يا نوال، لأنّك تهتمّين فقط بفرض وجهات نظرك على الآخرين».

فتحت نوال فمها، إنّما لم يخرج منه أيّ شيء.

سرت الشجاعة فيّ لإسكات نوال، عبر كامل عظامي. وقفتُ على قدميّ بينما كانت بثينة تُعلن عن وصول الغداء. للمرّة الأولى، وضعتُ سلوكي الاجتماعيّ جانباً: وعوضاً عن الانتظار، سرتُ باتجاه بثينة وتناولتُ منها أوّل طبقٍ مدّت يدها به.

24

دلال

«انظري إلى نفسك. انظري إلى الطريقة التي يلتفّ بها خصرك. لماذا لديك أهلّةٌ على كلا الجانبين». كنتُ أتكلّم مع مرآة الخزانة، بينما أعرب عن إعجابي بالثوب الجديد الذي أرتديه. كنتُ أتكلّم مع انعكاسي، لأنه لا يوجد أحدٌ آخر أتكلّم معه، لأنّ مدام نيفين قالت إنّه من غير الصحّي للموهبة أن تكون في جوٍّ مُكمّم، والأهمّ من ذلك، أن أطرد الشعور بعدم الثقة بالنفس الذي ينتابني عندما أكون في الشقّة مع أمّي.

كانت أمّي تتجاهلني، حتى عندما نكون في الغرفة نفسها. في البداية، كنتُ مُبتهجةً، مُقتنعةً أنّها فهمت أخيراً كم كنتُ مُحبطةً، كون الجميع يتحكم بي. ظننتُ أنّها ستستاء لفترةٍ قصيرة، ثمّ تتعافى من الموضوع، ولكن مضى أكثر من ثلاثة أسابيع. ومع مرور كلّ يوم، كان قرارها يزداد تصلّباً. كانت أمّي تجوب أنحاء الشقّة وكأنّني غير موجودة. كانت تنظر إليّ وكأنّني صرصار.

«ووجهها، انظروا إلى ذلك الوجه، جِدّ مُتألّق، عميق التفكير، وناضج». ضربتُ فخذيّ ونهضت. عندما فتحتُ باب غرفة النوم، رأيتُ أمّي تمشي باتجاه المطبخ. لمعت في رأسي فكرةٌ

استحوذت عليّ، أن أسدَّ طريقها. لم يندُ عنها أيّ دهشةٍ نتيجة جلافتي، وتهيّأ لي أنها ستمرّ من خلالي.«هل تحبّين هذا اللون البنفسجيّ عليّ، يا ماما؟»

كان وجهها شاحباً، مُنبسطاً، وفارغاً كصحيفةٍ ورقيّة. وضعتْ يديها أمام صدرها وكأنّها تشعر بالملل، ثمّ أجالت ببصرها فوق كامل طولي. ومع شعوري بأنّني حمقاء وتافهة، أدركتُ أنّني لن أتلقّى أيّ إطراءات، وأنّه- على الأغلب- يتوجّب عليّ أن أتنحّى عن طريقها، لكنّني حاولتُ مرّةً أُخرى: «إلى متى ستبقين صامتة، تتصرّفين وكأنّي قطعة أثاث؟» أطلقت أمّي نخرةً عنيفة – شبيهة بصوت التحذير الذي تطلقه معزاةٌ هائجة – في اللحظة التي سمعنا فيها صوت جرّ أقدامٍ خارج الشقّة، مع خبطةٍ حادّة.

بالرغم من أنّنا رأينا الشيء نفسه عندما فتحنا الباب، كان ردّ فعلنا مختلفاً. وقفتُ متجمدةً مثل مُكعّب جليد بعيونٍ متورّمة، بينما كانت أمّي ترتجف بشكلٍ واضح. سمعتُ الأبواب تُفتَح، وجاراتنا يتلصصن ويضحكن، لكنّ عينيّ بقيتا مُسمّرتين على «ماما». كانت تهتزّ، ويداها ترتجفان.

كان الحُثالة الذين ألقوا بكومة النفايات العفنة أمام باب منزلنا يتدافعون هابطين الدرج، تاركين وراءهم أصداء ضحكاتهم الساخرة. لو أنّني اندفعتُ إلى الشرفة، لتمكّنت على الأرجح من أن أصرخ، صابّةً اللعنات عليهم قبل أن يهربوا إلى نهاية الشارع. لكنّي فضّلتُ البقاء بجانب أمّي.

إنّها في محنة. هي تحتاجني. ثبّتتْ نفسها مقابل الجدار، ورفعت يداً إلى وجهها. كانت عيناها مسحوقتين بشدّة من الكرب. أمّي المسكينة، تبدو هشّةً للغاية. اندفعتُ لأجد كرسيّاً ووضعته بجانبها. وعندما لم تجلس، ربتُّ على كتفها لأجذب انتباهها. استراحت أمّي في الكرسي بينما كانت تُخبّئ عيونها عنّي. لقد حرّكت مشاعري، إنّها لا تريدني أن أرى ضعفها.

ركعتُ أمامها وأمسكتُ بيدها الفارغة. لم أكُنْ متأكدةً ما إذا كانت رائحة النتانة أو حبّ الابنة الحقيقي هو الذي تسبّب في اخضلال عينيّ. وبأناةٍ، وضعتُ رأسي في حجرها، وبقيتُ هناك، أتنشّق رائحة «النيفيا» والنتن.

انتظرتُ؛ انتظرتُها لتربّت على رأسي.

انتظرتُ؛ انتظرتُ أصابعها لتنساب خلال ضفائري.

ما أتى كان أمراً بالنهوض وتنظيف الفوضى.

كانت ثمة أكياسٌ ورقية بنّية استحالت مبلّلة نتيجة قشور البطاطا ولبّ الكوسا، والمرق القديم، وأوراق الشاي المغليّة، وعيدان قصب السكّر الممضوغة ملياً، لدرجة أنّها تحوّلت إلى ما يشبه كُتل القشّ القذر. بقيتُ عند الأطراف، منحنيةً بعنايةٍ فوق الكومة، بحيث لا أُدنّس ثوبي الجديد. استخدمتُ قطعتين مربّعتين من الكرتون لأكشط النفايات إلى السطل.

كنتُ أعرف أنّه يتوجب عليّ أن أنهي المهمّة الحقيرة بسرعة، لكنّ يديّ كانتا تتحرّكان ببطء، بينما كان عقلي يُعالج ما حدثَ للتوّ. لماذا أطعتُها؟ لماذا لم أرفض؟ لماذا لم أُخبرْها أنّها هي المقصودة بهذه النفايات؟ إنّه عملٌ قام به المجتمع الذي سبّبت له الألم. لا بد أنّ هذا الخبز البائِت من فرن «متولي»، وهذه الطماطم العفنة من بقالة «شحاتة»، إنّها كلّها من أُناسٍ غاضبين لعبَتْ هي بمشاعرهم، وكانوا ينظرون إلينا شزراً كلّما مررنا من أمام متاجرهم. يجب عليها أن تعرف أنّ الجيران قد جمّعوا نفاياتهم لإرسال رسالةٍ لها، مفادها أنّها هي أيضاً نفاية.

قِطّةٌ مرضع، كانت حلمات أثدائها تتدلّى كأكياسٍ فارغة تحت هيكلها الضامر، تنسلُّ صاعدةً وتموء بصوتٍ كالبُكاء، مُعلنةً عن وجودها. رميتُ إليها ريشةً من اللحم الممضوغ. وبينما كانت تلتهمه، أدركتُ أنّه قد أتى بالتأكيد من «عبدو» الجزار.

تهت في أفكاري لدرجة أنّي لم ألحظ أنّني قد غرقتُ حتّى ركبتيّ. كانت ثمة قطراتٌ من السائل النتن رسمت خطوطاً على ثوبي، ونوعٌ غير معروف من الروث قد تصلّب، مثل جدولٍ جافّ، على طول الوريد الأزرق لذراعي من الداخل. «مُقرِف!» كان صوتي بقوّة مدفع، لدرجة أنّه أفزع القطّة التي اندفعت هابطة الدرج.

كانت أمّي في المطبخ، بجانب الموقد، تنتظر بعض القهوة التركيّة كي تغلي. «حسناً»، قالت موجهةً نظرةً باردة إلى السطل

الطافح المتدلّي من يدي،«هل هذا كلّه؟» ضاعت تقطيبة وجهي عليها. استدارت بعيداً وأخذت تُحرّك الغلاية على النار، ثمّ روّضت السائل الصاعد بالملعقة.«أحضري بعض الماء والصابون وامسحي الأرض للتخلّص من الرائحة».

«مُقززة للنفس».

«بالطبع هي كذلك، إنّها نفايات، أليس كذلك؟»

أخذتُ أُحدِّقُ ببلاهةٍ إلى فنجان القهوة الصغير، ذي اللون الأبيض والمطوّق ببراعم لطيفة ذات لونٍ أزرق باهت، يستقرّ جاهزاً في طبقه على طاولة المطبخ. حتى أنّها لم تتساءل ما إذا كنتُ أريد بعض القهوة، وهو ما جعل حنجرتي تستحيل جافّةً من الألم. لقد وصل الأمر إلى أقصى حدود استطاعتي. «ليست الزبالة، يا ماما» سعلتُ، ومع أنّ نُعاب الضفدع بقي في حنجرتي، تابعت: «بل أنتِ».

«ما هذا الذي تقولينه؟»

«أنتِ، يا ماما. لقد استغلّيتِ كلّ شخصٍ في الجوار، وهم يُكنّون لك الكُره الآن. تلك النفايات هناك، وهنا...» وأخذتُ ألوّح بالسطل، وقطع أوراق الجريدة المخضّلة بالماء تسقط على الأرض.«... لم يُكنْ من المفترض أن يكون أنا من ينظّفها. أنتِ المقصودة بهذا الأمر. إنهّم يريدونك أنتِ خارج الحارة!»

«وما همّي إذا كانوا يريدونني داخل أو خارج الحارة؟» ضربت الغلاية على الطاولة، وانسكب السائل الأسود على الحوافّ مثل الطين. «وأيّ لسانٍ هذا الذي استطال ليُصبح أطول من الأفعى؟ هل تصفين نفسك بأنّك ابنتي؟ أنا لم أربّكِ لتتحدّثي معي بهذه الطريقة. لا تظنّي أنّه بإمكانك أن تتواقحي معي وتنجين بسلام».

حينها كان عليّ أن أنسحب، وحتى أعتذر. كان يجب أن أكتفي بإذابة ذلك السطح الخارجيّ الجليديّ الذي دام طويلاً لأشعر بحرارة بعض العاطفة الصادقة. البنات لا يصرخن على أمهاتهنّ أبداً بهذه الطريقة – وأنا لم أفعل ذلك مُسبقاً – بغضّ النظر عن مدى ديكتاتورية الأمّ. هذا أمرٌ لا يمكن تخيّله، حتى في أجرأ مشاهد المشاحنات في الدراما التلفزيونية. لكنّ رؤية فنجان القهوة الوحيد منعني من العودة إلى حظيرة الخضوع.«لقد عانت هذه الابنة بما يكفي!» رميتُ بالسطل على الأرض.«أنت تُثيرين اشمئزازي».

❋ ❋ ❋

جالسةً القُرفصاء في حوض الاستحمام، أخذتُ أفركُ مثل امرأةٍ مجنونة. فركتُ حتى أحالت الليفة جلدي إلى اللون الورديّ. كانت ثمة فكرةٌ واحدة في رأسي: أن أغادر هذه الشقّة، وأن أبتعد عن أمّي.

طرقتْ على باب الحمام المقفول، ونعتتني بالحيوانة الجحودة. أغلقتُ أُذنيّ، إنما لا يزال بإمكاني سماعها تسأل

السموات لماذا كُتِبَ عليها أن تشقى بالحصول على ابنةٍ مثلي. ثمّ توقف الطرق، وانحنيتُ تحت الصنبور، فشعرتُ أنّي ضعيفةٌ كأرنب، وأنا أحاول مسرعةً أن أشطف الصابون.

تخيّلتُ أنّي سأكون أفضل حالما أغادر الشقّة، ولكن- بعدما أصبحتُ في الخارج- كنتُ لا أزال أشعر بالغضب والإحباط اللذين لم أستطع أن أتخلّص منهما. كانت القطّة تلعقُ بقايا النفايات على الباب. ركلتها. أخطأتها.

كنتُ أرتدي كنزةً مُزْهرة مع باقةٍ من الكشاكش تتقوّس حول صدري. في الشارع، ضربت هبّةٌ من الريح تلك الكشاكش على وجهي. أوّل شخصٍ رأيته كان واحداً من جواسيس أبي، يتدرّب على ضربات الرأس بكرةٍ نصف منفوخة. وبعد وثباتٍ عدّة، كان ينفّذ ضربةً رأسية ممتازة، ومن مكانٍ عميق في حنجرته، يُخرج ضجيج أصوات تشجيع الحشود له.

ناديته. «يا واد، تعال هنا!»

هزّ رأسه، وارتدّت الكرة من على أنفه، قبل أن تسقط على الأرض. أخذ يبحث في كامل الشارع، ينظر في كلّ مكان ما عدا في اتجاهي. من الواضح أنّ هذا الجاسوس لم يتمّ تدريبه كيف يجب أن يتصرّف في حال تمّ اكتشافه. «نعم. أنت». وعندما مشيتُ باتجاهه، أخذ يحاول أن يبدو مشغولاً بالبحث عن الكرة، مع أنّها لم تكن تبعد أكثر من بضع خطواتٍ عنه. «لديّ رسالة لك».

وضع يديه على صدره.«الواضح أنّك تخلطين بيني وبين شخصٍ آخر، يا ست». كان أطول منّي، حتى عندما كان رأسه مُتغضّناً على صدره. افترّ فمه عن ابتسامةٍ سخيفة اعتذارية، كنتُ أودّ لو أفركها عن وجهه بإسفنجة تنظيف.«أنا لا أعرفكِ».

سخرتُ منه، «أيّاً يكن ما تقول، لديّ رسالة لك لترسلها للبيه الكبير الذي يدفع لك لتُبقي عينك عليّ وعلى أمّي».

«أمّك؟» هزّ كتفيه وتابع التحديق في الأرض.

«نعم، تلك التي ما برحتَ تتبعها منذ وقتٍ طويل».

«أتبعها؟»

«هل أنت أصمّ؟» كان صوتي يُفرقع. نَكَصَ وأخذ يتراجع بأناةٍ، وهو ينظر حوله باحثاً عن أحدٍ ما، أيّ أحدٍ يُمكنه أن يُخبره ما الذي يتوجّب عليه فعله. لم يبدُ أنّ أحداً كان مهتمّاً. فجأةً أقلع بسرعة، وأخذ في الركض.«عُد إلى هنا»، ناديتهُ. نظرةٌ واحدة إلى تلك الأرجل الطويلة التي تركض باتجاه نهاية الشارع كانت كافيةً لتقنعني بعبثية محاولة اللحاق به، لكنّ ذلك لم يمنعني من الصراخ برسالتي عالياً: «هي ستتزوّج. نعم، أخبر أبي أنّ أمّي ستتزوّج مرّةً أُخرى!»

* * *

إنّها ليلةٌ حالكة. فيها قمرٌ مستدير كطبق، لكنّه يختبئ خلف رقعةٍ كثيفة من السديم. في الوقت الراهن، حلّت الأهرامات محلّه، كانت مُضاءةً عند القواعد، بينما ضاعت قممها في الظلمة.

خلال الرحلة، نفّستُ عن إحباطي. كان عادل يُبقي عينيه على الطريق وهو يستمع إليّ، مُقحماً بضع كلماتٍ ذات صلة، أو بين الحين والآخر مُطقطقاً بلسانه، للإعراب عن عدم التصديق. وحين كان حنقي يشتدّ، كان يفرك ذراعي أو يقرص خدّي على نحوٍ لعوب. وكما هي الحال دائماً، كنتُ أدفع يده بعيداً، بالرغم من أنّني أجد نفسي أبتسم. خفّفَ هذا الأمر من ألم كوني تافهةً في عينيْ أمّي. في كلّ مرة، كان الأمر يُخمدني مؤقّتاً، ولكن لدقيقةٍ واحدة فقط؛ وفي النهاية أبدأ ثانيةً، أُثرثر مثل إوزة هائجة. أبقيتُ بعض النُقاط لنفسي. لا يحتاج عادل لأن يعرف أنّني نزلت على ركبتيّ أكشط الزبالة. مُعظم حديث الرحلة كان حول أمّي، وكيف تعاملني كطفلة.

بعد الانتهاء من دفقي الكلاميّ، انتظرتُ بعض الراحة ليهدأ، وبشكلٍ سحريّ، نبض التبريح الذي أُعانيه. وعندما لم تأتِ هذه الراحة، أخذت نَفَساً ونظرتُ جانباً. ترك عادل الطريق الرئيس، وسلك طريقاً أضيق ووعراً، جرّاء حفر الطرق. تحوّل الطريق بعدها إلى الحصى والرمل. «إلى أين نحن ذاهبون؟»

«مكانٍ هادئ. أليس هذا ما أردتِه؟»

كان فكّي يؤلمني من كثرة الحديث.. صمتُّ وأنا أفكّر ما الذي جعلني أتصل به. تسكّعتُ على قدميّ عبر الشوارع، لما بدا وكأنّه ساعات، كنتُ أعبر الشوارع المزدحمة بالبشر، والسيارات، والعربات الهادرة المرفوعة على بغالٍ مُرهَقة الوجوه. كنتُ مُحمرّةً ومنقطعة النَفَس، بينما أحاول أن أقرّر ما الذي يتوجّب عليّ فعله. فكّرت في البداية أن أتصل بعزّة، لأنّها تسكن قريباً منّي، ولكن سرعان ما قرّرت أنّها جِدّ خرقاء وتافهة، ولن تكون قادرةً على إضافة الحصافة لما كنتُ أشعر به. الخيار الثاني كان التوجّه إلى شقّة مدام نيفين في «المهندسين»، لكنّني تخلّيتُ عن تلك الفكرة أيضاً. لن يُجدي الأمر أن أُثقل على مدام نيفين بمشاكلي الشخصية؛ ليس في هذه المرحلة المبكرة من شراكتنا، في أيّة حال. يُمكن أن تفقد تركيزها في المهمّة الأكثر أهميةً والمتمثلة في جعلي شهيرة. بعدها، ودون أن آخذ في الاعتبار أنّ مريم قد لا ترغب في التحدث إليّ، وجدتُ نفسي أوقِفُ سيارة أجرة لتقلّني إلى السكن.

وبينما كنتُ جالسةً في المقعد الخلفيّ، ارتحتُ جداً لفكرة رؤية مريم بعد كلّ هذا الوقت الطويل. وبالرغم من أنّها لم تقُلِ الكثير، كنتُ أعرف أنّها لم تُحبّ أمّي أبداً. ومع القليل من التشجيع، يُمكنني أن أحثّها على الكلام. في النهاية، ذلك ما كنت أودّ أن أسمعه: أحدهم ينتقد معاملة أمّي الوحشية والظالمة لي. ستُعدّ لي مريم كأساً من الكرك؛ تخيّلتها وهي تغلي أوراق الشاي

في الغلاية مع الحليب والسكّر، وتضع حبّةً أو اثنتين من الهال لذلك المزيج. ستقدّمه لي ساخناً جداً، وسأقوم بسكبه في صحن الفنجان والنفخ عليه. ستنظر إليّ وتتفهّم مُعاناتي. ستُريح يدها على ركبتي لتشدّ من عزيمتي. وإذا ما بكيتُ، فستفعلُ الشيء نفسه. ستجعلنا العاطفة المتبادلة نُعانق بعضنا ونبكي أكثر. أنا- ببساطة- أردتُ شخصاً يقف بجانبي، ليجعلني أشعر بالتحسن من جديد، ومريم هي من تستطيع أن تجعلني أشعر بالتحسن.

خرجتُ من سيارة الأجرة بينما أخذتْ مصابيح الشوارع في الإضاءة. لم أختبئ هذه المرّة خلف الأجمة أو أرمي حصىً على النافذة. مشيتُ مباشرةً إلى الداخل وسألتُ عنها. لم تكن موجودة.

وبينما كنتُ جالسةً في غرفة الانتظار في السكن، ضربتُ وهمهمتُ، كنحلةٍ مُضطربة محبوسة في مرطبان. سمعتُ نقاشاتٍ في البهو بين «الأبلة» والفتيات حول من يحتاج السيارة والسائق أكثر. بدا وكأنّ تلك المماحكات لن تنتهي، وفقدتُ صبري وانسللتُ لأنتظر مريم خارج المبنى، لكنّ خطواتي العصبية قادتني إلى الكشك، ومن هناك، اتصلت به. وبعد خمس عشرة دقيقة، وصل.«خذني بعيداً. خذني خارج المدينة». خرجت الكلمات من فمي حتى قبل أن أدخل إلى السيارة.

توقّفت السيارة الآن، ومع تنهيدةٍ عميقة، رجع عادل بمقعده إلى الوراء على المقعد.«هنا، اسمعي لذلك».

«ماذا؟»

«السكينة».

انحنى عادل وأنزل نافذتي ببطء. كان مرفقه يلامس فخذي. تثاقلت أجفاني.«نعم، السكينة»، أخذتُ أُتمتم، مُتسائلةً ما إذا كان ذلك سيكون هو العلاج الذي أحتاجه. هزّ عادل جسمه إلى الخلف، وأمسك بمقود السيارة. ظَهر القمر من خلف ستارته. وتحت وهجه المرمريّ البارد، استرقتُ نظرةً إلى يديه المربعتيْ الشكل، إلى الطريقة التي تبرز فيها عظام الرسغ كثيراً إلى الخارج، إلى الهضاب المتيبسة في براجمه. كان صدره يرتفع وينخفض. لاحظتُ أنّه كان يلهث.

الهواء ساكن. تعبق فيه رائحة القشّ المحروق وروث الخيول القادمة من بيوت المزارعين الذين يعيشون في الجيزة. التفكير بأنّ عادل قد تكبّد كلّ هذا العناء ليجلبني بسيارته إلى هنا، كلّ هذه المسافة، ترك في قلبي إحساساً دافئاً، بحيث يستطيع عقلي أن يستريح. ما هذا؟ نقطة عرق تتقاطر بين صدري. أعتقد أنّني أشعر بالحرّ بعض الشيء. زفرتُ نَفساً واختلجت كشكشاتُ بلوزتي مثل سرير الفراشات.

«إذاً، هل ترين الأهرامات هناك؟»

منحتُ نفسي ثانيةً واحدة لأنظر إليها من بعيد. ثم ثبّتُّ نظري عليه ثانيةً. كم هو جميل. كان يُحدّق إلى الأمام، شفتاه

مُنفرجتان وحاجباه متغضّنان مع بعض العاطفة القوية. كان يبدو كأنّه مستعدٌ للانخراط في أغنيةٍ حزينة. استدار ليواجهني. لا بدّ أن هذا ما يدعونه اللحظة السحرية: الطريقة التي ينظر بها إليّ، بتانيك العينين المليئتين بالحماسة القلقة... حسناً، هذا يستحثّ إحساساً تموّجياً داخل بطني، وكأنّه كان مليئاً بمليون سمكةٍ صغيرة تتراشق بالمياه.

اقشعرَّ جلدي عندما وضع يده حول عنقي. لم يكن شعوراً سيئاً، وأغمضتُ عينيّ. فقبلهما، وتسارع نبضي. «حبيبتي»، قال هامساً. ابتسمت، مع أنّي لم أكن أفكّر فيه. كان وجه أمّي هو ما يملأ عقلي: لو كان فقط بإمكانها أن تراني، جالسةً في وسط صحراءٍ واسعة وخالية، مع رجلٍ مشغولٍ بكلّ جزءٍ منّي. آه، يا ماما، لن أنتظرك بعد الآن لتتّخذي قراراتي عني. سأفعل ذلك بنفسي.

انحنى عادل في نصف المسافة بعيداً عن مقعده. كان مقبض فرامل اليد يعمل كحاجز، كانت تلك القطعة المعدنية تنخسه، مانعةً إيّاه من الاقتراب بشكلٍ مريح. كان هذا مناسباً لي، لأنّ جُلّ ما أُريده هو أن أشعر أنّني مرغوبة، وحتى ثمينة قليلاً: لفترةٍ قصيرة، لا شيء أكثر من ذلك.

يجب أن أطلب منه أن يوقف هذا الأمر مبكراً. وكما تعرف كلّ فتاة، يتوجّب عدم السماح لمثل هذه الأمور بأن تذهب بعيداً، خشية انتشار كلمةٍ عن هذا الأمر، فيُنظر إليها بالتالي على أنّها

سهلة المنال، أو ينتهي بها المطاف بسمعةٍ ملوّثة. لكنّ عادل كتوم – أنا متأكدةٌ من هذا – ونحن وحدنا هنا.. على ما أظنّ، كنت مستمتعة قليلا ومرتاحة للطريقة التي كانت أصابعه تسبح فيها خلال شعري.

اختفى القمر. حلّت الظلمة من جديد. كانت يده تتبع إيقاعاً، تنزلق صعوداً وهبوطاً حول خصري، قرّرتُ أنه قد حان الوقت لأخفّف من قبضته. نعم، يا أمّي، من الآن فصاعداً سأكون أنا المسؤولة عن حياتي.

فتحتُ فمي، لكنّي تمكّنتُ من التنفّس فقط، لأنّ مقعدي رجع إلى الخلف فجأةً. لقد أوقعني عادل في كمين. لا يُمكنني القول كيف تمكّن من التدحرج خارج مكانه الضيّق، لكنّه الآن فوقي، ثقيل..

تلوّيتُ وقلتُ له أنّ هذا يكفي، وطلبتُ منه أن يتوقّف.

«لا تخافي»، أخذ يُتمتم. «لا تقلقي».

حاولتُ التملّص من تحته، ولكن دون جدوى. «توقّف، الآن!»

«سأفعل، سأفعل». لكنّه لم يفعل.

كانت يداي مُثبتتين تحت ذقني كجناحَيْنِ مكسورين. وبجهدٍ جبّار، حرّرتهما بما يكفي لأصفع وجهه بشكلٍ ضعيف. ضحك ضحكةً خافتة. الأغلب أنّه ظنّها لعبة. رفع نفسه، وتحررت يداي

بما يكفي للتخطيط لصفعةٍ ثانية. أجبرته قوّة الصفعة هذه المرّة على التراجع للخلف.

كانت الظلمة حالكةً جداً لأرى وجهه، ولكن يُمكنني القول أنّه كان مشدوهاً، لأنّه تجمّد في مكانه، ثمّ انسحب إلى مقعده. فتح الباب ووقع على الحصى وهو يستشيط غضباً. «ما الذي دهاكِ؟» قال عادل وهو يمشي إلى الجانب الذي أجلس فيه من السيارة.

«طلبت منك أن تتوقف». أعدتُ مقعدي إلى الوضع العمودي.«أخبرتك، لكنك رفضت الاستماع».

«ما الذي يُمكنني قوله؟ أردتكِ بشدّة، بحيث لم أستطع ضبط نفسي».

«عيب عليك!»

«عيب عليّ؟»

«نعم».

انتظرتُ إجابته. استهزاؤه جلبَ ثانيةً عار الشعور بالضآلة. مشى مبتعداً. الجوّ حالك الظلمة، لدرجة أنّه يتعيّن عليّ أن أحزر ما الذي يفعله. سمعته ينفض الرمل عن ثيابه. كانت بعض أصوات التنفس العميق الطويل، تخيّلته يُغمض عينيه في هواء الليل. أخيراً، أخذتُ أسمع صوت خطواته الثقيلة يصبح أضعف.

لقد تركني في وسط المجهول. كانت لديّ تلك الفكرةُ المجنونة أن أقود السيارة بعيداً، مع أنّني لا أعرف قيادة السيارة. تفحصّتُ موضع التشغيل، ولكن لم تكن المفاتيح فيه، لذلك انتظرت، وأنا أتعذّب حول ما سيقوله أو يفعله عندما يعود. أخذت بعوضة تطنّ في مكانٍ حول وجهي، كأنّها كانت تتبع هالةً غير مرئية حول رأسي، فصفعتها. أصابني الملل، فأخذتُ أسوّي وأمسّد كشكشات قميصي بين أصابعي. لقد غاب لوقتٍ طويل، لدرجةٍ جعلتني أتساءل ما إذا كان يتجوّل بعيداً ليبول. وعندما عاد، قررتُ أنّ الشيء الوحيد والصحيح هو أن أعتذر له.

«لمَ أنتِ آسفة؟»

«لأنّني أغضبتك».

نخرَ.

«انظر، لقد أخذت الأمور منحىً بعيداً بعض الشيء. وأنا لا ألومك على ذلك. دعنا نتظاهر أنّ شيئاً من هذا لم يحدث، وحينها يُمكننا أن نعود صديقين من جديد، كما كنا من قبل».

«من قبل؟ دلال، لقد كُنتِ تتلاعبين بي».

«هاه»؟

«كلّ هذا الوقت، كُنتِ تعطينني إشاراتٍ بأنّك ترغبين بي».

ربما أنا قُدته إلى ذلك. «لا تتكلّم بمثل هذه التُرّهات».

«إنّها ليست تُرّهات. إنّها ما تستمتع النساء أمثالك بفعله».

لم أفهم تماماً ما الذي كان يعنيه.

«هيا، افتحي عينيك! اليوم الذي قررتِ فيه أن تُصبحي مطربة كان اليوم الذي أغلقتِ فيه الباب على الحشمة، على الأخلاق. يعرف الجميع أنّ الفتاة التي تختار مثل هذه المهنة تصبح مفتوحةً على العلاقات مع كلّ أنواع الرجال».

«كان يجب أن تعرفني أفضل من ذلك!»

«ما الذي تظنّينه حول تلك النوعية من الحياة؟ لا أحد يحترم مغنّية».

«اسمع، أنا لستُ فتاةً يتيمة مشرّدة التقطتها من الشارع! أنا لديّ أب. أنا لديّ أمّ».

«ليس ممّا كُنتِ تُخبرينني به. كلّ ذلك الأنين حول أنْ لا أحد يُحبّك: هل تعتقدين أنّ أحداً يهتمّ؟»

عاود القمر ظهوره. كان عادل يتصنّع الابتسام، وكانت أسنانه تومض. إنّه عديم الرحمة. إنّه يستمتع بإيذائي! لوهلةٍ، كنتُ معقودة اللسان. في ذلك الامتداد الفضّي للرمل والسماء، أدركتُ فجأةً أنّنا لسنا بمفردنا. كان ثمة ستّ أو سبع سيارات أُخرى، كلّ واحدةٍ تقف على مسافةٍ قريبة من الأُخرى. لمحتُ وميض سيجارة في إحدى السيارت، وكان أحدهم يتمدد خارج

سيارته؛ الواضح أنّها منطقة عشاق. لقد جلبني هنا عمداً، لغرضٍ واحد فقط. لم يكن الحبّ أو المشاعر، إنّها الشهوة فقط، وأنا لستُ أكثر من شيءٍ يتمّ إخضاعه. إدراك هذا الأمر أحالني باردةً جراء الإذلال الذي لحق بي. نظرتُ إليه. أردتُ أن أكشط تلك الابتسامة العريضة عن وجهه.«خذني إلى المنزل!»

«وإلا ماذا؟»

«وإلا سوف أصرخ؛ ولن أتوقّف إلى أن يقوم الرجال والنساء في تلك السيارات بجرّك من عنقك ودفنك في الرمل».

25

ماجد

يُخيّل إليك وكأنّ فيلاً قد أمسك بها من خرطومه وبدأ بهزّها. هكذا كانت تبدو ابنة أمل، مُتحجّرةً، بينما كنتُ أهدهدها على رُكبتيّ. أخذت تتلوّى وتُصارع، وتنظر في هذا الاتجاه أو ذاك، بحثاً عن مُنقِذ. إنّها في الشهر التاسع من عمرها، وهي تعرفُ أين لا تُحبّ أن تكون.

كانت عائشة على طرف المقعد، مسافة قفزةٍ عني، مستعدةٌ لتقفز إلى مساعدتي. في الطرف القصيّ من غرفة الجلوس، كانت أمّي تقيء أفكارها عن العناية بالأطفال، وهي تُعيد كلّ ما تقوله مرّتين، وكأنّها كانت تُخاطب أبلهاً: «لا تهزّها. لا تهزهزها. ستقيء الطفلة، الطفلة ستقيء». كان صوتها مدعاةً للجنون، كتشويش صوت الإذاعة.

وخشيةَ أن أضغط على الطفلة، أرخيتُ من قبضتي عليها. شهقت عائشة، و«ماما العودة» حذّرتني - مرّتين- أنّ الأطفال يُمكن أن يفلتوا من قبضة أحدهم دون سابق إنذار، ويكسروا رؤوسهم على الأرض.

أرسلتُ للطفلة قبلاتٍ عبر الهواء. كنتُ مُصمّماً على استخراج ابتسامةٍ منها، حتى ولو خرخرة سيلان لعابها. ناغيتُها، لكنّ تلك الصغيرة أخذت تتلوّى بكلّ قوّتها، باحثةً عن أمّها.

«ماء. ماء. ملء ملعقةٍ صغيرة من الماء كافٍ لتهدئة مزاجها».

«ماما!» دَمَعَتْ عينا الطفلة المستديرتان، ورسم الكحل الذي كان يؤطّرهما خطوطاً على جانبيْ أنفها. استحال خدّاها حمراوين؛ كان صوت نواحها عالياً كصفارة، واخترق مركز رأسي بقوّة.

اندفعت أمل إلى الغرفة وأخذتها منّي. «آسفة يا أبي. كلّ ما في الأمر أنّها لا ترتاح مع الغرباء».

لم أستطع أن أُقرّر ما الذي جعل دمي يفور أكثر: أنّني لم أستطع أن أنتزع ابتسامةً من الطفلة؟ أم أنّ ابنتي نعتتني بالغريب؟ يتطلّب الأمر جهداً جبّاراً كي يحجم المرء عن الردّ بقسوة. لكنّني كنتُ قد قلبتُ صفحةً جديدة. سأقلع عن الكحول وأبقى قريباً من عائلتي، وستمنحي قوّة الروابط العائلية السكينة. سيكون أمراً صعباً في البداية، ولكن- مع العزيمة والوقت- أنا متأكدٌ أنّني أستطيع أن أصبح شخصاً صبوراً ومتسامحاً، وزوجاً وأباً مثالياً، وجدّاً يملك ثروةً من الحكمة، عضواً نبيلاً في المجتمع.

لو أنّ ثمة درساً يُكتسب من حادثة الكلبة الروسية، فسيكون: لقد حان الوقت لتقويم طريقٍ مُعوجّ. لقد رحلتْ إلى الأبد، ركبت

طائرةً متّجهةً شمالاً مع صديقتها. كلّ ما تطلّبه الأمر كان تلك المكالمة اليتيمة من سيرغي. أومأتُ برأسي في موافقةٍ صامتة، وأخذتُ أُفكّر: لقد انقضى الأمر.

بين ذراعيْ أمل، غرقتِ الطفلة في نوبةٍ من القهقهات - كُلّ ما تطلّبه الأمر كان بضع رمياتٍ في الهواء (لمَ لمْ أفكّر بذلك؟). سألتُ عائشة: «متى ستنتهي الاستعدادات الخاصة بمريم»؟

«حسناً، أنت تعلم أنّني يجب أن أكون كتومةً للغاية. ما الذي سيقوله الناس لو أنّهم ظنوا أنّنا نبحث عن زوجٍ لفتاتنا؟ يعرف الجميع أنّ عائلة الفتى هي التي يجب أن تشرع في هذه الأمور. كم هو مُحرجٌ هذا الأمر. أعني، سيظنّون أنّنا مُستميتون لإيجاد عريسٍ لها». غطّت فمها استحياءً من هذه الفكرة.

«نعم، نعم». بسطتُ يدي لأستحثّها على الإسراع.«لا أحتاج إلى درسٍ في كيفيّة إنجاز الأمور».

«علي المطوع وعتيق النجار، كلاهما لديه ولدٌ يُعتبر زوجاً مناسباً، والأمر نفسه مع أرملة حميد الراوي».

«سلامة بنت عبيد؟ لديها ثروتها الخاصة، وولدٌ واحد، وهو مُتقدّم في العمر بعض الشيء، أليس كذلك؟» أخذتُ أُفكّر في أموال الأرملة - الملقاة هناك- وممّا سمعته، أتيتُ بما لا يقلّ عن ثلاث أفكار حول كيف يُمكنها أن تستثمر تلك الأموال. عليّ أولاً

أن أقنعها، ولكن حالما أفعل ذلك، سأستفيد من شراكتها في عددٍ من المشاريع.

أومأت عائشة برأسها: «وأنا واثقةٌ أنّها ستحبّ زواجه من مريم. كان زوجها يُكِنّ احتراماً عظيماً لأخيك».

«جيّد، جيّد. كي لا يُقال أنّني أغمضتُ عينيّ عن مُستقبل ابنة أخي. لا يوجد أسوأ من حرمان الفتاة من إيجاد زوجٍ ممتاز لها».

«ولكن، توجد مشكلة»، قالت عائشة وهي تلعب بشيلتها. «أيٌّ منهما غير مستعدٍ لانتظار الفتاة كي تنهي دراساتها».

«ومن الذي قال أيّ شيءٍ حول إنهائها دراساتها؟» أخافت قوّة صوتي الطفلة، فأخذت تبكي ثانيةً. قامت أمل بتقميط الطفلة بسرعة، ومن رحمة الله أنّ الصراخ الذي تبع ذلك انفجر في الرواق.

«ظننتُ..» أخذ فم عائشة يرتجف. كان يبدو عليها أنّها أيضاً ستنشجُ باكيةً.

«لم أقلْ شيئاً عن الانتظار الطويل، يا امرأة! هل تريدين أن ينتهي المطاف بابنة أخي مثل أختك: امرأة كبيرة ذابلة لا عمل لديها إلا إثارة سخطي بشكلٍ متعمّد؟». صالبتُ ذراعيّ وأشحتُ بنظري بعيداً. يا لتلك الرعونةً! لم أستطع تفادي الموجة المفاجئة من الغضب، لأنّني بدأتُ أفكّر بدلال وأمّها. كنتُ مقتنعاً أنّهما ستُسرعان عائدتين إلى دبي بعد ذلك الحديث القاسي. ولكن-

حتى الآن- وبعد مضيّ شهرٍ على ذلك، الواضح أن الأمر لن يحدث. كان عقلي خالياً ممّا يتوجّب فعله ثانيةً حيال هذا الأمر.

«نعم، يا عائشة»، قالت «ماما العودة»؛ «الناس لن ينتظروا».

عُدُتُ إلى موضوع مريم، وقُلت: «أريدها أن تتزوّج وأن تخرج من هذا المنزل بنهاية هذه السنة!»

«إن شاء الله».

«وأين كلّ الأولاد؟ ألا يعرفون أن يأتوا إلى هنا، وبالتالي نتناول غداءنا معاً؟ لماذا تأخر الغداء؟»

«سأذهب لأرى»، قالت عائشة وهي تتلعثم بآخر كلمة.

أوقفتُها بيدي المرفوعة.«اجلسي». لم يكُنْ يتوجب عليّ أن أشرح أيّ شيء، لكنّني- ومع تذكّري قراري بأن أكون أكثر صبراً وتسامحاً- قرّرتُ أن أشرح لها. «يجب أن تفهمي أنّني لا أُحبّذ أن تتعرّض مريم للكثير من التأثيرات هناك في القاهرة».

«دائماً على صواب»، قالت «ماما العودة»، «دائماً على صواب، أنت يا ولدي».

«نحن لا نعرف من تُرافِق، ومن ترى، وما الذي تفعلُهُ». استحال صوتي ناعماً، وحتى مُراعياً شعور الآخرين.«مكانها مع أُناسها، هنا: حيث نستطيع أن نُبقي عيننا عليها».

«ما الفائدة من التعليم الكثير؟» قالت «ماما العودة»، وهي تُعدّل طرف برقعها.

«دعيني أُكمل يا أمّي!»

«ماما العودة» لم يرفّ لها جفن. «التعليم الكثير للفتاة لا يقدّم أيّ شيءٍ سوى أنّه يجعلها تشعر بكونها مهمّة، مهمّةً جداً لدرجة أن تبدأ تعاكس زوجها».

استجمعتُ صبري من خلال نَفَسٍ طويلٍ عميق، ونظرتُ ملياً في عينيْ زوجتي: «كلّ ما أقوله يا عائشة هو أنّه لا يوجد معنىً لإبقائها بعيداً عن العائلة. ألا توافقين؟»

فغرت عائشة فمها من الدهشة؛ لا أسألها عادةً عن رأيها. أجابت بحكمة: «أيّاً يكن ما تفكّرُ به، فهو الأفضل».

26

مريـم

كانت وفاء تقضم أظافر أصابعها. لم تستطع ثريا التوقّف عن النشق. أشرف على الأرض، وكُرّاساته مُنتشرةٌ حوله. غادة كانت تُتمتم بدعاءٍ حارّ بأن يرزقها الله أستاذاً فاحصاً ذا قلبٍ كبير، يسألها أسهل الأسئلة فقط.

الهواء خارج قاعة الامتحان خانِق. دُخانٌ ممزوج برائحة التعرّق العصبيّ والتنفّس الجيّاش لعشرين طالباً وطالبة ينتظرون أن يُستدعوا في أوّل يومٍ من أيام الامتحانات الشفهية. يُمكن أن تستغرق الجلسة ما بين خمس دقائق سهلة، وساعة شاقة. كانت أصابع الطلبة ترتعش، وجوههم تنتفض عبوساً، وكانوا يضربون بأقدامهم على الأرض بعصبية.

ومع توقي الشديد إلى الهواء النقيّ، توجّهتُ نحو نافذةٍ في نهاية الممرّ، حيث شاهدتُ عصفة هواء تُهفهف البراعم البرتقالية لشجرة اللهب. كان ثمة كسرٌ في النافذة، وفي إحدى الزوايا، فتحةٌ كبيرة ذات حواف مُسنّنة، حيث تتشظى بعض قطع الزجاج. انثنيتُ وألصقتُ وجهي، وأنا آخذ نَفَساً عميقاً صارماً أحرق منخريّ. كان ساخناً وجافّاً، إنّها بلا شك بداية رياح الخماسين الصحراوية.

ساحبةً نفسي، عُدتُ إلى ذرع الممرّ. تفحّصتُ ساعتي بينما كنتُ أمرّ بالقرب من البوّاب الذي كان يحرس الباب ويراقبنا بعينين يقظتين: إنّها التاسعة والنصف. كان يتعيّن على أساتذة الجامعة الجالسين في تلك الغرفة أن يبدؤوا بالمناداة على الطلبة، على شكل مجموعاتٍ من طالبين أو ثلاثة، منذ ساعةٍ ونصف الساعة.

«هذا لا يُصدّق!» رمى أشرف دفتره على الجدار. «كم سيطول انتظارنا؟ لقد بلغت أعصابي أقصى حدود التحمّل».

«سينادونك عندما يُنادونك»، قال البوّاب. كان صوته يحمل اللهجة الخشنة للفلاحين. وضع يديه على جانبيه، وألصقهما بإطار الباب، كما لو أنّ أشرف قد يقفز ويشقّ طريقاً بالقوّة إلى الخارج.

«سينادونك عندما يُنادونك»، قالت غادة ساخرةً، وهي تقضم ضفيرتها. كحال البقية، غدت غادة ضجرةً من طول الانتظار.

كنتُ أحضن كُرّاساتي على صدري، لكنّ الفهرس السريع للكلمات - الإجراءات السنّيّة، التعاريف، والتعابير - التي كانت تملأ رأسي منذ لحظة استيقاظي، تتراقص مع الأفكار حول عادل. لم يأتِ إلى نادي الطلبة خلال الأسبوعين السابقين، لحضور جلسات المراجعة المكثفة التي خطّطتُ لها. لقد فاجأني هذا الأمر، حيث إنّها كانت فرصتنا الأخيرة لغربلة كتبنا، قبل الاختبارات الشفهية.

كانت الممرّات في كلّ أرجاء الكلّية تغصّ بالمجموعات مثل هذه، ينتظرون أن يُنادى عليهم. أخذتُ أتساءل أين عادل الآن، هل هو قلقٌ مثلي، أم ينعُم بلامُبالاته المعهودة؟ كيف استعدّ لموضوع اليوم؟ هل سينجح؟ انسلّتِ ابتسامةٌ من شفتيّ. لقد رسب في سنته الأولى: «الحنين إلى الوطن»، هكذا قال، ومرّةً ثانية في سنته الثالثة: «كلّ هذه الكلمات التي يتوجّب عليك أن تحفظيها باللغة الإنجليزية، كلّ واحدةٍ بطول ذراعي، وتبدو شبيهةً بالكلمة التي قبلها!»

سأسافر عائدةً إلى دبي، بعد امتحاناتي مباشرةً. حتى أنّني لم آخذ في الاعتبار أن أسأل عمّي ما إذا كنتُ أستطيع أن أبقى لبضعة أيّامٍ إضافية. أشعر بالندم لفقدي الشجاعة، وهو الأمر الذي يعني أنّني سأبقى بعيدةً عن عادل لفترةٍ أطول. سأمضي الصيف بكامله أُفكّر بعادل، أفتقده، وأعدّ الأيام حتى موعد عودتي في سبتمبر.

كنتُ عند الطرف القصيّ من الممرّ عندما نادى البوّاب باسمي واسم غادة. توسّلتْ غادة المزيد من الوقت للمُراجعة: «لماذا يجب أن أكون الأولى؟» وأخذت تنتقّل من قدم إلى أُخرى، وكأنّ مثانتها على وشك الانفجار: «أخبرهم أن ينادوا عليّ لاحقاً».

هزّ البوّاب رأسه مُتعاطفاً: «لستُ أنا من يتّخذ هذه القرارات يا ستّ. هم يُعطونني الأسماء، وأنا أنادي عليها».

أسرعتُ إلى جانبها وحاولت تهدئتها؛ «لا أريد أن أكون الأولى التي تذهب»، قالت لي هامسةً. «أريد أن أذهب متأخرةً،

حين يكون قد أصابهم الملل والجوع، ويريدون أن يذهبوا إلى البيت لتناول غدائهم».

اتخذ البوّاب وضعية الجنديّ - الرأس مرفوع، والصدر بارز -ونادى ثانيةً: «مريم حارب النسيمي! غادة عبد العظيم رجب!»

«ليس عليك أن تصرخ عالياً. نحن هنا أمامك مباشرةً». سلقته غادة بلسانها. وخشية أن يُضيّع ذلك الجدال فرصتنا في غرفة الامتحانات، ضغطتُ على كتفيها وقُدتها قبل أن تسنح لها الفرصة لعمل جلبةٍ أكبر.

كانت الغرفة عارية. لم أكن أعرف أيّاً من الأساتذة الجالسين خلف الطاولة العريضة في الوسط. كان الرجل المسنّ يبدو في الستين من عمره، قدّم نفسه على أنّه الدكتور وحيد الغمزاوي. كان لديه وجهٌ عطوف مُنَقَطٌّ ببقع التقدّم في العمر. أشار إلى الكرسيين الفارغين على كلا جانبيْ الطاولة، فجلسنا عليهما. الفاحص الآخر، الدكتور سامح وهاب، لا شكّ في أنّه أصغر منه بثلاثين عاماً، بذقنٍ مُدببة وملامح حادّة تعطيه السحنة المواربة «لابن عُرس». لم يُضع الدكتور سامح الوقت لبدء الامتحان. «الموضوع اليوم هو الجراحة»، قالها باللغة الإنجليزية. كان ثمة تباينٌ حادّ في لهجته: «آمل أنّكما مُستعدّتان». كانت نبرة صوته هشّة، وعندما أشار إليّ اعتدلتُ في جلستي. «كم نوعاً للحشوات نستخدم بشكلٍ عام؟»

بدا عقلي للحظةٍ مشوّشاً. نظرتُ إلى غادة التي كانت أصابعها تختلج وتضرب الهواء، وهو تعبيرٌ صامت مفاده أنّني سأرسب، كانت سترغب في أن يُوجّه إليها هذا السؤال السهل على وجه الخصوص. «ثلاثة أنواع»، قلت: «الملغم، الكومبوزيت، ورقاقة الذهب».

«وماذا ستقولين عن العيب الرئيس لحشوة الكومبوزيت»؟

«الانكماش».

«المعنى؟»

«تصبح المادّة أصغر في الداخل».

«وكيف نتغلّب على هذا الأمر؟»

«نستخدم نوعاً هجيناً من الكومبوزيت، وهو جزءٌ من الجيل الجديد من حشوات الكومبوزيت. أيضاً، يُمكننا حشوه طبقةً بعد طبقة».

كانت الإجابات تنساب من عقلي، صافيةً كأنّها ماءٌ جارٍ. لم أكن مُتردّدة، وعندما أخذ الدكتور الغمزاوي ينقر أصابعه بعضها مع بعض موافقاً، لم أستطع أن أقاوم الابتسام. قال:«نعم»، مع لمحةٍ خاطفة إلى دفتر ملاحظاته.«أنتِ مريم النسيمي، صحيح؟»

«نعم، دكتور».

«مِن الخليج؟»

أومأتُ برأسي.

«أين؟»

«الإمارات العربية المتحدة».

«نعم، بلدٌ رائع. يا مريم، أريد أن أعرف: ما هو تركيب الزئبق، بعد سحن الحشوة؟»

فتحت فمي لأجيب، واستطعت أن أقول:«إنّه...» مُتجهمةً، أخذتُ أبحثُ عن هذا الأمر بجهدٍ أكبر، إنّه سؤالٌ أقلّ وضوحاً. كانت عينا الدكتور الغمزاوي اللطيفتان تلمعان ببعض الرضى الغريب. جعلني هذا أتساءل ما إذا كان شامتاً، كونه نجح في التلاعب بي من خلال ديباجةٍ تعاطفية. زفرتُ بحدّة. كان ذلك الصوت الوحيد في الغرفة.

«بعد وضع الحشوة، ما هي كمّية الزئبق المتبقّية فيها؟» كان ينقر على الطاولة مع كلّ كلمةٍ ينطقها.

«إنّها...» استدرتُ نحو غادة. نظرتْ إليّ بوجهٍ خالٍ من التعابير.

«حسناً!!»

«أعتقد، ربما، يُمكن.» توقّفتُ لبرهة. «خمسون بالمائة».

لا تعبير.

«خمسةٌ وأربعون بالمائة؟»

«هذا ليس متجر مساومة في خان الخليلي!»

«أربعون بالمائة!»

هزّ رأسه ووضع علامة – حمراء كبيرة على الورقة أمامه. بعد ذلك، أخذتِ الأسئلة تزداد صعوبةً بالتدريج، ومع أنّي كنتُ أظنّ نفسي مستعدّة، بقيتُ أتخبّط خلال العشرين دقيقة التالية، أو نحو ذلك، قبل أن أُصرَف. غادة لم تكن بأفضل حالٍ مني.

في الخارج، تمّت المناداة على زوج الطلبة الثاني. أمّا البقية فتجمّعوا حولنا للحصول على بعض المعلومات: ما درجة قسوة الفاحصين؟ هل يُمكن إغواؤهم؟ ماذا سألوا؟ انفجر إحباط غادة على شكل وصفٍ هستيريّ حين قالت إنّه أسوأ يوم في حياتها على الإطلاق. بينما تعاملتُ مع خيبة الأمل بشكلٍ أكثر هدوءاً. لم ينتبه إليّ أحدٌ، بينما كنتُ أنحرف عائدةً نحو النافذة المكسورة.

أخذتِ العاصفة تتجمّع. دوّامات من الغبار كانت ترشّ شجرة اللهب. كانت أغصانها تضرب على الزجاج، وكأنّها تحتجّ على إخفاء أزهارها المتوهجة الألوان.

على البُعد، كانت ثمة شجرةٌ من نخيل الدوم (شجرة النخيل الوحيدة ذات الأغصان)، تتأرجح كرجلٍ ثَمِل، وشجرة ميموزا إلى يمينها (من عائلة الأكاسيا، لا تحمل أشواكاً)، كانت أزهارها الصفراء ترتجف وتخفق. لماذا لم أدرس علم النباتات؟ ما الذي جعلني أختار طبّ الأسنان، وهو الحقل الذي لا أهتمّ به؟ أعتقد أنّني نظرتُ إليه على أنّه مهنةٌ محترمة، مهنةٌ ستسمح لي بالحصول على الاستقلالية، تسحبني بعيداً عن العائلة وتقطع الحبل المتآكل الذي يربطنا معاً.

كنتُ أُحدّق في الوهج الثاقب لسماء يونيو الصفراء عندما سمعتُ أحداً ينادي باسمي. استدرت، وفي الوقت الذي كانت عيناي تتواءمان مع عتمة الممرّ، كان عادل بجانبي يقودني نحو الزاوية: «ما الأمر؟»

«طوال الليل لم أستطع النوم. طوال الليل وأنا أقلّب الأمور في رأسي، وتوصّلت إلى قرار. يجب أن أخبرك...»

«هل أنهيتَ امتحاناتك»؟

«كلا».

«ثمّ...» أردتُ أن أعرف لماذا لمْ يستطع النوم. ما الذي أقلقه لهذه الدرجة؟ أردتُ أن أسأله لماذا هو هنا، بينما من المفترض أن يكون في مكانٍ آخر، ينتظر امتحانه. لكنّني أحجمتُ عن ذلك عندما لاحظتُ أنّ الممرّ قد استحال فجأةً إلى صمتٍ مُطبق.

كانت الطريقة التي ينظر بها عادل إليّ؛ كانت حُميّا الحب من عاشقٍ مفطور القلب كافيةً لإيقاظ مخيلة حتّى أبلد العقول. كانت وفاء تضع يدها على فمها، بينما تجمّدت ثريا في مكانها. عينا أشرف كانتا تتلألآن، وغادة أوقفت نوبة الهستيريا لديها. كانوا جميعاً يُحدّقون بي.

ما لدينا هنا هو خيط دخانٍ خفيف، يحوي سرّاً داخله: احتمال علاقة حبيب بحبيبة، يُمكن أن يتردّد خبرها من لسانٍ إلى آخر،

إلى أن يتضخّم ثمّ ينفجر متحوّلاً إلى فضيحةٍ مدوّية. لماذا عليه أن يتصرّف بهذه الطريقة أمام كلّ هؤلاء البشر؟

وقفوا ينتظرون. أنا ضحكت. كانت الطريقة الوحيدة لتنفيس التوتّر، لإبقاء كلّ ما هو مطويٌّ في ثنايا قلبي آمِناً. «أنتَ مُضحكٌ للغاية». ودون تفكيرٍ إضافيّ، أمسكت معصمه وقدته باتجاه نهاية الممرّ، وأنا أرتجل قصّةً لإقناع الآخرين أنّ لديه عادة إضاعة دفاتره. «ربما تركتها في الكافتريا. لماذا لم نتفقّد هناك؟» قُدته عبر باب الدرج، والذي كان خارج نطاق النظر، ولحسن الحظ كان خالياً من الطلبة. «بحقّ الله ما الذي تحاول أن تفعله، مع مشهدٍ كهذا؟»

«لا شيء سوى أنّني أعرف أنّك ستسافرين قريباً».

«إذاً لماذا لم تكن تأتي إلى النادي لتدرس معي؟ لقد انتظرتك كلّ يوم».

«لم أستطع مواجهة فكرة عدم رؤيتك طيلة الصيف. يجب أن نجد طريقةً لنلتقي، حالما نعود إلى الوطن».

كان هذا أمراً لم أُفكّر به حتى. في مجتمع دبي المحكم الترابط – وأنا أعيش تحت سقف عمّي ماجد – كيف سأتدبّر الأمر؟ «مستحيل».

«ثمة طريقة. يجب أن يكون ثمة طريقة». أمسك بيديّ، وتسارع نبضي. وقبل أن أستوعب الأمر، وجدتُ نفسي موافقة.

27

دلال

«غنِّي للطيور الصغيرة، يا دلال. علّميهم الغناء».

إنّه طلبٌ غريب، لكنّها لو سألتني أن أذرع الغرفة واقفةً على يديّ لفعلت. لقد مضى على توقيعي العقد ستّة أسابيع فقط، وهاهي مدام نيفين قد أمّنت لي التسجيل الأوّل، أغنية بعنوان «أنا بس، وحدي بس»، كُتبت خصيصاً لي، وسنتّجه إلى الاستديو حالما تستعدّ مدام نيفين. إنّها في غرفة النوم، بشقّتها في المهندسين، وأنا في غرفة الجلوس.

دلفتُ متخطّيةً خزانةً تحوي مجموعة حيوانات كريستالية، ووقفت في شرفةٍ مُغطّاة بالزجاج، حيث كانت تحتفظ بنباتاتها وببغاواتها. التفتُّ إلى الطيور - زوجٌ متماثل بلونٍ أصفر باهت - وبدأتُ أغنّي. أضفتُ بَصمتي اللونية الخاصة على الكلمات:

كان حبنا من أوّل نظرة

كنت أنا وبس وحدي بس

دلوقتي حتروح من غير رجعة

كنت أنا بس وحدي بس

مش عاوزة أعرف رايح فين
ألبي دليلي حيعرف فين
سافر.. هاجر.. وحترجع تاني
آه.. لا لا يا ألبي لا لا
كنت أنا وبس وحدي بس
آه.. لا لا يا ألبي لا لا

إنّها ليست عميقة، مثل أغاني أمّ كلثوم. إنّها متوثّبة، جذلة، مثل قفزة سنجاب. قالت مدام نيفين: إنّ هذا الأمر ضروريّ لكي أُعرف (أكّدتْ لي أن الموسيقى الرصينة ستأتي لاحقاً). من الواضح أنّ المزاج الشعبيّ يرغب بشيءٍ خفيف ومرح.

«غنِّي من أعماق قلبك»، صرخت مدام نيفين، وتخيّلتها تنشر «التربان» الذي كانت ترتديه طوال اليوم وتختار واحداً أكثر لمعاناً للمساء. بدأت الطيور خلال الجولة الثانية من الغناء تتململ، وهي تفتل رؤوسها الصغيرة بهذا الاتجاه أو ذاك.

نيفين لبيب تعرف الكثير. البارحة، وعندما كانت تعليقات عادل اللاذعة لا تزال نديّةً، سألتها سؤالاً مهمّاً: هل يمكن لمغنّيةٍ أن تُصبح شهيرةً، ومع ذلك تحتفظ بسمعتها الطيّبة؟ «بالطبع تستطيع»، قالت دون تردّد، «إذا كان لديها شخصٌ مثلي ليضمن أنّ أحداً لن يستغلّها». هذا جعلني أشعر بالدفء الداخلي، وأقسمتُ أن أردّها لعادل إذا رأيته ثانيةً.

ثم انتقلتْ إلى موضوع شريف بيه، ولماذا كان من غير المجدي الاعتماد عليه: كلّ ما كان يُمكن أن يتدبّره في سنّه المتقدّمة هذه هي طقطوقات الدعايات تلك. «ربما كان عظيماً في يومٍ من الأيام، لكنّه لم يعد كذلك. تدرّ طقطوقات الدعايات مالاً جيّداً، انتبهي لهذا الأمر»، أضافت وهي تغمز بعينها، «ولكن هل ترغبين بمسيرةٍ غنائيّة تمجّد حليب «نيدو» أو شامبو «بايبي جونسون؟»

«كلا، بالطبع!»

عَدّدتْ قائمةً بأسماء المطربين والمطربات الموهوبين الذين استأجروا خدماتها. «لقد أعطيتُ كلّ واحدٍ منهم دفعةً قوية لتسلّق سلّم الشهرة المنحدر. المحزن في الأمر أنّ أيّاً منهم لم ينجح في تسلّق القمة. جميعهم بقوا يراوحون في مكانٍ ما بين الدرجتين الأولى والثالثة». بالطبع، كان لديها تفسيرٌ لهذا الأمر. «ترين، يا حبيبتشي، حالما يبدؤون بالصعود، يظنّون أنّ بإمكانهم إيجاد مُمثّلٍ أفضل، ويتركونني. لذلك يبقون في المستوى المتوسط، أو- بشكلٍ أسوأ- يذوبون مثل السكّر في الشاي». رفعت إصبعها وهزّت أنفها. كالمسحورة، انتظرتُ لأسمع المزيد، بينما كانت تُغلق عينيها وتُطلق عطسةً ضخمة. «أوه نعم»، قالتْ، وهي تتنشّق وتربّت على عينيها الدامعتين بمنديل، «العديد منهم طاروا إلى بيروت لإيجاد مدير أعمالٍ لبنانيّ يتكلّم الفرنسية، يحمل اسماً جامحاً مثل «بيير» أو «ميشيل» أو «باسكال».. ما الذي حدث للوحدة والفخر العربي؟ أسألك! وقد أُخِذوا بوعودهم لإرسالهم

إلى النجوم، وإلى القمر، أيضاً. يُدركون مدى حماقتهم فقط عندما يعرفون أنّ المال الذي كان بحوزتهم قد اختفى». ألقت عليّ نظرةً مواربة. «وأنتِ ستفعلين مثلهم، أيضاً».

«أبداً!»

ضحكتْ ضحكةً خافتة. «يجب أن تعرفي أمراً واحداً، أنّه إذا بقيتِ في المنتصف لفترةٍ طويلة، فستسقطين فقط إلى القاع. كما ترين، يجب عليك أن تفهمي أنّ الناس – العامّة والمعجبين – جميعهم لديهم ذاكرةٌ قصيرة الأمد. وإذا لم تستمرّي في إطلاق أغانٍ رائعة، وإذا لم تضعي نفسك، روحك، في تلك الأغاني، بكلّ بساطة، سينسونك. لذلك، حياتشي، ما أقوله هو أنّ الأمر يعود في النهاية لك، ولي».

«جاهزة، تقريباً»، صرخت مدام نيفين، وابتسمتُ ابتسامة الرضى. تعمل مديرتي بجدّ. إنّها تؤمّن الدعوات لبعض أرقى الحفلات، تلك التي تُقام في المنازل القديمة الجميلة في مصر الجديدة، والشقق الفاخرة في الزمالك. يحضر هذه الحفلات أُناسٌ مهمّون: مُدراء تلفزيون ومخرجو أفلام مشهورون، رجال أعمال ومسؤولون حكوميّون مهمّون. وبينما أتحضّر لأبهرهم، تقوم مدام نيفين بالتودّد إلى عازف العود ليعزف موسيقى العظماء: عبد الحليم حافظ، محمد عبد الوهاب، فريد الأطرش؛ يتبعه بقيّة الموسيقيين، وقبل أن يُدرك الجميع ما يحدث، أكون في وسطهم وقد بدأتُ الغناء، لإسعاد ضيوف الحفل.

لم أستطع أن أبقى ساكنة؛ وقبل أن أعي ما يحدث، وجدتني أصدحُ بأغنيتي مرّةً أُخرى:

«بينما العشّاق حولي مجتمعون معاً،

أنا مثل طفلٍ دون أمّه.

محزونة، منبوذة، وحيدة..

قلبي يذوب، وقلبك من حجر».

قرّبتُ وجهي أكثر لقفص الطيور، وأخذتُ أغنّي لأعبّر عن فرحي بشراكتي الجديدة:

«أنا حبّك.. دي أنا..آه أنا

وحدي .. بس.. وحدي.. بس.»

في الاستديو، مالت مدام نيفين نحوي وهمست: «أنت تعرفين هذه الأنواع الفنّية - هؤلاء يريدون جمهورا- دائماً يريدون ويُصرّون على أن تكوني جزءاً من العملية الإبداعية برمّتها». كَظَمَتْ تثاؤباً. «لا شكّ في أنّ هذا الأمر جدّ مُملّ لك هذا الانتظار».

إنها بعيدةً عن الحقيقة.

كانت الغرفة مُعتمةً ومليئة بالأضواء الصغيرة، حمراء، صفراء، خضراء. كان ثمة مفاتيح وعتلات، أيضاً: قمرة ملأى بالدخان أكثر انشغالاً من كابينة القائد في طائرةٍ متحطّمة. كانت عيناي تؤلماني، لكنّني- ودون أن يرفّ لي جفنٌ- أخذت أراقب أصابع مهندس

الصوت وهي تتنقّل بسرعة فوق أزرار التحكّم. كان- بين الحين والآخر- يركل كرسيّه المتحرّك من إحدى زوايا لوحة التوليف الموسيقي العريضة، إلى زاويةٍ أخرى، بحيث يمكنه الضغط على أحد الأزرار، أو يشد شريطا أو ينزع سلكا. بالطبع كان المهندس يتبجّح أمامي، أمام الموهبة الجديدة الجذّابة. كان الموسيقيّون ينتظرون دورهم خارج غرفة التحكّم، كانت تتمّ دعوتهم فُرادىً، كُلاً على حِدة، ليعزف الجزء الخاص به في استديو التسجيل. أوه، كلّ هذا لأجلي.

أمال مهندس الصوت رأسه إلى الخلف، وأطلق نفثاً طويلاً من الدخان، وهو يُجعد شفتيه بحيث شكّلتا خطاً تامّاً. تبعتُ النفثة حتى ضربت السقف المنخفض واختفت على شكل غيمة، بينما كانت الأفكار تجول في عقلي. تخيّلتُ أمّي تحدّق في التلفاز، كما تفعل كلّ ليلة، ولكن عوضاً عن مشاهدة الأفلام بالأبيض والأسود، تشاهدني أنا، هنا، الآن، في وسط هذه الآلات الضخمة والموسيقيين المحترفين. هأنذا أرى وجهها، عقدةً خضلة من اليأس. أعرف ما تفكّر به؛ يضطرب عقلها كماءٍ يغلي، وتندم بصراحة على كلّ الأوقات التي حطّت فيها من قدري. وحتى بوجود سُحب الدخان التي تقتحم منخريّ، لا يزال بإمكاني أن أشتمّ رائحة الزبالة المتعفّنة على بابنا.

في مُخيّلتي، إنّها تتمنى لو كانت لطيفةً معي، لو تصنّعت حنان الأمّ، لا يهمّ كم كان ذلك سيكون غير صادق. عيناها سوداوان، انطفأ بريقهما، وشفتاها ترتعشان. ندمها شديد كي تبكي، فأنظر

إليها وأقول: «هل ترين كيف أتدبّر أموري جيّداً دونك!» تجثو على ركبتيها أمام قدميّ وتقبّلهما، كطلب رحمةٍ لأغفر لها. أرفع حاجبيّ وأرمقها بنظرةٍ باردة كما تفعل هي - نسخة من تلك النظرة التي اعتادت أن تنظر إليّ بها - قبل أن أضع رجلاً فوق أُخرى، وقدمي تطوف قرب ذقنها، لأركلها بعيداً عن الطريق. هاااا!

مُلحّننا، عمرو دهب (والذي تمثّله مدام نيفين أيضاً) لا يستكين؛ كان يثب إلى الخلف والأمام عبر الغرفة، وكأنّ ساقيه ملؤهما النوابض. كان ذا رأسٍ كبير، يهتزّ في كلّ مرّة يخرج عقله بفكرةٍ جديدة. كان يجعل كلّ موسيقيّ يعزف كلّ مقطوعة، ويضرب بشكلٍ متكرّر حتى يستوعبها: «هكذا تماماً». حيويته تتضارب بشكلٍ حادّ مع المزاج الكئيب لشريف بيه.

«عازف الكمان! نادوا على عازف الكمان». أخذ عمرو دهب يبحث حول غرفة التحكم. هذه ليست المرة الأولى، رمقني بنظرةٍ، قطّب جبينه. من الواضح أنّه غير مفتونٍ بابتسامتي المضيئة. لستُ متأكدةً لماذا، ولكن يبدو أنّه لم يُحبّني.

وحالما جلب عمرو عازف الكمان إلى غرفة التسجيل، أخذ مهندس الصوت يدور في كرسيّه ويبتسم لي ابتسامةً عريضة. أنزل مفتاح الصوت: شفتِ يا مودموزيل؟ حركة صغيرة واحدة، وشوفي ما سيحدث. بووف! ما فيش صوت للصنج، ثم أنزل مفتاحي صوت اثنين آخرين «... الناي فقط».

صفّقتُ بيديّ. «سحر، والله إنّه سحر!»

«نعم، هذا هو»، أخذت مدام نيفين تتمتم بطرف شفتيها. «فقط تصرّفي باهتمام». دخل صبيّ الشاي إلى غرفة التحكّم مرّةً أُخرى، وتناولتْ كوباً من الشاي الأسود، إنّه كوبها الرابع خلال الساعات الثلاث التي قضيناها هنا.

«والآن...» رفع مهندس الصوت الميكرفون، وثَقَبَ صوت عمرو الحاد أذنيّ كمزمار، بينما كان يحاول أن يُقلّد الصوت الذي يريده من الكمان. تغيّرت تعابير وجهي وأخذت أقهقه، لكنّ مدام نيفين كانت قد فقدت صبرها.

نهضتْ وهي تستشيطُ غضباً، وسارت إلى غرفة التسجيل. أخبرتْ عمرو دهب أنّه قد أرهق الموسيقيين بطلبات التكرار التي لا تنتهي، وأنّه قد حان الوقت للتحرّك لتسجيل الموهبة – وهي أنا – في الحال. «إنّها ليست أداة، كما تعلم»، قالت مدام نيفين؛ «ستجفّ حبالها الصوتية من طول الانتظار، ناهيك عن الدخان. والآن كيف ستُكمل التسجيل؟»

عاد عازف الكمان إلى الجلوس في كرسيّه بكسل، مُتكلّفاً الابتسام، قبل أن يبدأ بحفر أذنه لاستخراج الكنز المخبوء! كنّا أنا ومهندس الصوت نستمع باهتمامٍ شديد، متوقّعين أن ينفجر النقاش بين مدام نيفين التي فقدت صبرها وعمرو دهب الذي كان يُصرّ على الحصول على توليفته الموسيقية بالشكل الصحيح.

لكنّه قال بعد ذلك: «لقد وعدتني بأن تحضري لي اسماً، شخصاً كان قد سجّل أغنيةً أو اثنتين على الأقل».

«إنّني أُحضر لك موهبةً جديدة».

«شخصيتان مغمورتان لن تصنعا نجاحاً».

«قد تكون أنت من يؤلف الموسيقى، لكنّي أنا المحترفة، عندما يتعلّق الأمر بضمان انتشار موسيقاك في العالم العربيّ، من أقصاه إلى أقصاه». وازنت مدام نيفين نبرتها الجادّة بابتسامةٍ عريضة. لقد ناقشنا هذا الأمر، واتفقنا على أن تركّز أنت على تأليف الموسيقى، بينما تترك بقيّة الأمور لي».

«أنا لم أوافق على ذلك».

«صمتُك عنى الموافقة».

«لقد خدعتني». وضع يديه أمام صدره، وأنتأ شفتيه استياءً. لكنّ ثمة المزيد. «وأنا لا أحبّ هذه التوليفة الموسيقية، بأيّ حالٍ من الأحوال. إنّها تافهة. أنتِ تعلمين أنّه يُمكنني تقديم أفضل من ذلك بكثير. وأنت لم تسمحي لي بذلك».

هزّت مدام نيفين رأسها. «ليس في مقطوعتك الأولى».

«مقطوعتي الأولى، وأنت جلبتِ لي هاوية؟ سيظهر هذا الأمر في التسجيل!»

آنذاك، كنتُ قد أُهِنتُ تماماً. لكنّ التحذير الإضافي هو الشكّ الذي اجتاحني. ماذا لو كان ثمة حقيقة في ذلك؟ كشخصيتين مغمورتين، هل كُتِبَ علينا الفشل منذ البداية؟

«لم يسبق لها أن وقفت أمام الميكرفون»، قال عمرو دهب. أريد أن أتأكد أنّ صوت الآلات مُحكم الإتقان، لأغطّي على صوتها، في حال نشازه.

«بحقّ الإله، إنّها ليست طائِراً!» صوّبت مدام نيفين نظرةً وضيعة على مهندس الصوت، وفهم عليها في الحال. ساد الصمت في غرفة التحكم. لم يعد وجه مدام نيفين يكتسي حلّة المرح. كان هذا كافياً لجعل عمرو دهب يحني رأسه ويلعب بأصابعه، مثل صبيّ مدرسة تمّت معاقبته. حتى أنّ عازف الكمان أخذ يُحسن التصرّف. وبوجهٍ جادّ، تخلّى عن حركته، وأخذ ينتظر التعليمات.

أخذت الغرفة تضيق، وتنفّسي استحال صعباً. لا يمكنني التوقّف عن التفكير باحتمال الفشل. اندفعتُ خارج الغرفة، مروراً بالموسيقيّين المنتظرين في المكتب الخارجي، شاقّةً طريقي عبر الممرّ الخالي، حيث أستطيع أن أعبّ الهواء. هل سأبدو سخيفة، مثل مقدّمة برنامج الأطفال، وأنا أغنّي «أنا بس.. وحدي بس؟»

وفي هدوء الممرّ، كان كاحلاي يصطكان، بصوتٍ حادّ كسكّينٍ على لوح تقطيع. صورةٌ أخرى لأمّي، صورة جعلتني أرتجف: هذه المرّة كنتُ أنا المتكوّمة قرب قدمها، ابنةٌ تتوسل للمغفرة، كونها عصت أمّها.

«دلال؟ آه، ها أنتِ هنا».

وحالما وطئت مدام نيفين العتبة، أمسكتُ بمعصميها وجذبتها نحوي بشدّة. «عديني أنّني لن أصبح أضحوكة». اليأس في صوتي أفزعنا نحن الاثنتين. «عديني».

أخذت تمتصّ الهواء عبر أسنانها، وتصارع لتنتزع معصميها من قبضتي، وهي تهزّ رأسها بعنف، لدرجة أنّ «التربان» قد تحرّك من مكانه، وبانت من تحته خصلة شعر كانت مُثبتةً فوق أذنها اليسرى. «على رِسلك، يا فتاة. هل تريدين أن تكسري عظامي؟»

«آسفة. كلّ ما أريده هو الاطمئنان».

«إذا كُنتِ ستتصرّفين هكذا في كلّ مرّة تسمعين شيئاً جارحاً، سأخبرك من الآن: عودي إلى المنزل». كان أمراً، وأشارت إلى سلّم الدرج.

«كلا، كلا، أعدك لن أفعل».

«كم مرةً عليّ أن أخبرك أنّ الطريق ليس مفروشاً بالورود والعطور؟ عالم الموسيقى عالمٌ متوحّش. سيكون ثمة أناسٌ في هذه المهنة يشوّهون سمعتك، وسيكون ثمة مطربون، لو نجحتِ، سيشعرون بالغيرة ويكرهونك لهذا السبب». عند ذلك أخذت تفرك معصميها. «لقد تركت يداك علاماتٍ عليهما».

«آسفة». كانت المرة الأولى التي تقرّعني فيها مدام نيفين. انكمشتُ إلى صرّةٍ من الندم.

«وسيكون ثمة الصحافيون أيضاً! سيطاردونك. لن يكتفوا بكتابة السخافات حول الطريقة التي تبدين بها وماذا ترتدين. كلا، لن يكون هذا كافياً لهم لملء المجلات والجرائد. سيحفرون بنشاط بحثاً عن الأمور السيئة. وإذا لم يستطيعوا إيجاد ما يكفي، سيختلقون القصص حولك. وكلّما ازدادت أهمّيتك، ازداد الأمر سوءاً، لذلك أنا أسألك: هل تستطيعين تحمّل كلّ ذلك؟»

«أستطيع» (أكثر هدوءاً الآن)، «سأفعل».

«هذا أفضل». أعادت ترتيب شعرها تحت «التربان». «يُمكنني التعامل مع اهتياجٍ واحد فقط في المرّة الواحدة».

28

مريـم

عبرنا متاجر بواجهاتٍ مفتوحة مليئة بإطارات السيارات وقطع الغيار، وأكشاك عصير مكتظّةٍ بزبائن مُتململين، وتحيط بها مجموعاتٌ عابرة من السيارات التي تُطلق أبواقها. عبرنا متجر أصباغ ومطحنة، ومرآباً مليئاً بالجرارات الصفراء اللامعة. لاحقاً رأينا صفّاً من الورش التي تُصنّع بوّابات المنازل بأسلوبٍ تقليديّ: مُزيّنة بقطعٍ من المعدن الملحوم ومصبوغة بألوانٍ فاقعة، مُنمنمةٌ بالأزهار والأشكال الهندسية الحادّة، أو بشعار دولة الإمارات. جعلني هذا أُفكر ببيت دلال الشعبيّ القديم، وكيف أنّها- في بداية الأمر- أحبّت أنّ بوّابته مُزخرفةٌ بدلّة قهوةٍ برتقالية لامعة، إلى أن أدركتْ أنّها كانت زينة سوقية تعكس ذوق الرجل العادي.

مُكيّف الهواء على أعلى درجة. أتنشّق رائحة عادل الخشبية المسكيّة وأتنهّد. كعادته دائماً، يبدو عادل كأميرٍ في كندورته البيضاء الرقيقة، مع الطربوشة القطنية التي تتدلّى في وسط صدره، والغترة المعصوبة على رأسه على شكل عمامةٍ أنيقة. كان قد شذّب لحيته بشكلٍ قصير جداً، وهي مقصوصةٌ على شكل خطّ وضيء تحت ذقنه، يثخن قليلاً حين يلتحم مع شاربه. كنتُ

أرتدي تحت عباءتي قميصاً من الشيفون خوخيّ اللون، وتنّورة رمادية فضفاضة تصل إلى ما فوق كاحليّ.

كنّا نلتقي سرّاً طيلة عطلة الصيف. في بعض الأمسيات، كنّا أنا وعادل نتناول عشاءنا في «كرفان»، وهو مطعمٌ قرب برج الساعة في دُبي. الوضع آمنٌ هناك: تستريحُ الطاولات في غُرفٍ خاصة مزوّدة بأقفالٍ انزلاقية على أبوابها. في أحايين أُخرى، كُنا نقود السيارة إلى شواطئ معزولة، على طول الطريق في «جبل علي» أو «غنتوت». قرّرنا اليوم أن نذهب إلى الصحراء. إنّها الرابعة عصراً، وكي نصل إلى وجهتنا، علينا أن نمّر بهذا الطريق الرئيس الصاخب المفعم برائحة الديزل في المنطقة الصناعية من الشارقة.

استحال الضوء إلى الأحمر، وأخذت سيارة عادل تزعق كي تقف. غصتُ في مقعدي، بالرغم من أنّه من المستحيل تقريباً أن يتعرّف عليَّ أيّ شخص، حيث كانت شيلتي مسحوبةً كثيراً للأسفل، لدرجة أنّها تغطي النصف العُلويّ من وجهي، وألقيتُ النصف السفليّ في الظلّ. لا أستطيع منع نفسي من ذلك. يرفض هاجس الخوف هذا أن يهدأ، ممزوجاً بنشوة الانسلال خارج البيت. ماذا لو لمحني أحدٌ ما، يعرف عائلتي، في مركز «أبو هيل»، وتبعني وأنا آخذ سيارة الأجرة إلى نقطة لقائنا في موقف السيارات في «الملا بلازا»؟ ماذا لو تصادف مرور أحد معارفنا، بينما أقفزُ داخل «الميتسوبيشي باجيرو» التي يمتلكها عادل؟ كنتُ

أظنّ أنّني سأكون أشجع، بعد عدّة مواعيد ناجحة. ولكن كلا! لا يزال ذلك القلق المسبّب لمغص الأمعاء موجوداً.

كان عبد المجيد عبد الله يغنّي «رهيب». رفع عادل الصوت، ولاحظتُ أنّ الرجل في السيارة المجاروة - والذي كان يبدو عليه قبل لحظاتٍ قليلة السأم والملل لدرجة أنّه كان يتثاءب - قد أدار عيناً فضولية تجاهي. أطفأتُ المذياع. قطّب عادل جبينه وضحك بفتورٍ لسخافتي. «حتّى أنّك لا تعرفينه».

«ربما هو يعرفني».

«حتى أنّه ليس إماراتياً». ومدّ عادل يده، لكنّني صفعتها بعيداً، قبل أن تسنح له الفرصة لقرص خدّي.

«لا يهمّ» قُلتْ، «ربما يعرفُ عمّي أو أحد أبناء عمّي».

«هذا مُستبعدٌ تماماً». ثنى عادل فمه وطقطق بلسانه، قبل أن يحوّل إلى الغيار الأوّل في السيارة. أخذت الإطارات تحترق في صوت زعيقٍ عالٍ. قفزت السيارة إلى الأمام، ولم يستطع عادل إخفاء نشوته. هذه ليست المرّة الأولى التي يتصرّف فيها بهذه الطريقة، وكأنّ الجاذبية قد سُحِبَت من تحت قدميه.

«لكنّه ليس مستحيلاً»، قلتُ مُصرّةً، بالرغم من أنّني مُدركةٌ تماماً أنّ تعقّلي سخيف، فلقد التزمتُ به لأنّ لامبالاة عادل تثير أعصابي بطريقةٍ خاطئة. «أنت تعرف المجازفة التي أقوم بها كوني معك. أقلّ ما يُمكنك فعله هو أن تكون حذراً».

«بلا، بلا، بلا». مدّ عادل لسانه خارجاً، وانتظرني لأضحك وأوافقه بأنّي كنتُ غير عقلانية.

كنتُ سأفعل، لو أنّه بقي أيّ سحرٍ في هذه اللعبة التي يستمتع بها. لكنّ الحقيقة أنّها قد أصبحت مُملّة، إلى درجة أنّني أخذتُ أتساءل لماذا تبدو عليه السعادة جرّاء مشاهدتي مُحبطة.

أشحتُ بنظري بعيداً، وشغلتُ نفسي بمحاولة معرفة أكثر ما يُمكن من أسماء المنشآت على جانبيْ الطريق. حوّلت المهمّة لتصبح أكثر صعوبةً، من خلال قراءتها باللغة العربية، ثم عكس اتجاهها وقراءتها باللغة الإنجليزية: (مطبخ القلعة الحمراء البنجابي، مصبغة نسمة الصباح، زهور رائحة وابتسامة). لاحقاً، وحالما يحلّ الظلام، ستبدأ هذه اللوحات تومض بضوء النيون، أو تتألّق من خلال مصابيح الفلوريسانت الأسطوانية: (كافتيريا اجلس واسترح، قمّة القمم لميزان السيارات، مخبز الإشراق والشروق).

نخعت السيارة، وهدر المحرك بينما كان عادل يتجاوز شاحنةً أمامنا. ألقيت نظرةً سريعة على عادل، ورأيتُ أنّ تلك الابتسامة العريضة لم تُفارق محيّاه. بعد ثلاث سيارات، حشر عادل نفسه أمام سيارة «تويوتا كورولا» باذنجانية اللون. نظرتِ المرأة التي تقود السيارة وتلبس الساري مباشرةً في عينيّ، كان فمها معوجاً من الصدمة، كونها تفادت الاصطدام بنا بمقدار شبرٍ فقط.

ابتلعتُ صرختي قبل أن تفلت من عقالها. أردتُ أن أُقرّعه، وحتى أن أصفعه، لكنّني قاومت ذلك الباعث. كلّ ما كان سيفعله ذلك هو تغذية حاجته إلى جذب الانتباه، وجعله يرغب بإخافتي أكثر وأكثر. تيبّستُ في مكاني، واستمريتُ في مسح المتاجر: مطعم طباخ الشعب، محمصة الرجل الغريب، بارادايس لخدمات التصوير، مينشن إمبوسبل للكباب الإيراني.

تقبع بين قدميّ حقيبة تسوّق تحوي ثوبين منزليين قُطنيين لم أكن بحاجةٍ إليهما، لكنّني ابتعتهما كدليلٍ على أنّني كنتُ أتسوّق في «المول». لماذا عليّ تكبّدُ كلّ هذا العناء من أجل هذا الرجل الطفوليّ؟

عندما وصلتُ إلى دبي أوّلاً، قبل خمسة أسابيع، قضيتُ أياماً أفكّر في ترتيبات كيف سأتمكن من لقائه دون أن أُثير الشُبهات. كان الأمر سيكون سهلاً لو كنتُ أعرف كيف أقود السيارة. لكنّ عمّي ماجد ضدّ ذلك. لم يكن عمّي ليتزحزح عن موقفه عندما يتعلّق الأمر بالسماح لنساء عائلته بقيادة السيارة.

مُخططاتي الأولى كانت غير منطقية، ودراماتيكية إلى أقصى حدّ. تخيّلتُ نفسي أزحف خارج نافذة غرفة نومي في الطابق الثاني، وأهبط سلّماً كنتُ خبّأته خلف شجرة التمر الهندي. تخيّلتُ أنّي أحفر نفقاً إلى الزاوية البعيدة من الحديقة. بالطبع، كان الأمر مجرّد تخيّلات، لكنّها أعطتني الوقت لتقرير كم أنا مستعدّة لأغامر وألتقيه. بعدها، تفحّصتُ جدول أعمال قاطني

منزل عمّي: متى ترتاح العائلة أو متى تخرج من المنزل، متى يختفي طاقم العمل في المطبخ الخارجيّ لتناول وجباتهم، أو في غرفهم للقيلولة. لستُ متأكّدةً لمَ تكبدتُ عناء كلّ هذه التفاصيل، لأنّه لم يكنْ بإمكاني أن أدلف خارجةً من البوّابة الأمامية، كما اعتدتُ أن أفعل في القاهرة. بالرغم من أنّ الشوارع في دبي عريضة، ومستقيمة، ونظيفة، وبالرغم من عدم وجود مخاطر على التقاطعات، لأنّ السيارات تتوقف على الضوء الأحمر وتنتظر المشاة ليعبروا، فإنّ امرأةً بمفردها تسير على قدميها ستسترعي الكثير من النظرات الفضولية والسيارات التي تتعقبها، وأخيراً سيتعرّف عليّ شخصٌ ما ويشعر أنّ من واجبه أو واجبها إعلام ساكني المنزل بالأمر. كان حلّي بسيطاً: يقوم أحد سائقي المنزل بإنزالي في «المول»، ومن هناك أستقلّ سيارة أجرة لمقابلة عادل.

«أرى أنّك توقّفتِ عن الكلام».

في تلك اللحظة، كانت عاطفتي نحوه في حدودها الدنيا. فكّرتُ أن أفتح الباب وأخرج. لكنّنا كنا قد أصبحنا خارج حدود العمران، تخطينا مطار الشارقة، ونتّجه مسرعين نحو صحراء الذيد.

قبل أن نخرج من الطريق، توقّف عادل وأخرج بعض الهواء من الإطارات، بحيث يستطيع أن يقود السيارة على الرمل الناعم. ثمّ انطلقنا، نتبع الآثار التي خلّفتها سيارة شخصٍ آخر. كنتُ أرى إلى يساري مستوطنةً من خمسة أو ستة أكواخ من جريد النخل،

مملوءةً بالماعز المتسكعة، وإلى الأمام منها حظيرة بيضوية الشكل للجِمال مع صغارها، بينما تتبعثر بين الكثبان البدائية نباتاتٌ وشجيراتٌ جافّة متفرّقة. بين الحين والآخر، كنتُ ألمحُ على البُعد أعمدةً من الغبار حرّكتها سيارة دفع رباعيّ أخرى.

وبينما كانت «الباجيرو» تتمايل وترتجّ، أخذ مزاجي يعتدل جرّاء المتعة كوني في صحراء واسعة ومفتوحة. لماذا لا أستطيع أن أبقى غاضبةً منه لفترةٍ طويلة؟ ربما يكمن السبب في أنّ الوقت الذي أقضيه معه محدود، وثمين. في كلّ حال، عملت ما بوسعي لأبقى هادئة، حتى عندما أصبح هذا الأمر صعباً، عندما ترك مسار العجلات القديم، وسار على الكثبان.

ها نحن نصعد للأعلى، طائرين فوق الذروة. انزلقت عباءتي نحو الأسفل وتجعّدت حول وركي، وانسلّت شيلتي على كتفيّ. تشبثتُ بإحكام، إحدى يديّ كانت قابضةً على المغلاق فوق باب السيارة، واليد الأُخرى تمسك بزاوية المقعد، استعداداً لما هو آتٍ.

إنّه بحرٌ من الارتفاعات والانخفاضات. أخذ عادل يُسرع فوق الكثبان الضحلة من الرمل الشديد النعومة. ومع كلّ نطّة، كان النَفَس ينشب في حنجرتي، ويخرج بعد ثانية بقوّة الهبوط، مع صياحٍ يتراوح بين عواء الكلب ونخر الخنزير.

كان عادل يعرف أنّني أهوى الإثارة. كان يعرف أنّني سأبدأ عاجلاً بالصراخ جرّاء السرعة. ولقد فعلتُ ذلك، عندما كانت

السيارة تحرّك الرمال العميقة لكثيب عالٍ. «أووه!» كانت السيارة تهدر وهي تصعد نحو الأعلى، وصولاً إلى الحافة، ثمّ تبدأ بالخرخرة وهي تنزلق نحو الأسفل باتجاهٍ شبه أفقيّ. «إيبي!»

تعامل عادل مع بضع قمم كثبان عملاقة أُخرى، قبل أن يُناور بالسيارة عائداً إلى بعض الكثبان الرملية الأصغر، حيث كنا نطوح من طرفٍ إلى آخر، ونهتزّ نحو الأعلى والأسفل، والخلف والأمام. كنتُ أبتسم وأعبس في الوقت نفسه. لم يكنْ من فاصلٍ زمنيّ بينهما، فقط رعب وحماسة مُمتزجان معاً، لدرجة أنّي لم أكن قادرةً على تمييز أحدهما عن الآخر.

كان عادل حازماً في براعته، زالقاً سيارته على شكل خطٍّ متموّج، بحيث لا نعلق في الرمال، مُحكماً قبضته على عجلة القيادة، لكنه يُحرّرها عند الحاجة إلى ذلك، وكأنّه في حوارٍ مع السيارة.

لكن، وبعد ذلك، حصل شيءٌ ما: خطأ في التقدير، خطأ في الحُكم. وصل عادل إلى قمّةٍ مُرتفعة، وتفاجأ بما هو موجود على الجانب الآخر. كان ثمة منحدرٌ ضيّق، عبارةٌ عن فمٍ مفتوح.

انزلقنا للأسفل. لم تكن السيارة مستقيمة كما يجب أن تكون.«ارجع للخلف! أدرها جانباً!»

سمعني عادل، وتمنّيتُ لو أنّه لم يستمع إليّ! لكنّ هذا الخطر المفاجئ تسبّب بتجميد حواسه. أدار عادل عجلة القيادة نحوي،

وقبل أن يكون بمقدور أيٍّ منا إبداء أيّ ردّ فعل، كانت الجاذبية تسحبنا نحو الأسفل.

كان صوت ارتطام. كنتُ ثقيلةً ككيس أرزّ، بينما كنتُ أسقط فوقه. ضاعت صرخته في هسيس الرمل الذي كان يبتلعنا.. حاول أن يُنحّي ثقلي جانباً، لكنه لم يُفلح في أكثر من نكزي بضعة سنتيمترات نحو عصا تغيير السرعات التي أخذت تقرقع وتنخزني في بطني.

أخذ عادل يخور، وأدركتُ أنّها يده. كانت يده مُسمّرة في الباب تحت أضلاعي. حاولتُ أن أتحرّك، لكنّ رأسي كان ثقيلاً ككرة مدفع. أردتُ أن أرفع نفسي للأعلى، أن أتمسّكَ بشيءٍ ما، أيّ شيء، لكنّ خدّي بقي ملتصقاً بالنافذة.

إلى الأسفل، إلى الأسفل.. تستطيل الثواني هناك، وعندما بدأتُ أتصوّر أنّ الأمر سيطول إلى الأبد، شرعت السيارة في انحدارٍ مُتقلقل. أخبرتني الغريزة أن أقفز نحو الأعلى، خارج السيارة. أمّا المنطق فهدّأ من وتيرتي، وأخبرني أن أعرف اتجاهاتي. كان ثمة صوت صرير معدن وخبطة صمّاء.

* * *

كنتُ جالسةً على انحدار كثيب رمليّ، أحضنُ ركبتيّ وأرتجف. كنتُ لا أزال مُتداعيةً جرّاء الكارثة، وأتمتم بأدعية الشكر لله على

إنقاذنا. كانت السيارة المقلوبة مستقرّةً أمامي، وأنا أفكّر بالمعجزة التي أدّت ألا يكون الحادث مُميتاً.

بعد خروجنا من نافذة الراكب مباشرةً، وصلت سيارتا «نيسان باترول» بأضواءٍ دائرية كبيرة مُثبتة على صداماتهما، وكأنّهما خرجتا من الهواء الرقيق. وصلتا بينما كنتُ أفحص يد عادل، محاولةً أن أعرف ما إذا كانت مكسورة (وكأنّني أعرف بهذه الأمور). كانوا خمسة شبّان يبدو أنّ أعمارهم في حدود الستة عشر عاماً، بناءً على هياكلهم العظمية، لكنّ الأرجح أنّهم أكبر من ذلك، قفزوا من السيارات. وبعدما سألوا إذا كنا بخير، أخذوا يتفحّصون السيارة: كانت تستلقي على جانبها، عجلتان في الهواء، بينما كان زوج العجلات من طرف السائق مدفوناً في الرمال.

إنّه منتصف الصيف، والهواء ثقيل، ما عدا نسمة غامضة كانت تهبّ بين الحين والآخر. الهواء حارٌّ جداً وهو يصدر صوت صفير، بينما كان يكشط دوّامات صغيرةً من الرمل حولي، وكأنّه كان يُطلق نوبةً مفاجئة من الهستيريا. التصق الرمل بوجهي الرطب، واستحال معجونةً ناعمة.

كان الفتيان يضعون قبعات، عوضاً عن الغترات، للمظهر الرياضي. رفعوا أكمامهم وثبتوا كناديرهم بعقدٍ كبيرة حول خصورهم. وقفوا في صفٍّ يواجهون السقف، وأخذوا يهزّون السيارة. كان عادل يعمل معهم، لكنّه كان يدفع بيده السليمة فقط.

جثا أحد الأولاد على ركبتيه وأخذ يحفر. وعندما اقتنع أنّ الإطارات قد تحرّرت بما يكفي، أعطى إشارةً بإبهامة وانضمّ للآخرين. كان يبدو عليهم أنّهم يعرفون ما يفعلون، الأمر الذي منحني الشعور ببعض الارتياح، بينما كنتُ أغمغم في سرّي:«هيا، هيا، هيا». كلّما أسرعنا في الخروج من هنا، كان ذلك أفضل. يكفي اختبار القدر!

«واحد، اثنان، ثلاثة!» ثم أخذوا يدفعون.

بعد محاولات عدّة غير ناجحة، قرروا أن يربطو صدام سيارتنا بحبلٍ إلى صدامات سياراتهم، واستخدامها- واحدة من كلّ جانب- لجذب السيارة إلى الخلف. نجح هذا الأمر أخيراً، وكان ارتياحي شديداً، لدرجة أنّي أردت أن أعانقهم واحداً واحداً. بالطبع أنا لا أقوم بعملٍ من هذا النوع.. قبل أن يُغادروا، سأل أحد الفتيان عادل ما إذا كان يستطيع القيادة على الرمل بيدٍ واحدة.«ماذا عن...» وأومأ برأسه باتجاهي «... العائلة؟»

«زوجتي؟»

«نعم، زوجتك. هل تستطيع القيادة؟»

«كلا».

«يُمكن لأحدنا أن يقود سيارتك إلى الطريق الرئيس، إذا أحببت»، اقترح فتىً آخر. «أو يُمكن أن نسير وراءك في حال علقت في الرمل».

«نعم، لأنّه بتلك اليد...» وقام الفتى الأول برفعها برفق وتفحّص التورم بشكّ. «أعتقد أنّه يتوجّب عليك الذهاب إلى المستشفى مباشرةً».

«سأفعل، يا أخي»، أكّد له عادل. «انظر». رفع عادل ذراعه اليسرى وطوى أصابعه.«اليد الأخرى تعمل جيداً». وابتسم ابتسامةً عريضة.

وحالما غادر الفتيان، نهضتُ ونزعت شيلتي وعباءتي، وهززتهما ونفضتهما بشكلٍ جيّد. تهاطل الرمل إلى الأرض. كانت النوافذ مغلقة، ومع ذلك كنتُ كمن يسبح في الرمل؛ كان الرمل ناعماً جداً، بدا وكأنّه تسرّب إلى جميع مسام جسدي. علق الرمل في مؤخرة عنقي وملأ أنفي وأذنيّ، وغطّى فروة رأسي وانزلق بين أسناني. بصقتُ بينما كان عادل يختبر المحرّك: صوت خريرٍ بديع، وكأنّ شيئاً لم يحدث. ولكن، حالما قفزتُ إلى السيارة، أطفأ عادل المحرك.

«ما الأمر؟»

«لا شيء».

«هل تستطيع القيادة؟»

«بالطبع أستطيع، ولكن لا يزال الوقتُ مبكراً للعودة».

«لكن بعد هذا... بعد...» وقبل أن أتمكّن من نظم الكلمات في جُمَل، قفز عادل من السيارة وأخذ يشقّ طريقه بخُطاً واسعة صاعداً الكَثيب المنحدر.«ولكن يتوجّب عليك أن تذهب إلى

المستشفى لتفحص يدك»، ناديتُ عليه. حاولتُ أن أُبقي صوتي خالياً من اليأس.«سيحلّ الظلام قريباً. يجب أن نُغادر!» لكنّ عادل لم ينظر إلى الوراء.

الجوّ دَبِق. نفّستُ عن كُربتي بنفثةٍ صاخبة في الهواء الحارّ. لن أفضّل شيئاً أكثر من أن أعود إلى المنزل حيث السلامة، قبل أن يحدث شيءٌ آخر. انتظرتُ لبرهة، وعندما لم يعُد، نزلتُ من السيارة لأجرّه للأسفل. تركتُ عباءتي في السيارة، لكنّي رميتُ شيلتي على كتفي. كان الرمل الساخن يبتلعني مع كلّ اندفاعةٍ نحو الأعلى. كان الأمر أشبه بالخوض في ماءٍ يصل للركبة، وعندما وصلتُ في نهاية المطاف إلى القمّة كنتُ مُنهكةً تماماً.

ها هو هناك، يجلس متربّعاً، ويُحدّق أمامه في الأُفق، فيما يبدو لحظة تأمّل نادرة. راقبته بينما كنتُ أستردّ أنفاسي. كان الأمر وكأنّ مليون ثقب قد حُفِرت في جلدي؛ مسحتُ العرق بشيلتي، قبل أن أُلقي بنفسي بجانبه.

جنباً إلى جنب، جلسنا نُراقب الشمس وهي تغوص في الأفق. كرةٌ حمراء ساطعة، كانت هالتها متوردة ناعمة وهي تدلف في السماء الشاحبة. قال عادل: «أتعرفين، أشعر بالسوء الآن».

«لماذا، يا عادل؟»

«لأنّي قد عرّضتك لخطرٍ غير ضروري، من خلال القيادة المتهورة فوق مكانٍ كهذا».

لوّحت بذراعي للدلالة على أنّه لا يتوجّب عليه أن يفكّر بالأمر ولو لثانية.

«لا، لا، لا». أدار وجهه نحوي، وتحرّك مقترباً على ركبتيه.«حقيقةً، يا مريم، كان يُمكن لهذا الحادث أن يتسبّب بكسر عظامك». هزّ كتفيه.«أو أسوأ».

«لكنّني لم أتعرّض لشيء، الحمد لله. بالإضافة إلى ذلك، كنتَ تقود بسرعة لأنّك ترغب في إعطائي بعض المتعة، لأنّك تعرف كم أحبّ هذا الأمر». وكزته بشكلٍ لعوب، وأتبعت ذلك بضربةٍ خفيفة ببراجمي على خدّه.

دفعَ يدي بعيداً وأخذ يرمش بعينيه بشكلٍ متكرّر.«فقط دعيني أُكمل كلامي: الحقيقة هي أنّني متهوّر. أنا لا أفكّر أبداً كيف أنّ أعمالي يُمكن أن تؤذي الآخرين». ثمّ ضرب بيده المصابة على صدره وطأطأ رأسه. كانت متورّمةً حول الإبهام، ومُخضّبة باللون الأزرق الفاتح.

«لقد انتهى الأمر». وغمرتني موجةٌ من الإحساس بالذنب. «لو كان خطأ أحد، فهو خطئي أنا. أنا من طلبت منك أن تستدير».

«ربما».

«نعم، نعم، كلّ هذا بسببي، لو لم تستمع إليّ، لكنّا بخير الآن».

هزّ رأسه.»لا تحاولي أن ترفعي من معنوياتي، أنا رجل سيّئ».

كان يبدو في غاية التعاسة. وتحت ستارةٍ من رموشه السوداء الكثيفة، بدت عيناه مُخضّلتين. كان حزنٌ عميق فيهما، كنتُ متأكدةً من ذلك. قاومت نزعة أن أرفع من معنوياته، أن أحضنه بصدري وأمسّد شعره. عوضاً عن ذلك، فركت كتفه بلطف، لمواساته. لكنّ تلك اللمسة استثارت أكثر ممّا يجب أن تفعل. ألقى عادل برأسه في حضني.. يا للوضع المحرج!! حاولتُ أن أتظاهر أنْ لا شيء ذا مغزىً في هذه البادرة، ولكن كان من الغريب أن يكون رأسه هناك!!!

بقي هناك، ساكناً كصخرة، ما خلا بعض الاختلاجات العَرَضية. شككتُ أنّه قد يكون يبكي، لكنّني لم أنظر للأسفل لأتأكد (من الأفضل أن أجنّبه الإحراج). أبقيتُ عينيّ مُثبتتين على الشمس التي كانت تغوص، وانتظرت أن يتوقّف، بينما كُنت أربّت على رأسه، متوقعةً أن ينهض.

لكنّ رأس عادل أخذ في الدوران، مُتمرّغاً فوق سُرّتي. تخلّصتُ منه ورجعت للخلف. نهض بخفّة على ركبتيه وأمسك بوجهي، متطاولاً، يُخطّط لتقبيل شفتيّ. لقد سبق أن تبادلنا القبل -كانت نقراتٍ لعوب أو تعابير مرحة عن الرغبة- حيث كانت الحُميا دائماً تحت المراقبة والفحص، من خلال عقلي الدائم اليقظة - لذلك كنتُ مرتاحةً أن أدعه ينتهي قبل أن أدفعه بعيداً، ثمّ يُمكننا المغادرة.

لكنّ الأمر استحال هذه المرّة ليكون نوعاً مُختلفاً من القُبَل: عميقاً وطويلاً بشكلٍ لا يُطاق. أذابت القبلة مقاومتي، لدرجة أنّه- عندما وضع ذراعيه حولي لمعانقتي- ضغطتُ لأكون أقرب، كانت واحدةً من أصغر التحرّكات، لكنّها أخرجت الوحشية منه، تلك الوحشية التي فاجأتني.

بدفعةٍ واحدة رشيقة، قلبني على معدتي وثبّتني على الأرض. كان يقهقه ضاحكاً، حاولتُ أن أتملّص من تحته، لكنّه كان يُمسكني على الأرض بإحكام، بحيث كانت الحركة الوحيدة التي أستطعتُ القيام بها هي بضع ركلات وخبطات خفيفة كانت تفتقد لأيّ قوّة حقيقية. خفّفَ عادل من إحكام قبضته، ولوهلةٍ تخيّلتُ أنّه سيُطلق سراحي، حيث كان لديّ ما يكفي من الحرّية لأنهض على مرفقيّ. لكن عادل كانت لديه أجندة مختلفة.

«ما الذي تفعله؟!!»

ممانعتي ومناشدتي إياه بالتوقف دفعاه بعيداً عني، ليشبع غريزته بنفسه !!

* * *

... مذهولةً وعاجزةً عن الكلام، أخذتُ أحدّق في أضواء «الباجيرو» وهي تتراقص أمامنا فوق الكثبان الرملية. كنتُ مخدّرة جرّاء الشعور بالعار، وبإحساسٍ غامض بالوحدة، وبشعورٍ

جسديّ بالخواء. كان الأمر وكأنّ جزءاً مهمّاً منّي – القلب، المعدة، الأمعاء – كلّها قد انتُزِعت منّي.

لم تبدأ شفتاي بالارتعاش إلى أن وصلنا الطريق العام، وهي علامةٌ تعني أنّ الدموع تحتاج لأن تنفجر بشكلٍ عاجل. ومن منطلق إصراري على أن أبقى مسيطرةً على الوضع – فلن أنفجر أمامه بالبكاء! – حبستُ الدموع بينما أخذت الأسئلة تتزاحم في رأسي. هل هذه هي الطريقة التي يجب أن تتطوّر فيها العلاقة؟ وإذا كان الأمر كذلك، لماذا لا أشعر أنّني مميّزة، أو حتى آمِنة. ماذا أعني بالنسبة إليه؟ كم كنتُ أتمنّى لو أنّ أحداً ما يستطيع أن يُخبرني. أين دلال؟ كانت ستعرف.

«هل أنتِ بخير؟»

لم أقل أيّ شيء.

«مريم، أجيبيني. هل تشعرين أنّك على ما يُرام؟»

«كنتُ»، تمتمتُ. «هذا ما أشعر به الآن».

«لقد كنّا نقضي وقتاً مُمتعاً. كُنتِ تُقهقهين، كُنتِ تضحكين. ظننتُ أنّك كُنت مُستمتعة».

ربما كُنتُ.. «كان عليك أن تسأل».

هزّ رأسه.«لا أعرف ما الذي أقوله لكِ. ظننتُ...»

«لن أحترم نفسي بعد هذا».

«لماذا أنتِ مُتألّمةٌ إلى هذا الحدّ؟»

«لن تحترمني بعد الآن».

«هذا ليس صحيحاً. أنتِ في هذه اللحظة أقرب إليّ ممّا كنتِ أبداً».

«لا أظنّ ذلك».

«لماذا تقولين أشياء كهذه؟» قال متأوّهاً. «لو حدثَ أيّ شيء، فهو خطئي. ولا بد أنّه حدثَ لأنّني أحبّك أكثر من أن أستطيع أن أعبّر».

«هل كان ذلك حُبّاً؟»

«أعرف، أنا آسف. الأمر برمّته أنّك جميلةٌ جدّاً، والوحش داخلي تغلّب عليّ. أنا آسف. لن يحدث هذا ثانية». أطلق عادل تنهيدةً عميقة. بدا عليه أنّه راضٍ، وكأنّه قد أنهى للتوّ حمّاماً طويلاً مُريحاً.

«أنانيّ، هذا ما أنت عليه».

«ماذا؟»

شبكتُ ذراعيّ وقطبتُ وجهي. «لقد سمعتني: أنانيّ».

«نعم، أنانيّ في حبّي لك. ولهذا أرغب في رؤيتك كلّ يوم. أنا آسف لذلك، يعني».

«لم أعنِها بهذا الشكل». ضيّقت عيوني وأنا أنظر إليه.

«إذاً كيف؟ رجاءً أخبريني».

لم أُجبه.

«انظري مريم، أتوسّل إليك، لا تفسدي هذا اليوم، لأنّه أفضل يومٍ في حياتي. لن أنساه ما حييت. اليوم كان تنفسّك يدفئني، وأنتِ سمعت صوت نبضات قلبي المتسارعة».

«توقّف عن قول ذلك! لا أريد أن أسمع هذه الكلمات المغموسة بالعسل لتبدو حلوة».

«حسناً، أخبريني. ما الذي كنتِ تعنينه عندما نعتِّني بالأنانيّ؟»

«أنت لا تهتمّ بي. كلّ ما تهتمّ به هو نفسك».

«نفسي؟ ما الذي تتحدّثين عنه؟» تنهّد عادل وهزّ رأسه.«أنا هنا لقضاء عطلة الصيف، الشهور الحارّة التي يتوجّب أن أقضيها مع عائلتي في الفجيرة. مرّةً في السنة، تحصل أمّي على متعة أن أكون في المنزل. وماذا أفعل أنا في المقابل؟ أحرمها هذه المتعة. آخذ كل الوقت الثمين وأقضيه معك، عوضاً عن ذلك». حرّكت كلمات عادل الهواء بيننا.«وبعد أن أراكِ، أذهب إلى شقّة أصدقائي في الشارقة، حيث أقضي الليل، لأنّ منزلي بعيد، ولأنّني أعيش على أمل أن أراكِ ثانيةً في اليوم التالي. بعضنا لا يمكنه دفع تكلفة الإقامة في الفندق! كان بإمكاني أن أكون مع عائلتي الآن». لكز عجلة القيادة بيده السليمة.«كان بإمكاني أن أكون مع أصدقائي. في هذه اللحظة! أرتشف «الكابتشينو» في مقهى «جيرارد»، أو ألعب الورق في مجلسهم. آهـ، يا للروعة! حسناً، تابعي وأخبريني مرّةً أُخرى أنّني أنانيّ».

أخذت شفتاي ترتعشان مرّةً أُخرى، ولم يكُن بإمكاني هذه المرّة أن أكبح جماح دموعي في عينيّ. لقد شقّت جدولين صغيرين جريا على جانبيْ أنفي. لا شكّ في أنّها كانت مُخضبةً بلونٍ رماديّ وسخ، مع ما تبقّى من الكحل، بعدما أقحم وجهي في الرمل.

لا توجد طريقةٌ لإيقافها، لذلك حاولت أن أنشج بصمت، على أمل أن يتجاهلني. ولو نطقَ بكلمةٍ أُخرى، أخشى أن أبدأ بالعويل.

حَدَّقَ بي. «ما الذي حدثَ لكِ؟ لمذا تبكين؟»

دفعَني هذا الاهتمام المفاجئ في صوته من فوق حافة الصمت.

«لا تنتفضي هكذا. دعيني أتوقّف قليلاً إلى جانب الطريق. حسناً، حسناً، لا، لا تضربيني، لن أتوقّف. سأتابع القيادة». سكتةٌ لطيفة. «أغلقي أنفكِ بإحكام. سيخلّصك هذا من الحازوقة. لا داعي لأن تُديري وجهي، لن أنظر إليك». سكتةٌ لطيفة. «هيا، لا تنحني هكذا، ستمرضين». سكتةٌ لطيفة. «سيزداد الأمر سوءاً إذا احتفظتِ بكلّ شيءٍ في الداخل. تنفّسي بعمق. اصرخي إذا استدعى الأمر. أووو!» سكتةٌ لطيفة. «حسناً، لا تصرخي. كلّ ما أريده هو أن تتوقّفي عن الشعور بالتعاسة».

«إذاً، اخرس!»

29

دلال

«فكّري كعصفورٍ دُوري، وليس كَنَسر». هذا ما دأبَ الملحن عمرو دهب على قوله طيلة الأسابيع الماضية، خلال تسجيلنا الأول، عندما كان يشرح الاتجاه الذي يجب أن يسلكه صوتي. آنفاً، وعقب انتهائي من تسجيل آخر أغنيةٍ في ألبومي الأوّل، لم يعُد يقُول الكثير. الشيء الوحيد الذي اعتاد قوله حالما تدبّ فيّ الحماسة: «أنتِ تتلألئين كالذهب».

نعم، الذهب. لم يكُنْ ذلك تشبيهاً مغرياً. بالرغم من ذلك، أبهجني، وسمحتُ له بتعزيز إحساسي السعيد المسبَق بإنجازاتي. أنزلتني مدام نيفين عند المنزل، وحالما أصبحتُ على الدرج المعتم لشقّة إمبابا، أخذتُ أتسلّق درجتين في كلّ خطوة. كنتُ شديدة الجوع، وظننتُ أنّه بإمكاني أن ألتهم جدياً محشواً بكامله، لو كان ثمة واحدٌ مطبوخ وجاهز أمامي. ابتسمتُ بهدوء للفكرة، وقرّرتُ أنّ شطيرةً ستفي بالغرض.

إنّها الواحدة صباحاً، وعندما وصلتُ إلى طابقنا، رأيتُ المصباح مُطفأً. كان مُتدلّياً من السقف، من خلال سلكٍ مضغته الفئران جزئياً. كان المصباح يومض خلال الأيام القليلة الماضية.

نقرتُ عليه، وهو ما اعتدت أن ينجم عنه ضوءٌ كسول. لكنه هذه المرة، أومض ضوءاً مُبهراً لثانية، ثمّ انفجر.

تجمّدتُ في مكاني. لا شك في أنّ عقلي يخدعني. كنتُ متأكدةً أنّني لم أرَ حروفاً حمراء قانية على الباب. فكرتي الأولى كانت أنّه لا بُدّ أنّ أحداً ما قد قتل أمّي. لم أستطع أن أُقرّر كيف أشعر حيال هذا الأمر.

أخذتُ أرمشُ بعينيّ، وانتظرتُ إلى أن اعتادتا الظُلمة. تجسّدت الكلمة أمامي. كانت الكلمة بسيطةً ومباشرة كصفعةٍ على الوجه: سافلة! وعند إجراء فحصٍ أقرب، لاحظتُ وجود رسوماتٍ تنتشر فوق إطار الباب: رسوم لرجال ونساء في أوضاع فاضحة. لدينا هنا فنّان – حيث إنّه لجأ إلى ضربات فرشاة الرسم المتأنّية، عوضاً عن دهان الرشّ. كانت أشكال الرجال تبدو مختلفة: بعضهم بأنوفٍ ضخمة، وآخرون بشوارب أو لحى. شكل المرأة بقي نفسه، تصويرٌ واضح عن أمّي. وضعتُ يدي على فمي، غير مُصدّقةٍ لما أراه. متى حدثَ ذلك؟ مثل مُحقّق، ضغطتُ على الجزء المتكتّل من الدهان، وتفحصت الكرة التي التصقت بإصبعي.

جلستُ بتثاقلٍ على الدرج، وتساءلتُ ما إذا كانت أمّي تعرف بإهانة الجيران الحديثة هذه. فاجأني عدم وجود صوتٍ قادم من الشقّة. تنتظرني أمّي دائماً، بحيث تستطيع أن تقيس مزاجي

عندما أعود. لم تكن أمّي مُدركةً أنّني أعرف أنّها تعرف ذلك. كان التلفاز يعمل طوال الوقت، ويُنير وجهها بفيضٍ من الضوء الرماديّ الأزرق. كانت توّاقةً لأن تراني أفشل. في كلّ مرّة تراني سعيدة، كانت تقطّب وجهها وتنظر إليّ شزراً. كانت تُحاول- في بعض الأحايين- أن تهزّني من خلال توجيه ملاحظةٍ وضيعة أو تعليقٍ مُسيء، لكنّي أصبحتُ ذكية. لم أعُدْ أجيبها.

نهضتُ وأخذتُ أنتقل من قدمٍ لأخرى، غير قادرةٍ على أن أُقرّر إذا كنتُ سأدخل أم أبقى خارجاً. سافلة! الكلمة معوجة بعض الشيء. عددتُ سبعة أزواجٍ من الرسوم الفاضحة. من قام بهذا الأمر، كائناً من كان، فقد أخذ وقته لإنجازه. هل من الممكن أنّ أمّي لم تسمع ضربات الفرشاة أو حركة تبديل الأقدام أو الأصوات الضاحكة؟ ماذا عن الجيران؟ هل ضحكوا لدرجة أنّهم أرهقوا أنفسهم من الضحك؟

ملأني حزنٌ غريب، حزنٌ على أمّي. لقد اختبرتُ كلّ أنواع العواطف تجاهها- الحب والإعجاب، الغضب والاستياء - لكنّي قلّما شعرتُ بالإشفاق تجاهها.

أغمضتُ عينيّ. ما الذي يوجد على الجانب الآخر من الباب؟ أخذت معدتي تُقرقر، لكنّني قرّرتُ أن أنسى أمر الشطيرة. سأذهب إلى غرفتي مباشرةً وأبقى هناك حتى الغد، وسأواجه ما سيأتي في ضوء يومٍ جديد.

بدا صوت طقطقة المفتاح عالياً جداً. مشيتُ إلى غرفتي على رؤوس أصابعي، وأغلقتُ الباب ورائي بهدوء. لم أُكلّف نفسي عناء تغيير ملابسي أو إزالة مكياجي، اندسستُ تحت الغطاء ومططت رقبتي، مانحةً عقلي الفرصة لإيقاف كلّ الأفكار.

مرّت الدقائق متثاقلة. تثاءبت. تمطيت. وعندما لم يأتِ النوم، ركلت. ثمة صوت اضطرابٍ، بطيء ومنتظم، في بطني. لو كان فقط بإمكاني أن أملأه. جلستُ وأخذت أستمع بتأنٍّ. كلّ شيء ساكِن، لذلك تسللتُ إلى المطبخ.

كانت الجبنة البيضاء تبدو شهية. قطّعتُها إلى مُكعبات، وحشوتها في قلب رغيفٍ من الخبز البلدي المفرود، مع شرائح من الطماطم ورشّة من الزيتون المنزوع النوى. كنتُ أقف وظهري لباب المطبخ، وتناولت قضمتي الأولى. تركتْ أسناني علاماتٍ أنيقة على الخبز: تمّ التهام ثُلث الشطيرة بشراسة. كانت قضمتي الثانية أصغر، لكنها كانت تحمل القدر نفسه من الإشباع؛ تلذذتُ بخليطٍ من النكهات المختلفة على لساني. تناولتُ قضمةً ثالثة.

«أرى أنّك عُدتِ».

أُجفِلتُ بصوت أمّي، فعضضتُ لساني.

«لقد جعلتني أتساءل ما الذي حدثَ لك؟»

هل هذا اهتمام؟ بلعتُ المزيج في فمي بلقمةٍ واحدة، وغصصتُ بها. دمعَتْ عينياي وسخُن وجهي. بالإضافة إلى

ذلك، أخذ لساني المصاب ينبض بالألم. لم تناولني أمّي كأس ماء. جلبته بنفسي. لكنّها ضربتني على ظهري بقوّة، وكأنّها تطرقُ الغبار عن سجادة.

«عضضتِ لسانك أيضاً، هه؟»

أومأتُ برأسي، وجلستُ على كرسيّ المطبخ الذي سحبته لي، لم يكُنْ في عينيها قساوة، فقط نظرة قلق غامضة. إنهّا النظرة التي تُدفئني من الداخل والخارج، وقرّرتُ أنّ هذا اهتمامٌ. ليست المرّة الأولى التي أجد فيها نفسي أتمنّى القليل فقط من القلق الأبويّ، حتى ولو قادني إلى استجوابٍ مُطوّل، وهو الأمر الذي تكرهه مُعظم الفتيات اللائي أعرفهنّ. لم أتعرّض لهذا الأمر من قبل. كانت لديّ الحرية المطلقة لأن آتي وأذهب متى شئت. ربما ستسألني لماذا تأخرت، وأين ذهبت، ومن رأيت. سأخبرها كلّ شيء، لو فعلتْ ذلك: كيف أنّني على بُعد لحظاتٍ من الشهرة.

عندما انتهيتُ من تنظيف حنجرتي، أخذتْ تربّت على يدي. وكان ذلك كافياً لاستعجال التقرير مُنصبّاً من فمي. استمعتْ. كان وجهها غُفلاً من التعابير، وكنتُ متأكدةً أنّ السبب كونها لا تريد أن تفوّت أيّ كلمةٍ ممّا أقول، لأنّها كانت تريد أن نكون قريبتين. عندما انتهيت، كنتُ أتألّق بِشْراً، وتوقعاً، أُميل برأسي مثل جروٍ ينتظر الموافقة، بعدما أدّى حيلةً ذكية على نحوٍ خاص. صغتُ ملاحظةً عقلية تقتضي بكشط الكلمة القذرة، وتلك الرسوم

الفاضحة، لأجنّبها الألم. سأتأكّد من عدم ترك أيّ بقايا الصباغ الأحمر، حتى ولو اضطررتُ لحفّه، حتى ولو انتهى بنا الأمر بباب مُثقّب بالشظايا.

«فقط تذكّري»، قالت أمّي، «يُمكنني تحمّل هذا القَدْرِ فقط. عندما تقعين على وجهك، لا تتوقّعي منّي أن أكون هناك لآخذ بيدك».

أخذتُ أسعل ثانيةً، وكأنّ الشطيرة رجعت إلى فمي سالكةً طريقاً عكسياً.

«أنت تبنين مُستقبلاً سيقودك إلى البلاعة!»

سافلة! كيف سمحتُ لنفسي مجدداً بأن أظنّ أنّها تهتمّ لأمري؟ نهضتُ، وضربتُ يديّ على طاولة المطبخ، وانحنيتُ فوقها. وبصوتٍ حادٍّ مُفعمٍ بالحقد، قُلتُ: «ربما ترغبين في الذهاب إلى الخارج وإلقاء نظرةٍ على ما يوجد على بابنا».

قذفتني بنخرةٍ ملأى بالاحتقار. «وأنتِ ربما ترغبين في معرفة أنّني لن أُجدّد عقد إيجار هذه الشقّة».

«ما الذي تتحدّثين عنه؟»

«لقد نفدت النقود، وأنا سأنتقل». نقرت على أنفي بإصبعها. «وأنتِ، يا صاحبة الصوت الذهبيّ، يجب أن تتعاملي مع هذا الأمر».

جلستْ مرتاحةً بابتهاج سافِر، مُستمتعةً بتأثير هذه الأخبار عليّ. أذهلني الخبر، فلم أَعد أقوى على النُطق. قالتْ: «بما أنّك

تريدين استقلالك بشدّة - بعيداً عن أمّك التي تحمّلت مشاقّ جلبك إلى الحياة - فلقد قرّرتُ أنّ الوقت قد حان لتلبية رغبتك. أُريد الآن أن أُركّز على مُستقبلي أنا».

«أيّ مستقبل؟»

«لديك أسبوعان».

هواء، أحتاج إلى الهواء! اندفعتُ إلى الشُرفة، وانحنيتُ فوق الدرابزين وأنا أشعر بدوار. كم سيكون الأمر سهلاً لو أنّني تشقلبتُ من فوق الحافة. أرعبتني الفكرة، ونظرتُ إلى الأعلى، مُتجهمةً، أنظرُ في فُرجة السماء المعتمة.

«ستُحطّمك تلك المرأة السمينة». كان هسيسها ساخناً على رقبتي.»ستكونين مَدينةً لها بحيثُ إنّك- عندما تُصبحين غير قادرةٍ على الدفع- ستجرّك إلى المحكمة».

تجمّعت الدموع في مآقي عينيّ. وكانت ستتهاطل لو أنّني رمشت كثيراً. إنّها ترغب في مشاهدتي أتحطّم. لن أدع ذلك يحدث. أخذتُ نشقةً كبيرة ومسحت وجهي بيديّ، مُجفّفةً الرطوبة، قبل أن أدفعها جانباً وأعود إلى الداخل.«قد تبدو الأمور ورديةً الآن. ولكن احفظي كلماتي جيداً، ستندمين على هذا الأمر»، صرخت بوجهي.

تبعتني عبر غرفة الجلوس، وهي ترشقني بالإهانات. تمنّيتُ لو أن ثمة مكاناً أختبئ فيه. أسرعتُ إلى الحمّام، حيث

انحنيتُ فوق المغسلة وأخذتُ أحدّق في المرآة. كانت أجفاني مُنتفخةً، وللمرّة الأولى، بدت عيناي بالحجم ذاته: منكمشتين، وصغيرتين، وقاسيتين كحبّتيْن من الفول السوداني.

التقطتُ فرشاة الأسنان وأخذتُ أفرش أسناني بشراسة، متجاهلةً الوخزة في لساني. لم أرَها مُطلقاً بهذا الشكل، مؤذيةً للغاية، جِدّ مُصمّمة على جرّي إلى عراك. لا تزال تزمجر عليّ. بصقتُ في المغسلة واستدرتُ نحوها.«لا تطيقين أن تريني أنجح. هذا هو الأمر. أليس هذا صحيحاً، ماما؟» لوّحتُ بفرشاة الأسنان بوجهها. «وما يقتلك هو أنّك لم تكوني جزءاً من هذا النجاح. في الحقيقة، لن تكوني جزءاً من أيّ نجاح. ستبقين كما أنت: التجسيد المطلق للاشيء».

وعندما نخرت بوجهها، قذفتُ فرشاة الأسنان. ضربت الفرشاة الحائط وارتدّت إلى حوض الاستحمام. أسرعتُ إلى غرفتي، وصفقتُ الباب قبل أن تتمكّن من حشر قدمها في الداخل.«دعيني وشأني. لماذا لا تذهبين وتفتحين الباب الأمامي، وترين كيف ينظر العالم إليك». جررتُ الطاولة الجانبية وجلستُ عليها. كان ثمة طرقٌ صاخب، بينما كانت تحاول أن تفتح الباب عنوةً.

«لم يبقَ لديّ الكثير من الصبر تجاهك!» أخذتْ تصرخ. أغلقتُ أذنيّ عن سماع الشتيمة التي تلت. استيقظ الجيران فوقنا، وبدؤوا بكيل الشتائم بصوتٍ عالٍ. أخذوا يُعمِلون خبطاتٍ تحذيرية تسبّبت في هزّ مصباح السقف.

«لماذا لا تذهبين فحسب؟»

تلا ذلك صمت. لم أكن متأكّدة ممّا يتوجّب عليّ فعله. وجدتُ أنّه من الصعب أن أحافظ على تنفّسي منتظماً. في لحظةٍ مُعينة – لستُ متأكدة متى – بدأت الدموع تقطر على وجهي.

سمعتُ صرخةً مكتومة، تبعتها فورةٌ من خطوات الأقدام، عاجلة وصاخبة. التصقت أُذني بالباب. نعم، إنّها على الهاتف، ها هو ذا صوتها. إنّه صامت – مهزوز قليلاً؟– ولم أستطع أن أسمع ما كانت تقوله.

غمرني التعب. شعورٌ عميق مثل حمأةٍ كثيفة، استقرّ على كتفيّ. أثقَلَ كاهليّ. أخذتُ أنشج بينما كنتُ أغوص إلى الأرض، حطامٌ مرتعشٌ من التبريح والاستياء. بقيتُ هناك، مكوّمةً مثل جنينٍ في رحم أُمّه، وظهري يضغط باتجاه الطاولة الجانبية. أغمضتُ عينيّ، وسقطتُ نائمةً بعد ثلاثة أنفاس.

❊ ❊ ❊

بعد خمسة أيام، استيقظتُ في صبيحة هذا اليوم وأنا أشتَمّ رائحة صباغٍ جديد. هذا أمرٌ يدعو إلى الفضول، ستكون هذه المرّة الأولى التي يقوم فيها أحدٌ من هذ الحيّ المريع بمحاولة جعل مأواه مكاناً أفضل للعيش، أكثر جمالاً. لا بدّ أنّ أحداً من سكّان بنايتنا قد اكتفى من القذارة، وقرّر أن يُجدّد شقّته من الداخل.

تنهّدتُ مع ترقّب يوم آخر من الملل. ثمة علبةٌ من المعدن على طاولة القهوة. مررتُ بأصابعي على حوافّها، وأنا أحدّق في الرسم الموجود على غطائها. سيّدة ترتدي بشتاً بنفسجياً تُمسك بمظلّة باللون نفسه، كانت تبدو كأنّها على وشك أن تفتحها. يقف خلفها جُنديٌّ بملامح نبيلة، يرتدي بزّة فاخرة حمراء اللون.

هززتُ العلبة التي كانت مُمتلئةً ذات يوم بالأطايب. لم يتبقَّ الكثير من قطع شوكولا «ماكنتوش»، لقد بدأتُ بالتهامها منذُ أن انتهيتُ من بسكويت الزبدة «دانيش». كانت قطع الحلوى الخضراء القصيرة المحشوة بجوز الهند أوّل ما التهمت، تبعتها تشكيلة القطع الأرجوانية المحشوّة بالبندق والكراميل. بعدها، أكلت قطع «التوفي» الطويلة والمستديرة. فتحتُ الغطاء، وأخذتُ أدفع الأغلفة اللامعة، على أمل العثور على قطعةٍ متبقّية ممّا أفضّله. لكنّ ما تبقّى هو حلوى الكريما والبرتقال الشديد الحلاوة، والفراولة المبتذلة. قذفتُ في فمي واحدةً من كلّ نوع، مانحةً الفرصة للنكهات بأن تمتزج، بينما كنتُ أمضغها ببطءٍ كجمل. سال اللعاب على جانبيْ فمي. مسحتهُ بكُمّي، الأمر الذي ترك خطاً موحلاً على البيجاما التي كنتُ أعيش فيها خلال هذه الأيام القليلة الماضية.

اختفت أمّي.. حزمت بعض ثيابها وغادرت.

في البداية، شعرتُ بالراحة، ولكن غمرتني لاحقاً مجموعةٌ من المشاعر. عانيتُ من نوبات الارتباك التي تخللتها فتراتٌ

طويلة من الخمول العقيم. كنتُ مُنهكةً للغاية بتجربة أن أبقى وحيدة، لكنّي كنتُ أفتقد الحيوية للمغامرة في الخارج. تقلّبتُ على الأريكة، وقُلتُ متأوّهةً: «أنا سجينة». لم أجرؤ على مغادرة الشقة بسبب ما هو موجود على الباب. أبقيت المصاريع مُغلقةً، وكنتُ حريصةً على التحرّك بهدوء، كأرنب، بحيث يظنّ الناس في الخارج أنْ لا أحد في الشقّة.

يمتصّ الإعياء الهواء من صدري. «الكثير من الضغوطات!» أنا جِدّ صغيرة للتعامل مع العديد من المشاكل. فبالإضافة إلى الجهد الذي أبذله لتحقيق الشهرة، لديّ الآن هذه المسؤولية غير المرغوب فيها: أحتاج إلى الحصول على النقود، لأتمكّن من تمديد عقد الإيجار. وإلا، فأين سأنام؟ أيضاً، أحتاج أن أشتري الطعام، وأدفع فواتير الهاتف والغاز والكهرباء. إنّها تتكدّسُ على طاولة الطعام، يعلوها الغُبار. نعم، أنا جِدّ صغيرة. كان يجب أن أكون في الجامعة (بالرغم من الحقيقة المتمثّلة في أنّني كنتُ سأكره كلّ الدراسة التي كان سيتعيّن عليّ القيام بها)، وأن يكون قلقي الوحيد هو أن أنجح في الامتحانات.

وفي نوبة إحباط، ركلتُ الطاولة الصغيرة، مُرسلةً علبة «الماكنتوش» تتدحرج نحو الباب. كان ثمة وقع خطوات في الخارج، وكائناً من كان، فقد توقّف عند الباب. لا شكّ في أنّه جارٌ فضوليّ آخر يطمح لأن يطمئنّ أنّ كلّ شيء على ما يُرام.

هذا ما دأبوا على قوله عند طرقهم على الباب كلّ يوم.«هل من أحدٍ هنا؟ هل كلّ شيء على ما يُرام؟» لا أُجيب لأنّي أعرف أنّ الأمر ليس أكثر من نشوةٍ خسيسة، الحاجة إلى السخرية من المرأة المطلّقة وابنتها.

أخذتُ أعضّ على أصابعي، وأنتظر لأرى إذا كان الجار سيطرق على الباب. لم يفعل، ولكن رنّ الهاتف، وحالما تأكّدتُ من أنّ المتعدّي قد سار بعيداً، رفعتُ السمّاعة لأُجيب. لم تُضع مدام نيفين الوقت: «هل يتوجّب إصدار الأغنية الرئيسة في الألبوم قبل الفيديو كليب أو بالعكس؟».. إنّه توجّهٌ جديد، فيديو موسيقي يُرافق الأغنية، وهو الأمر الذي ترك مُديرو الأعمال القُدامى حيارى حول الطريقة المثلى للتعامل معه.

كذبتُ على مدام نيفين، وأخبرتها أنّي مريضة، لأنّ فكرة الخروج من الشقّة مُفزعةٌ جداً. تركتُ بحّةً من صوتٍ خشن في مؤخرة حنجرتي عندما سألتها: «لمَ لا يصدران معاً؟» كان خطّ الهاتف متقطعاً، وتعيّن عليّ إعادة اقتراحي.

«سمعتك، يا حياتشي، سمعتك». كانت فترة تأمّل.

جلستُ وشرعتُ ألعب بأزرار البيجاما، مُتجاهلةً رائحة الرطوبة والبطاطا المغبرّة التي انبعثت من القماش. أيّ نقاشٍ حول مستقبلي المهنيّ يتطلّب اهتمامي بالكامل. كانت مدام نيفين مشغولةً بنشر نشوى نجاحها. ستصدر أغنيتي في القريب

العاجل. وحينها، وكما يُمكن أن يحدث في عالم الموسيقى العربية الشعبية، يُمكن أن تتغيّر الأمور بالنسبة إليّ بسرعةٍ كبيرة. «بالطبع، إذا كان يتوجّب إصدارهما معاً»، قالت بتعقّل، «عندها يتوجّب علينا إضافة عامل الدعاية عبر التلفاز».

«هذا صحيح».

«لكن لو كره الناس الكليب، قد يؤثّر ذلك على نجاح الأغنية؟»

كانت تحوم مراراً وتكراراً حول النقاشات ذاتها. كانت المرّة الثالثة التي تتصل بي حول الموضوع نفسه، ومع ذلك لم أعتد بعد على نبرة التردّد في صوتها. «أعتقد ذلك».

«همم»، فترة توقّفٍ أُخرى. «وأنتِ؟ أفضل؟»

«نعم»، تنشّقت. «فقط ألم الحنجرة هذا الذي يحتاج وقتاً طويلاً ليبرأ. أظنّني مُتعبة». ذَوَت فورةُ الحماسة وانكفأتُ بكسلٍ على الأريكة.

«نعم، حسناً، ارتاحي قليلاً. وأثناء ذلك، دعيني أفكّر أكثر حول هذا الأمر، وسأعاود الاتصال بك لأخبرك بقراري».

خلال الدقائق العشر التالية، أخذتُ أنظر كالحةَ الوجه إلى علبة القصدير، متأمّلةً كم أكره طعم الحلوى المتبقية. بعد عشر دقائِق، كنتُ مُتفلطحةً على الأريكة كنجمٍ ذابل، يدٌ ورجلٌ متدليتان فوق الحافة. كنتُ أحدّق في السقف دون أيّة أفكارٍ تمرّ في رأسي،

عندما رنّ الهاتف. مدام نيفين ثانيةً؟ «إذاً، ماذا قرّرتِ؟»

«مرحباً؟»

هزرتُ السمّاعة. ظننتُ أنّني أحلم، أو أنّ خطوط الهاتف قد تشابكت، كما اعتادت أن تفعل. وضعت كلمة مرحبا أُخرى نهايةً للإبهام.«أووه، هل هذا ...؟» أريد أن أتأكد.

«ممم، نعم، إنّه ...»

كُنّا، كرضيعتين تتعلّمان الكلام، تستبدلان كلّ كلمةٍ تَعْلُقْ بنُعاب، بخرير، أو بضحكةٍ مكبوتة. «أين أنت...؟»

«أنا في دبي و...»

مرّت لحظات الإحراج البدائية، وفجأةً بدا كأنّنا لم نتخاصم ونتوقّف عن محادثة بعضنا. أخبرتني مريم أنّها تشعر بالملل، وأنْ لا شيء كثيراً يحدث في دبي. أخبرتها أنّ ثمة الكثير يحدث في حياتي - اختفاء أمّي، الرسم على الباب، الرعب من مواجهة الإخلاء من الشقّة - وأنا لا أعرف إذا كان بإمكاني التعامل مع كلّ ذلك. لم توافقني مريم الرأي، وأخبرتني أنّها لم تقابل أحداً بصلابتي. كان صوتها مُنعشاً كالنعناع. شدّ صوتها من عزيمتي، وأيقظ أحاسيسي. أردتُ أن أخلع البيجاما وأغتسل، ثمّ أرتدي شيئاً زاهياً وملوّناً. «أنا على بُعد خطوةٍ من الشُهرة»، قلتُ لها بفخر.»ستصدر أُغنيتي الأولى في أيّ يوم حالياً».

«لطالما عرفتُ أنّك ستصلين».

كانت الخشخشات في الخطّ تأتي وتذهب، وتأخذ أحياناً شكل صفيرٍ حادّ.

«إذاً، هل توجد في الحقيقة رسوماتٌ لأزواجٍ فاضحة على بابكم؟»

جعلتني ضحكة مريم أرى للمرّة الأولى الجانب الفكاهيّ في الموضوع. «أوه، نعم. أمّي والكثير من الرجال».

ضحكنا بعد تلك الفترة الطويلة. ثمّ صمتنا في اللحظة ذاتها. إنّه نوعٌ من السحر، ذلك الانسجام الذي نتشاركه.

«اشتقتُ إليكِ»، قلتُ مُتمتمةً.

«وأنا كذلك».

30

ماجد

«إذاً، هل أتخذُ الإجراءات التي تضمن أن «النيلي» سيكون جاهزاً للقائنا يوم الأربعاء القادم؟» سأل سعيد.

«أتسألني ذلك بعد صلاة الجمعة مباشرةً؟»

هزّ كتفيه.

«كلا»، قُلتُ بشكلٍ آليّ. كان فمي مزموماً، لكنّني لم أستطع أن أكبح التعبير. انبسط وجهي بابتسامةٍ عريضة، ولوّح سعيد بإصبعه لي مُعترضاً. رمى برأسه إلى الخلف، وأطلق ضحكةً بذيئة. لقد كنتُ رزيناً، رزيناً جداً، وأنا فخورٌ بامتناعي عن الشرب طيلة هذه الشهور الأربعة. والآن- مع سؤال سعيد- قفزت فكرةٌ إلى عقلي: ليس من الضروريّ أن أمتنع عن الشرب نهائياً، فقط ألتزم بتعاطيه باعتدال.

«هذا ما ظننتهُ، أن ترفض ثانية»، قال سعيد، وانضمّ فرحاً إلى مطر الذي كان يجلس في الطرف القصيّ من المجلس، ويقذف حفنةً من الفول السوداني في فمه ويتابع باهتمام نصيحةً من أحد شيوخ الدين عبر التلفاز.

بقيت مكاني قرب الباب، وأنا أشعر بالسعادة من الداخل والخارج. كلّ شيء يجري كما يجب تماماً. أخبرتني عائشة أنّ الأرملة الغنيّة سلمى بنت عبيد مُهتمّةً بالجمع بين مريم وابنها. أيضاً، كانت ثمة رسالةٌ مفاجئة من ابني خالد. احتوى الظرف المغطّى بالأختام التايلندية على ورقتين. الأولى كانت ملاحظةً قصيرة تُنبئني أنّه مُستعدّ للعودة إلى دبي، والأخرى ضمّت قصيدةً كتبها لي. تصفّحتها بسرعة مرّتين، وعندما بقيت مُبهمةً بالنسبة إليّ، جعّدتها على شكل كرة، ورميتها في سلّة المهملات على ذلك الأحمق المستهتر بأن يُقدّم بعض التفسيرات.

ضعيف، هذا ما هو عليه. من فترةٍ ليست بالبعيدة، تلقّيتُ بعض الأخبار المزعجة من شابٍّ كان معه في المدرسة. كان الشاب قد عاد للتوّ من «بانكوك»، ولم يستطع النظر في عينيّ وهو يُخبرني أنّ خالد ليس على ما يُرام، وأنّه يتعاطى المخدّرات. وعندما سألته أيّ نوعٍ منها، قال الشاب مُغمغماً أنّه يظنّ أنّها أسوأ نوع: «الهيروين». عندما يعود خالد لن أقول له أيّ شيء لبضعة أيام، لكنّ ذلك من أجل خاطر أمّه القلقة عليه. سترغب عائشة في تدليله. هذا حقّها كأمّ، وسأدعها تستمتع بالقيام به. ولكن بعد ذلك.. قُطِعَت أفكاري بوصول أوّل ضيف. انحنيتُ للسلام عليه.

غيث الياسري، محنيّ وضعيف. «منذُ زمنٍ طويل!» قال مُقرّعاً بلهجةٍ ساخرة. كان أحد أصدقاء أبي المقرّبين، وهذا يعني أنّه

يملك الحقّ في شدّ أُذني متى شعر بالرغبة في ذلك. وها هو يفعلها الآن، بقبضةٍ شديدة بشكلٍ مُستغرب. سمحتُ له بفعل ذلك، لأنّه يتوجّب عليّ أن أبقى مؤدّباً وأحترم سنّه الكبيرة. بالإضافة إلى ذلك، من الواضح أنّه أمرٌ يُشعره بالسعادة.

«نعم عمّي، بالفعل».

«اعتدنا أن نسمع أخبار عائلتك عندما كان أخوك على قيد الحياة. لكن، ومنذ وقتٍ طويل، لم نعد نسمع أيّ شيء».

«هذه هي الدنيا الآن، عمّي. الجميع مندفعٌ في هذا الطريق أو ذاك، متناسين تخصيص وقتٍ للأشياء المهمّة في الحياة». حاولتُ أن أخفّف من قبضته، لكنّها كانت أشدّ من ملقط غسيل. كان عليّ أن ألوي ذراع الياسري بعنف كي يطلق سراحي.

قهقه الياسري: «كُنتَ تظنّ أنّي قد فقدتُ قوّتي، أليس كذلك؟».

«نعم عمّي»، قُلتُ وأنا أنظر عابساً إلى سعيد ومطر اللذين كانا يضحكان بشكلٍ شيطانيّ في الجانب الآخر من الغرفة، مثل زوجٍ من الأطفال المزعجين.

ضعُفتْ عينا الياسري مع تقدّمه في السنّ، لكنّه تفحّص المجلس ملياً، ولم يفتْه شيءٌ فيه. اندفعت عيناه على طول مقعد الخميلة المثبّت إلى الجدران وشاشة التلفاز الضخمة. كان البرنامج قد تغيّر. الآن لدينا فتياتٌ صغيرات بأصواتٍ حادّة

وملابس مدرسية يقفن على المسرح. كُنّ يرفعن أيديهنّ فوق رؤوسهنّ بينما يُغنّين أغنيةً وطنية.

جلسَ الياسري بتكاسلٍ قُرب المدخل. كان يبدو سعيداً ببقائه حيث هو، مُشتمّاً رائحة العود الباهظ الثمن بابتسامةٍ عريضة تؤكّد أنّ هذه مناسبةٌ عظيمة بالتأكيد. كان قد أتى بصحبة حفيديه اللذين دأبا على نكزه لإفساح المجال للرجال المسنّين الآخرين الذين بدؤوا في الوصول، بصحبة أولادهم وأحفادهم أيضاً. كانوا مُصطفّين وشرعتُ بضغط أنفي على أنوفهم، واحداً تلو الآخر، بالسلام التقليديّ.

إذ كنتُ أشعر بالكرم، وبمزاجٍ احتفاليّ، قرّرتُ أن أُهيّئ هذا الغداء لأقاربي وأصدقائي من رأس الخيمة، الذين لم أرَ مُعظمهم مُنذ وفاة حارب (الذي كان يُصرّ على البقاء على تواصل مع المعارف القُدامى). أرسلتُ أبنائي لتقديم الدعوات الجماعية، ولكن لم تكُن لديّ فكرة أنّه سيكون لدينا هذا العدد من الوجوه المشيبة – لم أستطع التعرّف على بعضها – المتحمّسة للقيام بالرحلة إلى دبي. بالرغم من ذلك، فالأمر جيّد، لأنّه يعني أنّه سيتمّ التحدّث عن هذه الوليمة وتذكّرها لوقتٍ طويل.

وها هم هنا، بلحاهم المستدقّة مع تقدّمهم في السنّ، وقد صبغوها بالأسود أو بالحناء، فأصبحت برتقالية ساطعة. بعضهم يستخدم العكازات لمساعدته في مشيته الضعيفة، والبعض الآخر تدبّر أمر المحافظة على كميةٍ مدهشة من جَلَدِ شبابهم. كانت

كناديرهم مُنشّاةً وترفرف فوق كواحلهم، بالزيّ القديم نفسه. أمّا رشات الكحل في عيونهم فقد تلطخت.

زرعوا أنفسهم على الكراسي، بهياكل صلبة كتماثيل. أخذ البعض يتململ، بينما كانوا يحاولون الجلوس بارتياح على المقاعد الطويلة التي لم يعتادوا عليها. ثنوا ركبةً تحتهم، وحاولوا حضن الركبة الأخرى بصدرهم، لكنّ المقعد كان صغيراً على ذلك. انتهى بهم الأمر جالسين على الأرض، وسرعان ما بدا المجلس كقاعة انتظار في المطار ملأى بالركاب الذين ينتظرون طائراتهم بصبر.

بدا بعض الضيوف مُميّزين وغريبين عن المكان، رجال القبائل الجالسين في مقابل جهاز التكييف. جلب بعضهم اليرزة، وهي فأسٌ برأسٍ صغيرة خاصة بعشائر الجبال، ووصل اثنان يحملان خناجر فضّية مربوطة حول خصريهما. كانت المقابض المزركشة بإطنابٍ تخزّ أضلاعهم كلّما تحركوا.

أخذ الخدم يُقدّمون كؤوس عصير البرتقال والليمون الطازج. أبنائي سيف وأحمد وبدر موجودون هنا، بالإضافة إلى الأحفاد الكبار بما فيه الكفاية ليُعتبروا شباباً. كلّ شيء كما يجب أن يكون، وفركتُ يديّ بعضهما ببعض سروراً، قبل أن اختلط بالضيوف.

أنا مُضيفٌ مثاليّ، حيث كنتُ أسأل عن صحتهم وأغيّر مقعدي كلّ بضع دقائق، بحيث لا يشعر أحدٌ من الضيوف أنّه مُهمل. بعضهم أخذ يُخبرني كيف أضاع طريقه أثناء محاولته الوصول

إلى منزلي، مُعظمهم كان يتذمّر من أنّ رأس الخيمة قد أصبحت مكاناً مختلفاً، بوجود الكثير من الطرق السريعة والسيارات والغرباء وأسلوب التفكير الحديث. «في السابق، اعتدنا أن نعيش معاً»، قال الياسري الذي كان يجلس متربعاً على الأرض، وهو يفرك السجادة السميكة براحتيْ يديه وكأنّها رمل ناعم. «الآن، الشباب يريدون بيوتهم الخاصة عندما يتزوجون».

أومأت برأسي موافقاً. «لقد جعل الزمن من البشر غُرباء».

صاح إبراهيم الخضر من الجانب الآخر من الغرفة، «ومع أسلوب العمل الحديث هذا في المكاتب من خلف الطاولات، فقد نسوا النخيل، ومعنى العمل الحقيقي، عمل الرجال».

كان تبرّمهم هو التبرّم المعتاد لكبار السنّ. كنتُ أجلس في وسطهم على الأرض وأستمع إليهم كحكيمٍ صبور، مُقدّماً تعليقاً مُلطفاً هنا وهناك، أو مُطقطقاً بلساني بين الحينٍ والآخر، أو هازاً رأسي بحزنٍ، بحيث يُفهم أنّني أتعاطف معهم.

«في السابق، اعتدنا أن نتناول طعامنا معاً»، تابع الياسري. «الآن، نحن محظوظون إذا رأينا أولادنا أو أحفادنا مرّةً في الأسبوع. وإذا اشتكيت، يخبرونك أنّ الأمر ليس بيدهم، وأنّ ساعات العمل المفترض أن ينجزوها هي ما تبقيهم بعيدين».

كان حفيداه شابّين صغيرين، على الأرجح قد بدءا دراستهما الجامعية للتوّ، كانا يجلسان على جانبيه. «ولكن ليس عليك الآن أن

تشعر بالجوع»، قال أحدهما، وهو ينحني باتجاهه: «يُمكنك الذهاب إلى السوبرماركت، وهناك ستجد أيّ نوع تشتهي من الفاكهة».

«ما هذا!» قرص الياسري السجادة بقرف. «ما هذه المنتجات الجديدة، برتقال وتفاح؟ أنا لا أحتاجها. أعطني تمراً، هذا يكفيني».

حاول حفيده الآخر أن يُهدّئه.«هل تتذكر، يا جدّي، أنّك أخبرتني أنّك اعتدت أن تُصاب بالبثور جرّاء الحرارة والرطوبة؟ وأنّك كُنتَ تحكّ وتحكّ؟ حسناً، أنت لا تعاني من هذا الأمر بعد الآن، نتيجة وجود المكيّف». كان وجهه مُشبعاً بالاعتزاز الاعتياديّ للشباب. ربّتَ على كتف الياسري، وهو غافلٌ عن الغضب الذي كان يعتمل في صدر جدّه.

عملتُ خيمةً بأصابعي وأرحتُ ذقني عليها. بقيتُ ساكناً أنتظر الانفجار الذي كان لا بدّ أن يحدث. ضربَ الياسري يد حفيده وصاح، «أفضّل أن أهرش حتى تنفجر البثور ويسيل الدم منها على أن أعيش مع مكيّفك. أنا مُتيبّس ولا أستطيع الانحناء بسببه». احمرّ وجهه ولوّح بذراعيه باتجاه السقف. «ماجد!»، صاح عالياً. «انظر كيف يتحدّثون معي. لم يعد من احترام».

شعر الأحفاد بالإحراج، ورفعتُ حاجبيّ لبدر الذي فهم ما يتوجّب عليه فعله. أسرع باتجاه الحفيدين وقادهما خارج الغرفة، من خلال عذرٍ تمّ تأليفه على عجل. نهضتُ، وهي إشارةٌ لسيف وأحمد أنّ الوقت قد حان لتقديم الطعام.

ظهر الخدم مرّةً أُخرى ونشروا رقائق البلاستيك نصف الشفافة في وسط الغرفة، من جانبٍ لآخر. لن يكون ثمة أيّ طعام مُتعدّد الألوان لهذا الجَمعْ، مثل المحاشي أو ورق العنب؛ لن تكون تلك أكلات مُحببة. وبالتأكيد، حتى الكاري الدخيل سيُنظر إليه نظرة شكّ. كلا، لا شيء من ذلك الطعام الجديد أيضاً، مثل الحمّص، والتبولة، والفتوش، والتي أصبحت مُلحقات رئيسة على قائمة الطعام الإماراتية. ليس لهذا الحشد. اللحم هو الملك بالنسبة إلى رجال القبائل هؤلاء. وصلت- صوانٍ كبيرة من اللحم- منشورة على مهادٍ كبيرة من الأرزّ وطبقات من خبز الرقاق المفرود تحتها، وهو أرفع ما يُمكن أن يطلبه أيّ شخص. كان ثمة ثمانية جِداءٍ محشوة مُنكّهة بالزعفران والهال وخليط أعشابنا الخليجية.

اقربوا.. تفضلوا..

وحالما تلفّظت بالدعوة لهم للاقتراب، أخذ الجَمعُ في أذكارٍ ودعوات جماعية، بدأت بذكر اسم الله الرحمن الرحيم: «سمّوا بسم الله! سمّوا بسم الله!» اقتربوا من حواف الرقائق ورفعوا أكمام كناديرهم للأعلى، ليُظهروا الطول الوافر لأذرعهم. فعلتُ مثلهم وأقحمتُ أصابعي في الجوف الساخن لأحد الجِداء، مُخرجاً الحشوة المؤلفة من البصل، والحمّص، والكاجو، والزبيب. كان اللحم طرياً لدرجة انسلاخه عن العظم. سرعان ما أصبح الصوت الوحيد في الغرفة هو صوت الأصابع وهي تقطع اللحم، والأيدي وهي تكسر العظم، والأسنان وهي تمضغ اللحم.

ضحِكَ أحدهم، وبدا صوته غريباً، بحيث رفعنا جميعنا بصرنا للأعلى وتبعنا ببصرنا ما كان ينظر إليه في التلفاز. كانت ثمة مسرحية فكاهية خليجية، مع الحركات المرحة المعتادة. كان الأب يُحاول أن يضرب ولده الأحمق، لكنّ الابن قفزَ هارباً من طريقه، وأخذ يثب من أريكةٍ إلى أُخرى. أخذت الأمّ تصرخ طالبةً من زوجها أن يتوقّف، لكنّه يستدير ويبدأ في مطاردتها عوضاً عن ابنها. انفجر الحضور بالضحك. كنتُ قد شاهدتُ مقاطع من هذا البرنامج من قبل. توجد في حلقات المسلسل أيضا إحدى الحموات التي تُحبّ أن تُثير المشاكل.

وحالما انتهت المطاردة، عُدنا إلى عملنا الولائمي السابق. قرّرتُ أنّي اكتفيت، ورجعتُ للخلف لأتفحص الجَمْعَ الذي كان يمضغُ ويلتهم. كانوا ينقرون العظام بأصابعهم مُبعدينها عن طريقهم، صانعين منها أكواماً صغيرة على الرقائق البلاستيكية. كان الخضر مشغولاً برأس الجدي، مُحاولاً الوصول إلى الدماغ، وبوسرور سَكَبَ الكثير من اللبن فوق الأرزّ ولحم الجدي أمامه، بحيث استحال المزيج إلى ما يُشبه الحساء. كان يلعق طعامه، غافلاً عن النقاط اللؤلؤية التي كانت تقطر من لحيته الكثّة. نظرتُ إليه وابتسمت. من الجيّد للمرء أن يبقى على تواصل مع أصحابه، وقرّرتُ أنّه يتوجّب عليّ أن أدعوهم جميعهم مرّةً أُخرى، قد أجعلها حدثاً مُنتظماً كلّ شهرين أو نحوه.

كانت عملية الالتهام سريعة وحماسية. نهضوا لغسل أيديهم، وشرع الخدم بإزالة الصواني ولفّ الرقائق البلاستيكية فوق كومة العظام واللحم ونوى التمر. أشحتُ بنظري نحو التلفاز مُجدداً. لدينا الآن برنامج منوعات، رأيتُ المذيعة وقد تقزّمت جالسةً فوق أريكةٍ أرجوانية ضخمة، وحاولتُ أن أُخمّن جنسيتها. كانت لكنتها محلية صرفة، لكن كان من الجليّ أنّها ليست إماراتية، لأنّه لا يُمكن لعائلةٍ إماراتية أن تسمح لبناتها بأن يظهرن على التلفاز. كان وجهها مُستديراً كقمر، وشعر غرّتها، تحت شيلةٍ شفافة تتربع عالياً فوق رأسها، مكويٌّ بشدّة لدرجة أنّه كان يسقط كمسامير حادّة فوق عينيها. مغربية، هذا ما قرّرته. قدّمتْ مطرباً كويتياً شاباً لم أسمع باسمه من قبل، وبدأ فيديو موسيقي: رجلٌ أعجف يطوف على طول الشاطئ ويترنّم بآهات الحب. ذكّرني التعبير المجروح لعينيه بابني خالد، الطريقة التي بدا فيها قبل أن يختفي، وأخذتُ أحاول أن أُقرّر الطريقة الأنسب للتعامل معه. هل أسجنه في غرفة حتى ينتهي هذا الأمر؟ أو ...

عاد الرجال ووصل الشاي في ترامس، بالإضافة إلى صِحافٍ مُلِئت بالتفاح والبرتقال والموز. قدّم بدر القهوة، وبعد ذلك بقليل قام نصف المجموعة – بمن فيهم الرجال ذوو الخناجر واليرزات، حيث كانت قلوبهم البدوية تقتلعهم بعيداً نحو أمكنةٍ أُخرى، لا شك في ذلك – قاموا بالنهوض فجأةً للمغادرة. رفعوا

أيديهم مودّعين، ونهضنا أنا وسعيد وأبنائي لنراهم في الخارج كما تقتضي اللياقة.

وعندما عُدنا، هدأت الغرفة فجأةً.«ما الذي تُشاهدونه؟» سألتُ، وأنا أسحب كتفيّ للخلف وأبتسم ابتسامةً عريضة راضياً تماماً عن نجاح هذا الغداء. تبعت نظراتهم. ثمّ تجمّدت. كانت عيناي فقط هي التي تتحرّك، رمشتُ بعينيّ بسرعة، وكأنّ هذا الأمر سيجعلني أرى شيئاً مُختلفاً. لكنّ ما كُنت أراه على الشاشة كان أمراً جلياً: إنّها دلال ترفرف بيديها مثل فراشة، ضاعت في سماء متوشّحة بقوس قزح متوقّد.

31

مريـم

المنزل هادئ. أرسلتْ عمّتي كلاً من «ماما العودة» ونوف إلى السيارة بسرعة، لقضاء يومٍ كامل في منزل إحدى الصديقات. كان عمّي وأولاده يستضيفون غداءً في المجلس. وبينما كنت مُتمدّدةً على السرير، أغمضتُ عينيّ وأخذت أمَشِّطُ غرّتي بأصابعي. كنتُ لا أزالُ أُحِسُّ بطعم الرمل. كيف تغيّرت مشاعري تجاه عادل بسرعة، من الهيام إلى الاشمئزاز؟ هل كان حُبّاً قَطّ، أم أنّه كان شيئاً آخر؟

ظننتُ- عندما تكلّمتُ الأسبوع الماضي مع دلال- أنّني سأكون قادرةً على إخبارها بما جرى مع عادل في الصحراء. ظننتُ أنّني سأكون قادرةً على التعبير لها عن غضبي من الإذلال، والشعور الفظيع جرّاء استغلالي، وانتهاك حُرمتي، وتعريتي من قيمتي. لكنّ الأمر برمّته استمرّ في اجتياحي؛ كانت القشعريرة تتملكني كلما حاولتُ أن استقرئ مشاعري. لم تشعر دلال بالتياعي. لمَ عليها أن تشعر؟ كما هو دائماً، كان صوتي ثابتاً ومُسانداً.

«إذاً، أين تظنّينها قد ذهبَتْ؟» سألتني دلال.

«مَن؟»

«مَن غيرها؟ أمّي أيّتها السخيفة».

«لا أعرف».

«يبدو أنّها لا تحظى بأيّ صديق. الجميع يكرهها!»

«ربما ذهبت إلى صديقها الملحّن. ما اسمه؟»

«آه. شريف بيه. هل تُصدّقين أنّني لا أملك رقم هاتفه؟» تنهّدت دلال. «كنتُ سأذهب وأطرق على بابه، فقط لو أنّني كنتُ أستطيع».

«ولمَ لا تستطيعين؟»

«هل نسيتِ الكلام البذيء على الباب؟»

سخرتُ منها. «لا أُصدّق أنّ هذا الأمر سيوقفك».

كانت فترة توقف. «أنتِ مُحقّة!» قالت دلال. «ما مدى صعوبة الأمر؟ في نهاية المطاف، هو إدارة المقبض فقط».

«نعم، لا شيء أكثر من ذلك».

أتعلمين، سأفعلها الآن، في هذه اللحظة».

ألقت الهاتف جانباً، وتركتني أنتظر. أتذكر تَنَفُّسي الثابت، وحتى المنتظم، بينما كنتُ أنتظرها لتعود. أعادَ لي سماع صوتها

ذلك اليوم إحساسي بالاتزان، ذلك الإحساس الذي تبخّر في اليوم الذي قابلتُ فيه عادل.

أيّةُ حمقاءَ كنتُ، مُقنعةً نفسي أنّه يملك مشاعر تجاهي. لمَ ظننتُ أنّني أستطيع تغيير طبيعته المتقلّبة؟ كان ثمة الكثير من الدلائِل التي تجاهلتُها كُلّها. كان عليّ أن أبتعد منذ البداية، وألا أنظرَ أبداً إلى الوراء. عوضاً عن ذلك، سمحتُ له أن يقودني إلى غيمةٍ جميلة من الأحلام. تخيّلتُ مستقبلاً مزهراً معه، مستقبلاً أكون فيه أكثر من الزوجة التي تبقى في المنزل. سنكون طبيبيْ أسنان نعمل معاً، جنباً إلى جنب، كموظفَيْن في البداية، ثمّ في عيادتنا الخاصة. سيكون لدينا منزل بحديقةٍ وارفة الظلال، تغصّ بأشجاري وأزهاري الغريبة المفضّلة، وأربعة أولاد تماماً، سيكبرون ليصبحوا أناساً محترمين، لأنّ جذورهم غُرِست في تربةٍ صالحة.

قطعت دلال أفكاري بهمسةٍ كانت حادّة وعاجلة على حدٍّ سواء. «لن تُصدّقي ما حدث».

«ماذا؟»

«الباب، دهنه أحدهم بالأحمر. روحٌ خيّرة قرّرت أن تتخلّص من الرسومات».

الآن أنا أبتسم وأتخيّل اللون الجسور. إنّه يتماشى مع جرأة ابنة عمّي. انصرفَ نظري نحو الساعة الصغيرة على الطاولة الجانبية،

مؤشر الساعات كان يُشير إلى الرابعة. بقيت عشرة أيام فقط قبل أن أطير عائدةً إلى القاهرة. ماذا بعدها؟

منذُ أن استغلّني عادل، تجنّبتُ كلّ اتصالٍ به. كيف سأواجهه عندما أعود إلى الكلّية؟ تخيّلته في قاعة المحاضرات أو العيادة، يُصرّ بوقاحةٍ على رؤيتي ثانيةً. كيف سأتعامل مع ذلك؟ تدرّبتُ على ما سأقوله له:«لستُ مهتمّة. دعني وشأني». كيف سيكون ردّ فعله؟ سيختلق فضيحةً أمام كلّ الطلبة، هذا ما سيفعله. مجرّد التفكير بهذا الأمر يُثير حنقي، لدرجة أنّني أقفز من على السرير وأبدأ بذرع الغرفة.

عندما أعود إلى الكُليّة لن يكون من شيء أستطيع عمله، غير أن تملأ الدراسة وقتي، ورأسي. وصلت نتائج امتحاناتي، وكانت الدرجات التي حصلتُ عليها عالية، بشكلٍ غير متوقع. ظننتُ أنّ نتائجي سيُفسدها أدائي في الاختبار النظريّ الأوّل. نعم، هذا ما سأفعله، بالرغم من أنّني كنتُ أتساءل ما إذا كان طبّ الأسنان هو المهنة الصحيحة لي.

باب الخزانة مفتوح، مسحتُ بعينيّ الرفّ العلوي. لم أستطع أن أرى ما كنتُ أبحث عنه، بالرغم من أنّني أحتفظ به في الخلف. مذعورةً، تملّكني القلق فجأةً من أنّ حقيبة أبي غير موجودة هناك. تركَ الكرسيّ خطوطاً عميقة في السجادة عندما سحبته فوقها. تسلّقتُ عليه، وأخذت يداي تتحسسان في العتمة. هدأتُ عندما

شعرتُ بوجود الحقيبة، أخرجتها وجلستُ مُتربّعةً قُبالتها على السرير لأفتحها.

اعتاد والدي أن يحمل الحقيبة السوداء الشبيهة بالصندوق عندما يُسافر؛ وعندما يعود إلى المنزل، كان يستخدمها لتخزين الوثائق المهمّة. أعطاني إيّاها عمّي ماجد بعد وفاة أبي بأشهرٍ عدّة. أعرف تماماً ما تحتويه الحقيبة. طيلة سنواتٍ بعد وفاته، وعندما كنتُ أُحسّ بالخواء أو الضياع، كنتُ أجلس أُغربل محتوياتها. كانت تعطيني الراحة، وآمل أن يكون لديها التأثير ذاته الآن.

ضغطتُ الأرقام لفكّ القفل التركيبي: ثلاثة - تسعة- ستة، رقم صندوق بريدنا، ونثرتُ المواد حولي على شكل مروحة. كانت فيها شهادة زواج والديّ، وأوراق طلاق أبي من زيجتيه السابقتين. وكانت بطاقتا طائرة شاحبتان للخطوط الهندية، ذهاباً وإياباً إلى «بومباي»، وزوجٌ من النظارات الشمسية في علبةٍ مكسورة. نظرتُ خلال جواز سفر أمّي الذي انتهى بعد ولادتي بعامين. كان يحوي أختاماً من البحرين وشيراز وبومباي. لم تكن من صورةٍ لها، بل كلمة مُحجّبة مطبوعة مكان الصورة (آنذاك لم يكُن يُطلب ظهور وجوه النساء في جوازات سفرهنّ).

وكان دفتر الهاتف الأحمر الصغير الخاص بأبي. التقطته وأخذتُ أُقلّب أوراقه. كانت الكتابة متأنّية كخطّ طفلٍ يتعلّم كيف يكتب، وبالقدر ذاته من عدم الجاذبية. يا لأبي المسكين، كم

حاول بجدّ. لم يستطع أبي- بأسلوب كتابته غير المتقَن- أن يتدبّر أمر أكثر من اسمين ورقمين في كلّ صفحة. اعتدتُ أن أسخر من الطريقة التي كان يربط بها حرف الياء، مانحاً إيّاه الفرصة لينتفخ ويملأ نصف الصفحة، والسنّ الإضافية التي كان يُضيفها لحرفيْ السين والشين، بحيث كانا يبدوان مثل الطريق الكثيرة المطبات، وحرفيْ الهروب الراء والزين، المائلين طولاً بحيث لا يضيعان.

هنا وهناك، فوق وتحت الكتابة الخرقاء، ثمة نُقطٌ متناثرة وكأنّها فكرةٌ مُتأخرة. ويجب أن تكون هناك. طقطقتُ بلساني بينما تذكّرتُ كلّ الأوقات التي كنتُ أعطيه محاضرات كيف أنّ كتابته مُبهمة، وتبدو كأنّ أحداً قد نسي أين ذهبت النُقط.«لن يستطيع أحدٌ قراءة هذا الشي!» كان حينها يضع إصبعه أمام فمه وينظر حوله.«هس». ثمّ، ومع غمزةٍ تآمرية يُضيف، «هذه هي الفكرة. إنّها طريقةٌ سريّة للكتابة، بحيث يكون بمقدورنا أنا وأنتِ فقط أن نفكّ طلاسمها».

«لقد تركتني باكراً»، همستُ وتنهّدت. أردتُ أن أخوض أكثر في ذكرى أبي، لكنّني سمعتُ صوت شيءٍ كبير يتحطّم على الأرض. أتى الصوت من الأسفل، وكانت فكرتي الأولى أنّ الخادمات قد كسرن طبقاً. ولكن كان ثمة صوت انكسارٍ آخر، ثم صوت انكسارٍ آخر. رميتُ المحتويات في الحقيبة واندفعتُ لأستقصي ما يحدث.

32

ماجد

ألعابٌ نارية في رأسي. لا ألوان، الانفجارات فقط.

سيدمّر هذا مركزي في المجتمع. هذه إهانةٌ لكرامتي، لرجولتي. كافح سعيد وسيف وأحمد وبدر خلفي ككلاب شوارع حائرة، بينما كنتُ أخرج من المجلس غاضباً. صرختُ فيهم عندما وصلتُ إلى المنزل أن يغربوا عن وجهي. كانوا ينشجون كالنساء، يرجونني أن أهدأ. استدرتُ لأنظر إليهم بوجهٍ مُقطّب. كان هذا كافياً، فتراجعوا، محاولين الانسحاب بكرامتهم، لكنّهم فشلوا.

غالباً ما كنتُ أتساءل حول تلك المشاهد في الأفلام الغربية، عندما يغضب أحد الممثلين ويبدأ بتحطيم الأشياء في المنزل. لماذا يحطّمون شيئاً ما؟ ما هو الرضى في عملية التحطيم؟ ولكن ثمة رضى. لقد اكتشفتُ ذلك الآن.

كانت مزهريةٌ ضخمة مزخرفة بالأزهار تقبع على طاولةٍ جانبية في البهو. كان الزجاج سميكاً جدّاً بحيث أنّها فقدت شفافيتها. كانت أوّل شيءٍ لمحتهُ عيناي، فقذفتها إلى الأرض. لم تتهشّم إلى فُتاتٍ بالطريقة التي رغبتُ فيها، ولكن لم يعد بالإمكان

إصلاحها، غير أنّ فورة غضبي هدأت بعض الشيء. انفجرت ابتسامةٌ مجنونة على وجهي، بينما كنتُ أراقبها تنكسر إلى قطعٍ مختلفة، شظايا متطايرة في كلّ الاتجاهات فوق الأرض الرخامية. ولكن بعد ذلك، ذكرى الفيديو كليب عاودت الظهور ثانيةً.

لقد كنتُ في أفضل مزاج، لكنّ تلك الأغنية اللعينة غيّرت كلّ شيء. أتذكّر أنّي طلبتُ إلى ابني أحمد أن يُغيّر القناة بسرعة. نظرَ إليّ نظرةً خاوية، وتعيّن عليّ أن ألكزه على أضلاعه ليستجيب لي. لمح سيف جهاز التحكّم عن بُعد في اليدين السميكتين لرجلٍ عجوز بعينين حمراوين ذاويتين، وأومأ إلى بدر ليخطفه منه، لكنّ بدر يُعتبر أرقّ أبنائي، ولم يستطع تحرير جهاز التحكّم بشكلٍ جيّد من تلك البراجم المتصلّبة. كان بدر يقف إلى جانب الضيف بأقصى درجات الأدب، وأخذ يجثم ثمّ يقف بشكلٍ مُتكرر، وكأنّه كان يأمل أن يقفز جهاز التحكّم إلى يديه المطويّتين على شكل كأس. وعندما حشره الرجل تحت قدمه، فقد بدر الأمل نهائياً.

أردتُ أن أغادر الغرفة، لكنّ الصدمة أبقتني حيثُ كنت. لم تكن الكاميرا ثابتةً في مكان، بل استمرّت في التحرّك، اقتربت إلى أن ملأ وجه دلال الشاشة، ثم تراجعت بذلك التكنيك المسبّب للدوار، الشهير جداً هذه الأيام. خلفها، ألوانٌ مُبهرجة تدور على شكل هضاب وأطواق، مجرّد رتوش تنميقية للمؤدّية الرئيسة، النجمة، ابنتي.

لم أستطع التوقّف عن المشاهدة. مُتجمّداً، شعرتُ بشيءٍ من الندم لصرفي جواسيسي في القاهرة. (طلبتُ من مصطفى أن يُنهي مهمّتهم مُنذ شهرين). كان يُمكن أن يُحذّروني، وحينها كان يُمكن أن أقوم بعملٍ ما لمنع هذا المشهد المذلّ. ما الذي كانت تحاول أن تبرهنه، من خلال ارتداء تلك البلوزة ذات الدرع المتلألئة، وتلك الصفوف من الترترات الفضية التي كانت تلمع كمرايا صغيرة؟ كانت ذراعاها عاريتين.كنتُ أُذَلُّ في كلّ مرّة ترفعهما! كان مُهيناً مشاهدة ابنتي تُعرّي نفسها بهذا الشكل. كان فمها مزموماً على شكل تبويزةٍ مُتهتّكة. انتظرتُ التعليقات الشبقة. ثنت دلال وركيها ولوت يديها بطريقةٍ لا ينبغي لفتاةٍ محترمة القيام بها. ولكن عندما لم ينطقْ أيٌّ منهم بكلمة، استرقتُ نظرةً على المجموعة لأعرف السبب.

نقل الشامري مكانه ليصبح أمام الشاشة مباشرةً، وكان يحملق فيها بفمٍ مفتوح، جعلته أسنانه الأمامية المفقودة يبدو خسيساً على وجه الخصوص. أما خدّا الخضر فاسودّا مثل توست محروق، وبوسرور كان يُمشّط لحيته الكثّة تائهاً، وإلى يمينه مباشرةً كان النقبي يُحدّق في التلفاز وهو يُدلّك إصبع رجله الصغيرة بذهول. بكلّ بساطة، كان الشوّاب واقعين تحت سحرها، وبلا شك كانوا يتخيّلون صور اللحم الطريّ الجذّاب على الشاشة.

تلاشى الغضب والإحراج. زحف الأمل خلالي، أدركتُ أنّهم لم يعرفوا من تكون. ستنتهي الأغنية ثمّ يُغادرون. سيعودون إلى

منازلهم غير مُدركين أنّ ابنتي كانت تُسلّيهم؛ هم وبقية الدولة.

نعم، الأمل! بالطبع، لم يدم هذا الأمر طويلاً. ظهر اسم دلال في نهاية الفيديو، على رقعةٍ وردية لامعة في أسفل الشاشة.

«النسيمي!» صاح الخضر عالياً.

بدا الأمر وكأنّ أحدهم قد حشر فحماً مشتعلاً في أُذنيّ.

ضحك الياسري العجوز. «من قبيلتك، يا ماجد!»

توقّف النقبي عن قولبة إصبع قدمه واحتجّ. «شو هذا؟ وكأنّه ليس كافياً لتلك الفتاة المنحطّة غير المعروف من أيّ شارعٍ وضيعٍ أتت أن تتبختر أمامنا جميعاً بهذه الطريقة!» ضربَ خيزرانته، وكأنّه كان على وشك أن يضرب بها هدفاً بجانب أذني مباشرةً. «فهي وقحة لتنتحل اسمك. يا للأفّاكة!»

«إنّها إماراتية»، قال أحد الأحفاد التافهين. أقرَّ أنّه شاهد هذا الفيديو كليب قبل يومٍ واحد فقط، في برنامجٍ آخر.

«مستحيل! ما هذا الهراء الذي تتحدّث به!» قال جدّه.

«أن تظهر فتياتنا على التلفاز بهذا الشكل؟ أيّ أبٍ سيسمح بذلك؟»

لم أكن مُتأكداً من الذي أدلى بالتعليق الأخير، لكنّه استحثَّ صمتاً مُزعجاً، طويلاً ومُنذراً بالسوء، بدا وكأنّه صمتٌ استُجِرَّ من أعماق القبور. لاحظتُ أنّ أعينهم قد أصبحت فجأةً عليّ،

وعلى نحوٍ غريب، وأثَّر هذا الأمر على بصري: أصبحت الغرفة ضبابية. اللعنة على دلال تلك! هززتُ رأسي بقوّة، وعاد بصري إلى طبيعته. لا أدري أيّ تعبيرٍ كان على وجهي، لكنّه- أيّاً يكن- أقنعهم أنّه يُمكن النظر إلى شائعات الزوجة السرّية، والابنة السرّية، على أنّها صحيحة.

غادروا بعد ذلك، في موجةٍ ضخمة واحدة، متجاوزين الطقس الأخير المتمثّل في تبخير ثيابهم ولحاهم بالعود. كان الخدم غير متأكدين من كيفية التعامل مع هذه المغادرة المفاجئة. وقفوا عند أحد جانبيْ الباب، وعيونهم مُغشاة من غيوم الدخان التي كانت تهبّ من المباخر في أيديهم.

بدت غمغمات الشكر من الضيوف وهم في طريقهم إلى الخارج كالفلفل على الجرح. أوه، سيكون ثمة الكثير ليتحدّثوا بشأنه حال وصولهم إلى البيت. ستضرب ألسنة الأفاعي، وهي تصف البشرة الحليبية وضفائر الشعر المتقلّبة لابنة ماجد، تلك الابنة التي أبقاها بعيدةً عن الأعين، بينما أنا عاجزٌ عن إيقاف هذا الأمر.

لأتابع العمل. توجد هنا مجموعة قهوة مصغّرة كاملة، مع الفناجين والصينية: كلّها من الكريستال، كلّها مُزخرفة، كلّها قابلة للكسر بشكلٍ كبير. بدأ بصري يهتزّ. ركلتُ المجموعة بضربةٍ قوية للغاية، لدرجة أنّها تسبّبت بدوراني في حلقةٍ متذبذبة. فقدتُ توازني وسقطتُ على الأرض.

مُتمدّداً على الأرض ورُقاقات الزجاج والكريستال تعضّ مؤخرتي ويديّ المجروحتين، أخذتُ أنظر كيف بدأ البهو بالاعوجاج. كانت يدي اليمنى خدرة، وعندما حاولتُ رفعها، كانت حركتي بطيئةً وشاقّة. بدأت نُهيراتٌ صغيرة من الدم الوردي تسيلُ من جروحٍ بحجم الدبّوس، وللحظةٍ، أخذتُ أسبح في فوضى ذهنية عارمة، غير قادرٍ على تذكّر ما حدث. كان أحدٌ ما يشاهدني من أعلى الدرج. أعرف من هي، ولكن غاب اسمها عنّي. «عمّي؟» صرخَتْ، وقد شلّتها الحيرة، وبقيتْ بعيدة. لم أستطع أن أفهم لماذا لستُ وحيداً في المنزل (ألم تقل عائشة إنّهم ذاهبون جميعهم خارج المنزل؟ أين؟).

هبطت الفتاة للأسفل، كان وجهها شاحباً كقطعة بسكويت؛ أملتُ برأسي للخلف، وأخذتُ أراقبها بطريقة مقلوبة: خطوات رشيقة، وكأنّها تدوس على الهواء. فتحتُ عينيّ باتساع، شبه متوقّع أن تنمو لها أجنحةٌ فتطير، لكنّ نظري استحال رمادياً مرّةً أُخرى، والشيء الآخر الذي عرفتُه، هو أنّها جثمت بجانبي وأخذت تنزع الزجاج من يديّ.

«أنا لا أُحبّ المفاجآت». لستُ متأكّداً لماذا قلتُ ذلك لها، وخصوصاً أنّني لا أستطيع أن أتذكّر ما الذي أُشير إليه. كانت ثمة وسادة تحت رأسي (لا أستطيع أن أتذكّر مَن وضعها). يجعلني هذا الأمر أشعر وكأنّني سقيم، وهذا يُزعجني. وعندما حاولتُ

أن أنهض، ضغطتْ عليّ لأبقى، بيدٍ ثابتة ولكن رقيقة. سمحتُ لها بأن تفعل ذلك، لأنّني كنتُ لا أزال أُحسّ أنّي مشوّش. «أين عائشة؟» كان صوتي خشناً ومكتوماً.

«لقد اتصلتُ بها، وستأتي حالاً»، قالت الفتاة.

متى تقابلت عائشة ودلال؟ متى أصبحتا صديقتين؟ هززتُ رأسي ورأيتُ مرّةً أُخرى المزهرية تتحطّم إلى قطع. ثمة سببٌ وراء ما فعلته، لكنّ الذاكرة كانت تفلتُ من عقلي، كما يفلت الرمل من بين الأصابع. ثم أمسكتُ طرف الخيط، وحدّقتُ بالفتاة من جانبي. كانت تبدو رقيقةً وبهية وهي تعتني بي باهتمامٍ زائِف.

ضغطتُ على أصابعها وقرصتُ، مُقلّباً وجهها باليد الأخرى. استخدمتُ كلّ ذرّة من القوّة لديّ. لكنّ دلال تفادتني، وكلّ ما استطعت عمله هو تركُ خدشٍ صغير بالكاد يُمكن رؤيته على ذقنها. كان الجهد المبذول عظيماً، وانهرتُ ثانيةً على الوسادة، وأنا منهك.

«يجب أن تبقى هادئا!» قالت بلهجةٍ آمرة. وعندما تأوّهت، أضافت بشكلٍ أكثر لطفاً، «من الضروري جداً أن ترتاح، عمّي، إلى أن تصل سيارة الإسعاف».

لماذا تستمرّ في مناداتي عمّي؟

33

مريـم

«اتصلي بها وأخبريها أنّها قد تسلّت بما فيه الكفاية! أتسمعينني؟ أخبريها أن تتوقّف عمّا تقوم به حالاً، وإلا فلن تجد أحداً لتلومه إلا نفسها جرّاء ما سأفعله بها». كان ذلك أوّل شيء قاله، حين دخلنا غرفته في عنبر الرجال في مستشفى دبي. نظرتُ إلى عائشة، وسيف، وأمل، لكنّني أدركتُ بعدها أنّه يُخاطبني أنا. «هل تعرفين مَن أحمّله مسؤولية ما آلت إليه حالتي؟ هل تعرفين؟»

هززتُ رأسي بالنفي.

أشار بإصبعه إليّ. «إنّه أنتِ. أُراهن أنّكِ كُنت تخطّطين لهذا طوال حياتك، كطريقةٍ للانتقام منّي. إنّه أنتِ، أنتِ من أقنعها لتفعل ما فعلته».

بالرغم من أنّه بدا مُتضايقاً، منذ أُدخِلَ المستشفى قبل بضعة أيام، لكنّه بقي وديعاً أثناء فترة تعافيه من السكتة الدماغية البسيطة التي تعرّض لها، هادئاً ومطيعاً، بينما كان يتمّ وخزه وتحفيزه في كلّ الفحوصات الطبّية الروتينية. توقّعتُ أن ينفجر استياؤه جرّاء ظهور دلال العلنيّ على التلفاز، وأن يشملني بهذا الأمر حالما

يخرج، ولكن ليس وهو لا يزال على سرير المستشفى، وبالتأكيد ليس بهذه الطريقة. «كلا، عمّي، هذا ليس صحيحاً».

«آه، نعم، إنّه صحيح. إنّه أنتِ وابنتي الحقودة تلك». عندما شهقت عمّتي عائشة وأولاد عمّي لذكره هذا الموضوع المحرّم، صرخ عمّي، «نعم، يكفي نفاقاً! الخبر معروف. سأقولها بملء فمي: إنّها ابنتي، بقدر ما أنتم أبنائي». لوّح عمّي بيده الملفوفة بضمّادٍ خفيف في المكان الذي جرح الزجاج يده. «وهي سترث حصّتها العادلة من التركة - مثلكم تماماً - عندما أموت». امتعض وجه سيف، نظر إليه عمّي باحتقار.«آه، انظر إلى نفسك! أنت تتحرّق شوقاً للمغادرة وإحصاء ممتلكاتي، وحساب كمّية الأموال التي ستضيع منك. هل أنا على حقّ، يا بنيّ؟»

«لقد جرحتني، يا أبي».

«اخرس!» لوى عمّي فمه بازدراء.«فقط احتفظ بثرثرتك الزائفة لنفسك».

كنتُ أظنّ أنّه سيبقى ضعيفاً لفترةٍ أطول، خائفاً من هشاشة وضعه الصحّي. عوضاً عن ذلك، استحال فجأةً إلى بهيمةٍ بغيضة، يرشقنا بالشتائم.

عندما حاولت أمل تهدئته، طلبَ أن تعالج موضوع زوجها، عوضاً عن ذلك، وتكبح جماح تصرفاته الطائشة. عبراتٌ ساخنة سالت على خدّها، أمّا سيف الذي حاول أن يناقشه، فاتهمه بتزوير

سجلات مصاريف النثريات. تجاهل عمّي احتجاجات ابنه بالبراءة، وقرّر بعد ذلك مهاجمة زوجته، من خلال صبّ اللعنات على هدفه المفضّل شمّا، واختلاق كلّ أنواع الاتهامات البذيئة. «إنّها حقيقة: من الغريب والشاذّ أن تختار المرأة الاستقلال، عوضاً عن أن تكون زوجةً وأمّاً. ماذا يخبرنا هذا عن أختك العزيزة؟»

لم يعُدْ بإمكان سيف وأمل احتمال المزيد. خرجا من الغرفة، وللغرابة، فقد بقيت عائشة مكانها، وذقنها مرفوعةٌ للأعلى، تنظر إلى زوجها بوجهٍ كالح. هذا أربَكَ عمّي، فأخذ يلعب- متململاً- بالأنابيب الموصولة بأنفه ورسغه. لم أعرف من أين واتتني الشجاعة، فاقتربتُ من جانبه ومسدتُ الوسادة تحت رأسه.«عمّي، أنت لست طبيعياً اليوم»، همستُ له. «أغمض عينيك وخذ قسطاً من الراحة».

طوّق عمّي خصري بذراعه وقال، «أيّتها المخلوقة الصغيرة الخبيثة، ألستِ كذلك؟ يا مَن تقومين بأفعال السوء من وراء ظهري؟ أنا أعرف كلّ شيء».

«ما الذي تتحدّث عنه؟» قلْتُ متتأتئةً، وأنا أحاول وقد فشلتُ أن أبتعد عنه.

«نعم، ما الذي تقوله؟» سألت عائشة.

«إنّها تعرف تماماً ما الذي أُشير إليه، أليس كذلك، يا مريم؟ لقد رأوْكِ».

أطلقت عائشة صرخة إحباط وهزّت رأسها بشدّة، فوقعت شيلتها على الأرض.«دعها تذهب!» لا بدّ إنّها المرّة الأولى التي ترفع فيها عائشة صوتها على زوجها، فأنا بالتأكيد لم أشهد وقوع ذلك من قبل. ارتعبَ عمّي. أفلتني ودفعني بعيداً، وكأنّني استحلتُ فحمةً مشتعلة. «ألم تكتفِ بما سبّبتَ من إساءات؟» تابعت عائشة.«متى ستتوقّف عن إيذاء الناس؟»

«أخفضي صوتك، يا امرأة» قال عمّي مزمجراً. «سيظنّون أنّ زوجتي مجنونة. هل ترغبين في أن يأتي الأطبّاء ويقيّدوك؟»

خطوتُ نحو الباب ببطء. ربما كانت شجاعة عائشة المكتشفة حديثاً – وإلى أين يُمكن أن تقود – قد أخافتني.

لمحني. «أين تخالين نفسك ذاهبة؟»

«المنزل».

«امكثي!» صدر الأمر من كليهما بصوتٍ واحد.

«أنتِ لست ذاهبة إلى أيّ مكان»، قال عمّي.

«بلى، أنا ذاهبة». قلتُ بصوتٍ كالصرير. أخذتُ أعبثُ بأطراف شيلتي. «ستبدأ الجامعة قريباً، وعليّ أن أحزم أمتعتي».

«لقد قُلتُ إنّك لن تذهبي لأيّ مكان. لا جامعة، ولا القاهرة، أبداً».

ما الذي يقوله؟ اجتاحني الذعر، وأخذتُ أُهذرم، محاولةً إجبار الكلمات على الخروج من شفتيّ المُرتعشتين. «ما يعنيه هو أنَّك ذاهبةٌ إلى مكانٍ أفضل. وأنا أعني بكلمة «أفضل» خارج منزله، ذلك المنزل المليء بالتعاسة».

«منزل التعاسة، هل هو كذلك؟» ردَّ عمّي. «لا بدّ أنّه كذلك لأنّني أعطيتك الكثير من النقود لتشتري أفضل الملابس، وتأكلي أفخر الطعام، وتسافري إلى لندن للتبضّع هناك. نعم، أستطيع أن أرى الآن كيف جعلك كلّ ذلك غير سعيدة».

«انظر حولك، يا ماجد». قالت وهي تسند قبضتيها على وركيها. «أين أولادك؟ لقد طردتهم بعيداً عنك. سيعود خالد قريباً. سيلقي نظرةً عليك ثمّ يعود مباشرةً ليختفي من جديد».

جلس عمّي بشكلٍ مستقيم، وكأنه كان على وشك أن يقفز من السرير. «ذلك الأحمق، المدلّل، الضعيف. لقد ضاع على كل حال».

«ما الذي تتحدّث عنه؟»

«المخدّرات، يا امرأة!» تناثر البصاق من خلال الأسنان المطبقة. «وليس من النوع الخفيف، أيضاً. الهيروين. هل تعرفين ما هو الهيروين؟»

«أنت تكذب. من أخبرك بذلك؟»

«لقد عرفتُ ذلك منذ فترة».

أثار عمّي ماجد أعصاب عمّتي عائشة. ظهر خطّان في منتصف جبهتها، أمارة الهلع والانزعاج. بدا وكأنّها على وشك أن يُغمى عليها. وضعتُ يديّ في يديها. «وأنتَ لم تفعل شيئاً؟» قالت عمّتي. تراجع عمّي متكئاً على الوسادة، ونظر بتعجرف. «لم تأخذ في اعتبارك أن تذهب إلى هناك وتُعيده، بحيث يُمكننا مُعالجته؟ لم تُفكّر بإخباري؟» ثنت ركبتيها، أسندتُها للأعلى وقُدتها، مُترنّحةً إلى الكرسيّ.

«كما أخبرتِك، إنّه قضية خاسرة». أطلق عمّي تنهيدةً هادرة، وضيّق عينيه وهو ينظر إلى عائشة. حنت ظهرها للأمام وغطّت وجهها بيديها. انتظرَ. عبسَ. نفذَ صبره وطوّح بيديه في الهواء. «لا تظنّي أنّني فقدتُ قوّتي لأنّي نائمٌ في هذا السرير. أستطيعُ أن أجلدك بسبب وقاحتك، حتى وأنا هنا. هل تسمعينني؟»

وقفت عائشة على قدميها كصاعقةٍ هبطت من السماء. صُدِمَ عمّي بحركتها المفاجئة، فلم ينبس ببنت شفة، وأخذ يغمز بعينيه غير مصدّقٍ هذه النسخة الجديدة الجسورة من زوجته. سدّدتْ إليه نظرةً متأجّجة مُهينة. طوى يديه أمام صدره، وكأنّه كان خائفاً أن تنتزع أنبوب التغذية من ذراعه. وبحركةٍ شجاعة واحدة، اغترفت شيلتها من على الأرض ولفّتها حول رأسها. مدّت لي يدها. وأخذتُ يدها.

«عودي! أنا أمنعُكِ من المغادرة!»

أُغلِقَ البابُ وراءنا بعنف. مشينا نحو نهاية الممرّ. كانت عائشة أقصر منّي، لكنّها كانت تمشي بخطواتٍ طويلة مهيبة، بحيث تحتّم عليّ الركض لأُجاريها. ظهر سريرٌ نقّال أمامنا، منزلقاً من إحدى الغرف. تفادته عائشة، لكنّي ارتطمتُ بحافّته المعدنية. «آسفة»، همستُ ليس أحد على وجه الخصوص.

إنّه وقت الذروة النهاريّ. في منتصف ساعات الزيارة. كانت الهواتف ترنّ باستمرار في قسم الممرّضات الذي كان مُقفراً؛ لأنّ جميع الممرضات كنّ مشغولاتٍ بدفع العربات الممتلئة بوجبات الطعام المسائية. كان الزوّار يصلون في جماعاتٍ ضخمة. أمامنا، بدا ما يشبه قبيلةً كاملة من الرجال الكبار في السنّ والشباب – أعتقد أنّهم بدوٌ من «الهباب» أو «المدام»، قد أتوا إلى المدينة الكبيرة لعيادة أحد أقاربهم المرضى – قد تناثروا في الممرّ. كان أحد الممرّضين الفلبينيين يُشير إليهم بيأس نحو غرفة الانتظار، بعد مدخل العنبر مباشرةً، محاولاً جهده أن يشرح لهم بعربيته المتكسرة أنّه لا يُسمح لهم بالتسكّع في الممرّ.

لم يُعيروه أيّ اهتمام، وعوضاً عن ذلك بقوا، مصمّمين على شرب علب عصير البرتقال المنتشرة أمامهم. كان ثمة علب عصير طماطم أيضاً، ولكن لم يلمسها أحد، فهذه تمّ جلبها للمريض؛ حيث يسود اعتقادٌ على مستوىً واسع بأنّ عصير الطماطم يزيد من الدم في الجسم.

مررنا بمحاذاة المجموعة، كان عقلي مشغولاً بما إذا كان عميّ ماجد قد عرف بلقاءاتي مع عادل، أم أنّه كان يحاول أن يستفزّني. وما هي المفاجأة المذهلة التي حاكها لي؟ أين يُخططان لإرسالي. أردتُ أن أسأل عمّتي عائشة، لكنّها كانت تدفعني وكأنّني مصنوعةٌ من القش. كان الخدم يسيرون مُسرعين في هذا الاتجاه أو ذاك، يحتضنون قدوراً معدنية من الطعام المطبوخ، وعلباً من الشوكولاته، ويحملون دلال القهوة والتمر وسلال الفاكهة. كنت أتوقّع أن أصطدم بأحدهم، لكنّ عائشة كانت ثابتة الخُطا، تفادتهم جميعهم، ولم تتوقّف، حتى عندما وصلنا بهو الاستقبال في المستشفى في الطابق الأرضيّ، ونادى أحدهم عليّ باسمي. كان أحد أصدقاء عمّي، يتسكع بالقرب من آلة صنع القهوة، ينتظرنا لنغادر حتى يتمكن من زيارته. مال برأسه ومدّ ذقنه. كان من الواضح أنّه مُندهشٌ لرؤيتنا نُغادر أبكر من المتوقّع، وبهذه الطريقة العجلى.

في الخارج، لمحنا السائق وأسرع ليجلب السيارة من الموقف. كان الهواء مُشبعاً بالرطوبة. وتحت عباءتي، أخذت طبقة من الحرارة ترفرف فوق كامل جلدي. بدأ العرق يتجمّع في حفرة الترقوة، وفي شقوق مرفقيّ، وخلف ركبتيّ.

أخذتُ أروّح عن وجهي بيديّ بشكلٍ مسعور، مراقبةً بحذر عمّتي عائشة بحلّتها الجديدة المزاجية، ومُتسائلةً ما الذي ستفعله

لاحقاً. كان العرق يتلألأ على بشرتها. «أريد أن أعرف شيئاً واحداً فقط»، قالت موجّهةً كلامها لي.«خربشات عمّك حول موضوع أنّه قد تمّت مُشاهدتك، هل تعرفين ما الذي يتحدّث عنه؟»

«كلا! لا تقلقي، عمّتي، لم يكُن عمّي طبيعياً. لا بدّ أنّه كان يُهلوس».

«أو يكذب». قالت مُتنهّدةً.«الأرجح أنّه اختلق كلّ ذلك الهراء حول خالد ليغضبني». كان خطّا القلق في جبهتها لا يزالان هناك، لكنّها أومأت برأسها بارتياح لهذا الاحتمال. صامتتين، جلسنا ننتظر السيارة.

34

ماجد

سكتة دماغية عابرة، هكذا قرّر الطبيب أن يصفها، بعد رؤية النظرة الفارغة على وجهي، عندما أعطاني التعبير الطبّيّ للحالة. كرّرتُ الكلمة الثالثة برأسي مرّات ومرّات: عابرة، تحمل الكلمة جرساً مواسياً؛ أتت، ذهبت. لكنّ الكلمتين الأخريين تخلقان إحساساً مزعجاً عميقاً في جزءٍ من معدتي. حاولتُ أن أمسح هذا الإحساس من عقلي.

أنا بحالٍ جيّدة. لم أعد أحسّ بالرعب الذي أحسستُ به ليلة نُقِلتُ إلى المستشفى، عندما سمعتُ الرجال في سيارة الإسعاف يخبرون الطبيب أنّني فقدت ذاكرتي. لقد صدّقتُهم، وطيلة أيام شعرتُ أنّي غريب. أمضيتُ كلّ ساعةٍ من استيقاظي أتأمّل بهدوء، وأحاول أن أعرف كيف أمكَن لمثل هذا الأمر أن يحدثَ لي، بينما كانت عائلتي تراقبني وملء عيونهم الدهشة والإشفاق.

ولكن وُلِد اليوم في داخلي إحساسٌ مُختلفٌ كلّياً: توقٌ غريبٌ إلى التصرّف بشكلٍ غير عقلانيّ، للتخلّي عن الحذر، لاستكشاف الضعف وشقّ الطريق نحو لُبّه. نعم، عقلي متقلب، وقد تمّت اليوم تغذيته على الخطر. أنا عالقٌ في هذه الغرفة، لا أستطيع طرد

الانزعاج الذي لا يُطاق، لذلك لم يكُنْ من العجب أن أحاول أن أجد طُرقاً لتسلية نفسي. وحالما أبدأ بقشر البثور، فمن المستحيل أن أتوقّف.

متى أصبحت عائشة هكذا، جسورة، تُجيبني بوقاحة؟ مَن الذي كان يُعطيها أوهاماً زائفة عن موقع المرأة على خريطة الأشياء. لعنتُ شمّا في سرّي، لأنّها كانت تُخطّط دائماً لتقنع زوجتي أن تتركني. لا شكّ في أنّها هي الملامة بتحوّل عائشة العدائيّ. كان عليها أن تعود وتستمع إلى ما أقوله، حتى دون أن تنبس ببنت شفة. لكنّها تحدّتني، عوضاً عن ذلك. ما الذي قالته؟ حاولتُ جاهداً أن أتذكّر كلماتها بالضبط، ثمّ قرّرتُ ألا أُضيّع وقتي بالتفاصيل. ما هو مهمّ أنّها قد تخطّت الحدود. وفي الأيام القادمة، سأريها أنّني لستُ الرجل الذي يُمكن العبث معه.

مصطفى كان هنا، طردته قبل أن يستطيع طرح الكثير من الأسئلة حول صحّتي (أليس هو مَن أعطاني تطميناتٍ زائفة، ووعدني أنّ جهود دلال لن تقودها لأيّ شيء؟) الآن أتمنّى لو أنّني تركته يبقى، فأتمكّن من تقريعه.

سعيد هنا، وإن يكُن. تخلّى سعيد عن مُداهنتي، لتحسين مزاجي. كان يجلس على كرسيّ الزاوية، يضع رجلاً فوق الأخرى، كرجل أعمالٍ محترم، يُقلّب مجلةً طبّية وكأنّها أكثر شيءٍ ممتع رآه طيلة اليوم. «ماذا تريدُ؟ أن ترفع من مستواك

العقليّ فجأةً؟» تصرّف وكأنّه لم يسمعني، وقرّرتُ أنْ لا فائدة تُرجى من الاستمرار في السخرية. جلده سميك، يتمتّع بمناعةٍ ضدّ استفزازاتي. لذلك، أخذتُ أشتكي، عوضاً عن ذلك.

«هذا المكان مُقرف». نظرتُ حولي، وبالرغم من عدم وجود أيّ شيءٍ أستطيع انتقاده، ملأتني مرارةٌ مزعجة. أنا متأكدٌ أنّ الغرفة هي ما حوّلني هكذا. «كان بإمكانهم على الأقلّ أن يأخذوني إلى مستشفىً خاص».

رفع سعيد عينيه من على المجلة، لكنّه لم يقلْ شيئاً.

«حسناً، إنّها الحقيقة. ما الذي أفعلهُ هنا؟»

«لقد جلبوك بسيارة إسعاف. وفي الحالات الطارئة، يجلبونك عادةً إلى أقرب مستشفى».

«نعم، ولكن تعرف كيف هي المستشفيات الحكومية. يُمكن أن يقتلوك. أخبرني بصدق، هل تثق بهؤلاء الأطبّاء؟ أعني، ما الذي يعرفونه». صالبتُ بين ذراعيّ وقلتْ مُتذمّراً: «أعني، كيف يُمكن أن أثق بطبيبٍ لا يستطيع حتى أن يتكلّم الإنجليزية؟» بعدها مباشرةً، دخل طبيبي ليرى مدى تحسّن حالتي. إنّه سوريّ، بوجهٍ ملائكيّ وعينين كبيرتين خضراوين، ورقعة من الزغب الخوخي الأصفر على ذقنه، لحية متكلّفة كان من الواضح أنّه يعتني بها لفترةٍ طويلة، ولكن دون جدوى. فركتُ جذامة الشعر في وجهي،

بينما كان يتفحّص ملفّي الطبّيّ، قُلت: «أخبرني مرّة أخرى، دكتور واصف، ما الذي حدثَ لي بالضبط؟»

تدخّل سعيد: «لقد أخبرك الطبيب الطيّب مليون مرّة».

بقيتُ مركّزاً على الطبيب، مُبتسماً له بدماثة: «حسناً، أحبّ أن أجعلها مليون مرّة ومرّة».

«انقطاعٌ في جريان الدم. نوبة نقص تروية مؤقّتة».

أبقيت الابتسامة في مكانها. «نوبة، هاه؟ يبدو الأمر عنيفاً».

«نعم، هذا هو اسمها؟»

«ومع ذلك، صغيرة بحجم النملة؟ أتت، مرّت، هل أنا على صواب؟»

أومأ الدكتور واصف برأسه، ونظر إليّ بعطف.

«إذاً، لماذا يوجد أنبوبٌ في أنفي؟ لماذا أنا موصولٌ بهذه الآلات؟». ضرب سعيد الهواء، وهو يُشير إليّ أن أتريّث، وأن أهدأ قبل أن تسوء حالتي. تجاهلته. «لماذا كلّ هذه الفحوصات؟»

«نحن نراقب وضعك. لا تزال ثمة مخاطر».

«أوه، اعترف بالأمر فقط. أنت لا تعرف ما الذي تفعله، لذلك تبقيني هنا». ضربتُ على حشيّة السرير. «أنت تريد أن تجعلني أشعر كأنّني سقيم».

حاول الدكتور واصف جاهداً أن يبقى لطيفاً. «أنت في خطر أن تتعرّض لسكتةٍ دماغية كاملة، يا سيّد النسيمي. هل تفهم ذلك؟ نعم، كان الانسداد صغيراً. نعم، إنّها مرّت، ولكنّ هذا يعني أنّك كُنت محظوظاً لتلقّيك إنذاراً بمدى خطورة وضعك». هزّ سعيد كتفيه مُعتذراً للطبيب الذي قال له: «لا مشكلة. الخوف يجعل ردود فعل المرضى تأخذ مختلف الأشكال».

لم أُحبّ ما قاله. تململتُ في السرير، تملؤني المرارة والحقد والغضب. «نعم الخوف»، قُلتُ، بصوتٍ صلب. «أنتم الأطباء ماهرون جداً في إخافة الناس، حيث تصلونهم بهذه البدع الصافرة التي يُمكن أن تتوقّف في أيّة دقيقة».

«أفضل ما تقوم به يا سيّد النسيمي هو أن تبقى هادئاً».

«أوه، يجب أن أبقى هادئاً، أليس كذلك؟ هل هذا ما انتهت إليه الأمور؟ رجلٌ بالغ يستمع إلى طفلٍ يحبّ أن يلعب دور الطبيب؟»

بدا وكأنّه جُرح. «أنا طبيب».

«لا تُعره اهتماماً، دكتور واصف». قال سعيد وهو يُسرع إلى جانب الطبيب ويصوّب إليّ نظراتٍ تقدح شرراً. «إنّه لا يُحبّ أن يُقيّد بهذا الشكل».

نخرتُ وقلتُ متأفّفاً: «إن إبقائي هُنا طيلة هذا الوقت هو أمرٌ سخيف».

«سيّدي، أنت حرٌّ في أن تُغادر في أيّ وقتٍ تشاء. لقد أنهيتُ فحوصاتي، وتقريرك جاهز».

تساءلتُ فجأةً ما إذا كان من السلامة لي أن أُغادر. لوّحتُ له بيدي. «هل تتوقّع منّي أن أُغادر وأنا ملفوفٌ بكلّ هذا الضماد؟ ماذا عن النزيف؟»

«لم يعُد ثمة نزيف». لم تعد نبرة صوت الطبيب مريحة. كان أقسى ممّا يتوجب عليه أن يكون، بينما كان ينشر الشاش ويُزيل الضمادات. «انظر، سأطلب من الممرّضة أن تدهن الجروح ببعض المطهّر». رفع ذقنه باتجاهي وتنفّس. «الآن، أرجو أن تعذرني، لديّ مرضى آخرون».

35

دلال

إنّه المساء. استيقظتُ على نوعٍ من الضجيج الذي أُبقيَ منخفضاً، لتجنّب الإزعاج، لكنّه بقيَ ذا تأثير اهتزازيّ، كجرس المدرسة. فتحتُ عينيّ، لكنّني بقيت بلا حراك، تاركةً وجهي مدفوناً في الوسادة. سمعتُ أصوات خطوات أرجلٍ هادئة، وهفهفاتٍ متأنّية، وأنفاسٍ مذعورة. إنّها أُمّي تتظاهر أنّها أمّ.

أضاءت أُمي المصباح الصغير عند الباب. أبقيتُ ظهري لها وانتظرت، على أمل أن تُغادر. وبناءً على أصوات الحفيف الناعمة، خمّنتُ أنّها تُفرغ ثيابي من الحقيبة التي تركتها مفتوحةً في وسط الغرفة، مثل كتاب، وترتّبُ ثيابي. وعندما انتهتْ، اقتربت منّي على رؤوس أصابعها، باتجاه منضدة الزينة. كان ثمة صوت تقليب صفحات، وهذا أيضاً عملٌ يُمكن تخمين ماهيّته بسهولة. إنّها تفتح النسخة اللامعة من مجلة «سيدتي» على تلك الصفحة في القسم الفنّي، والتي تحتوي على المقابلة التي أجريت معي. إنّها هادئة الآن. إنّها، في الغالب، تُحدّق في صورتي التي تُظهرني بشفاهٍ متباعدة بعض الشيء، وإصبعٍ تقف مشدودة على ذقني. وثمة استشهادٌ بأحرفٍ كبيرة يقول: «أتتْ موهبتي من دمائي المصرية». أنا مُتأكدةٌ أنّه أكسبني التشجيع الحارّ للكثير من المصريين.

لم تعد أمّي تمشي حولي بحذر، بعد ذلك. «دلال، انهضي. إنّها السابعة».

أطلقتُ آهة شخصٍ يصارع ليستيقظ من نوم عميق. «هل وصلت مصفّفة الشعر؟ هل عزّة هنا؟» وألقيتُ عليها نظرةً مترنّحة.

«لقد فوّتِّ شيئاً مهمّاً البارحة»، قالت «ماما»، متجاهلةً أسئلتي.«لقد أطرى عليك عبد الله الرويشد في تلفزيون دبي، وقال: وهذه هي كلماته بالضبط-»صوت دلال هو أكثر الأصوات الواعدة، بشكلٍ استثنائيّ».. هل تُصدّقين ذلك؟ وثمة المزيد».

استلقيتُ دون حراك، توّاقةً ألا أفوّت أيّ كلمة.«حسناً، لم أستطع مُغادرة الحفلة لمشاهدة المقابلة، أليس كذلك؟» قُلتُ ذلك، وأنا أُقلّدها، لإخفاء رغبتي الشديدة في سماع بقية ما قاله ذلك المطرب الكويتيّ العظيم.

«سأله المذيع: «هل ترى نفسك تؤدّي ديو معها؟».. «هل تعرفين بماذا أجاب؟»

«ماذا، ماذا؟» كان ثمة هواءٌ أكثر من الصوت في حلقي.

«هَمهمَ بلحن أُغنيتِك». صفّقتْ بيديها كفتاةٍ صغيرة منفعلة. «انثنى شاربه الكثيف جانباً وهو يبتسم ابتسامةً عريضة- بشكلٍ لعوب، ولكن عاطفيّ أيضاً، ثمّ قال: «هي بس، لوحدها، لوحدها بس؟ لا يُمكن أن نتركها بهذا الشكل».

أن يدعمك شخصٌ بأهمّية عبد الله الرويشد! أدار هذا الأمر رأسي

من الفرح. تسارع نبضي، وكان عليّ أن أذكّر نفسي أن أتصنّع اللامبالاة. لو فعلت غير ذلك، فقد تراها أمّي كدعوةٍ للعودة إلى حياتي ومسيرتي المهنية، بداية النفق الذي سيحفر في رأسي عميقاً مرّةً أُخرى.

جلستْ أمّي على طرف السرير، توّاقةً لسماع المزيد عن مغامرتي الكبيرة الأولى: حيث سافرتُ الأسبوع الفائت إلى الخارج (الدرجة الأولى، ومدفوعة التكاليف). انضمّت إليّ مدام نيفين وعزّة التي أصبحت رسمياً مُنسقة أزيائي، ولكن تعيّن عليهما الجلوس بشكلٍ منفصل، لأنّ بطاقتيْ الطائرة لهما كانتا في درجة رجال الأعمال. طرنا أوّلاً إلى المملكة العربية السعودية، ثم إلى قطر، للغناء في حفلتيْ زفاف. كانت عائلات راقية، وعاملونا بدفءٍ وإعجاب، كما أمطروني بالكثير من التقديرات والأزهار والشوكولاتة، لدرجة أنّي اعتقدتُ أنّي سأبكي من الفرح.

ربّتتْ أُمّي على غطاء السرير برفق. «هذا يومٌ مهمّ: تسجيل أغنيتك الناجحة الثانية، نأمل ذلك!» إنّها تعرف عملها بالتأكيد. أغنيتي الأولى الناجحة، والتي تمّ إدراجها مُسبقاً في ألبوم الأغاني المتوسطة (الذي سيصدر لاحقاً) يجب أن تتبعها، وبسرعة، أغنيةٌ ناجحة ثانية، وهو الأمر الذي يتطلّب تسجيل ألبومٍ ثانٍ من الأغاني المملّة. الأغنية الناجحة هي الضربة التي تضمن مبيع شريط الكاسيت. «يجب أن تستيقظي لتعطي صوتك الفرصة كي يسخن».

وبينما كنتُ أتثاءب وأتمطّى، قلتُ متأوهةً: «دعيني أنام».

أرادت أن تعرف عن الرحلة، حين وصلت إلى القاهرة. كان

باستطاعتي أن أخبرها، وعوضاً عن ذلك، ذهبتُ مباشرةً للنوم. وفي اليوم التالي ذهبت لحجزي التالي، الطيران إلى لندن (درجة رجال الأعمال، ومع ذلك مدفوعة التكاليف) حيث غنّيتُ ضمن حفلةٍ في فندق «رويال لانكستر». غنّيتُ من الساعة 10:45 مساءً حتى منتصف الليل. لم أهتمّ لموضوع أنّني كنت النجمة «ب» التي تفتتح الحفل لمغنٍّ سعوديّ مشهور يُدعى رابح صقر. تلقّف الجمهور أدائي بتوقٍ شديد في كلّ مفصلٍ من مفاصل الحدث. انحنيتُ وغنّيت:«سافر وهاجر وحترجع تاًني؟» وأنشد الجمهور مُجيباً: «لا لا يا ألبي لا لا!». انتابتني القشعريرة في كلّ مرّة كنتُ أجيبهم: «كنت أنا وبس، وحدي بس» وصرخوا مُجيبين: «أوه لا، لا، يا ألبي لا لا!» أمالت أمّي برأسها جانباً، والترقّب في وجهها. نعم، إنّها تريد موجزاً كاملاً عن نشاطي في أسبوع.

كان ثمة قرع على الباب، ضعيف ومتحفظ. لم يكن عليَّ أن أخمن من هو؟ «هل استيقظتِ؟» سأل شريف بيه.

«لا تدخل»، صرختُ، وأنا أجلس.«هذه ليست غرفة رجال». وعندما قطبت أمّي حاجبيها، أخبرتها، «حسناً، هذا صحيح، أليس كذلك؟ ليس لديه عملٌ هنا ليدخل غرفتي، عندما أكون بثوب النوم - أو في أيّ ثوبٍ آخر- وأصرّ على هذا الأمر».

«الأمر بسيط»، قالت بصوتٍ خفيض. «لا تزعجي نفسك».

تنشّقتُ ونظرتُ بعيداً. كانت أمّي تعمل بجدّ لتكسب ودّي. كانت الحقيبة مغلقة وموضوعة مقابل الجدار. الملابس جاهزة للغسيل،

موضوعة في كوماتٍ أنيقة قرب الباب، مرتّبة وفقاً للّون والنوع. يجب أن أرقص فرحاً لهذه العناية. فركتُ عينيّ طاردةً النوم منهما، وكأنّ ذلك كان سيجعلني أقدّر جهودها. لمَ لمْ تتحرك مشاعري؟

نحن نعيش في شقّة شريف بيه. إنّه الآن زوج أمّي. كنتُ سأبقى في مكاني، خلف الباب الأحمر المصبوغ حديثاً في شقّة إمبابا، ولكن نفدت نقودي. لم تُضع أمّي وقتها للزواج به، وحالما انتهى عقد إيجار شقّة إمبابا، ظهرتُ هنا بعينين محزونتين، جاهزة لتقديم اعتذاراتٍ طنّانة عن كلّ الأسى الذي سببته لها كي لا تطردني (أين كنتُ سأذهب؟)..كنتُ قد أعددتُ نفسي، متوقّعةً ساعاتٍ تعيسةً وطويلة يتعيّن عليّ فيها أن أتحمّل سخريّتها اللاذعة. لكنّ السخرية لم تأتِ أبداً، لا شكّ في أنّها أدركت أنّني كنتُ على بُعد خطواتٍ من المستقبل المشرق، المستقبل الذي يُمكن أن تكون جزءاً منه إذا منحتها الفرصة لذلك.

يُمكنني تقريباً أن أرى التروس تتلوّى في رأسها، بينما كانت تحسب كيف يُمكنها أن تعبّر عن عاطفتها بالطريقة المثلى. لقد نظّفت أمّي هذه الغرفة التي كان شريف بيه يستخدمها للتخزين- تضمّ عوده ونوتاته الموسيقية، ومنتجات التنظيف، ولوحاً للكوي- وأعلنتْ أنّها قد أصبحت غرفتي. عندما وقفتُ في منتصف الغرفة الفارغة، فتحتُ فمي من الدهشة، فقالت أمّي: «يجب أن تكون لكِ مساحةٌ تشعرين فيها بالراحة. أردتُ أن تكون هذه الغرفة حِماكِ».

ملأت أمّي الغرفة بأثاثٍ جديد، ذي أطيافٍ كثيرة من اللون

الوردي، الأمر الذي جعلني أفكّر في «آيس كريم» الفراولة المتقطّر. كانت التسريحة ذات مرآةٍ بيضوية، وأدراج بمقابض نحاسية. اللوح الأمامي عبارة عن زهرة ضخمة، وكانت ثمة أوراق كرمة مرسومة تزحف إلى أعلى، نحو زوايا الخزانة، حيث تتموضع في الأعلى مجموعاتٌ من عناقيد العنب اليانعة بلون الماجنتا. كان يبدو عليها الابتهاج وهي تشتري لي ملابس جديدة - «يجب أن تبدين دائماً بأبهى حلّة» - ووجدتُ أنّ بإمكانها أن تطبخ أكثر من البيض العادي؛ «يُمكنك التعامل مع المتاعب، فقط إذا حصلتِ على التغذية المناسبة».

كان مسعىً نحو الحميميةّ الدعيّة، أيضاً: ضغطة الكتف الضعيفة، تمسيدة الظهر الفاشلة، والآن ما بدا وكأنّه بداية ما يُمكن أن يتحوّل إلى عناقٍ أخرق.

«انظري إلى نفسك، مُنزعجةً كُلّياً». انحنت إلى الأمام وذراعاها ترفرفان أمامها، وتساءلتُ ما إذا كان الشيء الذي كنتُ أنتظره طوال حياتي سيحدث أخيراً: سأتلقّى عناقاً ودّياً حقيقياً من أمّي. ولكن- كما توقّعت- كانت لديها مشكلة في إكمال هذه الإيماءة، لأنها لم تكن نابعةً من قلبها. حالما أصبحتْ قريبةً لتعضّ أنفي، انسحبتْ كسلحفاةٍ إلى قوقعتها. لم أعد أشعر بأيّ شيءٍ بعد ذلك. لا دفء، لا أمل، لا إساءة، لا شوق: صفرٌ كبيرٌ بدين.

«إنّه يُحاول معك جاهداً»، همستْ أمّي. «لا تنسي أنّك تعيشين تحت سقف بيته. إنّه هو من يدفع مصاريفك. لذلك، فإنّ القليل

من الاحترام ليس بالأمر الكثير الذي يطلبه، ألا تظنّين ذلك؟ كلّ ما يُريده هو أن يكون جزءاً من حياتك، لحمايتك».

«ألا يُريدني أيضاً أن أناديه بابا؟»

«لا تكوني سخيفة، دلال»، قالت مع إبقاء صوتها هادئاً. ثم أخبرتني عن زائرٍ قَدِمَ ليلة طرتُ إلى السعودية: إنّه مصطفى، الموظف والمخَلِّص عند أبي. «لقد نقل لنا تهديداتٍ كبيرة، ذلك الرجل: تحذيرات لنتوقّف عن إحراج أبيك، وإلا..».

«ما الذي يُفترض أن يعنيه هذا؟»

«لا أعرف»، قالت أمّي، «لكنّ مصطفى بدا كأنّه يبصق الديناميت. كان غاضباً وفظّاً جداً، لدرجة أنّ شريف بيه اضطر أن ينزل للأسفل، ويطلب من السائق طرده خارج الشقة. انظري، لهذا السبب أنتِ تحتاجين إلينا حولك، لنحميك، وليس لتلك المديرة السمينة التي وضعتِ الكثير من الإيمان فيها، والتي تبتسم لك وتسرقك في الوقت نفسه». أخذت عيناها تلمعان. «عائلة حقيقية!»

«همم».

«يبدو أنّ أباك قد تعرّض لسكتةٍ دماغية بسيطة، الشهر الماضي، وهو يلومك على ذلك». ضيّقتْ عينيها وانتظرت ردّ الفعل.

كان وجهي جداراً فارغاً. لم أكن في مزاجٍ لأشرح لها أنّني سمعتُ مسبقاً بهذا الجزء من الأخبار، عبر مريم، وأنّني لم أتكلّف عناء إخبارها. «أريدُ قهوة». تفاجأت أمّي بلامُبالاتي، لكنّها لم تُعلّق.

وبينما كانت تنهض لإعداد قهوتي، أمسكتُ معصمها.«وإذا عاد مصطفى مرَّة ثانية، دعيني أكلّمه مباشرةً. يُمكنني حينها أن أخبره أن ينقل لأبي رسالةً مفادها أنّه يُمكنه لومي كما يشاء، أنا، لا أهتمّ البتّة».

وحيدةً، عُدتُ بأفكاري إلى اللحظة التي اتصلتْ فيها مريم بي لتنبئني بهذه الأخبار. بعد ذلك بأسبوع، اتصلتْ مريم ثانيةً وهي تحمل أخباراً أكثر حزناً، أخباراً مُثيرةً للسخط، لدرجة أنّي– عندما سمعتها– أحسستُ أنّ معدتي قد عُصرت بملزمة: الإنهاء المفاجئ لتعليمها، من أجل زواجٍ مُدبّر من غريب. كانت تلهث، مُنفعلةً، ومهزوزة المشاعر، تختنق بالعديد من العواطف، وهو جانبٌ منها كنتُ متأكّدةً أنّها لم تُظهره لأيّ أحد قبلاً.

وبينما كنتُ أتقيّأ قائمةً بالحلول العقيمة – توقّفي عن الأكل! اهربي! – التي لم تسمعها، كنتُ أذرع الغرفة جيئةً وذهاباً. ودون قياس مدى سخافة ما كنتُ أقوم به، سحبتُ بعض الملابس من خزانتي، ورميتها في حقيبةٍ صغيرة. لم أرغب في أن أضيّع أيّ وقتٍ للوصول إليها. كيف يجرؤون على أن يقودوها كمعزاةٍ في الطريق التي يرغبون؟ أمنيتها الوحيدة هي الدراسة. لكنّ أبي قاسٍ، لدرجة حرمانها حتّى من هذا الأمر البسيط.

كان اتصالاً سريعاً، دفقةٌ من القنوط المكموم من جانبها، وحنقٌ محموم من جانبي. وحالما أغلقتُ سحّاب الحقيبة ووضعت القفل، أقعدني شعورٌ طاغٍ بالعجز. أنا هنا، أحلمُ بالمعجبين العاشقين والشقّة الفسيحة (والتي ستأتي لاحقاً،

بالطبع) وتطلّ على النهر في ضاحية الزمالك الحديثة، لكنّني لا أستطيع أن أسافر لأكون مع مريم، وقت حاجتها إليّ. مُحبطةً، خبطتُ نفسي على السرير. ما الذي كان يُمكنني أن أفعله؟ لم يكن لديّ النقود لشراء بطاقة الطائرة.

أخذَ مُجفّف الشعر يئنّ، بينما كانت مُصفّفة الشعر تروّض تجاعيد شعري، لتحوّلها إلى خيوطٍ ناعمة. كانت عزّة تجوس خلال خزانة ملابسي، باحثةً عن قطعةٍ علوية مناسبة لأرتديها. أخبرتُها أنْ لا تقلق حيال هذا الأمر، لأنّه- ببساطة- مجرّد تسجيل، وليس حفلة موسيقية أو حفلة عامة، لكنّها أصرّت وقالت إنّها لا يُمكن أن تسمح لي بالمشي مرتديةً أسمالاً بالية. أضافت: «بالإضافة إلى ذلك، لا تعرفين مَن مِن الفنانين المهمّين يُمكن أن يظهر مُصادفةً في الاستديو».

لديها وجهة نظر. كنتُ قد وظّفتها مؤخراً كمنسقةٍ لأزيائي، بالرغم من أنّ السبب يعود إلى صحبتنا، أكثر منه إلى حِسّها في الموضة. سحبَتْ بلوزةً حريرية مُقلّمة، مع عُقدةٍ على جانب الياقة. رفضُتها. جرّبت واحدةً أُخرى، زرقاء فاتحة، وأعطيتها إشارة الموافقة.

كان رأسي يتمايل بلطف تحت الحرارة. حدّقتُ في انعكاس صورتي؛ كانت العين اليُسرى يقِظة، بينما تبدو العين اليُمنى- بجفنها الوسنان- وكأنّها ستُغمض في أيّ لحظة. فقدتُ نفسي، إنّها لحظةٌ ثمينة، حيث يُمكنني أن أتّكئ للخلف وأُوجِزَ نجاحي. كانت استراتيجية مدام نيفين تتمحور حول اكتسابي الشهرة

والشعبية عن طريق أغنيةٍ واحدة ناجحة، عوضاً عن ألبومٍ كامل، مع أنّ ألبومي سيصدر خلال بضعة شهور، في نهاية السنة؛ «العديد من الألحان الناجحة سوف تُربك المستمع، حبيبتشي!» إنّه جزءٌ من استراتيجيتها في تضخيم الدعاية. وكيف نجحَ هذا الأمر! لقد توهّجت أغنيتي الناجحة الأولى عبر موجات الأثير، مثل الحريق الهائل، حيث ما برحت تُذاع مراراً وتكراراً في محطات الراديو، إنّها انتصار الصيف. أخبرتني مدام نيفين أنّها أكثر الأغاني طلباً، ليس في محطة «إف إم دبي» فحسب، بل أيضاً في «إف إم البحرين»، حيث لا تنفكّ الهواتف ترنّ، من المستمعين السعوديين. إنّها محطةٌ جاذبة لهم، نظراً لخياراتها الكبيرة من الموسيقى.

لم يكُن اللحن وحده هو ما جذب الجمهور. فمن خلال ضربة حظٍّ عملاقة، وجدت الأغنية طريقها إلى شريط كاسيت يُدعى «ليالي النيل»، وهو مجموعةٌ من الأغاني الناجحة لمطربين مشهورين. كان اسمي موضوعاً ضمن الغلاف البلاستيكي، مع عبد المجيد عبد الله، وأنوشكا، ومونيكا فياض.

ثمة مركز تسوق صغير مليء بأحذية وحقائب لعلاماتٍ تجارية عالمية مُقلّدة، في فندق «رمسيس هيلتون». إنّه على طريق السيّاح الخليجيين، وهو شهير، كون المتاجر هناك تبيع البضائع المصرية التقليدية، مثل الشراشف القطنية، والمناشف، والجلابيات. كنتُ أحاول الذهاب إلى هناك كلّ بضعة أيام؛ لأنّ في الطابق الثاني كشكاً مربّع الشكل، يبيع شرائط الكاسيت. كان مُلصق صورتي هناك، وزوجٌ من مُكبّرات الصوت الضخمة على المدخل، تصدح منهما أغانٍ

شهيرة. كان يتوجّب على المالك أن يُسكت الصوت عند نداء الصلاة في مكبّرات مركز التسوق، ولكن فقط في حال اشتكى أحدهم.

رافقتني عزّة إلى هُناك، بدأنا من المقهى في الطابق الأرضي، حيث ارتشفنا قهوتنا على مهل، لنُعطي المتسوقين الجائلين فرصة أن يُلاحظوا وجودي. آنذاك، كان ثمة شذرات من التعرّف، حيث بدا الناس وكأنّهم غير متأكّدين ممّا إذا كان وجهي هو الوجه ذاته على الملصق، ولكن لم يبدأ الناس بالتقاطر نحوي، إلى أن شرعنا بالتجوّل بأناة، بالقرب من الكشك، متظاهرتين بأننا نتسوق كأيّ شخصٍ آخر.

كان ثمة دائماً ضوءٌ خفيف من المعرفة في عيونهم: يبتسمون، يومئون برؤوسهم، ويضحكون، بشكلٍ خجول في البداية. كانوا يتلكؤون حتى بعد أن يحصلوا على توقيعي أو يلتقطوا بعض الصور معي. عند تلك النقطة، وحالما يكون ثمة تجمّعٌ من المعجبين حولي، يقوم مالك كشك شرائط الكاسيتات بالإنهاء المفاجئ لأيّ شيءٍ كان يُذيعه عبر مكبّرات الصوت لديه، مُستبدلاً إيّاه بأغنيتي. ثم أُصبح وكأنّني أمتطي صهوة الألعاب الدوّارة السريعة؛ ذلك هو نوع النشوة المثيرة التي أحصل عليها.

أصبح شعري الآن مستقيماً كالخيزران، وكما تتطلّبه الموضة. طلبت عزة من مصفّفة الشعر أن تثبت قرنفلةً زرقاء كبيرة، لإضافة لمسةٍ من السحر. وحالما ثبّتتها فوق أذني اليُسرى، أخذتُ أحرّك رأسي في هذ الاتجاه وذاك، مُتفحّصةً وناظرة بعين الشكّ إلى مختلف الزوايا.

«انظري كيف جلبت الضوء إلى وجهك، وهي تتناسب مع بلوزتك»، قالت عزّة.«من الآن فصاعداً، يتوجّب عليك أن تظهري بمظهرٍ إبداعي أمام مُعجبيك، وتُنشئي اتجاهاً معيّناً في الموضة، كما تعلمين: وردة هُنا، منديل هُناك، وجهٌ لامع».

لم أكنْ مقتنعة. نفختُ على البتلات التي سقطت على وجنتيّ مثل الأعشاب. «أليست كبيرةً بعض الشيء للذهاب بها إلى التسجيل؟»

«لا، لا»، قالت عابسةً، كان من الواضح أنّها تأخذ دورها كمنسقة أزياء على محمل الجدّ. «انظري لنفسك». وضعتْ يدها على كتفيّ، وانحنت بحيث انعكس وجهانا - وجهي لامع، وجهها بسيط- جنباً إلى جنب في المرآة. «أنتِ لم تعودي شخصاً عاديّاً بعد الآن».

إنّها تقصد أمراً طيّباً، لن أكسر خاطرها. بالإضافة إلى ذلك، أحببتُ ما كانت تقوله. رفعتُ رأسي وابتسمتُ ابتسامة الأبطال في المرآة. سأتخلّص من هذه القرنفلة، حالما أصل إلى الأستديو.

* * *

الساعة 10:15. أخبرتني عزّة أنّ مدام نيفين في الأسفل. تمنّت لي حظاً سعيداً وغادرت، مع مصفّفة الشعر. صاغت أمّي ملاحظةً وضيعة حول تلك «المخادعة السمينة»، وهو الأمر الذي تجاهلتهُ. بالطبع لم تصعد مدام نيفين للأعلى. لن تُضيّع أمّي وقتها بكيل الاتهامات لها، وهو الأمر الذي سيقود إلى معركةٍ حامية.

أسرعتُ في إلقاء أغراضي في حقيبة يدي - المفاتيح، النقود، أحمر الشفاه، وحبوب تلميع الحنجرة - تبعتني أمّي وشريف بيه، وهما يصيحان بتعليماتٍ وآراء مبتورة. الأمر مدعاةٌ للجنون. يجعلني الأمر أرغب في شدّ شعري، حتى تعود الخصل المجعّدة. كانا يتوقان لأن يدخلا حياتي. هي كانت ترغب في أن تُدعى إلى حضور التسجيل؛ وهو كان يرغب بتقديم مشورته المهنية لي، لأنّ تقلّص احتمال حدوث هذا الأمر مترافق مع تقلّص صوته.

«بَسّ!» صحتْ.

وقفا صامتين من الدهشة، نظرا إليّ بحنق.

«أنتما تقودانني إلى الجنون».

«هل هذه طريقةٌ تُكلّمين بها أمّك؟» قال شريف بيه، وهو يغرس قبضته في وركه الضامر.

«إنّها تعتقد أنّها قد أصبحت شخصيةً مهمّة»، قالت ماما: «لدرجة أنّها قرّرت أنّها لا تحتاج إليّ، لا تحتاج إلى أمّها».

كان بإمكاني أن أقف دون حراك وأتلقّى التعليق، أو أن أخرج. أخذتُ بالخيار الثاني.

«أُريد نقوداً!» هذا ما قُلته لـمدام نيفين، حالما وصلتُ إلى خرتيتتها (في القاهرة، الخرتيتة: هو لقب الدلع لسيارات «المرسيدس» المصنوعة بين العامين 1980م - 1985م) بلونها الزيتوني، مع الانبعاجات والخدوش الصغيرة المعتادة. كظمت

مدام نيفين ضحكةً؛ ربّتت على صدغها، ورمقتني بنظرةٍ فاحصة، وطلبتُ إليها أن تنسى أمر الوردة لدقيقة. أحصيتُ لها كيف أنّني قد كسبتُ ثلاثين ألف دولار أمريكي من حفلتيْ العرس، وحفلة لندن، ومبيعات شرائط الكاسيت لأغنيتي المنفردة. كنتُ أعرف أنّه لن يبقى الكثير، عندما يتمّ خصم التسجيلات وأتعاب مدام نيفين، لكنّي بقيتُ مُصرّة. «ليست هذه الفكّة التافهة التي أعطيتني إياها، بالنقودُ للانتقال من تلك الشقّة».

«ومساء الخير لك أيضاً»، قالت، وهي تنزلق بالسيارة إلى وسط الشارع، دون حتى أن تنظر في المرآة الخلفية. «الخبر الجيّد أنّه ثمة مقابلتان محجوزتان لك خلال الأسبوع القادم: واحدة في برنامج حواري على التلفاز المصري، والثانية كضيفة في برنامج على قناة «mbc»؛ وبعدها سيبدأ العالم بأجمعه بالتحدّث عنك».

«الـ mbc؟ حقاً؟» جعلني هذا أنسى موضوع النقود لدقيقة. تخيّلتُ وجودي على القناة السعودية التي مقرّها لندن، القناة التي تبدو دائماً ألمعَ من غيرها من القنوات الفضائية. ثم تذكّرت جيوبي الخاوية. «حسناً، ماذا عن الأرباح؟»

«يجب أن تكوني صبورة، يا دلال. لقد أخبرتك قبلاً، ثمة الكثير من المصاريف. إنّه عملٌ مُعقّد، ويجب التعامل مع مسألة صعودك في هذه المرحلة المبكرة بحذرٍ وأناة. أتسمعينني، حياتشي؟» راقبتها وهي تَخرُج من الشوارع السكنية الضيقة. كانت تبدو مُتشنجة، «التربان فوق رأسها» مسخٌ أخضرُ لامع،

يُلامس السقف، وصدرها الذي يكشط عجلة القيادة في كلّ مرّة تنحني فيها إلى الأمام لتدير السيارة. «لا تنظري إليّ بهذه الطريقة. أنا لا أدفع للتسجيلات والفيديو كليب فقط. أنتِ لا تدركين هذا الأمر، ولكن ليس جميع مَن في ميدان الصحافة يحبّونك. والله.. أنتِ لن تصدّقي حجم الإشاعات المنتشرة هناك: إنّها ليست إماراتية، النسيمي ليس اسمها الحقيقيّ، لقد عملتْ في نادٍ ليلي في شارع الهرم، إنّها ليست أكثر من مغنّية مُساعِدة؛ والجميع يعرف أنّه- كي تنجح المغنّية المساعِدة- يتوجّب عليها إمّا أن ترشو مُنظّمي الحفلات، أو أن تجد رجلاً مسنّاً ثرياً يتمتّع بسلطةٍ توصلها إلى القمّة».

وبقدر ما كنتُ أرغبُ في أن أتناقش معها، كانت لديها وجهة نظر. «حسناً، لم أسمع شيئاً من هذا القبيل أبداً».

«بالطبع لم تسمعي، لأنّني عملت جهدي ألا تخرج هذه الأمور إلى العلن. كان عليّ أن أُداهن الصحافيين، احزري ماذا...» أخذتْ تفرك أصابعها.«نقود».

ومع افتقادي كيفيّة الردّ، أصدرتُ صوت هسيس من خلال أسناني.

تنهّدت مدام نيفين: «يا حبيبتشي، يا دلال، لقد أخبرتك أنّك خاصة واستثنائية، خليطٌ فريد - مصرية، إماراتية - مثل الشاي الفاخر. أنا أُخبرُ وسائل الإعلام المصريّ «إنّها فتاتنا»، وأفعل الشيء نفسه مع وسائل الإعلام الخليجية. وحتى الآن، نحن نُبلي حسناً. بالرغم من ذلك، يجب أن أؤكّد أنّه عليكِ أن تكوني

مستعدّة: القصص لا تتوقّف، والأكاذيب ستستمرّ بالظهور، ولكن من الضروريّ أن يحدث هذا الأمر لاحقاً، بعد أن تكوني قد ثبّتِّ قدميك. أنتِ الآن قد بدأتِ للتوّ، وعرضة للسقوط. حركةٌ واحدة خاطئة يُمكن أن تسقطي معها مباشرةً على وجهك». نخرت مدام نيفين. «وأنا لن أتحمّل تبعات هذا الأمر!»

كان ثمة حرارةٌ في عاطفة النخرة، توحي بإيمانها بي. فكّرتُ بهذا الأمر ملياً. إنّها تعلم أنّي سأصل إلى أعلى درجات النجومية، إذا اتبعتُ الطريق المستقيم الذي تنحتُه لي، وهو طريقٌ عريض بما فيه الكفاية ليتّسع لقوامها العامر، أيضاً.

لقد قاربنا على الوصول: اتّبعتْ مدام نيفين شبكةً من الشوارع الخلفية، بينما كانت تتجه نحو الاستديو. كنّا في مكانٍ ما وسط متاهةٍ من الشوارع الصغيرة التي كانت- للغرابة- فارغة، بالرغم من أنّها بالقرب من «شارع الجامعة العربية» الكبير والمزدحم، عندما ظهرت فجأةً سيارةٌ من الظلام. انحرفت السيارة وانزلقت لتتوقّف أمامنا مباشرةً.

ضغطت مدام نيفين الفرامل بقوّةٍ قذفتنا كلتينا نحو الأمام. لم يكن بالكاد أيّ متّسع لصدرها الكبير الذي انبعج على عجلة القيادة، وانكمشتُ أنا خوفاً، كنتيجةٍ لصوت البوق الذي كان يصمّ الآذان. سقطت القرنفلة على الأرض، بينما كنتُ أنظر إلى مدام نيفين. كان «تربانها» قد انحرف جانباً، وبدا كأنّه كعكةٌ طويلة على وشك أن تقع. كنّا مُرتبكتين، وأخذنا نُحدّق إحدانا بالأخرى.

استمرّت دهشتنا لبضع ثوانٍ فقط. قفز ثلاثة رجال بمناديل ملفوفة حول وجوههم من السيارة التي كانت تسدّ طريقنا. وقبل أن تسنح لنا الفرصة للتفكير بفعل أيّ شيء – أن نشتم، أو نرفع النوافذ، أو نقفل الأبواب – كانوا قد أخذوا يقرعون على غطاء محرّك سيارتنا، لجذب انتباهنا. أعادت مدام نيفين «التربان» إلى وضعه العمودي.

«مَن هؤلاء؟» قلتُ بصوتٍ كالهسيس، وأنا أنظر حولي متسائلةً متى أصبحت القاهرة هكذا فجأة فارغة؟«ما الذي يريدونه؟» غصتُ في مقعدي إلى الخلف، بينما كان الرجال يقفون صفّاً بجانب نافذتي، يشتعلون غضباً.

كان أحدهم يحمل في يده مطرقة، أخذ يلوّح بها في الهواء: «اتركي هذا الطريق الذي تمشين فيه، وإلا سوف أكسر رأسك». كان شكله يشبه قطعة «النودل»، وانتقل بسرعة إلى جانب الشخص الآخر الذي يشبه أفراد العصابات، والذي اقترب منّي من خلال النافذة المفتوحة. أخذت يداي ترتجفان، بالإضافة إلى الصرير المتهدّج الذي كان يصدر عني، إنّهما في موقفٍ دفاعي ضعيف. وبحركةٍ هجومية واحدة، أصبح معصميّ الاثنان مسحوقين تحت وطأة قبضته.

فتلَ يديّ، وأنا صرخت.

«سأكتفي هذه المرّة بترك أثرٍ فقط»، قال مُحذّراً، وكان صوته أجشّ مليئاً بالتهديد والوعيد. كانت تفوح منه رائحة السجائر الرخيصة واللبّ. «في المرّة القادمة، سأكسر عظامك».

«نعم»، قال «النودل» وهو يتحرّك نحو مقدّمة السيارة. «هل ترين هذه المطرقة؟»

«وما الذي تنوي فعله بهذه المطرقة؟» كانت مدام نيفين قد أصبحت خارج السيارة، دون أن ألاحظ ذلك، ووقفت قبالتهم، يلمع الجزء السفلي من جسمها تحت نور الأضواء الأمامية للسيارة، وتبدو عظيمة الشبه بـ «جنيّ علاء الدين».

استحال «النودل» إلى حشرةٍ مذعورة، عندما ضربته مدام نيفين على صدره. «لقد كسرتْ أضلاعي، يا يحيى»، صرخَ مُخاطباً رئيس العصابة الذي أفلتَ ذراعيّ وأهدى «النودل» صفعةً مفرقعة أطاحت به جانباً. «لا تذكر اسمي!» استدار وقال مُتمتماً لـمدام نيفين: «يا ستّ، كائنةً من كُنتِ، فقط ابقي بعيدةً عن هذا الموضوع. أنتِ غير معنيّةٍ بهذا الأمر البتّة».

«تنحرفُ بسيارتك أمامي فجأةً، وتضرب على خرتيتتي»، قالت مدام نيفين، «وكأنّه لا يكفيها الضرب الذي تتلقّاه كلّ يوم في هذه الشوارع. ثمّ تخبرني أنّني غير معنيّةٍ بهذا الأمر؟» بدا صوتها ثابتاً في البداية، ثم استحال مُتذبذباً بعد ذلك مباشرةً. أمّا أنا فتسلّقتُ إلى المقعد الخلفي، مُعتقدةً أنّني قد أنجح في الانسلال من الباب الخلفي للسيارة دون أن يُلاحظني أحد.

استشفّ يحيى خوفها أيضاً. وبينما كنتُ أضع قدمي خارج السيارة، على الطريق، أمسك بالمطرقة وضربَ غطاء محرّك السيارة. «وهل هذا الأمر يعنيك الآن؟ تحذيرٌ أخير، أيّتها الخنزيرة السمينة.. ابقي بعيدةً عن الموضوع!»

أصبحتُ خارج السيارة، مستعدةً للهرب بعيداً على رؤوس أصابعي. لم تكن لديّ رغبة أكبر من أن أختفي. ولكن كيف يُمكنني أن أتركها ورائي مع هؤلاء البهائم؟ انكمشتُ خوفاً، بالقرب من الضوء الخلفي، غير قادرةٍ على أن أُشيح بنظري عن يحيى، بينما كان يضرب «خرتيتة» مدام نيفين مرّتين أخريين. مُتشجعاً، انضمّ السفّاح الثالث – والذي كانت وظيفته حتى ذلك الوقت أن يراقب – للاثنين الآخرين، وشكّل الثلاثة دائرةً تهديدية حولها، يدفعونها نحو الأمام والخلف.

يا لمدام نيفين المسكينة. لقد خرجتْ من السيارة لتدافع عنّي، وعوضاً عن ذلك، أصبحتْ ضحيّةً للاعتداء. أدرتُ معصميّ المتيبستين والمتألمتين، وانفجرت داخلي فقاعةٌ من الغضب. كيف يُمكن لأبٍ أن يفعل هذا بابنته؟ وقبل أن أستطيع أن أفكّر، وجدتُ نفسي أَندفع إلى البقعة المضاءة بالمصباحين الأماميين للسيارة، أضرب المعتدين بشكلٍ أعمى، وبكلّ ما أوتيتُ من قوّة. تراجعوا إلى الخلف من الصدمة، وسقطت المطرقة على الأرض، مُحدثةً صوت ارتطام قويّاً. كان كلّ جزءٍ فيّ مُتحفّزاً، متوثباً كحبلٍ مشدود. وعندما اندفع يحيى باتجاهي، ركلتُه بقوّة على أعضائه الحساسة، فانثنى عند وسطه، يعوي ويشتم.

ومع خروج قائدهم من الخدمة، تكسّرت الجبهة المتّحدة لوهلة.. إلى أن التقط «النودل» المطرقة من على الأرض. كان ثمة تعبيرٌ مجنون في عينيه. «سيفعلها!» صرختُ، وبدأنا أنا ومدام نيفين الركض هاربتين. فجأة دبّت الحياة في المدينة، بلمح البصر.

سيارة، اثنتان، ثلاث سيارات سارت باتجاهنا، على صفٍّ واحد. أضاءت السيارات الشارع، مثل حشدٍ من ملائكة الليل.

«لم ينتهِ الأمر بعد»، تمكّن يحيى من الصراخ، كان صوته عالي النبرة من الألم. «سنجدكما، وفي المرّة القادمة...» لم يكُنْ بمقدورنا أن نسمع بقية كلامه، نتيجة أبواق السيارات وصيحات الغضب من السائقين المتبرّمين، غير القادرين على المرور، لأنّ سيارته كانت تسدّ طريقهم. أسرع البهائم في المغادرة، تاركين وراءهم صدى صرير عجلات سيارتهم. ولو أنهّم بقوا لأطول من ذلك، لخرج الناس من طابور السيارات الطويل ليستقصوا الأمر، وحينها- مع وجود مشكلةٍ تتضمّن حشداً ضخماً في القاهرة- سيكون ثمة يقين من حدوث حالة هياج، تمنح الحشود فرصةً ثمينة لضربهم حتى النخاع. هذا ما كان يدور في خلدي، بينما أخذنا نبتعد بالسيارة.

كنتُ جدّ مُبتهجة لفرارنا، بالرغم من أنّني لم أستطع التوقف عن الارتعاش. استمرّت مدام نيفين في ابتلاع ريقها، مُصدرةً أصوات فرقعةٍ عالية بلسانها. كان الجوّ في السيارة مشحوناً. صفّقتُ بيديّ لأنهي هذا التوتّر وقُلتُ: «حسناً، لقد انتهى الأمر، لقد طردناهم بعيداً، أليس كذلك؟»

«أوه حقاً»، صاحت مدام نيفين. «وهل تظنين أنّ ذلك كان ذكاءً منك، تهجمين عليهم بهذه الطريقة؟»

«كنتُ أدافع عنكِ»، قُلتُ، وقد أهانتني عدم قدرتها على تقدير إنقاذي الجَسور لها.

«دلال البطلة». وهزّت برقبتها بشكلٍ مُسهَبْ، في عرضٍ مُبتذل للإهانة. «هل تظنّين أنّهم لن يُعاودوا الكرّة؟» هزّت برأسها. انظري كيف هشّموا «خرتيتتي». انظري إلى كلّ تلك الثقوب على غطاء المحرّك».

«يُمكنك الانتقام من الأنذال. اتصلي بمصدرك في قوات الأمن، وادفعي له، بحيث يستطيع حمايتنا».

«مصدري لديه وظيفة، يا دلال!» صرخت مدام نيفين، وهي تنظر بقسوة. «لا يُمكنه أن يكون في كلّ مكان. لقد رأيتِ كيف ظهروا من المجهول؛ حتى أنّنا لا نعرف أشكالهم». تنشّقتْ مدام نيفين، محاولةً أن تهدأ. «لا يُمكنني أن أقبل بقيام أحدهم بتحطيم وجهك. هذا سيعني نهاية مسيرتك المهنية، وأنا عملتُ بجدّ لأتجنّب خيبة أملٍ كهذه».

ربّتُّ على خدّيّ غريزياً، مذهولةً من فكرة أن يُسحن وجهي الجميل ويتورّم تحت وطأة قبضات يحيى. «ما الذي يُمكننا فعله؟»

أجابتني بينما كانت تقود «الخرتيتة» إلى «شارع الجامعة العربية». «لقد حان الوقت لنؤمّن لك بعض الحرّاس الشخصيين».

36

مريـم

«إنّها العاشرة والنصف. أيّتها السيدات: حاملات الورود؛ أين هُنّ؟»

«كلّ شيء جاهز، في الردهة».

«والموسيقيون؟»

«ينتظرون دخولها، أيضاً».

وبينما كانت تُراجع قائمة التدقيق، أخذت الأرملة النشطة، التي ستصبح قريباً حماتي، تفرك يديها برضى. إنّها ممتلئة، بذقنٍ مُنكفئة تندمج مع رقبتها التي تعمل كمسندٍ نضيد لرأسها الضخم. «حسناً، لقد حان الوقت كي تظهر العروس».

نهضتُ، مُباشرةً، تقلقلتْ رُكبتاي وعدتُ إلى الكرسيّ ثانية.

كان ثمة لُهاثٌ، تبعته قهقهةٌ أتت من الجمع الضبابيّ للنساء المحيطات بي. أنا في جناحٍ في فندق «حياة ريجنسي»، حيث يتمّ إلباسي وتزييني. سمعتُ صوت تدويم الحرير وكشط الشيفون، وكلّ حركةٍ للنساء كانت تنقل روائح الورد، والياسمين، والمسك،

والعنبر، والأكثر مَلَكيّة بين كل العطورات، العود. كانت الروائح تنبثق مُباشرةً في أنفي، وتُصيب رأسي بالدوار. «هيا، يا مريم»، قالت ابنة عمّي أمل ضاحكةً. «أنتِ أقوى من ذلك الثوب. لا تدعيه يشدّك للأسفل».

عشرة كيلوغرامات: كان ذلك هو الوزن المؤكّد. أضِف كيلوغراماً آخر لكلّ شيء كوّمته مصفّفة الشعر فوق رأسي، وأنا أحمل تقريباً بقدر ما يحمل عامل نقل الإسمنت. كانت تلك الأفكار تقريباً أبعد ما يكون عن المشاعر الرومانسية التي يجب أن تحملها العروس، ومناسبةً تماماً لهذا الإذلال في الاقتران.

«تبدو كأنما سيُغمى عليها!» قالت مُصفّفة الشعر، وأطلقت غيمةً من رذاذ التصفيف التي غامت فوق وجهي. «أعطوها بعض البسكويت».

«لا بسكويت! لا يُمكن أن نترك الفتات يلتصق بشفتيها»، قالت الأرملة بلهجةٍ آمِرة. اشتكتْ أنّه يتوجّب عليها النزول للأسفل، إلى قاعة الاحتفالات، وبالتالي فهي لا تستطيع أن تكون في مكانين في وقتٍ واحد. سألتْ بنات عمّي ما إذا كانت تستطيع الوثوق بهنّ لإرسالي، خلال الدقائق العشر القادمة، ووعدن أن يفعلن. ضيّقتْ عينيها في وجوههن. كانت عيناها متموضعتين قريباً من أرنبة أنفها الواسعة، والتي كانت ستبدو لا بأس بها لو كان طول أنفها طبيعياً. لكنّ أنفها كان قصيراً، الأمر الذي يذكّرني بطريقٍ لم يتمّ إكماله، ويُعطي وجهها مظهر المسحون، نوعاً ما.

نقرت الأرملة على وجنتيها المتورّدتين، وطقطقت بلسانها لي: «قلق العرائِس؛ لا يُمكن فعل شيءٍ حياله، كما أظنّ»، تمتمت بذلك وهي تتنهّد، ثم غادرتْ.

«هل تشعرين بالضعف؟» بدا وكأنّ صوت عمّتي عائشة آتٍ من نهاية نفق. لم تكن في الجناح سابقاً، ونظرتُ جانباً لأرى أين هي. أصبحَتْ أكثر اهتماماً بي مُنذ أن غادرنا المستشفى، وخصوصاً منذ أن أصبحتُ أمضي أوقاتاً طويلة وحيدةً في غرفتي. كانت ثمة أيّامٌ خلال هذه الشهور الماضية أغرق فيها بكآبةٍ عميقة، لدرجة أنّي لم أكن أستطيع أن آكل أو أنام. كنتُ أندبُ تعليماً دُفِنَ قبل أن تسنح له الفرصة ليُزهِر، مُستقبلاً جرى تحويل مجراه كجدول ماءٍ صناعيّ، قُدِّرَ له أن يجفّ في أرضٍ قاحلة.

كانت جميع بنات عمّي: منى، أمل، ناديا، ونوف، يدلفن إلى غرفتي ويقطّبن وجوههنّ فيّ، ويتّهمنني بأنّني دلوعة وناكرة للجميل (أيّ فتاة لا تتمنّى مثل هذا الزواج؟). كانت عمّتي عائشة الوحيدة التي أظهرت بعض التعاطف تجاهي، وهي تربّت على يدي مع ابتسامةٍ حزينة. كانت أحياناً تتنهّد وتهزّ رأسها، فيما كنتُ متأكدةً أنّه كان اعتذاراً، وكأنّها ندمت على أنّها عملت بجدّ في إتمام هذا الارتباط. كانت- في أحايين أُخرى- تدخل وتخرج من غرفة نومي بسرعة، كنحلةٍ صاخبة، محاوِلةً أن تنتشلني من حالة اليأس. بعد فترة، توقّفتُ عن لومها. كيف كان بإمكانها أن تتصرّف بشكلٍ مُغاير للمهمّة التي أوكلها عمّي إليها؟ في يومٍ

من الأيام، قالت: «هكذا هي الأمور، بالنسبة إلينا نحن معشر النساء. نحن في الغالب مُجبراتٌ على القيام بأشياء لا نودّ القيام بها. وأفضل درسٍ يُمكن أن تتعلّميه هو كظم الألم». لم يكُن من ومضة أمل في هذا الحديث! وبينما كنتُ أظنّ أنْ لا أحد يُمكنه أن يفهم يأسي، أضافت: «يدعوننا بالضعيفات، ولكن كيف يُمكن لذلك أن يكون، فيما نحن قادراتٌ على تحمّل هذا القَدْر». كان ذلك في اليوم الذي كان من المفترض أن يعود خالد، لكنّه لم يفعل. كان ذلك في اليوم الذي وجدتْ أنّ زوجها لم يكنْ يكذب: في نهاية المطاف، كان خالد مُدمناً على الهيروين.

ها هي ذي. لمحتها عبر الفجوات بين الأوراك المتحرّكة. كان برقعها يُخبّئ ملامح وجهها، لكنّني، مع ذلك، رأيتها. كانت تجلس على كرسيٍّ في الزاوية، ظهرها صُلبٌ كعقب شجرة، تنحني للأمام كأنّها تستجمع قواها.

حجبتْ مؤخرةُ إحدى النساء الرؤيةَ عنّي، وتحرّكتُ قليلاً بحيث أستطيع إبقاء عينيّ على عائشة. من وضعيتها، استجليتُ عزمها على القيام بأمرٍ ما، كنتُ متأكدةً من الأمر. ماذا يُمكن أن يعني ذلك؟ قد تقوم بثورةٍ من الشجاعة غير المتوقعة، تماماً مثل تلك التي حدثت في المستشفى. قد تتخذ موقفاً ضدّ هذا الجيش المزعج من الأقارب والفضوليين. وقد تُخبرهم أنّ الكيل قد طفح. افترّت شفتاها، وانتظرتها أن تعترض على زيف هذا الزواج.

كانت ستبدأ بشكلٍ سيّئ بعض الشيء، سيكون صوتها متقطعاً، كنافورةٍ ضعيفة. ستقولُ- على الأغلب- شيئاً مثل: «ربما علينا أن ننتظر». لن يسمعها أحدٌ باستثنائي. كانت ستسعل لجذب الانتباه، بينما تستجمع قواها لتتكلّم بصوتٍ مرتفع: «يجب ألا تتزوّج مريم». سيفتح ذلك الباب للإحباط وخيبات الأمل التي تعيّن عليها أن تتحمّلها مع عمّي، طيلة تلك السنين.

أشعلت إحداهنّ الفحم. أخذ الدخان يخرج متعرّجاً من المباخر. رمشتُ بعينيّ بشكلٍ متكرر. وعندما لمحتُ كرسيّ الزاوية مرّةً أُخرى، كان فارغاً. لقد تخلّت عني عمّتي عائشة، تركتني في وهمٍ عبثيّ وسط هذه الدائرة من الوجوه المتوثّبة والأطراف الدائمة الحراك.

أمسكتْ يدٌ بذقني، وأدارت رأسي لتعيده أمام المرآة. لقد عملت خبيرة التجميل، بلا كلل أو ملل، ونجحت في تحويلي لأبدو شخصاً آخر. مُغطىً بطبقاتٍ من المكياج، كان وجهي أبيض، باللون الخفيف للشاي مع الحليب. نفثت الخبيرة نَفَساً ساخناً مليئاً بالإحباط. «دائريّ، أرَقّ، دائريّ»، أخذتْ تُتمتم، وقامت بآخر محاولةٍ لتغيير ملامحي العنيدة، ولكن لم يكُنْ ثمة استدارةٌ أو رِقّة. كانت عظام وجنتيّ عالية وحادّة.

استقرّت يداي على فخذيّ، راحتاهما للأعلى، وكأنّي أمسك بكتابٍ مفتوح. كان ثمة نقش حنّاء مُسهَب يُوَشّي كلّ راحة يد.

وكونهما مرسومتين بمهارةٍ، بواسطة سيدة الحناء الهندية، فقد بدتا كلوحتين فنّيتين مميزتين، نماذج بديعة لبتلاتٍ موضبة بشكلٍ مُحكم. كانت نقشة الكاجو» تضيق لتأخذ شكلاً أنيقاً ينتهي عند قاعدة الإصبع الوسطى، وتمتدّ أوراق كرمة صغيرة على طول كلّ إصبع. كانت أوراق الكرمة تلتفّ وتتفرّع عنها أوراقٌ أنيقة على طول مسارها. وحالما تصل إلى القمّة، تتفتّح على شكل أزهار الفاوانيا.

كانت غرّتي مثبتةً إلى الخلف، لتنضمّ إلى بقية شعري الذي كان موضباً وملفوفاً على شكل عشّ من التموّجات الأسطوانية المتموضعة على قمّة رأسي. قامت مصفّفة الشعر بتتويجي باللمسة الأخيرة، تاج مرصع بالكريستال يتدلّى منه خِمارٌ رقيق.

«هيا، الوقت يقترب»، قالت امرأةٌ لم يسبق لي أن رأيتها من قبل. تجمّعت الأخريات حولي بإحكام، وغرقتُ تحت أنفاسهنّ الحارة المتوثّبة. وعندما شهقتُ ساعيةً إلى ملء رئتيّ بالهواء، كانت شهقتي مُجهدة، وبدت كمفصل باب يحتاج إلى التزييت الفوريّ. سمعت منى الشهقة، أيضاً، وللمرّة الأولى صرخت شيئاً مفيداً: «أفسحوا لها المكان، يا سيدات!» ثم أخذت تقول مازحةً: «العروس هي زهرة رقيقة وعصبية. الكثير من الرطوبة، الكثير من الشمس، الكثير من أيّ شيء سيسبّب ذبولها». أخذت النسوة يضحكن كقوقأة الدجاج وهنّ مُبتعدات. نهضتُ. كان ثوبي الموشّى بمئات اللآلئ، والكريستالات، والترترات، ثقيلاً

كحمأةٍ من طين. «ماء»، همستُ، وقبل أن أستطيع ان أقولها ثانيةً، كان الطرف الصلب للكأس يُلامس شفتيّ. أخذتُ رشفة، وعلى الفور قامت خبيرة التجميل بإضافة طبقةٍ ثانية من اللون الورديّ اللامع لشفاهي.

«يكفي»، قالت مُنى. «أيّ لونٍ آخر سيجعلها تبدو مثل المهرّج».

ها هنا مُهرّجٌ، لكنّه لا يُضحك. نظرةٌ أخيرة على المرآة: حدّقتُ خلف الضربات الفنّية لظلّ العين الأخضر البحريّ والرموش المغضنة بمهارة، وركّزتُ على عينيّ. لقد تلاشى ذلك الأمل الذي كان يطفو فيهما يوماً ما. لقد خمدت روحهما.

«أفسحوا الطريق»، قالت منى آمرةً. «لقد حان الوقت».

37

دلال

كنتُ على وشك أن أفتح القبضة المغشّاة بالكريستال، لأُخرِج الدعوة، عندما شهقتِ الحارسة عند البوّابة، ثمّ ابتسمتْ ابتسامةً عريضة. لقد تعرّفتْ عليّ، بالرغم من أنّ الشيلة كانت متدلّيةً للأسفل، فوق وجهي. «لا داعي»، قالت، وهي ترفع يدها عالياً إلى صدغها، في حركةٍ اعتبرتُها تحية: «أنتِ غزالة الصحراء».

كان ذلك هو العنوان المكتوب بخطٍّ جميل تحت صورتي على غلاف عدد هذا الاسبوع من مجلة «زهرة الخليج». كان ثمة بريقٌ في عينيْ الحارسة، مثل ضوءٍ في ماء، وهو المشهد الذي أفعم مزاجي بالحياة، بالرغم من أنّي قد رأيت المشهد نفسه على عددٍ لا يُحصى من وجوه المعجبين الآخرين الأوفياء. كنتُ أودّ أن أترك العباءة تنزلق من على كتفيّ، بحيث يُمكنها أن تراني بهيئةٍ كاملة الأناقة. كنتُ أرتدي ثوباً فيروزياً موشىً بالترتر، مع تقويرةٍ رقبية مطرّزة، وظهرٍ مفتوح ذي قَصّة جريئة على شكل حرف – بالإنجليزية. تردّدتُ، ورفعتُ الشيلة، كاشفةً عن وجهي فقط. في نهاية المطاف، كنتُ قد وعدتُ مريم أن أبقى كتومة، وألّا أختلط بالمدعوّين، وأن أحضر زفافها دون إثارة أيّ جلبة.

«إنّها ابنة عمّي التي ستتزوّج هنا»، قلتُ ذلك، وأنا أنظر إلى قاعة الاحتفالات. إنّها مُغلقة، وتُخفي النبضات الموسيقية داخلها. «ألم تَصِلْ بعد؟»

هزّت الحارسة رأسها.

ابتسمتُ، كان توقيتي مثالياً. لا بدّ أنّ عائلتيْ العروس والعريس قد انكفأتا إلى مجلس الترحيب في مدخل قاعة الرقص. أنا متأخرةٌ بما يكفي لأتجنّبهم، لكنّي لستُ متأخرةً عن دخول مريم.

أمسكتِ الحارسة بقلم، وأخذت تُنقّب عن ظرفٍ فارغ من بين الدعوات. رفعتهُ أمام وجهي. «اجعليه إلى بلقيس».

دوّنت التاريخ: 9 نوفمبر 1995م. وبضرباتٍ عريضة، كتبتُ: «إلى بلقيس، عسى أن تكون حياتك ملأى بالمرح». توقّفتُ قبل أن أُضيف: «مرحٌ بقدر ما تشعر به هذه العروس الليلة». كان هذا هو نوع الكلمات الذي يتوق مُعجبيّ للحصول عليه. ثم كتبت التوقيع الذي جعلتني مدام نيفين أتدرّب عليه مراراً وتكراراً وهي تراقبني بعينيْ نمرة. «ستُظهِرُ الألف واللام القاسيتين أنّك قوية»، قالت موضِحةً. «لكنّ الدال التي يبدأ بها اسمك، يا حياتشي: يجب أن تحنيها إلى اليمين، مثل حبّة الفلفل الحارّة، لتُظهري أنوثتك وهشاشتك. القليل فقط من الضعف، بحيث يرغب الرجال في حمايتك. هذا أمرٌ جيّد دائماً».

مدام نيفين ليست معي. إنّها المرة الأولى التي ترفض لي فيها طلباً. وعندما أخفقتُ في إغوائها لتأتي (أريدها لدعمي) هدّدتُها بأنّي سأبحث عن مديرةٍ أُخرى. أخيراً، انتهى بي المطاف أتوسل إليها. «كمديرةٍ وصديقة، أنصحك أيضاً ألّا تذهبي»، قالت. «أنتِ شرسة ومزاجية. وبالنظر إلى كمّية الغضب التي تحملينها تجاه عائلتك، يُمكن أن تقومي بتصرّفٍ أحمق، الأمر الذي ستستغلّه الصحافة، بكلّ تأكيد».

«أنت تقلقين حيال كلّ شيء».

«أعرفُ أنّها ابنة عمّك، صديقتك المفضّلة وكلّ شي، حبيبتشي، ولكن فقط فكّري بالأمر: لعلّها لا ترغب في أن تكوني هُناك. أعني، لمَ تطلّب الأمر كلّ هذا الوقت لتصلك الدعوة؟»

«البريد المصريّ!»

«توقّفي عن تقطيب ذلك الحاجب، يا دلال. لا تتظاهري بأنّك متحيّرة. وفي أيّ حال، من هو ذلك الرجل الذي ستتزوّجه؟»

«كيف لي أن أعرف؟ اسمه على البطاقة. اقرئيه! «أزعجتني صراحة مدام نيفين، لكنّني لم أكن لأُظهر لها ذلك. صحيحٌ أنّ مريم التزمت الصمت عندما سألتها عن التفاصيل. لقد تجنّبتْ كلّ محاولةٍ مني لسبر أغوار الموضوع. تفوّهت مريم بعباراتٍ عدّة بدت كأنّها إعلان هزيمة. كان عليّ أن أفهم أخيراً أنّها قد

تخلّت عن القتال، وهذا ما دفع الدم ليغلي في عروقي: لقد حطّموها. وعندما عرضتُ أن أُغنّي في حفل زفافها، قالت: «دلال، عزيزتي، في الحقيقة لا أملك الكثير لأقوله بخصوص أيّ شيء. أنت تعرفين كيف تسير هذه الأمور، إنّها من اختصاص العائلة، إنّها أمرٌ مرتبط بسموّ العائلة ومكانتها في المجتمع، أكثر من أيّ شيء آخر. إنّهم هُم من يُرتّب الأمر برمّته».

«ثمة أعشاب في هذا البحر الذي أنتِ على وشك السباحة فيه! «قالت لي مدام نيفين.«هذه الأعشاب هي ماضيكِ، وستلفُّ نفسها حول كاحليكِ وتسحبك إلى أسفل».

أيّ هراءٍ تتحدّثْ عنه! ألقيتُ نظرةً جانبيّة على مُرافقتيّ. كانت عزّة وهناء (الموظّفة حديثاً كمديرة علاقات عامّة، وتمّت إضافتها إلى حاشيتي) تبدوان كتلميذتَيْ مدرسة تُحاولان كسب نقاطٍ من مدرّستهما، من خلال صبّ الاهتمام عليها. كانتا تنتظران أيّ طلب أو أمرٍ منّي ليتمّ تنفيذه. قهقهت عزّة وهزّت رأسها للحارسة. كانت الحارسة لا تزال تنتظر الظرف الموقّع، والذي كنتُ أمسك به بإحكامٍ بعض الشيء. انحنيتُ تجاهها. وبينما كنتُ أُسلّمها الظرفَ همستُ لها: «انظري، لا أُريد لأيّ شخصٍ أن يعرف أنّني هنا». بدت على الحارسة بلقيس علامات السعادة والرضى لأنها قد اؤتُمنت على سرّي. أطبقت شفتيها وختمت عليهما بسحّابٍ وهميّ.

فتحت عزّة الباب الضخم، فاندفعت دفقةٌ من الهواء الشديد البرودة، مُلصقةً الشيلة بوجهي. استغرقها الأمر بضع ثوانٍ لتستقرّ. انتهت الأغنية في تلك اللحظة. خيّم السكون للحظة، وتجمّدتُ في مكاني، مُحرجةً من كلّ تلك العيون التي تُحدّق بي. أيّ منهنّ أخواتي لأبي؟ الوحيدة التي يُمكن أن أتذكّرها هي نوف، لأنّنا أمضينا معاً بعض الوقت في المدرسة الخاصة نفسها، ما لم تكُن قد تغيّرت بشكلٍ كبير. ماذا عن الأُخريات؟ ما الذي سيفعلنه لو عرفن أنّني هنا؟

كنتُ أفكّر بالاستدارة والهرب، عندما بدأتِ الأغنية الثانية. كانت أغنيةً ذات إيقاعٍ مصريّ قويّ، وأجبرني عويل المغنّي المصِمّ للآذان على استعادة حواسي. لا بد أنّ المغني، مع بقية الموسيقيين، يجلسون خلف الستارة الضخمة، إلى جانب منصّة الزفاف. إنّها ترتيباتٌ عامّة لتشعر النسوة بالمزيد من الخصوصية والراحة. عندما تكون قاعة الرقص ملأى بالنساء فقط، فهذا يمنح النساء اللواتي يرتدين الحجاب الحرية في أن ينزعنه، إذا رغبن بذلك.

أغمضتُ عينيّ نصف إغماضةٍ، خلال وميض الأضواء الزرقاء والبيضاء. كانت قاعة الرقص ملأى بطاولاتٍ مستديرة مرتّبة على جانبيْ سجّادةٍ بلونٍ أزرق غامق. إنّه يبدو مثل أيّ زفافٍ خليجي آخر غنّيتُ فيه. أطلقتُ نظري متجولةً فوق رؤوس النسوة المتشحات بالعباءات، باحثةً عن مكانٍ قصيّ أستقرّ فيه.

لمحتُ طاولةً فارغة على طرف قاعة الرقص. إنّها تحت أحد مكبّرات الصوت مباشرةً، لكنّها قريبة بما يكفي من منصّة الزفاف، بحيث سأتمكن من رؤية مريم دون أن يُلاحظني أحد. في نهاية المطاف، إنّه حفل زفافها هي، وأنا يجب أن أحترم رغبتها، وألّا أجذب الانتباه. «هيا، اتبعاني»، قلتُ لعزة وهناء، وأسرعتُ بالدخول، بينما كنتُ أقول لنفسي: «كم هو غريبٌ ألّا أكون أنا مركز الاهتمام».

وحالما أخذنا أماكننا تقريباً، قفزت عزّة إلى الخلف. أشارت برأسها وشهقت: «انظرن، انظرن! إنّها نوسة».

ظهرت الراقصة الشرقية الشهيرة من الباب الخلفي، ويداها منشورتان كجناحيْ نسر. انسلّت بين الطاولات تحت أضواء المسرح، باحثةً عن مُشاهدةٍ مُقدّرة لفنّها، مشاهدة تهتف لها ولا تنظر إليها احتقاراً، تعبيراً عن عدم القبول. اختارت مجموعةٌ من السيدات، في منتصف أعمارهنّ، وأخذت تهزّ صدرها أمامهنّ، فبدأت الحاشية الزمردية لأطواق الخرز تقرقع. كان عرضاً حسياً، وعندما لم تُغطِّ النسوة أنوفهنّ وأفواههنّ بشيلاتهنّ، عرفتْ نوسة أنّها قد اختارت الطاولة الصحيحة، واستمرّت في إظهار موهبتها.

بدأت نوسة بلفّ خصرها مثل الثعبان. كان الجزء العلويّ من جسمها يقف صلباً تحت غلالةٍ جسمية شفافة، ثمّ أطلقت سلسلةً من الحركات الأكروباتية البطنية. كانت بطنها ترتفع وتنخفض، مُشكلةً تلالاً وفجواتٍ وأشكالاً مستحيلة التشكيل. كانت ثمة

أسطوانةٌ تبدأ من الأضلاع وتنزل نحو الأرداف وتعود مرّةً أُخرى. كانت غلالات الشيفون الذهبي الشفافة تلمع في كلّ مرّة تثني فيها بطنها. كانت الملابس تتباعد مثل ستارةٍ، لتُظهر فخذيها المرمريتين اللامعتين.

مُشاهدة نوسة تلمع وتبرُق، ذكّرتني بالأوقات التي كنتُ أتبختَرُ فيها نحو الإضاءة المشرقة، حاملةً المايكرفون. مريم ابنة عمّي وأعزّ صديقةٍ لي، وعليّ أن أتحمّل عذاب الاختباء في وسط عائلة أبي. لم أستطع مقاومة الشعور بأنّني خُدعتُ بعض الشيء. ولأسلّي نفسي، استرخيتُ بمقعدي إلى الخلف، وأخذتُ أنظر حولي.

كانت فكرة ديكور حفل الزفاف من موضوعات ما تحت الماء. كانت منصّة الزفاف، والتي ترتفع إلى مستوى وركي، مُزينةً بأزهارٍ بيضاء ونجوم بحر كريميّة اللون، أمّا الأريكة - حيث سيجلس العروسان- فأخذت شكل صدفة المحار، ويتدلّى فوقها صفٌّ رقيق من الشرائط القماشية الأنيقة المتمايلة بلون المحيط. كانت ثمة كراتٌ بيضاء متألّقة تلتصق بالقماش: لآلئ، أجمل إبداعات عالم ما تحت الماء. إلى اليسار، كانت منصّةٌ منخفضة على شكل محارة لولبية. هذه المحارة لديها مساحةٌ تكفي لشخصٍ واحد فقط، وهو على الأغلب المغنّي الرئيس الذي لم يظهر بعد.

لا شكّ في أنّ هذا كلّه من عمل أخواتي غير الشقيقات، إنّه أمرٌ تقليديّ للنسوة، من طرف العروس، أن يتولّين تصميم وترتيب أيّ

حفل زفاف. هنّ من يقمن بوضع السعر – مع عدم أخذ موضوع النفقات في الحسبان: وهي رسالةٌ تفاخرية لتسجيل نقاطٍ عند الضيوف – ويقوم العريس من طرفه بدفع قيمة الفاتورة.

انساقت يد عزّة فوق سلطانيات المقبّلات: الحمّص، التبولة، السمبوسة، ورق العنب، ولمست المزهرية الزجاجية على شكل قمع، والمتموضعة في وسط الطاولة. كانت المزهرية ملأى بمختلف المحارات. «إنّها جميلةٌ للغاية»، قالت، وهي تُمرّر سبابتها على طول الزجاج: «كم تظنّين عدد الأشخاص الذي تعيّن عليهم أن يغوصوا إلى القاع ليحضروها كلّها؟»

كان مُجرّد التفكير بالصراخ عبر مكبّر الصوت للإجابة عن سؤالها الغبيّ مُتعباً لي. تنشقتُ ونظرتُ بعيداً، مُضيّقةً عينيّ الناعستين على نوسة. كانت تُوازن خيزرانةً على رأسها، فيما عصبة التشجيع من النساء المتوسطات العمر غارقةٌ في الملل (كانت كلّ تلك النهضات في بطنها تتكرّر كلّ فترة)، وقد سرّني هذا الأمر. لكنّ نوسة دغدغت اهتمامهنّ مرّةً أُخرى عندما سمحت للخيزرانة بأن تنزلق من على رأسها، ونظرت باتجاه مُساعداتها الثلاث، اللواتي جررن شمعداناً برونزياً يحمل ما لا يقلّ عن خمسين شمعةً مشتعلة. ضربت نوسة على صدرها. كانت عيناها تُحدّقان بالشمعدان بحذرٍ لعوب، ذلك الشمعدان أكبر بأربع مرات من حجم رأسها، ويبلغ طوله المتر. جثمتْ نوسة على الأرض، وقامت المساعدات بتثبيته على رأسها.

«المؤكّد أنّ رقبتها قويّة كرقبة ثور»، قالت هناء، بينما كان إيقاع الطبلة يدفع بالراقصة إلى النهوض.

«هذه يجب أن تكون في سيرك، وليس في حفل زفاف»، أضفتُ بابتسامةٍ مُتكلّفة.

أخذ الإيقاع يتعاظم، نشازٌ يصمّ الآذان من توليفةٍ لحنية من المزامير والكمانات. كان رأس نوسة ينخفض ويميل، وكانت وجوه الضيوف ملأى بالفزع. الأولاد- بأفواههم المفتوحة من الدهشة- عصروا عيونهم، بينما كانت نوسة تُميل الشمعدان لدرجةٍ خطيرة بدا فيها وكأنّه سيسقط على الأرض، لكنّها سحبت رقبتها في الوقت المناسب، ووازنت رأسها بإمالةٍ هادئة. صفّقت الفتيات الصغيرات وهتفن، وأنا متأكدة أنّ بعضهن هنّ بنات إخوتي وأخواتي. رعشةٌ من الحسد سرت في عظامي.

أنا في وسط لحمي ودمي، ومع ذلك يتحتّم عليّ أن أتصرّف كالغريبة. لا.. والأسوأ من ذلك! يجب أن أكون غريبة غير مرئية. يا لمريم وضعفها! لمَ لمْ تُظهر بعض الشجاعة وتُصرّ على أن أُغنّي في حفل زفافها؟

رُفِعَ الشمعدان من على رأس نوسة. مرّرت إحداهُنّ لها المايكرفون. أمسكته قريباً من فمها، وحرّكت لسانها بزغرودةٍ حماسية: الإعلان عن بدء الزفّة. لقد وصلت العروس.

38

مريـم

تتقدّم الموكب جماعةٌ تقليدية من الموسيقيات.كُنَّ يُغنّين، يُصفّقن، ويضربن على الدفوف. تليهنّ فتيات الأزهار، حاملاتٍ أصداف المحارات الملأى بالبتلات البيضاء، واللاتي كُنّ ينثرنها على سجادةٍ كحلية اللون. بعدهُنّ كان طاقم تصوير الفيديو، بأضوائِه الحادّة. ثمّ أنا..

أنا حورية بحر.

يلتصق الفستان بي على كامل جسمي، وصولاً إلى منتصف ساقيّ، حيث يتّسع هناك وينتشر على الأرض على شكل ذيل سمكة مُسهب. في حال احتاج أحدٌ ما لمزيدٍ من التفاصيل، فقد تمّ تطريز حراشف عرق اللؤلؤ على الفستان، بخيوطٍ لؤلؤية، وتمّت تقوية الأشكال بالترترات والخرز. ومثل أيّ حورية بحر تطأ أرضاً صلبة، فقد كانت هذه الحورية تجد صعوبةً في المشي.

كان وجهي يلمع تحت ضوء المسرح. كانت الفتيات الصغيرات يُحدّقن بي بأفواهٍ مفتوحة، والنجوم تلمع في عيونهنّ. الفتيات الأكبر سنّاً كُنّ يُحملقن بي والأحلام تدور في رؤسهنّ. يوماً ما، في القريب العاجل، هُنّ أيضاً ستكون لديهنّ لحظة التحوّل الخاصة بهنّ، ويُصبحن عرائس في الفستان الأبيض.

كان فريق تصوير الفيديو، المؤلّف من ثلاث فلبينيات ذوات وجوهٍ صارمة، يمشي أمامي متراجعاً نحو الخلف. كانت عين المصوّرة مُثبتةً على عدسة الكاميرا. كانت حريصة على عدم القيام بأيّ حركةٍ مُفاجئة، لم تكن ترغب بإمالة رأسها، كي لا تصطدم بالضوء الذي كانت المساعدة الأولى ترفعه فوق رأسها، أو تتعثّر بالأسلاك التي كانت المساعدة الثانية تنشرها.

«حافظي على اتزانك، ولكنْ حاولي أن تبدي مسرورة»، قالت منى التي كانت تختال بجانبي، تُمدّني بعددٍ غير محدود من النصائِح. كانت يدها تمتدّ، بين الفينة والأخرى، على أحجار الكريستال التي تُرصّع كتفيّ، وكأنّها قد اغبرّت فجأةً وتحتاج إلى التلميع. وكان بقية قريباتي يمشين في إثري أيضاً. كنتُ أتخيّل أعينَهنّ مُنصبّةً عليّ، تلمع بالفرح، يُحدّقن بالرداء الباهظ الثمن. إنّهنّ لا يُدركن أنّني على استعدادٍ لأن أتخلّى عنه بسعادة، وأن أختار الأطمار عوضاً عنه، لو فقط ... لو فقط ...

«مريم!» هسهستْ منى: «لا أسنان في ابتسامتك».

عدّلتُ ابتسامتي، واستمريتُ في مشية السلحفاة لأصعد الدرجات الثلاث، ومن ثمّ ولجتُ إلى ممرّ يؤدّي إلى «الكوشة». ثمة مقعدٌ في نهايتها: صدفة محارة. هل يُمكن أن تُفتح وتبتلعني؟

قامت فرقة الموسيقى الشعبية بإثارة الضجيج الذي دُفِعَ لها لأجله، وغادرت، وكذلك فعلت الراقصة الشرقية. كان صمتٌ يشي بالسعادة، علامة أنّ العشاء على وشك أن يُقدّم. انبثق جيشٌ

من النادلات يخطّ طريقه بين الطاولات لتقديم صواني الجداء المحشية. لمحتُ ثلاثة أنواع من الأرزّ: أخضر بالشبث، وأصفر بالزعفران، وأبيض صِرف، مع تشكيلةٍ من الكباب والكاري. إنّها فترة استراحةٍ قصيرة، وأخذتُ أستمعُ إلى الأصوات الصادرة عن ثمانمائة مدعوّة جائعة، أو نحو ذلك الرقم: صوت قعقعة أدوات المائدة على صحون البورسلين، صوت خرير المياه وهي تُسكب في الكؤوس، صوت همسات محادثاتٍ خفيفة، والأصوات الناعسة التي تصدر عن طفلٍ بمفرده هنا أو هناك.

إنّه الوقت المناسب للصور العائلية مع العروس. جالسةً على أريكة صدفة المحارة المصنوعة من الساتان، أخذتُ أراقب أمل، بينما كانت تعيد ترتيب الذيل الحرشفي على أصابع قدميّ.

لم تنتظر «ماما العودة» أحداً ليأتي ويصطحبها. تسَلّقَت الدرجات بمساعدة الخادمات الفلبينيات، كانت عباءتُها مضمومة إلى أعلى خصرها كي لا تتعثّر. كانت ترتدي لباساً تقليدياً تحت عباءتها، مصنوعاً من الدمقس الناعم. كانت تمشي بتثاقلٍ عبر الممرّ، بينما كانت بنات عمّي يعتلجِن مع أولادهِنّ. وبشكلٍ يتّسِم بالاحترام، نهضتُ لأُقبّل يدها، ثم قبّلتها قبلةً ثانية خفيفة على جبينها، فوق برقعها الجديد الذي كان يلمع كدرعٍ برونزية مصقولة. همستْ: «ما شاء الله»، وأخذتْ وجهي بكلتا يديها لتمنحني جرعةً إضافية من البركة.

جَلستْ «ماما العودة» بجانبي على الأريكة، مُتململةً، تفوحُ منها نسائِم العطر العربيّ المخلوط ببودرة التالك الوردية الإنجليزية

«ياردلي». كانت «ماما العودة» تتحلّى ببعض أرقى مجوهراتها الذهبية التقليدية، والتي كان مُعظمها هدايا من أبي، عندما بدأ بجني الأموال: أقراطٌ ثقيلة، عقدٌ لماع كان ينصبّ على صدرها مثل شلالٍ من العسل، أساورُ ثخينة مُدبّبة كانت تبدو مثل الأسلحة، وعددٌ من الخواتم الذهبية العصرية على أربعٍ من أصابعها.

رفعتِ المصوّرة يدها وقالت: «جاهزون، اثبتوا». أطلقتِ المصوّرة سلسلةً متذبذبة من الطقطقات والفلاشات الضوئية قبل أن تقول: «هيا!» نبّه هذا الرذاذ من الفلاشات الضوئية بقية العائلة التي أسرعت لتتجمّع حولي. نظّمت منى بنات وأولاد العائلة الصغار في صفّين، وفقاً لأطوالهم، ثمّ أخذت مكانها. مرّةً أُخرى: «جاهزون، اثبتوا»، طقطقات وفلاشات ضوئية، والكلمة التي تأتي أخيراً: «هيا».

كان يتوجّب عليّ أن أبدو بمظهر السعيدة، مع ابتسامة العروس (ولكن مع عدم ظهور الأسنان). وحدها دلال كانت قادرةً على الإحساس بعذابي. لم أتكبّد عناء البحث عنها، لأنّها كانت ستعلن عن وجودها لو كانت هنا الآن. بعد كلّ تلك التحذيرات التي أعطيتها إيّاها، أنا متأكدةٌ أنّها فهمت أنّه سيكون أكثر حصافةً أن تبقى بعيدة.

«ماما، شدّ سالم شعري!» أخذت ابنة منى، ريم ذات الأعوام الأربعة، تشدّ عباءة أمّها في اللحظة التي بدأ هاتفها الخلوي بالرنين.

«لا تشدّ شعرها»، قالت منى مخاطبةً ابنها سالم الذي يكبر

أخته بسنتين، لكنّه بضعف حجمها. أجابت على الهاتف. فترة توقف مؤقّتة، تلاها إعلان: «إنهّم قادمون. الرجال قادمون».

حياتي الزوجية على وشك أن تبدأ.

استحال شدُّ ريم المتواصل إلى جذبٍ عنيف مسعور. «توقّفي»، قالت منى بلهجةٍ آمِرة، وتحرّكتْ مُبتعدةً وهي تسدّ أُذنها غير المشغولة. استؤنِفت الموسيقى، إنّه إيقاع خليجيّ يبدأ بالضربات الثاقبة لواحدٍ من الدفوف أو أكثر. مُحبطةً، ألصقتْ منى الهاتف بأذنها وصرخت: «لا يُمكنكم القدوم الآن. نحن غير مُستعدّات».كانت ريم الصغيرة تنشج مُتعلّقةً بركبتيْ أمّها. تجاهلتها منى. «دعوا المطرب يُنهي بضع أغانٍ، بحيث يكون ثمة مجال لبعض الرقص. أنتم تعرفون أنّه لن ترقص أيٌّ من الفتيات في حال وجود رجالٍ في الصالة».

تمّ تأجيل حياتي الزوجية لبعض الوقت، لإفساح المجال للفتيات اللواتي يرغبن في الرقص.

«إنّهم مُتعبون. جميعهم مُتعبون، هؤلاء الأطفال»، قالت منى وغمزتني. «لا تقلقي، يا مريم، إن شاء الله سيكون هنا قريباً جداً». سيّرت منى ريم المتلوّية خارج المنصة، وهي تصارع لإبقاء أنف الطفلة الذي يسيل منه المخاط بعيداً عن ثوبها، قدر الإمكان.

أنا لستُ قلقة، فكّرتُ. لقد جلستُ معه مرّتين. تمّ استقباله- في زيارته الأولى لنا- في غرفة الجلوس الرسمية. استحممتُ، ورتّبتُ شعري، ولبستُ ملابس مناسبة للزيارة التي دامت نصف

ساعة. لستُ مُتأكدةً ما إذا كان الخجل أو الإحراج لغريبين يلتقيان تحت نظرات عمّتي وأولادها هو السبب، لكنّنا تجنّبنا النظر لبعضنا البعض معظم الوقت. سألني عن صحّتي وسألته عن صحّته. شربنا القهوة وأكلنا الحلوى العُمانية. المرّة الثانية، زارنا بدعوةٍ إلى الغداء، وكان عمّي ماجد حاضراً. يومها شعرتُ أنّني غير مرئية. بالتأكيد كان الرجل ميالاً أكثر إلى الكلام، ولكن فقط مع الرجال الآخرين، عمّي وأولاده.

الرجل أكبر منّي بكثير، إنّه فوق الأربعين. أدعوه بالرجل لأنّه هو كذلك- وبكل بساطة - الرجل الذي سيكون زوجي، الذي سيُقاسمني سريري، الذي سألد أنا أطفاله. «كلّما كان أكبر، كان أفضل»، أخبرتني أمل، «أكثر نُضجاً، أكثر استقراراً، أكثر قدرةً على تولّي المسؤولية». وأضافت نوف، «والأكثر أهمّيةً هو أنه غنيّ كشيخ».

وحالما بدأت النادلات بتقديم المجموعة الضخمة من الحلويات، ارتفع الهدير عند المدخل، اكتسحت بدور الصالة بزهوٍ. رأيتُ منى تتوهج فرحاً بوصول المغنّية الكويتية بدور التي طال انتظارها (في نهاية المطاف، ستتيح الفرصة للفتيات ليرقصن). بدأت بدور بأغنيةٍ ذات لحنٍ عالٍ، مليئة بالتبريكات لهذه المناسبة الخاصة.

39

دلال

أوّلاً كانت الراقصة السوقية، ثم صور العائلة التي استثنتْ أكثر أفرادها تألّقاً، والآن لدينا بدور التي لم تذهب إلى المنصّة التي بُنيَتْ لها. وبينما تحمل المايكروفون بيدها، كانت تشقّ طريقها مُتعرّجةً بين الطاولات، وهي تتمايل ذات اليمين وذات الشمال، تحت طبقاتٍ عديدة من الشيفون باللون البنفسجيّ الفاتح، والتي لم تستطع فعل شيءٍ لتفتيح بشرتها.

كان الإيقاع قويّاً، جرت تقويته بضربات الدفوف من وراء الستارة. وعندما بدأت النساء بالتصفيق، طعنتُ «الكريم كاراميل» أمامي بملعقتي. كانت هذه لتكون أغنيتي الافتتاحية: لقد غنّيتها في كلّ عرسٍ خليجيّ أدّيت فيه. رمتْ إحداهنّ وردةً على بدور، وأخذ «الكريم كاراميل» يتفتّت تحت وطأة طعناتي. نهضتُ على قدميّ. أخذت عزّة وهناء تُحدّقان فيّ ببلاهة، كان خليط الحلويات الطرية واللزجة يملأ أفواههما.. «ماذا؟! أردتُ فقط أن أرى بشكلٍ أفضل». وقد حصلتُ على ما أُريد.

على بُعد ثلاث طاولات، أخذت فتاةٌ تُحدّق بي والدهشة تطفح من عينيها. شهقتْ ووضعت يديها على فمها. أخذت

صديقتها تتفحّصني، تنظر إليّ بشكّ. دخلتا في جدالٍ خفيف. دغدغت ابتسامةٌ شفتيّ. رفعتُ ذقني وأرخيتُ شيلتي، ما سمح لها بالانزلاق عن رأسي. حينها: لم يعد من شكٍّ في شخصيتي.

بعدها، أتين - ليس الصديقتين فقط، بل مجموعةٌ كاملة من المراهقات المولعات بالمشاهير. أخذن يمدحن صوتي، وأغانيّ، ووجهي الجميل. لعبتُ الدور إلى آخره، لأنّني كنتُ أعرف أهمّية وقوّة المظهر المتواضع. كُنّ قريباتٍ من عمري، ولكن- بالحكم على تصرفاتهنّ- فمن الواضح أنّهنّ يفتقدن إلى تجربتي ومعرفتي بالحياة.

كانت بدور على بُعد أربع طاولات، لكنّها يُمكن أن تكون في قارّةٍ أُخرى. أخذت الفتيات يتناقشن مع بعضهنّ البعض، بينما كنتُ أنتظر. كنتُ أعلمُ أنّ طلباً مصيرياً ستتمّ صياغته عاجلاً. وقد كنتُ على حقّ: «ألن تُغنّي لنا الليلة، يا دلال؟»

«أوه، كلا، كلا». ربّتُّ على خدّي، على جبهتي، وكأنّني كنتُ أحترق. عدتُ مسترخيةً إلى الكرسيّ، وجلستُ واضعةً رجلاً فوق أُخرى. نظرتُ إلى أسفل، إلى ركبتي - كانت مكشوفة! - تبرزُ من خلال فتحة الجانب البعيد للفستان. كانت عباءتي تتربّع متجعّدةً ككومةٍ خلف ظهري. حاولتْ عزّة أن تسحبها. صفعتُ رسغها - بشكلٍ حذر- طبعاً.

ومع استمتاعي بكلّ هذا الإعجاب، تفهّمتُ إصرارهنّ. إنّه

حفل زفاف، وهؤلاء الفتيات يرغبن في الشعور بالحياة. «لا أستطيع النهوض والغناء. أنا ضيفةٌ هنا».

كان ثمة جيَشانٌ وهمهماتٌ تعبيراً عن خيبة الأمل. قالت فتاةٌ أُخرى: «هذا لا يهمّ».

«هذا ليس عدلاً. أعني ...» انحنيتُ إلى الأمام وتجمّعت الفتيات حولي، وكأنّهنّ يتوقّعن الإفصاح عن بعض المعلومات الهامة المتميّزة.»... فكّرن كيف سيبدو الأمر. سيبدو وكأنّه قلّة احترام لبدور، فمِن بَعْدِ العروس، بدور هي محطّ الأنظار هنا».

«إنّها قبيحة»، قالت إحدى الفتيات التي تضع تقويم أسنان ثقيلاً (يا إلهي كيف اتقد قلبي حُباً لها!)»هيا، نحن نُحبك!»

«أغنية واحدة فقط»، توسّلت إحدى الفتيات السمينات القصيرات، ذات خدود ممتلئة، وهي تلثغ بلسانها.

وبينما كنتُ على وشك أن أرفض للمرّة الثانية (قبل أن أوافق، بالطبع)، أعلنتْ بدور ما يلي: «لدينا هنا زميلةٌ فنانة جميلة وشهيرة».

كنتُ حينذاك محجوبةً عن رؤية بدور، مُحاطةً بحشدٍ من المعجبات، تضاعف عددهنّ ثلاث مرّات، وهو الأمر الذي يُسعدني أن أذكره. لم تستطع عزّة وهناء إخفاء الذعر على وجهيهما؛ يا لهاتين المضجرتين اللتين لا تعرفان كيف تتصرّفان.

«لا، لا، صدقاً» قُلتُ وأنا أفسح في المجال لجمع الفتيات أن يسحبني من كُرسيّي. كنتُ مُدركةً أنّني كنتُ أحنث بوعدي لمريم، لكنّني لم أستطع أن أخرج من حفل زفاف أعزّ صديقةٍ لي دون أن أُهديها أغنية، هل يُمكن ذلك؟ ستكونُ أغنيةً سريعة، لحناً واحداً صغيراً لا غير. أيّ أذىً يُمكن أن ينجم عن هذا الأمر؟ بعدها سأجلس وأبقى هادئة.

استمرّيتُ في اعتراضاتي، لكنّي أتحت المجال للفتيات ليسحبنني نحو الإضاءة المتحركة المبهرة. كنتُ متأكّدةً أنّ بدور غير مُتحمّسة، لكنّها قطعت طريقها باتجاه المجموعة ورحّبت بي بثلاث قبلات رومانسية، مع الكثير من الحرارة، لتبدو غير مكترثة بمشاركتي. لا أعرف كيف استطاعت أن تتدبّر أمر المايكرفون الثاني بهذه السرعة، لكنّ عرضها لأن نُغنّي «ديو» كان متوقّعاً. وافقتُ عليه، بكلّ أدب.

كان يُفترض أن تكون أغنيةً واحدة، ولكن– مع اقتراب «الديو» من نهايته– شعرتُ بخدرٍ في عمودي الفقري. لم أنتظر الإذن للشروع في أغنيةٍ ثانية؛ أزحتُ بدور من الطريق، وشرعتُ في الأغنية الأكثر عشقاً لعبد الحليم حافظ «أهواك».

لم تكن ثمة موسيقى مُصاحبة، وبلا شكّ، كان الموسيقيّون المرتبكون خلف الستارة في ذعر، يُجاهدون لاستيعاب هذا التغيير المفاجئ في البرنامج. لا يهمّ: كان صوتي يُدوِّي صافياً

ورخيماً بأقصى ما يستطيع، بينما كنتُ أصعد الدرجات وأمشي نحو الممرّ. كنتُ قد أخذتُ أسبحُ في تيّارٍ متعرّج، خفيفةً كورقة شجر. وفي الوقت الذي انضمّ الموسيقيون إليّ، استحالت حركاتي سلسة – انحدارٌ رخيم هنا، إيماءةٌ ناعمة هناك، هزّة أنيقة بين الحين والآخر – بينما كنتُ أسيطر على مزاج المشاهدين.

كانوا يشعرون بالنشوة جرّاء تقديمي هذا اللحن الكلاسيكيّ البسيط، ذا الكلمات المعروفة جيداً، والمحبوب جداً. كانت مجموعةٌ من النسوة يتمايلن على يميني، بعضهنّ يضعن راحات أيديهنّ على قلوبهنّ، وأخرياتٌ يربّتن على صدورهنّ، كأنّهن يُعزين ذلك العضو الحيويّ، أو يكبحن انفلات عاطفةٍ رقيقة.

تلك الأغنية التليدة، التي تُناسب التجمّعات الصغيرة، كانت «أهواك» خياراً غير مُناسبٍ لحفل زفاف. كانت تطفح بالحنين للماضي. بدأت النساء يُصفّقن بإيقاعٍ مُنتظم، وتبِعتُ إيقاعهنّ. كُلّ تلك العيون مُنصبةٌ عليّ، كلّ تلك الوجوه التي تلمعُ بالافتتان! كان يُمكنني الاستمرار طيلة الليل، من أُغنيةٍ إلى أُخرى، ولكن الآن، وبينما كنتُ أنهي المقطع الأخير من «أهواك»، لمحتُ بدور تُشير إليّ بيدها للخروج من الممرّ. إنّها تُريدني خارج دائرة الضوء، بحيث تستطيع العودة إلى الضيوف والقيام بما دُفِعَ لها لتقوم به.

صفّقت النسوة. وقفتُ حيثُ كنتْ، أُرسِلُ لهنّ القُبل الطائرة. هذا الأمر دفع بدور إلى أن تأتي إلى ممر «الكوشة» والنهوض

على قدميها. كانت تحاول أن تخفي انفعالها بابتسامةٍ عريضة مُتكلّفة، أخبرتني أنّ العريس ينتظر ليدخل إلى الصالة. نظرتُ إلى الطرف القصيّ من الصالة، ومن غير ريب، كان ثمة جمعٌ من الرجال بالقرب من المدخل، مُستعدّين للخوض وسط هذا العالم المائي من النساء. اندفعتُ، محاولةً أن أرسل أكبر قدرٍ مُمكن من القُبَل، قبل مُغادرة المشهد.

أكثر حدثٍ مُرتَقَبٍ في العرس الخليجيّ هو وصول العروس. ثاني أكثر حدثٍ مُرتَقَب هو وصول العريس، سواء أظهر بمفرده أم مصحوباً بأفراد العائلة الذكور. توقّفت النساء عن أحاديثهنّ. كان ثمة فورةٌ من النشاط الفعّال، حيث أسرعن إلى تغطية رؤوسهنّ، وإخماد بريق القلائد والألبسة الباذخة بعباءاتهنّ، قبل أن يشرعن في وضع كراسيهنّ في أفضل نقطةٍ مُشرفة مُمكنة.

لقد حان الوقت للمُغادرة، لكنّ قدميّ لم تتحرّكا. سيكون مُهيناً لي أن أنسلّ مثل لصٍّ في الوقت الذي أملك الحق بأن أكون هنا، مثل أيّ فردٍ آخر من عائلة النسيمي. اندفعت فكرةٌ في عقلي: ما الذي كانت ستفعله أمّي؟ ومضتِ الفكرة، ثم اضمحلّت. لقد توقّفتُ منذ زمنٍ عن الاهتمام بما تظنّهُ أمّي. رأيتُ عزّة تلوّح لي بيدٍ، وتُمسك عباءتي باليد الأخرى، مُستعدّةً لتطرحها عليّ حالما أُصبح بقربها. كانت هناء بجانبها، تجمع حقائبنا. كانتا تراوحان مكانيهما كفأرتين عالقتين في غرفة المؤن، تواجهان خطر أن

تُكتشفا ثمّ تُحشرا في الزاوية. كانتا توّاقتين لإخراجي، العضوة المنبوذة في العائلة. ربما يتوجّب عليّ أن أغادر.

استدرتُ لإلقاء نظرةٍ أخيرة شاملة على ابنة عمّي. كانت أخواتي غير الشقيقات يُساعدنها في النهوض. قامت إحداهنّ بالتربيت على وجهها بمنديل، قبل أن تسحب خمارها للأسفل. أمّا الأخريات فشرعن بمعالجة ذيل السمكة، بحيث أخذن يُرتّبنه ليلتفّ حول قدمها. كانت مريم تقف ساكنةً، تنتظر الرجل الذي سيقودها إلى حياتها الجديدة..كشجرةٍ تنتظر أن تُجتثّ، تُحطَّم في كلّ الأماكن الحساسة. زحف ألمُ غريبٌ نحو قلبي. ربما يتوجّب عليّ أن أبقى.

40

مريـم

أتت دلال في نهاية المطاف! اصطرخت الفكرة في رأسي.

إنّها تقف هناك، مُتّقدة الحماسة، تقوم بالضبط بما طلبتُ منها ألَّا تقوم به. وللغرابة، فأنا غير مُستاءةٍ منها. تفاجأتُ كيف أنّني وجدتني أبتسم. كيف أنّه من الممكن أن أُعجَبَ بشجاعتها وأتهيّبها في آنٍ معاً؟ أن أرغب بتلك الشجاعة، وألَّا أرغب بها في الوقت نفسه؟

لعلّ السبب يعود إلى أنّها أعزّ صديقةٍ لي، وأنّها تودّ التأكيد على أنّني أعرف أنّها قريبةٌ مني في هذا الوقت العصيب. وقد يعود السبب إلى أنّها الشخص الوحيد الذي تجرّأ على تحدّي هذه العائلة. وأيّاً يكن السبب، فلقد شعرتُ بخِفّةٍ وثّابةٍ، بالرغم من معرفتي أنّ عرض دلال الصارخ ستكون له عواقبه.

كانت بنات عمّي يَحُمن مثل دبابير، سادراتٍ من الغيظ، بينما كانت دلال تنضمّ إلى بدور في «ديو» غنائيّ: بيضاء وسوداء، بجعة وغراب. لقد تحقّقت أُمنية منى بأن ترقص الفتيات. ولكن لا سعادة على وجهها. «انظرن كيف تُجفل، تلك البقرة

الكويتية. لو أنّها تتراجع إلى الخلف وتتوقّف عن الغناء، ويلٌ لها!» قالت منى: «والله، لن ترى درهماً واحداً من العشرين ألف درهم أجرها!»

للمرّة الأولى، ثمّنْتُ ميزةَ أن أكون عروساً، يُتوقّع منها أن تكون مُحتشمة، وأن تجلس بوقارٍ مثل لعبةٍ جميلة، حتى في وسط جعجعةٍ صاخبة. «مَن الذي دعاها؟» سألتْ أمل وهي تنظر إليّ بعينين ضيّقتين. كان ثمة وميضٌ غريب فيهما، وكأنّهما كانتا مليئتين بشظايا من الزجاج. «هل أنتِ من فعل ذلك، يا مريم؟»

أبقيتُ عينيّ على الثنائيّ الذي يُغنّي، الشعلة الزرقاء المتوهجة والرماد المتبقّي خلفها، وأجبتُ بصوتٍ خفيض، «فقط من باب اللباقة والأدب».

ومع افتقادها الجسارة وكذلك الضغينة التي كانت أخواتها يتشاركنها، لم تفعل نادية الحامل في شهرها الثامن أكثر من فرك بطنها والتأوّه،«لمَ لا تذهب فحسب؟» لدى نادية الكثير لتخسره، أكثر من الأخريات. زوجها، وهو الصهر الوحيد المستقلّ مادّياً، هدّد قبل بضعة أيام بطلاقها وأخذ الأولاد، إن لم يقم أحدٌ بوضع حدٍّ لتلك المغنّية الماجنة التي تُلطّخ سمعة العائلة.

في الوقت الذي كانت دلال تبلي بلاءً حسناً في أغنيتها الثانية، اتهمتني نوف بأنّني خنتُ العائلة. «انظرن إلى مريم، حتى أنّها لا تتظاهر بأنّها مُستاءة. أُراهن أنّها فعلت ذلك عن عمد، لإحراجنا»،

قالت ذلك، بينما كان سالم الريان يندفع إلى منصّة الزفاف مرّةً أُخرى، مُتظاهراً هذه المرّة أنّه قطار: «تشي– تشي – تشي – تشيك. تشي – تشي – تشي – تشيك. تووت، تووت». طلبت منه منى التوقّف، وأنزلته من على سكّته في منتصف رحلته.

«حسناً»، قالت لي، وهي تُطبق بإحكامٍ على ذراع ابنها، «إنّه حفل زفافك، ولكن ليكن بمعلومك: إنّ أيّ إحراجٍ سيؤثّر علينا جميعاً. وليكُن الله في عوننا إذا كانت لا تزال موجودةً هنا عندما يصل أبي».

«لقد فعلتِ شيئاً شائِناً!» صرخ سالم عالياً، وهو يُحرّر ذراعه من قبضة أمّه ويسدد لكمة أصابت رُكبتي.

«سيطري على ذلك الولد، يا منى». استُنزِفَتِ المجموعة بسيلٍ من الأسئلة واللوم، لدرجة أنّ عمّتي عائشة ظهرت وسطهنّ، ما دفعهنّ إلى الصمت. «الناس يُحدّقون بنا. انظرن إلى أنفسكُنّ، تتشاجرن مثل القِردة».

وبينما كانت منى تناول سالم الذي كان يُعاني من فرط التعب– لدرجة أنّه حاول أن يعضّ أُذنها– إلى الخادمة، قالت نوف: «صصماما، العروس هي التي رتّبت هذه الخيبة المطبقة».

«هدوء»، قالت عمّتي، وهي تجلس بجانبي. «لا نستطيع إيقاف ما يحدث دون إثارة جلبة. لذلك، جميعكنّ..» وضربت الهواء بيديها. «توقّفن عن التراقص من مكانٍ إلى آخر، وتصرّفن بشكلٍ طبيعيّ».

وضعَ هذا حدّاً لشجارهِنّ. انحشرت بنات عمّي بجانبي. «ستُغنّي أُغنيتها وتنصرف»، أصرّت عمّتي عائشة، وهي تُميل برأسها بحماسة.

لكنّ ذلك لم يحدث. بالرغم من أنّ بدور نجحت في اصطحاب دلال خارج الممرّ، فلقد نسيتْ أن تأخذ منها المايكرفون الثاني. كانت بدور واثقةً، دون شكّ، أنّ الأمور يُمكن أن تعود إلى مسارها الطبيعيّ، في النهاية، لذلك انحرفت المغنّية الكويتية عائدةً إلى منتصف الصالة. هنا، رفعت دلال المايكرفون إلى فمها وقدّمت الإعلان التالي: «أودّ أن أتمنّى للعروس كلّ السعادة التي كانت تحلُمُ بها. إنّها ألطف وأحلى مخلوق، وأنا أُحبّها كثيراً». كان صوتها يتكسّر بمشاعر عميقة: إنّه شعورٌ عاطفيّ تمكّن من الهرب والطيران ليستقرّ فوقي، مثل خمارٍ ناعم. لقد أحسستُ به.

«انظرن إليها»، قالت نوف، «الكلبة الماجنة! إنّها نصف عارية».

«يا للمُمثلة»، قالت أمل وهي تستشيطُ غضباً، بينما كانت نوف تُثبّت نظراتها على الطرف القصيّ للصالة، تُنعم النظر نحو المدخل.

«دعونا نُلقي بها خارجاً، قبل أن تتسبّب بمزيدٍ من الأذى»، قالت نوف.

«لن تفعلن شيئاً من هذا القبيل»، قالت عمّتي عائشة: «ستُغادر الآن، وسيعود كلّ شيءٍ إلى طبيعته».

كانت بدور مُستعدّةً لغناء الأشعار والتبريكات والتهاني المصاحبة لدخول الرجال إلى منصّة الزفاف؛ لكنّ الضوء انحرفَ واستقرّ على دلال. وفي اللحظة التي فتحت المغنية الكويتية فمها، كانت دلال قد عادت إلى الممرّ تختالُ مُتّجهةً نحونا. جلستُ ساكنةً في مكاني، يعتريني الصراع، كنتُ أريدها بقُربي، وفي الوقت نفسه كنتُ أُريدها أن تُغادر.

«إنّها قادمة إلى هنا!» قالت نوف بلا تفكير.

قفزت بنات عمّي، وهنّ يسحبن أمّهنّ معهنّ ليُشكّلن نوعاً من الدرع التي تحجبني عن الرؤية. أزحتُ فستان منى «التافتا»(نسيجٌ حريريّ ثقيل) المتموّج، وشبكات «الدانتيلا» التي تُغطي ثوب أمل الحريريّ، وأخذتُ أنظر بدهشةٍ إلى دلال.

سدّدتْ دلال نظرة احتقارٍ شديدة لأخواتها غير الشقيقات. ثمّ أطلقت ابتسامةً عريضة مائلة، كانت تطفحُ عجرفةً وخيلاء. كان ثمة حفيف ملابس مُزعِج. مرّت همساتٌ عاجلة بين بنات عمّي، حول ما الذي ينبغي فعله مع «الأخت غير الشقيقة، المغنّية نصف العارية، وعرضها الفاضح!»

نهضتُ، كنتُ أقف طويلةً وصلبة. لم يكُن أحدٌ يعرف أنّ الثوب هو ما كان يُبقيني مُسمّرةً في مكاني. لم يكُن أحدٌ ليحزر أنّ أحشائي كانت كزبدةٍ في مخيض. بدأت الأسئلة تتداعى في رأسي، الواحد تلو الآخر: كيف ستنتهي هذه الورطة، وما الذي يُمكنني فعله لتعطيلها؟

كانت أفكاري ثقيلة، وبطيئة للغاية لتواكب ما يحدث. أجفِلتُ عندما أدركتُ أنّ دلال قد أصبحت في قلب مجموعتنا. لم أنطق بكلمة، لم أكن أعرف ما الذي يُمكن أن يخرج من فمي. أصرّت دلال على التقاط صورةٍ مع العروس؛ طلبٌ بسيط، ولكن باعتباره أتى من دلال، فقد استجابت بنات عمّي مباشرةً بهسيس وحقد أفاعٍ مُتشابكة. نسين أمري وطوّقنها بكرةٍ من الأوصال الملجومة التي كانت تنفلت منها معمعةَ التوبيخات وردّ دلال الوقح: «لا عيب.. بقدر ما هو حقّي.. اطلبي الأمن .. تدمّرين هذه العائلة .. عائلتي أيضاً .. غادري الآن .. ليس قبل أن أحصل على صورتي!»

«إنّهم هنا!» صاحت منى، وأدركنا جميعنا أنّ الوقت قد تأخّر كثيراً لإنزال دلال من على المنصّة دون أن تُشاهَد. لذلك وافقت بنات عمّي على أنّها يُمكن أن تأخذ صورة، إذا بقيت بعيدةً، حتى يُغادر الرجال. تجمّعن حولها ونقلنها إلى الطرف القصيّ من منصّة الزفاف.

حدث كلّ شيءٍ بسرعة، وكأنّه مشهدٌ مسرحيّ مُتقن. هدرت الدفوف من وراء الستارة، وفي اللحظة ذاتها، دخلت مجموعةٌ من خمسة رجال الصالة، مثل فرقةٍ من خيّالة الصحراء، ولكن دون أحصنتهم.

بما أنّ العريس هو الطفل الوحيد، ووالده متوفىً، فقد اصطحبه عمّي ماجد وأولاده. كان كلٌّ من العريس وعمّي ماجد يرتديان

البشت الأسود المطرزة حوافّه بخيوطٍ ذهبيّة. وكونهم كانوا يُركزون أنظارهم نحو الأمام، تجاهلوا مئات النساء المحملقات بهم، وهم يمشون بُخطاً طويلة وثابتة، كأنّهم يتوقون إلى إنهاء هذا الواجب المنوط بهم.

كنتُ قد أخذتُ أرتجف عندما وصلوا إليّ. أخذ العريس موقعه إلى يميني، بينما كان عمّي يضع قبلةً خفيفة على جبيني، ويخطو نحو اليسار، وهو يُعدل غترته من أجل الصورة. لم يكُنْ عليه أن يقول بملء فيه إنّه يقوم بهذا الأمر بدافع الرسميات، وليس بدافع السعادة. تبعه أولاده بتهنئاتهم. صافحني كلٌّ من سيف، وأحمد، وبدر برؤوس أصابعهم. وعندما ظهرت والدة العريس، أدرك عمّي ماجد فجأةً أنّ زوجته وبناته لسن معنا.

نظرَ حوله، مُغمضاً عينيه من شدّة الأضواء الباهرة، وهو يتحرّق شوقاً لإنهاء هذه المحنة، ولمحَهنّ مُتجمّعات في الطرف القصي المعتم للمنصّة. «ما الذي يفعلنه هُناك بحقّ السماء؟» سأل عمّي. «لماذا هُنّ لسن هنا مع بقيتنا؟»

41

دلال

كان من المفترض أن أبقى مختفيةً وأنتظر بصبر حتّى يُغادر الرجال: كان هذا اتفاقنا. سبعٌ منهِنّ يُحِطن بي كالسياج: عائشة، وبناتها الأربع، واثنتان من الحفيدات، كنت قريبة جداً من حافة المنصّة، بحيث إنّ أصغر وكزةٍ كانت ستتسبّبُ في سقوطي إلى الأسفل. كان البقاء ساكنةً أصعبَ ممّا تخيّلتُ، حيث أخذ الفضول يعتمل في داخلي: جُلّ ما أردته هو استراق نظرة (أصغر لمحة!) إلى العريس. أزعجتهم حركتي الصغيرة، وأخذ الحرير والساتان والشيفون تهبّ من حولي، مثل ريش مجموعةٍ من الدجاجات البائسة غير القادرة على الهجوع لتمضيه ليلتها.

ولكن الآن أخذت الخيوط حولي بالتفكّك، وهو الأمر الذي أصابني بالحيرة، إلى أن لمحتُ أبي يومئ لهنّ للإنضمام إلى الزفة. تلكّأنَ، ولسببٍ وجيه: كان ذا حضورٍ طاغٍ. كانت عائشة أوّل من انشقّ عن الجمع، ساحبةً قدميها نحو زوجها، وتبعتها البقية.

أزّت قضمةٌ من الصقيع خلال عمودي الفقري، تذكيراً بظهري العاري (لِمَ كان عليّ أن أرتدي مثل هذا التصميم الفاضح؟). انتابني شعورٌ مفاجئ بالخجل، بحيث أخذتُ أفكّر في القفز عن منصّة

الزفاف. لكنّي أرتدي كعبين عاليين، وثمة احتمالٌ بأن سأكسر إحدى ساقيّ، إن لم يكن كليهما. لذلك جَبُنتُ واستقرّيتُ في مكاني.

ها هو ذا العريس، إنّه بالتأكيد كبيرٌ بما يكفي ليكون أباها. كان يُمسك بيدها بأطراف أصابعه. لم يكُن بإمكاني القول إنّ السبب يعود إلى كونه خجلاً أو غير مُبالٍ بها. وبينما كانت أخواتي غير الشقيقات يجمعن العائلة حول المنصّة لالتقاط الصور، أخذتُ أتفحّصه. كانت كتفاه مرفوعتين وكأنهما عالقتان في منتصف حركة. لحيته كانت كثّة، تمّ صبغها بسوادٍ فاحم، وكانت تقطع خدّيه بخطوطٍ مستقيمة كالمسطرة. أيّ نوع من الأزواج سيكون هذا الرجل لعزيزتي مريم؟ بحثتُ فيه عن إيماءةٍ ما للطيبة، لكنّ الأمر كان صعباً بوجود ذلك الصدر المنفوخ مثل ديك حبش متكبّر. انتظرتُ أن ينكمش صدره، لكنّه لم يفعل. وأخذتُ أفكّر أنّه قد وُلِدَ بهذه الحال.

جلبَ أحدهم جدّتي التي كانت مُثقلةً بالكثير من الذهب، وأجلسها على أريكة صدفة المحارة. ارتسم تعبيرٌ قاسٍ على وجهها، بينما كانت تراقب محاولات أخواتي غير الشقيقات فرض النظام بين الأطفال الذين كانوا يرفضون الوقوف ساكنين. كان المشاغب الرئيس بينهم صبيّاً بديناً استمرّ في الانقلاب على بطنه والتزحلق حول منصّة الزفاف كسحلية. ها هم هناك: العائلة، وأفرادها يعانون من مشكلة الوقوف منحشرين معاً لالتقاط صورة.

إنّها ليست عائلة مثالية، لكنّ رؤيتهم مُتجمّعين معاً جعلتني أشعر أنّني وحيدة. واقفةً على الحافة، كما هي الحال دائماً، كنتُ منسية: قريبة جداً، ولكن لا أزال منسيّةً خارج الوجود. أخذتُ خطوةً أقرب، بينما راحت العواطف تتصاعد في داخلي بشكلٍ مفاجئ. كانوا مثل حساءٍ بكثيرٍ من المكوّنات، من المستحيل الاختلاط بهم، أو فهم لماذا هم هناك في المقام الأول.

استطاعت العائلة، في النهاية، الوقوف بانتظام: صورةٌ للسعادة، وهي الصورة التي كانت المصوّرة تتوق لالتقاطها. أخذت غشاوة تعلو بصري. بدأت الدموع تتجمّع في المآقي، وكانت ستبدأ بالانسكاب في أيّة لحظة. ولكن ما حدث تالياً كان كفيلاً بتجفيفها.

والدة العريس، والتي كانت حتى تلك اللحظة قانعةً بالبقاء في المحيط، شقّت طريقها فجأةً إلى وسط المجموعة. انسحب والدي جانباً بأدب، بينما تسلّلت هي في الفجوة، بحيث أصبحت بجانب ابنها. تعلّقت بمرفقه وشبكت أصابعها بأصابعه. عند ذلك، سحب العريس يده من يد مريم - حتى أنّه هزّها، وكأنّه كان يُمسك بخرقةٍ قذرة. كان ثمة اضطرابٌ وارتباك في مُحياها، عندما نظرتْ إليه باحثةً عن تفسيرٍ لهذه القسوة المفاجئة. كان ينظر إلى الأمام بوجهٍ حجريّ، وأدركتُ أنّ هذا الرجل لن يجعلها سعيدةً أبداً، وأنّ عليها ألّا تغادر أبداً هذه الصالة معه.

لم تُلاحظ العائلة أيّ شيء، كانوا مشغولين جدّاً برسم أجمل ابتساماتهم. خطوتُ أقرب، وأنا أشعر بالتفاهة. يا لمريمي المسكينة! كانت تحاول بأفضل ما تستطيع أن تُخفي إذلالها، لكنّ فمها أخذَ يختلج وأصابعها ترتجف. ينبغي على أحدهم أن يُمسك بيدها المنبوذة ويُعيد الدفء إلى مريم. ولكن، بعد ذلك، وبشكلٍ سريع كفرقعة إصبع، رآني أبي. «ما الذي تفعله هذه هنا؟ » كان هديراً مُنخفض النبرة، لكنّني سمعته. أخذتُ خطوةً عقيمة إلى الوراء، وكأنّ ذلك كان سيعكس جريان الزمن. كانت عيناه مُستعرتين، وتضطرمان لدرجة أنّي تخيّلت أنّ الصالة سوف تتحوّل إلى رمادٍ تحت فورة حُمياهما.

أخذتُ أقتربُ دون أن أُدرك أنّني أفعل ذلك (كان كلّ فردٍ فيهم يُحدّق بي) نظرتُ بعيداً. كانت عزّة وهناء تلوّحان لي بشكلٍ مُلِحّ. سواءٌ فعلتُ ذلك مشياً أم ركضاً، كانتا تُريدانني خارج المنصّة. كان فيّ هوىً لأن أفعل ذلك، أن أبتعد لأقصى ما يُمكن عن هذا الاتحاد الزائِف. لكنّ مريم هنا، وهي تحتاجني. تنشّقتُ. عصفت من ورائي هبّةٌ من العطور العربية اللاذعة، ولعناتُ بُصاقٍ أفعوانية انصبّت على ظهري العاري.«غادري الآن، وإلا سأطلب الأمن ليجرّك إلى الخارج»، قالت منى مُهدّدةً.

في تلك اللحظة، اتخذتُ قراري. «لقد حان الوقت لأخذ صورتي مع العروس»، قلتُ، ودفعتها بمرفقي جانباً. كان أنفي في

الهواء وذقني بارزة، أخذتُ خطّاً مُستقيماً إلى مجموعة الزفاف. مُمسكةً بيد مريم، نظرتُ في وجوه أكثرهم بتعابير كالحة، بينما كانت عيونهم جامدة كعيون الأسماك، وقد أخرستهم الصدمة، غير مُصدّقين ما يحدث. «ماذا؟» قلتُ: «هل نسيتم أنّني أنا أيضاً من عائلة النسيمي؟ والآن انظروا إلى الأمام وارسموا أجمل ابتسامةٍ على مُحياكم».

42

ماجد

«لماذا المغنّيةُ معنا هنا؟» سألتْ «ماما العودة». وعندما لمْ يُجبها أحد، ضربت دلال على ربلة ساقها وقالت: «أليس من المفترض أن تكوني هناك، يا عزيزتي، تُغنّين؟»

انحنت دلال وقالت: «أنا مُغنّيةٌ بامتيازاتٍ خاصّة». ولوّحت بيدها على بناتي.»اسأليهنّ حيال هذا الأمر».

«امتيازات خاصة؟» لستُ بحاجة لأن أرى عيني أمّي من خلال فتحة برقعها، لأنّني أعرف تماماً كيف تبدوان عندما تكون مُندهشة: كراتٌ زجاجية رطبة، تتوسّع حلقات التقدّم في السنّ المائية الزرقاء مثل مدٍّ يتجاوز كلّ الحدود. «حسناً، تنحّي جانباً مع امتيازاتك الخاصة، بحيث أستطيع أن أرى ما الذي يحدث».

من الغريب أنّه كان بإمكاني سماعهنّ، بالرغم من الضجيج، لكنّي استطعت. عضضتُ شفاهي من الداخل، وحاولتُ جاهداً أن أفكر بأنجع طريقةٍ للتعامل مع هذا المنعطف البذيء. «هي لا يجب أن تكونَ هنا»، قالت والدة العريس، وهي تُخرج لسانها للإشارة إلى دلال، وكأنّه كان لديّ مشكلة في فهم ما

تعنية. مباشرةً بعدما شقّت دلال طريقها بقوّة، رمقتني الأرملة بنظرةٍ جديّة، إشارة قمنا على أثرها نحن الاثنين بالانتقال بعيداً من منتصف المجموعة. نحن نقف الآن على الطرف، حاولتُ أن أسترضيها. من الضرورة بمكان أن نحتفظ بعلاقةٍ قوية، فقد وافقتْ على استثمار ثروةٍ في مشاريع أعمالي المختلفة. وبالرغم من أنّني كُنت أغلي من الداخل، طليتُ لساني بحلاوة العسل، وحاولتُ أن أخفّف من حدّة الموقف. «لا تدعي مثل هذا الأمر التافه يعكّر صفو الأمسية».

«نعم، فكّري في عروسنا المسكينة، الطاهرة الذيل»، قالت منى التي ظهرت من خلفي.

«إنّه ابني الوحيد، أنتِ تفهمين هذا الأمر»، قالت الأرملة مخاطبةً منى، «وسعادته هي أهمّ شيء بالنسبة إليّ».

أومأنا أنا ومنى برأسينا موافقين. «وأيّة سعادة ستمنحه مريم»، قالت منى، بينما كان سيف وأحمد ينضمّان إلى جمعنا الصغير. «إنّها مستعدةٌ أن تمنحه قلبها وروحها».

«مريم كريمة بكلّ الطُرُق». أبقيتُ نبرتي دمثةً وواثقة. «ستقدّم لك أفضل صُحبة، أيضاً. ستخدمك بإخلاص أكثر من لو أنّها كانت ابنتك».

«نعم، أظنّ أنّك على حقّ». طقطقتْ الأرملة بلسانها بتذمّر. «يجب أن أفكّر بنا كعائلةٍ واحدة، أظنّ ذلك». صالبتْ ذراعيها

فوق وسطها الشبيه بالبرميل، وحدّقت باتجاه العريس الذي بقي ينظر من فوق كتفه باتجاهها. «بالرغم من ذلك، يجب أن تتخلّص من تلك المغنّية المتجرّدة من المبادئ الأخلاقية حالاً. وحاذِر أن يتحوّل الأمر إلى مشهدٍ فضائحيّ».

كنتُ أشاطرها الأفكار ذاتها، ولكن كيف تتوقّعُ منّي أن أفعل ذلك، لستُ أدري، وخصوصاً مع كلّ تلك العيون المسلطة علينا. وقفنا مُتجمّدين في مكاننا، تحت أضواء الصالة، والتي أخذت تخفت الآن. كُنا نبتسم بصعوبة، كشخوصٍ مثالية للمصوّرة التي كانت تطقطق كاميرتها بسرعة تُسبّب العمى. كانت مصوّرة الفيديو على القدر نفسه من الاحترافية. كانت تميل من جانبٍ إلى آخر، مُحافظةً على شريطها دائراً، وكأنّها في انتظار أمرٍ جللٍ ليحدث. لم يكُنْ عليها أن تنتظر هذا الأمر طويلاً.

ولن أدع سمعة ابني تتلطّخ بالوحل، لأنّه صدَفَ أن اقترفتَ مثل «هذا الخطأ الجسيم»، قالت الأرملة بصوتٍ كالهسيس. كان الإذلالُ صعباً لأن يُمكنني تحمّله، وتوجّب عليّ أن أكبح إغراء الردّ عليها بجوابٍ فظّ.

كيف يُمكن إرضاء الأرملة؟ أتت الفرصة سريعاً: انفجرت سلسلةٌ من الزغاريد القويّة، أشبه بصفارات الإنذار، حارقةً أُذنيّ، وكأن زيتاً حارّاً قد سُكِبَ فيهما. كنتُ مذهولاً. استغرقني الأمر بعض الوقت لأدرك أنّ الضجّة قادمةٌ من ثلاث نسوةٍ لا أعرفهنّ، بدَوْن وكأنّهنّ ظهرن من خلال الهواء الرقيق.

فاجأْنَنَا كُلّنا، حيث تمكّنتِ النسوة من شقّ طريقهنّ بسرعة على طول الممرّ، ليقفن بمواجهة العروس، دون أن يُلاحظهنّ أحد. إنّهنّ يقفن هناك، وأذرعهنّ ترتفع عالياً. أمالت إحداهنّ برأسها، وأخذ لسانها يرفرف. حذت الأخريات حذوها، وأخذت السماء تمطر صوت غرغرةٍ لضوضاء عالية النبرة، أعلى من سابقتها. طوّحن بأيديهنّ في الهواء، وأخذ محتوى أيديهنّ يرفرف فوق رؤوس المجموعة. صرخ سالم الذي توسّعت عيناه من الترقّب فأصبحتا كعينيْ بومة: «نثووور!»

إنّها النقود التي يتمّ نثرها عادةً فوق العروس والعريس؛ عملٌ فوضويّ. تمّ إمطارنا جميعاً بأمواجٍ من القطع النقديّة الصلبة ذات الدرهم الواحد، والأوراق النقدية الهشة فئة خمسة وعشرة دراهم. ارتقى الأطفال المتصارخون منصّة الزفاف، مثل النمل الهارب من وكرٍ مدمّر. قفزوا في الهواء، بأوصالٍ معتوهة. كانوا ينخسون، ويقرصون، ويسحبون بعضهم بعضاً؛ كانوا يتحطّمون بعضهم فوق بعض وهم يتدافعون ليجمعوا أكبر قدرٍ مُمكن من المكافأة. كانوا يدبّون على أيديهم وأرجلهم، يركلون الركب ويدوسون على أصابع الأقدام، يرفعون الأثواب ويشدّون الكنادير.

داس أحد الأطفال مُصادفةً على قدم العروس، وأخذ واحدٌ آخر يسحب ذيلها باحثاً عن أيّ قطعٍ نقدية قد تكون تدحرجتْ تحته. وعندما أفلتت دلال يد مريم من يدها لتدفعهم بعيداً، رأيتُ الفرصة

التي كنتُ أنتظرها. سأقتلعها من وسطنا الآن؛ من سيُلاحظ ذلك وسط هذه الفوضى العارمة؟ يجب أن أتصرّف على جناح السرعة.

سيكون من الأفضل أن أُرسل أحد أبنائي ليهتمّ بهذا العمل البغيض، بينما أبقى أنا مع الأرملة لإبقائها هادئةً ومطمئنّة. كان كلٌّ من أحمد وسيف ينتظران أوامري. كان سيف في غاية الاضطراب، ولا يُطيق انتظاراً من أجل إرضائي، وأنا لم يكُن بإمكاني ائتمانه ليهتمّ بمثل هذه العملية الدقيقة. اخترتُ أحمد، أكثر الاثنين رصانةً. «بحرص»، قلتُ بهدوء، دون أن أفتح فمي، وأعطيتُ أحمد إيماءة البدء، لكنّ سيف كان من اندفع إلى الأمام.

شقّ سيف طريقه وسط الأطفال المتصارخين. كانت غترته تتطاير على جانبيْ رأسه مثل زوجٍ من الأجنحة القويّة. تعلّقت دلال بيد مريم وكأنّها كانت خطّ الحياة بالنسبة إليها. وصل إلى دلال، وبدا لوهلةٍ أنّه كان قادراً على التكلّم معها بعقلانيةٍ. كانت ملامحه رصينة، مع تلك اللمسة المناسبة من التهديد، وبالرغم من أنّني لم أكن قادراً على سماع ما كان يقوله، بدا أنّه سيكون قادراً على إقناعها بأن تغادر بهدوء. نظرةٌ واحدة على الضيوف أكّدت لي أنّهم لم يُلاحظوا أيّ شيءٍ غير اعتياديّ. كنتُ آمل أن ينتهي هذا الفصل سريعاً بهدوء. لكنّني أدركتُ أنّه أملٌ كاذب، عندما بدأ سيف يهزّ سبابته في وجه دلال التي نظرت إليها وكأنّها دودة، وهزّت رأسها بقوّة.

مرّةً أُخرى أصرّت «ماما العودة» على معرفة سبب عدم وجود المغنّية بعيداً هناك تغنّي. ضحكت دلال بسخريةٍ، ومالت لتسأل المرأة العجوز: «ألا تعرفين من أكون؟»

«من تكونين؟»

جميعنا سمعنا سيف يقول: «لا تتكلّمي مع جدّتي. لقد قدّمت تهانيكِ، يا امرأة! وللمرّة الأخيرة: انزلي من على هذه المنصّة واتركينا نحتفل بهدوء. عودي إلى قومك».

تركت دلال يد مريم وضربت بقبضتيْ يديها على وركيها، في تحدٍّ صريح لسطوته. «أنتم قومي، سواءٌ أحببتم ذلك أم لم تُحبّوه. أنا جزءٌ من هذه العائلة. أختك – هذا صحيح – ولديّ في عروقي الدم نفسه الذي يجري في عروقك».

اسودّ وجهه مثل سحابٍ يتجمّع في عاصفةٍ عنيفة.«اصمتي!» قال سيف، كانت الكلمات تخرج من بين أسنانه كالهسيس.«لو كان معي سكّين لسننتُها وقطعتُ لسانك إرباً إرباً. ستُغادرين الآن».

لم تتزحزح، وكان ذلك أقصى ما يستطيع احتماله. اندفع بقوّةٍ إلى الأمام، مُمسكاً بها. زعقت واختبأت وراء مريم، فأمالتها إلى الأمام. بطريقةٍ ما لم تتعثّر العروس – لكنّ المجموعة شهقت من الخوف في أيّ حال – بالرغم من أنّ قدميها كانتا مُثبتتين بإحكامٍ داخل ذيل الحورية اللعين ذاك.

«ليس هذا هو الأسلوب المناسب»، أخذت مريم ترجو سيف.«ستُغادر، ستُغادر الآن، أليس كذلك، يا دلال؟» انقضّت يد سيف اليسرى حول خصر مريم. «حتى ولو لم تغادر، فما الضيرُ من ذلك؟»

كان بإمكان سيف آنذاك أن ينتزع دلال بسهولة، لكنّه توقّف لبرهة، ووجّه إصبعاً غليظة لمريم. «أغلقي فمكِ!».

«كلا، أنت أغلق فمك»، قالت له دلال، ووكزته على صدره. «كيف تجرؤ على التكلّم معها بهذه الطريقة؟ إنّها عروس!» ثم بدءا يركضان بخُطاً قصيرة حول المنصّة، غير قادرين على المناورة في وسط العائلة المتململة.

كان ثمة صوت صفير صادرٌ من حنجرتي الجافّة. كان من المفترض بي أن أُقدّم العريس للعروس، وأقف لالتقاط بضع صور، ثمّ أُغادر. كنتُ متمسكاً بأمل أن يكون سيف ودلال لا يزالان بعيدين عن الانتباه، بحيث يظنّ المدعوون أنّ العائلة لا تقوم بشيءٍ أكثر من إعادة ترتيب نفسها لالتقاط المزيد من الصور، إلى أن أمسك سيف بدلال وأحكم قبضته عليها. أخذ يسحبها، بينما كانت هي تقاوم. ومع اكتفائها من الاضطراب الحاصل، شنّت «ماما العودة» هجوماً عنيفاً على كلٍّ من سيف ودلال، وأخذت تنخس أفخاذهما وتضرب على ربلاتهما بعصاها. نظرتُ حولي بحثاً عن أحمد أو بدر، لكنّهما كانا قد اختفيا.

«أوقفوا تصوير الفيديو»، قالت أمل وهي تندفعُ لتغطية العدسات بيدها.

«واحد، اثنان»، ارتدّ فلاش ضوئيّ عن حافة كتف سيف، قبل أن ينتزع دلال من المجموعة. «ثلاثة!»

«لا صور»، صرخت أمل.

ضيّقتُ عينيّ وأخذتُ أُصدر هسيساً عبر أسناني؛ لم أكن أرغب في أن يتطوّر هذا الأمر. في الزمن الحقيقيّ، هو ثوانٍ، أمّا في زمن عقلي، فهو ساعات. لقد توقّفتْ تلك المغنّية الكويتية اللعينة، ومعها الموسيقيّون. في خضمّ ذلك الهدوء، سمعتُ ما بدا كأنّه مليون شهقةٍ آتية من الضيوف. نهضت بعض النسوة من على الطاولات القريبة من منصّة الزفاف، وأخذن في ارتداء عباءاتهنّ ولفّها بإحكام حول أجسادهنّ. ثمّ أخذن في المغادرة، والهروب مثل مخلوقاتٍ أحسّت باقتراب حدوث الزلزال قبل وقوعه.

أخذت الأرملة تقرص خدّيها غير مُصدّقةٍ ما يحدث أمامها. كانت دلال مائلةً نحو الخلف، تستخدم كامل ثقلها كي لا يتمّ جرّها. لكنّ سيف كان أقوى، وأخذ يجرّها بجهد إلى منتصف المنصّة. كان يتعيّن عليه أن يسحبها على كامل طول الممرّ، وعلى طول الدرجات، ليتمكّن من التخلّص منها. صدمتني هذه الفكرة بحقيقةٍ أصبح من المستحيل الآن أن تُعكَس. وعندما أخذت

الأرملة في العويل، علمتُ أنّي لا أستطيع البقاء مُتردّداً أطول من ذلك. يجب أن أتصرّف، مهما كان يعنيه ذلك.

انفجرت «الكوشة» بالفوضى. كان سيف يسحب دلال عند نهاية الممرّ. أمّا مريم فكانت تبدو الشخص الوحيد الذي لا يتحرّك. تقدّمتُ بصعوبةٍ عبر العائلة، وذراعاي ممدودتان.

«إنّها مُناسبةٌ تستحقّ الاحتفال»، أعلنت بدور بصوتٍ عالٍ.«ألف مبروك للعريس! ألف مبروك للعروس!» فعلتْ بدور ما بوسعها لتحويل انتباه الضيوف، لكنّ الوقت كان قد تأخّر جدّاً لذلك، لم يكُن أحدٌ يستمع إليها.

لستُ متأكّداً كيف استطاعت ذلك، غير أنّ دلال تحرّرت من قبضة سيف، عندما رأتني، واندفعت نحوي. كانت قدماها قريبتين إلى حدٍّ خطير من حافّة المنصّة المرتفعة. وبأظافر يديها الحمراء اللامعة المعقوفة مثل المخالب، بدتْ كأنّها مُستعدةٌ لاقتلاع عينيّ. أعددتُ نفسي جيّداً لمواجهتها، حين سمعتُ فجأةً عواء ذئبٍ مُجلجل.

43

دلال

«وووووووو!» «ووووووو!»

من دون تحذيرٍ أتت، جلبةٌ غريبةٌ، بحيث خيّم السكون على الغرفة. كانت مريم تقف بمفردها، عيناها تتوقدان، تُضيئان من الداخل جرّاء بعض الجنون الغامض. استحال فمها دائرياً مرّةً أُخرى: «ووووووو! يكفي!» بدا الأمر هذه المرّة شبيهاً بالنحيب، بالفقد، بقلبٍ مهيض. ملأ ذلك عينيّ بالدمع، وكانت يداي مُمتدّتين تجاهها، فاستحالت عيناي مغشيّتين.

«تمالكي نفسكِ، يا فتاة»، سمعتُ أبي يُخاطبها.

ردّت عليه مريم بتحدٍّ قائلةً: «لا تتكلّم معي! أنا أكرهك! توفّي والدي، وكلّه بسببك. أنت من أجبرني على أن أكون هنا، بينما جُلّ ما أردته هو أن أكون أبعد ما يُمكن عنك». كانت مريم تصارع العديد من المشاعر. «يكفي ألماً، يكفي بؤساً». قالت بصوتٍ كالأزيز: «يكفي».

«أنا قادمة»، همستُ. وبينما كنتُ على وشك أن آخذ الخطوة الأولى، سمعتُ صوت ارتطامٍ ضعيف. تعثّرتُ إلى الخلف.

تطلّبني الأمر أقلّ من ثوانٍ لأدرك أنّي قد ضُرِبتْ، فوق قلبي مباشرة. تقلقلتُ، متأرجحةً على حافّة منصّة الزفاف، ومُكافحةً لاستعادة توازني.

استدار أبي في الوقت المناسب ليُمسك بيديّ اللتين كانتا تطوحان في الهواء مثل جناحيْ طائرٍ يائِس. اندفع إلى الأمام، لكنّه أمسك برؤوس أصابعي فقط، وقد أفلتتْ أيضاً من قبضته، وكأنها كانت مغموسةً بالزبدة. «بابا؟» ترنّحتُ بينما كنتُ أسقطُ من على المنصّة.

عندما استعدت وعيي لأوّل مرّة، بصقتُ بعض زئبر السجاد. كانت ذراعاي محبوكتين تحتي. كنتُ أحسّ بهواءٍ بارد يهبّ على ساقيّ. أُصبت بالرعُب: هل ملابسي مكشوفة؟ كانت ساقاي مُفلطحتين على الأرض كساقيْ ضفدع - كنتُ واثقةً من هذا الأمر- ولكن عندما حاولتُ أن أرفع رأسي لأتأكّد، ضرب الألم كتفيّ. وغبت عن الوعي مرّةً أُخرى.

في المرّة الثانية التي استعدتُ الوعي، كنتُ أرتجف تحت البطانية، ويتمّ لفّي على لوحٍ صلب، ثبّتني عليه رجالٌ بمعاطف خضراء. كان من الصعب عليّ إبقاء عينيّ مفتوحتين. ضربني أحد الرجال بلطفٍ على وجهي، وكأنّه كان يُحاول أن يوقظني. سمعتُ طقطقةً وما بدا كأنّه اختلاجات مصعد. آنذاك، كان يتمّ نقلي إلى الخلف على عجلات. أسرعتِ امرأةٌ إلى جانبي، كانت تنتحب

وتصرخُ باسمي. كنتُ متأكّدةً أنّي أعرفها، ولكن ماذا كان اسمها؟ حاولتُ أن أزيل الضباب من رأسي. سمعتُ عواء الذئب ثانيةً، وهو الأمر الذي جلب إلى عقلي صورة مريم بفستان عرسها. وها هو ذا صوتها، يتعاظم عميقاً من مكانٍ بعيد، وكأنّها كانت تسقطُ إلى قاع بئر. «لقد دمّرتَ حياتي! أنا لا أملك شيئاً. ما الذي تُريده أكثر من ذلك؟» أين ذهبتْ، يجب أن أجدها.

شاهدتُ منصّة الزفاف: كانت فارغة. أين هي مريم؟ تقلقل رأسي إلى الخلف. كنتُ أنتقل آنذاك بسرعةٍ كبيرة بين الطاولات المهجورة. أين ذهبت كلّ أولئك النسوة؟ أُغميَ عليّ مرّةً أُخرى.

44

مريـم

لم يُضيّعوا أيّ وقت في إنزال الأضواء. عشرة آلاف مصباحٍ أخضر، وأصفر، وبرتقاليّ تمّ إنزالها في صبيحة اليوم التالي. كانت مزروعةً على طول جدران المنزل، من الأعلى نحو الأسفل، وتنتشر على شكل خيوطٍ منجلية، على طول حائط الحديقة. كانت تلك الأضواء تلتفّ لولبياً حول جذوع الأشجار، وتتموضع مثل طيور الشمس المضيئة على الأغصان. إنّها زينةٌ تقليديّة في الإمارات: إعلانٌ مضيءٌ عن مناسبةٍ احتفالية، بحيث يُمكن للغرباء الذين يقودون سياراتهم بالقرب من المنزل أن يبتسموا، ويُشيروا بإصبعهم، ويقولوا: «انظروا، أحدهم في هذا البيت سيتزوّج».

تساءلتُ ما إذا قام العريس بإزالة الأضواء التي تُجلّل منزله بالسرعة نفسها التي قامت بها عائلتي. لا أدري لماذا لا أزال أُفكر به على أنّه العريس، لأنّ الأمر لم يعد كذلك: لقد أُلغي الزواج. كان ذلك الجزء الوحيد من المعلومات الذي حصلتُ عليه، ونقلَته لي عمّتي عائشة بلحظةٍ واحدة عجلى. همستْ به من خلال الباب، ثمّ اختفت. كان ذلك البارحة، أو ربما قبل البارحة. منذ ذلك الحين، لم أرَها، لا هي ولا أيّ أحدٍ آخر.

ووفقاً لتعليماتٍ صارمة من عمّي ماجد، فقد أقفلوا عليّ في غرفتي. لم يكنْ يُسمح لأيّ شخصٍ بالتواصل معي، منذ انفجار ثورة غضبي، والتي استمرّت بينما كان يتمّ إنزالي من على منصّة الزفاف، وفي السيارة التي كانت تنتظر لتقلّني إلى المنزل. كنتُ أنتحب في طريقي إلى السرير نِصف مُقادة، ونِصف محمولة.

كانت الغرفة مكتظّةً بالبشر، حيث فاضت الغرفة بأفراد العائلة. كان بإمكاني سماع عمّي يصرخ على سيف لإفساده الأمور. كان يقف عند الباب مع أولاده، مُتخلّياً عن مسؤولية التعامل مع العروس الخارجة عن السيطرة لعمّتي عائشة وبناته. كانت النسوة يُثرثرن كزبائن مُساومين في سوق، لكنّني لم أكن قادرةً على تقرير ما إذا كُنّ يُعبّرن عن غضبهنّ أمْ أنّهن يُهدّئن العروس الهستيرية بكلماتٍ معسولة. جالسةً على طرف السرير، حضنتُ صدري وأخذتُ أتأوّه، وعندما كان أيّ شخص يُحاول أن يلمسني، كنتُ أصرخ وأركل.

لم أستطع أن أتوقّف. كان ذلك مثل ماءٍ يتدفّق من أنبوبٍ منفجر. لم أستطع أن أتوقّف.

ثمّ وصل الطبيب. بعثت سمّاعة الفحص الباردة موجةً من القشعريرة في جسمي، وكان عليه أن ينزع ميزان الحرارة من فمي خشية كسره بين أسناني المصطكّة. عوضاً عن ذلك، وضع الميزان تحت إبطي، وأعلن أنّني أُعاني من الحمّى. أعطاني إبرتين، وكان مفعولهما فورياً. ثم قدّم تشخيصه المرَضيّ لحالتي: انهيارٌ عصبيّ حادّ.

ما الذي يُمكن فعله عندما تُصاب العروس بالجنون؟ ومع حرارة الدواء الآخذة بالانتشار في جسمي، ألقيتُ برأسي على السرير، وتبعته بقية جسمي الذي كان لا يزال متقولباً في فستاني القاسي. استمعتُ إلى الطبيب يشرح أنّ حالتي سببها إرهاقٌ طويلٌ مزمن.

«إرهاق؟» تقيّأ عمّي ماجد الكلمة. مرّةً أُخرى: «إرهاق؟ أيّ هُراءٍ هذا» عمّ السكون الغرفة، بينما كان عمّي يندفع عبر النسوة. «أيّ إرهاقٍ تتحدّث عنه، يا دكتور؟» سألَ عمّي، بصوتٍ أجشّ. «إنّها تأكل جيّداً وتنام جيداً». وأشار بذراعه في الهواء، ثمّ، «لعلّه الرخام الذي تمشي عليه، أو منظر هذه الستائر الغالية». كان عمّي يستشيط غيظاً، فأخذ يهزّ رأسه. «أخبرني، هل العيش في منزلٍ كهذا سيتسبّب لك بالإرهاق؟»

كانت عينايَ ثقيلتين، لكنّني حدّقتُ فيه بسخرية. حاول أن يرسم ابتسامةً مزيّفة – في محاولةٍ لإظهار أنّه لا يزال هو المسيطر – لكنّه كان غير قادرٍ على فعل ذلك: كانت شفتاه ترتجفان مثل الهلام. نظرَ إليّ عابساً، لكنّ الحقنتين كانتا قد أزالتا خوفيَ منه، وخلّفتا مكانه شعوراً باللامبالاة الكسولة.

«انظروا إليها، إنّها تستمتع بهذه الفوضى، مخلوقةٌ جاحدة، هذا ما هي عليه»، قال عمّي وهو يلوّح بذراعيه في الهواء. اقترب منّي، وانحنى إلى أن أصبح وجهه على بعد أصابع من وجهي، كانت أنفاسه حارّةً على وجهي.«أنا أعرفكِ»، قال عمّي مزمجراً،

لكنّه أبقى صوته خافتاً. «لقد فعلتِ ذلك عمداً. طيلة الوقت، كُنتِ ترغبين في إذلالي، إذلال هذه العائلة. ولقد نجحتِ في ذلك الآن، من خلال إطلاق تلك الأكاذيب أمام جميع أولئك البشر».

أتذكّرُ أنّي هززت رأسي بشكلٍ متكاسل، وصحتُ له بكلماتٍ متداخلة بعضها ببعض: «لا أكاذيب، عمّي، الحقيقة فقط».

انتصبَ عمّي بقوّةٍ شديدة، جعلت ظهره يطقطق بصوتٍ عالٍ. «ثمة أمرٌ واحد يجب على كلّ مَن في هذه الغرفة أن يعرفه: أنا لن أسمح بهذا الأمر!» كانت إصبعه تشقّ الهواء كسكّين. «وأنتَ، يا سيّد طبيب، لا مزيد من الحديث عن الإرهاق. أنا لا أؤمن بأيّ كلمة ممّا قلتَه. اذهب وجِد سبباً طبّياً حقيقياً لشرح هذا الأمر؛ لأنّ ذلك هو الشيء الوحيد الذي سيُنقذها».

دافع الطبيب عن تشخيصه المرضيّ، غلبني النُعاس. اعتقدتُ أنّ عمّي قد غادر الغرفة غاضباً، لكنّني لم أكُنْ متأكدة، وحتى عندما نقّبتُ في ذاكرتي عن تفاصيل تلك الليلة. خلال اليومين التاليين، كان الطبيب يزورني ليتفقّد وضعي الصحّي. وفي كلّ زيارة، كان يقدّم لي حبوباً تخدّر عقلي وتُرخي أوصالي، ما يقودني إلى نوباتٍ من النوم الهانئ بلا أحلام. زائري المنتظم الوحيد الآخر كان خادمةً جديدة تأتي لتنظّف غرفتي بشكلٍ دوريّ. كما كانت تجلب لي وجبات طعامي التي كُنت آكل لقيماتٍ قليلةً جداً منها، هذا إذا أكلتُ شيئاً على الإطلاق. كان اسمها أوفيليا، وهي لم تكن تعرف أيّ كلمة، لا بالعربية ولا بالإنجليزية.

لم يكُنْ أحدٌ يُخبرني أيّ شيء. والجزء الجميل بهذا الأمر أنّني لم أكن أحفل البتّة بمعرفة أيّ شيء، حتى اليوم.

كنتُ ضجِرة. بينما أنا أجلسُ متربّعةً في سريري، أخذتُ أعضّ على الجلد القاسي في أطراف أظافر يدي، فيما كنتُ أنتظر الطبيب (تأخّرَ ثلاث ساعات!) وخبيئته الحلوة من الحبوب. آنذاك، سمعتُ بالأمر: سلسلةٌ من العويل الذي أخذ صداه يتردّد وكأنّه آتٍ من قعر بئرٍ عميقة. دام العويل إلى أن أسكتته نداءات صلاة العصر من المساجد القريبة.

نزلتُ من على السرير، وأسرعتُ إلى الباب، لأتذكّر فجأةً أنه مقفول. «افتحوا هذا الباب!» هززتُ القبضة للأعلى والأسفل مراراً وتكراراً، مُحدثةً أكبر قدرٍ أستطيعه من الضوضاء، وكأنّ ذلك كان سيُحدث أيّ فرق. لم أكن أستطيع تخيّل أن يسمح لي أحدٌ ما بالخروج. لقد تكلّمتُ عن كربي على الملأ. لقد تكلّمتُ عن المحظور، زعزعتُ الأساسات الزائفة والمتزعزعة أصلاً، لهذه العائلة.

ماذا قُلتُ؟ حاولتُ أن أستذكر التسلسل الدقيق لأفعالي، لكنّ الأمر كان صعباً. كانت الصور تأتي على شكل شظايا وقطعٍ صغيرة، وكلّ واحدةٍ منها منفصلة عن الأُخرى، وكأنّها كانت تروي قصّةً خاصّة بها: دلال تستلقي غائبةً عن الوعي، ويداها مطويّتان تحتها، الأرملة وابنها يشبكان أذرعهما ويُغادران بغضب، الطريقة التي قاومتُ بها بكلّ ما أُوتيتُ من قوّة، بينما كان

يتمّ إنزالي من على المنصّة. كم دام الأمر؟ كم كان صوتي عالياً؟ كيف تجرّؤوا أن يفعلوا هذا بي؟!

صرختُ بأعلى صوتي: «أنا لا أُبالي البتّة!» وأنا أخبطُ وأركل على الباب.

أرهقني الأمر. لاهثةً، نزلتُ على رُكبتيّ وألصقتُ إحدى أُذنيّ بالباب. أخذتُ أسمعُ المزيد من الأصوات البشريّة، والجلبة في الأسفل. لم يكُنْ بإمكاني معرفة ما كانوا يقولون، لكنّ أصواتهم كانت غاضبة. غُصتُ أكثر، سحبني الثقل نحو الأرض. ألقيتُ برأسي على إحدى ذراعيّ، وسحبتُ ساقيّ، غائصةً في الخِدر. مُستكينةً بالقرب من الباب، تركتُ النوم يأخذني بعيداً. هكذا كانت حالتي عندما وجدني الطبيب؛ ساعدني في الوصول إلى السرير، قبل أن يُعطيني الإبرة.

بعد يومين، كنتُ ألحق بأوفيليا في أرجاء الغرفة، مُشيرةً بإصبعي إلى الأرض، مازجةً- بلغةٍ بسيطة- بين العربية والإنجليزية، لزيادة فرصي في أن تفهمني. «أنتِ قولي حقّ أنا، شو في تحت؟»

إمّا أنّها كانت صمّاء، أو أنّني استحلتُ غير مرئية. بقيت أوفيليا مُركّزةً على العمل الذي تقوم به، مُطلِقةً بخّاتٍ حادّةً من رذاذ تنظيف الأثاث، تُتبعها بمسحاتٍ مواظبة من خرقتها. كانت تنتقل بسرعة من قطعة أثاثٍ إلى أُخرى، حيث كان من الواضح أنّها كانت على عجلة من أمرها لتنهي عملها وتغادر.

انكمشتْ خوفاً، عندما أمسكتُ برسغها لألفت انتباهها، وكأنّني يُمكن أن أضربها. من الواضح أنّ أوامر السيد بعزل العروس المتقلّبة المزاج قد أطلقت الإشاعات بين الخدم. لا شكّ في أنّهم توصّلوا إلى خليطٍ من النظريات الخاصّة بهم حول هذا الموضوع. لا شكّ في أنّ هذه الخادمة تظنّ أنّني عنيفة، لذلك أفلتُّ يدها وربّتُّ على كتفها. بدا أنّ ذلك قد هدّأ من روعها قليلاً. قلتُ لها: «شو في بيت؟»

«في موت»، قالت هامسةً، وأخذت تمشي على رؤوس أصابعها إلى الخلف، إلى أن اصطدمت بالباب. «في موت»، قالت مُكرّرةً، وأخذت تطرقُ على الباب.

«ماذا؟» منزلٌ في حِداد: هذا يُفسّر لماذا كان البيت يمتلئ بالناس خلال الأيام القليلة الماضية. سابقاً، كنتُ أميلُ إلى الخارج من خلال النافذة – كانت ساقاي تتدلّيان وبطني تتوازن على عتبة النافذة – لأحظى بنظرةٍ جزئية للبوابة الأمامية. كنتُ ألمح نساءً يترجّلن من سيارتهنّ. الآن فهمتُ أنّ الناس كانوا يصلون ليقدّموا تعازيهم. «من الذي مات؟» ولأنّني لم أرَ أيّاً من أفراد العائلة، فقد يكون المتوفّى أيّ أحدٍ منهم.

قام أحدهم بفتح الباب من الخارج. تقدّمتُ خطوةً باتجاه الخادمة، مُزمعةً أن أسدّ الباب قبل أن تستطيع الهرب، لكنّني توقّفت قبل مسافةٍ قصيرة، كي لا أرعبها. «أخبريني!»

رمقتني بنظرةٍ محزونة وانسلّتْ.

45

دلال

«لقد دُفِعتُ».

«دُفِعتِ، سقطتِ، ما حدثَ قد حدث، انتهى الأمر. لا فائدة من الخوض في الموضوع مرّةً أُخرى».

لقد دفعني سيف عمداً، وأريده أن يدفع ثمن هذا الأمر. أخبرتها للمرّة المائة، أُريد أن أجرّه إلى المحكمة. لكنّ مدام نيفين ترفض القبول بهذا الأمر. قالت: «لقد أفسدتِ حفل زفافهم، يا دلال. أنا لا أعرف ما الذي دفعك لفعل ذلك، ولكن لا مغزى من جرّ عائلتك إلى المحكمة».

«ليس عائلتي، سيف فقط».

«كلا!» هزّت إصبعها أمام وجهي. كانت غاضبة. سقطتُ في تكشيرةٍ فظّة وأنا على سرير المستشفى. «ستُنفقين نقودك كلّها على المحامين. ستُعرّضين نفسك للصحافيين، وهم دائماً يتشمّمون الأخبار، هم دائماً جوعى لتلطيخ سمعة الفنّان. في النهاية، أنتِ من سيمشي مجروحاً. ألم نتّفق أنّنا لن نتحدّث بهذا الأمر بعد الآن؟»

لقد اتفقنا، لكنّني كنتُ غير قادرةٍ على ضبط المشاعر المتموّرة داخلي، والتي تأتي على شكل موجاتٍ عندما لا أتوقّعها أن تأتي. لا بدّ أنّني كنتُ لا أزال أرتجف ممّا حدث في حفل الزفاف. تومِض الذكريات في رأسي وتستنهض سلسلةً من الأسئلة التي لا يُمكن الإجابة عنها؛ وأحدها هو: أبي، بعينيه الصقريتين، ووجهه المحتقِن، ويديه الممدوتين في الهواء، هل كان يُحاول إنقاذي، أم لم يكُن الأمر أكثر من فعلٍ انعكاسيّ؟ لماذا أهتمّ أصلاً للموضوع؟ أخذتُ أنفاساً عميقة صاخبة لأصفّي رأسي، عابسةً من التفكير في ذكرى ثانية: مريم وهي مُثقلةٌ بفستان العرس ذاك، وكيف كانت تبدو تعيسة.

أخبرتني عزّة وهناء أنّني- بينما كنتُ فاقدةً الوعي- فقدت مريم عقلها بشكلٍ كامل. بدأت مريم عندها بالصراخ، مُلقيةً باللوم على عمّها بشكلٍ كامل، فاتهمته بخداع والدها والتسبّب بموته. قالت إنّه خدعها واستلبها حقوقها.

وضعتُ يدي على فمي، بينما كنتُ أستمع لحديث الفتيات. لقد تمّ تجريد والدي والعائلة من كرامتهم، وتجليلهم بالعار، وفضحهم، لقد أصبحت أسرارهم منشورةً على الملأ، وسمعها الجميع. لمْ أشعر بأيٍّ من السعادة التي كنتُ أتوقّع أن أشعر بها بعد التشهير بهم على الملأ، شعرت بخدرٍ فحسب. كان على إحدانا أن تتكلّم، كان ذلك هو الوعد الذي قطعناه على نفسينا،

عندما كُنّا فتاتين صغيرتين، ولكن ليس بهذه الطريقة. كم أخافُ عليها! ما الذي حدث بعد ذلك؟ إلى أين أخذوها؟ ما الذي فعلوه بها؟ لا أحد يعرف البتّة.

كانت مدام نيفين تهزّ رأسها. «ألم نُقرّر أن نتعامل مع حادثتك بطريقةٍ ذكية؟»

«حسناً، لقد فهمت مقصدك!»

سيصلون قريباً، صحافيّون من صحف البيان، والخليج، والاتحاد، وحتى من اليومية الإنجليزية الخليج تايمز. كما سيصل كاتب مقالاتٍ شخصية، لإجراء مقابلةٍ حصرية لمجلة زهرة الخليج اللامعة. لقد اتصلت بهم مدام نيفين بحيث يُمكننا أن نُبطل كلّ الإشاعات، ونقدّم لهم قصّةً قمنا نحن بصياغتها. القصّة تجري على النحو التالي: وقع لي حادث. لقد تعثّرتُ وسقطتُ بينما كنتُ أغنّي في حفل زفافٍ محلّيّ. لن تتمّ الإشارة على الإطلاق إلى حفل زفاف مَن كان، وكنّا نعتمد على صحافيين لم ندفع لهم إكراميات. قالت مدام نيفين: إنّ الصحافة هنا ألطف من صحافة القاهرة، والصحافيون أكثر احتراماً لخصوصية الآخرين، حتى ولو تعلّق الأمر بشخصيةٍ شهيرة مثل شخصيتي. كان يتوجبّ عليّ أن أستميلهم وأحوّل اهتمامهم نحو صوتي وموسيقاي. كان عليّ أن أقدّم اقتباساتٍ نابضةً بالحياة. كان عليّ أن أجعلهم يُحبّونني.

«والآن يجب أن تبدي رصينة، سيدة حقيقية، مع لمسةٍ من اللطف والحنان»، قالت مدام نيفين.

أزعجني أنّني كنتُ أعاني صعوبةً في تشكيل ذلك التعبير المحدّد. لقد تدرّبتُ عليه أمام المرآة مراتٍ عدّة، بحيث أصبح طبيعةً ثانية لي، كما استخدمته بنجاح. لقد راكمته في ذاكرتي، لأستخرجه عند الحاجة، لكنّني أجد نفسي الآن غير قادرةٍ على إعادة صياغته.

طقطقت بلسانها. «كلا، ليس ذلك الوجه». كان صوتها حادّاً، كان يطلب نتائِج. عملتُ وجهاً آخر، وأومأتْ برأسها قليلاً، لكنّها لا زالت تبدو غير مُقتنعة. «أفضل قليلاً، ولكن تابعي العمل على هذا الموضوع».

أمّي هنا، أيضاً. تركتْ زوجها مع عوده وموسيقى الإعلانات القصيرة، وطارت «لأكون بجانبكِ، يا ابنتي» حالما سمعتْ بالخبر. كانت ثمة هدنةٌ غير مُعلنة بينها وبين مدام نيفين، ويعود الفضل في ذلك إلى سياسة الحدّ من الأضرار التي تبنّتها مديرتي: حيث أصرّت- وبسرعة- أن تبقى ستّ زُهرة بالقرب من ابنتها أثناء المقابلات الصحفية، وبالتالي تتمكّن الأمّ الحانية من الظهور في كلّ الصور. رحّبت أمّي (لم أعد أناديها «ماما») بذلك الاقتراح بلهفة. كانتا تتنقّلان كأختين مخلصتين، مُحاولتين أن تجعلا غرفة المستشفى تبدو جذّابةً ما أمكن.

أعادت مدام نيفين موضعة الأصيص الذي يحوي زهوراً حمراء قانية مرشوشة بغبارٍ ذهبيّ. كانت الأزهار مرتّبةً على شكل قلبٍ كبير، مع تقوّسٍ ذهبيّ مرن في القعر. نقلت أمّي تزييناتٍ بألوان قوس قزح إلى جانب فراشي: كانت عبارةً عن أزهارٍ تميل برقّة، بألوانٍ رائعة متتالية وبالترتيب الصحيح لقوس قزح: أحمر، برتقاليّ، أصفر، أخضر، أزرق، وبنفسجيّ.

كانت عزّة وهناء تُمضيان الوقت بالقرب من النافذة، تحمل كلّ واحدةٍ منهما قطعة الزينة المفضّلة لديها. «أنا أحبّك يا دبدوبي العزيز»، قالت هناء وهي تضرب اللعبة التي كانت تحضن سوق أزهار الفاوانيا الوردية الممتلئة.

«نعم»، قالت عزّة: «ولكن هل سبق لكِ أن رأيت أيّ شيءٍ يُشبه هذه؟» رفعت عزّة سلطانيةً فضية ملأى بالفاكهة وبمزيجٍ من الأزهار الغريبة التي لا يُمكنني تذكّر أسمائها. وافقت هناء على الاختيار بإيماءةٍ من رأسها، وغادرت الغرفة لتطمئنّ ما إذا كان الصحافيّون قد وصلوا.

تلك كانت مبادراتٍ تعبّر عن الحبّ من المُعجبين. بالكاد كان لديّ الوقت الكافي لأرتاح بعض الشيء داخل غرفتي في المستشفى، عندما بدأت الشوكولاته، والحيوانات القماشية المحشوّة، وبطاقات الدعاء بالشفاء العاجل بالوصول إليّ. تسرّبتِ الأزهار والبالونات إلى الممرّ، ورفعت من المزاج

الجيّد للمرّضات. حتى الطبيب لم يستطع المحافظة على وجه الطبيب الرصين، عندما أخبرني أنّني كنتُ محظوظةً مرتين: لأنّ رأسي لم يرتطم بشيء أثناء سقوطي، ولأن الكسر في ساعدي بسيط. «لا حاجة لإجراء عملٍ جراحيّ»، أعلن الطبيب. بالرغم من ذلك، وضعها في جبيرة، مع ضرورة أن تبقى فيها لأسابيع أخرى. تبدأ الجبيرة من تحت المرفق وتغطّي يدي وإبهامي. لقد امتلأت الجبيرة بالقلوب، والوجوه الضاحكة، والتواقيع بألوانٍ عديدة. كانت معظم التواقيع من زوّارٍ مختلفين دلفوا إلى غرفتي، أُناسٍ لا أعرف كيف اكتشفوا أنّ شخصاً مهماً- نجماً - يرقد في المستشفى، فقاموا بزيارتي ليتمنّوا لي الشفاء العاجل.

من الغريب أنّه لم يكن بإمكاني الاستمتاع بكلّ ذلك الاهتمام. كنتُ أبتسم وأرسم على مُحياي أفضل تعابير العرفان بالجميل. لكنّني- من الداخل- أشعر بالخدر. حتى أنّني لم أستطع أن أقدّر حظّي الجيّد لكون رأسي لم ينكسر، أو وجهي لم يتعرّض للرضوض.

استرقت هناء النظر إلى الغرفة: «الصحافيون هنا».

مع هذا الخبر، استقرّت فورةٌ من الحرارة في خديّ، ثم تلاها ذلك الشعور المعتاد: المخيض اللذيذ من توتّر الأعصاب والنشوة. اعتدلتُ في جلستي، وعندما امتدّت شفتاي لترسما الابتسامة المناسبة، وُلِدَتِ الابتسامةُ مباشرةً.

46

مريـم

شقّت ضربة البرق السماء البيضاء. وعندما تبعها تأوّه الرعد، تنحّت الببغاواتُ الجاثمة على شجرة التمر الهنديّ الضخمة، بالقرب من نافذتي، عن مواقعها المموّهة. وفي نوبة جنون الصرخات الحادّة واصطفاقات الأجنحة الخضراء اللامعة، أطلقت الببغاوات إنذاراً بخصوص العاصفة الوشيكة. ثمة توقّعٌ بحدوث وابلٍ مطريّ، وهو أمرٌ نادر الحدوث سيسم هذا اليوم من شهر نوفمبر، كيومٍ مُباركٍ وعزيزٍ. كان ذلك ما يحدث في الخارج. أمّا الداخل فسيبقى كما هو، ساكناً سكون القبر.

ومع انقضاء فترة الحداد، توقّف الزوار عن الحضور. لقد كان خالد هو المتوفى. استخرجتُ تلك المعلومة أخيراً من الخادمة. لقد مات في «بانكوك»، وأفترضُ جرّاء جرعة مخدّرات زائدة. لن أعرف السبب الحقيقيّ، لأنّ العائلة- دون شكّ- اختلقت قصّةً أُخرى عن موتٍ طبيعي، أقلّ عاراً.

لا شكّ في أنّ عمّتي عائشة مكسورة الجناح. كان خالد يحتلّ

مكانةً خاصّة في قلبها. كان الفرد الوحيد من العائلة المنفتح بعواطفه تجاهها. كان وجهها دائماً ينضح بالبشر عندما كان يمسك خالد بيدها أو يحضنها. لم يكُن عمّي ماجد يعلّق على هذا الأمر أبداً، ولكن كان من الواضح أنّه كان يمقت تلك العروض.

لمَ أُفكّر بهم؟ لمْ يتكبّد أيٌّ منهم عناء إخراجي، طيلة أيام العزاء الثلاثة. من ناحيةٍ أخرى، لمَ عليهم ذلك؟ كم ستطول فترة احتجازهم لي هنا؟ ومن دون الطبيب وحبوبه، فأنا جِدّ متوتّرة ومتألمة، والحاجة إلى الخروج من الغرفة جِدّ ملحّة. لقد مضى عليّ في هذه الغرفة عشرة أيام. وقرّرتُ أنّها فترةٌ كافية.

اتجهتُ إلى الباب بقبضةٍ مرفوعة. غير أنّني- ولم تكُن تلك المرّة الأولى- توقّفتُ قبل الوصول إليه، لأفكّر ما الذي سيحدث إذا بدأتُ بالخبط عليه. خذلتني شجاعتي مرّةً أُخرى، عندما بدأتُ أطيل التفكير في مضاعفات أفعالي، وبشاعة ما سيتحتّم عليّ مواجهته في الخارج. تحوّلت أفكاري نحو دلال التي أدعو أن تكون إصاباتها طفيفة. ما الذي كانت تفعله؟ لم يكُن بإمكاني تحديد ما إذا كان يتعيّن عليّ أن أشكرها لإنقاذي من مستقبلٍ موحِش، أو ألومها لإطلاقها تحدياً جديداً.

في الخارج، تعصف الريح، دافعةً طبقةً فوق طبقة من الغيوم، مُحيلةً السماء إلى لونٍ رمادي. في الداخل، الصوت الوحيد هو صوتُ الساعة تدقّ، بثباتٍ وانتظام. تقهقرتُ إلى الوراء، ومشيتُ

باتجاه الخزانة بخطواتٍ هادئة خفيفة ومنتظمة، حيث قرّرتُ أن أغربل حقيبة أبي الصغيرة. كنتُ أحتاج إلى بعض صفاء الذهن.

ومع فتحي باب الخزانة، نظرتُ عابسةً إلى قاعها الفارغة، حيث كانت تقبع يوماً ما الحقائب الأربع المقفولة، الملأى بهدايا العروس. لقد تمّ أخذها خلال واحدةٍ من نوبات نومي العميقة. عندما وصلتْ تلك الحقائِب، قبل حفل الزفاف بأسبوع، كانت بنات عمّي في غاية الانفعال. لم يكُنَّ يطقنَ صبراً لمعرفة ما في داخلها، فتحلّقن حولي في هذه البقعة بالذات، وأصررنَ على فتح الحقائب في الحال.

بالإضافة إلى المجوهرات الذهبية ذات التصميم الإماراتي التقليديّ، كانت ثمة ساعتان ماسيّتان، واحدة من بيضاء، والثانية ذهبية صفراء، وعطورات، من النوعين الأوروبيّ والعربي، وحوالي ثلاثين قطعةً من الحرير والدمقس البديعين. كانت اثنتان من الحقائب مملوءتين بحقائب اليد والأحذية، بالإضافة إلى أربع رُزم من العود وستّ قوارير، تزن كلّ واحدةٍ منها تولة، من دهن العود. ومع استعجالهم استعادة ما لم أكن أريده في المقام الأول، طالبت الأرملة وابنها بإعادة هداياهم الباهظة الثمن.

امتزجت المرارة باليأس. سحبتُ كرسيّاً ووقفتُ عليه. تناولتُ الحقيبة وقفزتُ إلى السرير، حيث جلستُ وفتحت أقفالها. ومع أصوات فتح الحقيبة على مصراعيها، أمسكتها رأساً على عقب

وهززتها. ومع تساقط محتوياتها، لاحظتُ شيئاً خارجاً من تحت طبقات نسيج الخيش المهترئ للفتحة ذات السحاب. ومع الحيرة التي اعترتني، استرقتُ نظرةً إلى ذلك الجيب. هل يمكن أنّني أغفلتُ جزءاً ما من حياة أبي؟ انزلقتْ صورتان في شقٍّ في النسيج، واحدةٌ عالقة فوق قمّة الأخرى، نتيجة الحرارة والرطوبة على مدار السنين العديدة.

أمسكتُ بالصورة العلوية، بهُتت ألوانُها إلى اللون الورديّ، بشكلٍ ثابت أمام وجهي. هذه هي الصورة الأولى التي أراها لأمّي. أعرف أنّ الصورة لها، لأنّها كانت حُبلى. كانت تقف مع أبي أمام النصب التذكاري لـ «بوابة الهند»، مُحاطةً بحمام «بومباي» المتطاير حولهما. إلى يمينهما كان ثمة رجلٌ يبيع بضاعته، فول سوداني مكوّم في صينيةٍ خشبية معلّقة حول رقبته. في الخلفية، بائعٌ آخر، وقد تقزّم تحت مظلّةٍ من البالونات.

لكنّها أمّي التي كنتُ أتفحّصها. بحثتُ عن دليلٍ لأملها أو طموحاتها، ولكن كان من المستحيل تبيّن قسمات وجهها من تحت البرقع. كانت أطول ممّا اعتقدتُ، وتبدو كذلك أقوى. لا بُدّ أنّها كانت مناسَبةً نادرة في الخارج، وتخيّلتُها في وضعها الطبّي المحفوف بالمخاطر، تتوسل لأبي أن يأخذها في رحلةٍ لتتنشّق هواء البحر، وهو الطلب الذي يبدو أنّه استسلم له، بالرغم من تحذيرات الأطباء.

نظرتُ إلى الأعلى عندما هزّ قصف الرعد المصمّ للآذان لوح النافذة الزجاجي. ثم بدأ المطر، مثلما توقّعته. هطل المطر بشدّة، مليئاً بالصفير والهسيس، بطقطقة وزمجرة الحياة. تذكرت أمي التي تنازلت عما بقي لها في الحياة من عمر لأجلي.. هل أستحق ذلك؟!! كان أبي يدعوني «الطفلة المعجزة»، ولكن كيف سينظر إليّ أيٌّ منهما وأنا في هذه الحالة المهزومة؟ إنّه وضعٌ مأساوي، وسرعان ما تحوّلتُ إلى الصورة السفلية.

لم أكن للوهلة الأولى متأكدةً مَن هي تلك الفتاة الصغيرة التي تُحدّق بي. لم يكُن ثمة شيءٌ أنيقٌ أو سويٌّ فيها: كانت تنحني إلى الأمام، وذراعاها ممتدتان بشكلٍ عريض على الطاولة. كانت تطفحُ عزماً، شفتاها مرفوعتان جانباً على شكل نصف ابتسامة، وتلك العينان الشفافتان تُحدّقان مباشرةً بالكاميرا. كان رأسها منخفضاً، وكأنّها كانت على وشك أن تنطح أحدهم.

كانت مُصادفةً غريبة أنّ تقترب جدّتي من الجانب الآخر للباب المقفول، وهي تؤكّد التوجيهات التي كبرتُ وأنا أتجاهلها: «تُشَكِّلُ الرزانة والاحتشام أساس كلّ ما هو جيّد في المرأة. يجب أن يُصبح هدفك وواجبك الآن تبنّي هذه الصفات النبيلة والمرضية».

كانت توبّخ الطفلة في الصورة– والتي هي أنا– منذ وقتٍ طويل مضى، والتي كانت تُتهم بالجُرأة والمخاطرة. تفجّر الجليد في رأسي، وكانت استجابتي جواباً حادّاً: «تعنين الصمت والقبول!»

«أمسكي لسانك!»

«لقد أمسكته طويلاً بما يكفي».

«لا خجل في قامتك العظمية، لا خجل»، أخذت جدّتي تتمتم، كان صوتها يطفحُ بالصدمة والاستنكار. «إنّه على حقّ، في النهاية - لقد جُننتِ تماماً!»

«نعم، جُننتُ»، صرختُ بها. وبينما كانت تغادر بعيداً، أخذتُ أراقب المطر، سيلاً ثابتاً يبدو مثل آلاف الأيادي التي تُصفّق. بقيتُ على تلك الحالة لفترةٍ طويلة، تجتاحني المشاعر في داخلي وتمور. إلامَ انتهيتْ؟ أيّ مخلوقةٍ مثيرة للشفقة سمحتُ لنفسي أن تتحوّل لها؟ أعادتني هذه الأسئلة إلى الصورتين اللتين أدركتُ أنّني كنتُ أضعهما بين راحتيْ يديّ لفترةٍ طويلة. وعندما أرخيتُ قبضتي عليهما، كنتُ جِدّ متأنّية وأنا أفعلُ ذلك، وكأنّ الصورتين كانتا زهرتين رقيقتين يُمكن أن تفقدا بتلاتهما. تركتْ يدي المتعرّقةُ لطخةً على وجه الفتاة الصغيرة. مسحتها بأناة. ثمّ نهضت، غيّرتُ ملابسي وارتديت بنطالاً من «الجينز» وكنزةً سميكة.

عليّ أن أهرب بعيداً. عليّ أن أكون أبعد ما أستطيع عن هذا المكان. كان ذلك مدى الخطّة التي وصلتُ إليها، بينما كنتُ أملأُ حقيبةً قماشية صغيرة ببعض الضروريات. من خلال النافذة، بدت شجرة التمر الهنديّ تهتزّ وترتجف. إنّها تفتقد للأغصان القويّة الضرورية لحمل وزني. لا يهمّ! أسقطتُ الحقيبة على

الأرض، ودسستُ إحدى قدميّ في الخارج، ثمّ الأُخرى، إلى أن أصبحتُ أجلس بكُلّيتي على عتبة النافذة. حدّقتُ في العتمة بإمعان، وأخذتُ أحسب المسافة، لأقرّر أفضل طريقةٍ للنزول.

لم أسمع الباب وهو يُفتح، لكنّني سمعتُ شهقةً، صدرتْ في الوقت الذي كنتُ أقفز فيه تماماً. كنتُ أسدّد نظري إلى ما بدا وكأنّه الجزء المفضّل من الشجرة، مجموعةٌ سميكة من الأغصان فوق الجذع الصلب تماماً. وبينما كنتُ ملتصقةً بتلك الشجرة، ومُمسكةً بها بإحكام، أخذتُ أطرف بعينيّ لأزيح المطر عنهما، وأنا مذهولةٌ من أنّني قد شرعتُ في هذا العمل. أُصبت ببعض الخدوش، وبعض الوخزات الحادّة من اللحاء الذي كان يخزّ ربلتيْ ساقيّ، ولكن لم أتعرّض لأيّ كسر.

كنتُ على وشك معالجة أمر وصولي إلى الأرض، عندما رأيتُ عمّتي عائشة في النافذة، وهي تمضغ طرف شيلتها وتنظر إلى الأسفل برعب. «عودي! ليست هذه هي الطريقة لفعل ذلك». انحنت خارج النافذة ومدّت يدها. هززتُ رأسي. «انتظري!» صرختْ بينما كنتُ بدأتُ أنزلق نحو أسفل الشجرة. تراخت قبضي عن الشجرة، وبدت أصابعي كنوابض مُخلّعة.

كان هبوطاً وعراً، كان لحاء الشجرة خشناً ومُنخرباً، وأخذَ يقشر طبقاتٍ من الجلد، بالرغم من ملابسي السميكة. وعندما ظننتُ أنّ المسافة قد أصبحت آمنة، قفزتُ إلى الأرض. كان ثمة

خطأٌ في حساباتي. هبطتُ على قدميّ، لكنّي ترنّحت نحو الأمام، جرّاء قوّة السقوط، وارتطم رأسي بالأرض. ومع وجود المطر، سالت خيوطٌ من الدم على وجهي. كان يُمكنني أن آخذ دقيقةً للاعتناء بأمر الجرح، لكن الاضطرار للهرب بعيداً كان أعمق من الدم الصِرف.

كانت الحقيبة القماشية تحت السياج العشبيّ، وكان يتحتّم عليّ أن أزحف لأصل إليها. وعندما أصبحت الحقيبة مطويّةً بأمان تحت ذراعي، عُدتُ إلى الوراء ونهضتُ على أرجلٍ تصطك من الصدمة. كانت رُكبتاي تترنّحان بقوّة، لدرجة أنّه كان من الصعب عليّ أن أستهلّ خطواتي الأولى. حينذاك، أمسكتني عمّتي عائشة من ذراعيّ. قاومتها. أمسكتْ بي بقوّةٍ أكبر، بينما كنتُ أصفع وأركل بشكلٍ عشوائيّ. «دعيني وشأني!»

سحبتُ نفسي منها، لكنّها لم تكُنْ لتفلتني، كانت أصابعها قويّةً مثل ملاقط حديدية تحفر مباشرةً في العظم. أصرّتْ على أن أستمع إليها، لأنّها رتّبت كلّ شيء. «لن تكوني قادرةً على الهرب بعيداً عنه، دون مساعدة! ليس لديك مكانٌ لتذهبي إليه، لتختبئي فيه». مع فقدها أعزّ أولادها، كان يُفترض أنّ عمّتي عائشة يغشاها الحزنُ الأصمّ. عوضاً عن ذلك، كانت تطفحُ ضراوةً، لدرجةٍ لا تسمح لعينيها أن تبقيا في مكانيهما لثانية. «سيجدُكِ ويُرسِلُكِ بعيداً. هل تعرفين أين؟» لم تنتظرني لأخمّن. «لقد رتّبَ لإرسالك إلى بومباي».

أخذنا نُحدّق ببعضنا البعض، كان المطر لا يزال يتساقط بغزارة. وقفتُ مصدومةً، بين أن أُصدّقها أو أكذّبها. أخذتُ أفكّر بأبي وأمّي في الصورة، واقفين أمام بوابة الهند. «ولمَ قد يفعلْ ذلك؟»

«لقد قرّرَ أنك تحتاجين إلى المساعدة، مساعدة مهنيّة. لذلك سيُرسلك إلى عيادةٍ هناك». هززتُ برأسي ورمشتُ بعينيّ، ما زلتُ غير قادرةٍ على استيعاب ما كانت عمّتي عائشة تخبرني به. لا شكّ في أنّها تظنّني غبيةً بالمطلق. «مؤسسة للأمراض العقلية»، أضافتْ بألطف نبرةٍ لديها، وهي ترخي قبضتها وتضع شيلتها المخضلة بالمطر على الجرح في جبيني. «لذلك، أرجوكِ، تعالي معي».

47

دلال

إنّه منتصف الليل، وانزلقتُ في السيارة التي كانت تنتظر خارج شقّتي في منطقة الزمالك الباهظة والعصرية. اتجهنا إلى فندق «سميراميس القاهرة»، لإحياء آخر الحفلات الموسيقية الصيفية الكبيرة للعام 1998م. تمّ إعداد كلّ واحدةٍ من تلك الحفلات وجدولتها لتتزامن مع مواعيد زيارات الخليجيين. ظهرتُ لأوّل مرّةٍ في لندن في «فندق لانكستر»، ثمّ أديتُ في «فندق إنتركونتيننتال» في جنيف، ومن ثم «فندق كونكورد لافاييت» في باريس - وكانت المقاعد مملوءةً بكاملها في كلّ حفلة.

الجوّ هادئ في السيارة. أستمتعُ عادةً بلحظةٍ من السكينة، عندما أستطيع تفريغ عقلي قبل أن أخطو تحت الأضواء، ولكن ليس هذه المرّة. أنا جِدّ متوتّرة، وأعصابي مشدودة مثل جدائل شعري المضفّرة، المعقوفة والمثنية على رأسي، مثل مائة ثعبان.

توفّيت «ماما العودة» البارحة، أثناء نومها، ولكن ليس هذا سبب توتّري. كان ذلك أوّل شيء أخبرتني به مريم عندما اتصلتُ بها في وقتٍ سابق من بعد ظهيرة اليوم، وأنا مذعورةٌ، وألححتُ عليها أن تأتي إلى شقّتي قبل أن تصل المجموعة لإعدادي

للحفلة. لكنّها كانت توضّب أمتعتها، وتستعدّ للسفر إلى دبي في المساء، من أجل فترة العزاء. ستكون تلك المرّة الأولى التي تعود فيها إلى دبي منذ هروبها الجريء قبل ثلاث سنوات تقريباً.

دخلتُ في حالة صمتٍ عندما نقلتْ مريم لي الأخبار، وانتظرتُ حدوث شيء - حشرجة في الحنجرة، روح متقهقرة، شيءٌ قليل من التعاطف - شبيه بذاك الذي شعرتُ به قبل شهرين، عندما تلقّيتُ الأنباء الأُخرى، حول أبي. انتظرتُ، أنا الحفيدة التي لم تعرف جدّتها مُطلقاً، وعندما لم يحدث شيءٌ، حاولت أن أستثير بعض الأفكار الحزينة، على أمل أن تستجرّ شيئاً من الدمع. لقد حضرتِ الدموع بكميةٍ كبيرة، لدرجةٍ هزّتني، لكنّها لم تكن بسبب وفاة «ماما العودة».

«هل آذاكِ؟» كان هذا ما سألته مريم حالما كظمتُ غضبي لمدّةٍ كافية لأخبرها حول خصام ليلة البارحة.

كيف سأخبرها أنّه قد آذاني؟ «كلا، كلا، ليس ذلك ما حدث»، قلتُ دون كثيرٍ من الحماسة. كيف سأشرحُ أنّه لم يكن يعتقد أنّني مناسبة بما فيه الكفاية (أسوأ من ذلك، وصفني بأنّني حُثالة!) دون التخلّي عن الطبيعة الحقيقية لعلاقتنا الحميمية، والطريقة التي سمحتُ له بها بامتلاكي؟ رسمتُ لمريم صورةً مبهمة فقط: خربشات عن خاطبٍ محترم ذي نوايا شريفة. يُمكنه أن يكون فظّاً ومؤذياً، لكنّي لا أستطيع إخبارها أيّاً من ذلك، لأنّني أعرف

ماذا ستقول: «اتركيه، يا دلال. أنت تستحقّين أفضل منه». وذلك الشيء الوحيد الذي لا أطيق أن أفعله.

«لم أبلغ الحادية والعشرين بعد. لمَ يحدث هذا معي؟» قُلتُ.

سألتْ مريم: «إذاً، ما الذي فعلهُ؟» وكلّ ما استطعتُ تدبّره هو تنهيدةٌ مُتقطّعة، بدت وكأنّها آخر نَفَسٍ لي (أو شيء من هذا القبيل) بينما بحثتُ عن أفضل طريقةٍ لوصف تعاستي. يُمكنني القول إنّ مريم كانت تفقد صبرها، بينما كانت تنتظرني لأقول شيئاً. كان بإمكاني سماعها تفتح الخزانة وتسحب منها حقيبة.

لم أعتقد أبداً أنّه سيكون مُمكناً أن أُغرَمَ إلى الدرجة التي يُصبح فيها عقلي مشغولاً دائماً برجل. من الصعب تجاهله، من المستحيل مقاومته، بالإضافة إلى ذلك، أضنيتُ عقلي في محاولةٍ لاكتشاف السبب.

تمّ تقديمي له الصيف الماضي، في مطعمٍ في «جنيف»، وقمتُ في الحال بتدوين عمره وحالته: رجل أعمال سعوديّ يبلغ من العمر ثلاثةً وثلاثين عاماً، وهو عازب. في وسط ذلك الجمع، منتشياً من المزاج الجذل والشمبانيا، كانت لديه طريقة ليراني دون أن ينظر إليّ فعلاً. فرك ذقنه، والخطّ الحادّ في لحيته القصيرة التشذيب، وبدا أنّه كان يُركّز على شيءٍ في عالمٍ آخر. لكنّه- بعد ذلك- انخرط في المحادثة، مُركّزاً اهتمامه نحوي فقط، وكأنّني كنتُ الشخص الوحيد الذي يحرق لسانه من طبق «الفوندو» في ذلك المطعم.

الأسابيع القليلة التالية كانت مُرهِقة: بنيتُ مكانتي من خلال رفضه، وهي لعبةٌ حساسة تتضمّن في الوقت نفسه إبقاءه مهتمّاً بي. بالإضافة إلى بعضٍ من ألاعيبي الخاصة، استخدمتُ كلّ الألاعيب التي شاهدتُ أمّي تؤدّيها مع أولئك البائسين في إمبابا (بالرغم من أنّ تلك الألاعيب جلبت مشاكل أكثر من الفائدة).

كانت غير ذات جدوى، جميعها. بدا الأمر وكأنّني مصنوعةٌ من زجاج، لأنّه كان يرى ما بداخلي. أخيراً، توقّفتُ عن المحاولة، وسلّمتُ له نفسي.

لم تكن المرّة الأولى التي تقول فيها مريم: «حسناً، أخبريني على الأقل باسمه الحقيقيّ»، وكان عليّ أن أزمّ شفتيّ في مقابل إغراء كشف شخصيته الحقيقية، لأنّ كلّ شيءٍ آخر قد يخرج منهما: الليالي العديدة - التي قضيتها معه في شقّته العلوية في «الغاردن سيتي»، العطلات على متن يخته في الغردقة، والرحلات إلى أوروبا. في القاهرة.

لم نكُنْ نخرج معاً أبداً. أمّا في أوروبا، فقد كان يُخفّف من احتراسه بعض الشيء. كنتُ أعرف ما هو المطلوب منّي، وكنتُ- مع ارتدائي نظّارات سوداء تُغطّي مُعظم وجهي- أتأكّد من بقائي بضع خطواتٍ خلفه، عندما نكون في الأماكن العامة، تحسّباً في حال التقى مصادفةً بأحدٍ يعرفه. قد نكون نمشي في شارع «الشانزليزيه» عندما يظهر ذلك الشخص فجأةً. حينها

سأقف فوراً في مقهىً، أو أتوقّف أمام نافذة متجر، أو أقوم بانحرافٍ مُفاجئ إلى نهاية صفٍّ أمام كشك بطاقات سينما، أيّها أقرب. أحياناً، وعندما يرحل ذلك الشخص مبتعداً، يعود الرجل إليّ ليجدني مُحاطةً بجمهرةٍ من المعجبين العابرين. وبابتسامةٍ مُتكلفة، كان يراقب الصور التي لا غنى عنها تُلتقط مع النجمة. كنتُ أعلمُ أنّه مُعجبٌ بفكرة أنّه على علاقةٍ سرّية بمطربة العالم العربي الأولى. ولكن ثمة الغيرة أيضاً، والتي تُترجم بصمتٍ مُفعم بالنقمة، واستياء يُمكن أن يمتدّا لأيام.

لن تفهم مريم أبداً أنّ الأمور تجري هكذا مع شخصٍ مثله، مُثقّف جداً ومُحنّك. كان غالباً ما يقول لي: «دلال، حبيبتي، هل تدركين عدد أعدائي الذين لا يرغبون بشيءٍ أكثر من الاستيلاء على كلّ ما هو جميل في علاقتنا، وتمزيقه؟» (لماذا يُصرّ الرجال القريبون مني دائماً – أوّلاً أبي والآن هذا الرجل – على إبقائي في السرّ؟) كنتُ دائماً أومئ برأسي، مُقتنعةً أنّني يجب أن أبقى هادئةً لفترةٍ أطول قليلاً، إلى أن نتزوّج. ثمّ، في ليلة أمس، سألته أخيراً متى يُمكن أن يحدث ذلك. نظر إليّ وكأنّني قد اقترفتُ جريمة، ثمّ قلّل من شأني مع كلّ تلك الإهانات.

عبرنا «جسر ٢٦ يوليو»، وانحرفنا يميناً، مُخفّفين من سرعتنا جرّاء وصولنا إلى بحرٍ كثيف من أضواء السيارات الخلفية على كورنيش شارع النيل. كان مدير أعمالي جينو غزال يجلس

بجانبي في المقعد الخلفي لسيارة «بي. إم. دبليو» التي تتقدّم موكبنا المؤلّف من ثلاث سيارات. اتصل بمنظّم الحفلة، وبينما كان يخبره بتأخيرنا، سحبتُ مرآةً صغيرة لإضفاء بعض الحماسة فوق إطلالتي البهيّة. لقد تمّ إعدادي لهذه الأمسية بواسطة النخبة، فتمّ جلب كلٍّ من مصفّفة الشعر الأولى وخبيرة التجميل الأفضل بالطائرة من بيروت. أدرتُ رأسي بهذا الاتجاه وذاك الاتجاه، مُلتقطةً أجزاءً من وجهي: العين الناعسة التي استيقظت للأبد، الجسر المسطّح في أنفي - كلا عمليتيْ التجميل التي دفعني رَجُلي لأقوم بهما - وبشرتي، بريقٌ مخمليّ تحت طبقات المكياج الممزوج بشكلٍ احترافيّ.

في الخارج، رجلٌ عجوز يلبس البنطال الفضفاض التقليديّ، مع حزامٍ عريض من الساتان، يتأرجح من جانبٍ إلى آخر، مرنّماً بمدائح لشراب عرق السوس البارد الذي كان يتخضخض في وعاءٍ نحاسيّ كبير معلّق على رقبته. الليلة تنبض بالحياة. السيارات تضرب الأبواق، ومالكو القوارب يقدّمون عروضاً على رحلاتٍ ليلية متأخرة في النيل، لنهر الثنائيات المتجوّل والعائلات التي كانت إمّا في وسط محادثة مرحة أو مشغولة بأكل اللب. الضحك يحيط بي من كلّ صوب. الموسيقى تصدح من مذياعٍ صغير موجود في مكانٍ ما. كان ضجيج الشارع يتسرّب من خلال نافذة سيارة الـ «بي. إم. دبليو»... وكذلك الرائحة، بينما كنّا نتجاوز بائعا يُهوّي الذرة في واحدٍ من عديد المطابخ

المتنقّلة. نظرتُ عابسةً إلى بائع الترمس في آخر الشارع، وكان ما فتئ ينضح حبوب الترمس لإبقائها رطبة. «لقد تخطّت الساعة منتصف الليل»، قلتُ مُتأفّفةً. «لماذا لا يستطيع كلّ هؤلاء البشر البقاء في منازلهم ومشاهدة التلفاز؟»

«إنّها عطلة نهاية الأسبوع»، قال السائق. «لا أحد يبقى في المنزل يوم الخميس».

أجبته بحدّة: «من الجيّد والمناسب لنجمةٍ أن تصل متأخّرة: يُبرهن هذا الأمر على أنّها مرغوبة. لكنّني أريد لذلك التأخير أن يكون من صناعتي. أنا التي يجب أن تكون المسيطرة. أتسمعني؟»

أجاب السائق و«البودي غارد» الجالس بجانبه معاً: «نعم، ستّ دلال».

«حمقى!» قلتُ مُتمتمةً، وأمسكت بالمرآة الصغيرة على طول ذراعي، لأتفقّد فستاني بلونه الأصفر الكناري، كان فستاناً باهظ الثمن، بكتفٍ واحدة من تصميم زهير مراد. القسم العُلوي مُرصّعٌ بأحجار «الكريستال»، وهو يحضنني في كل الأماكن المناسبة. الجزء السفليّ عبارةٌ عن انبثاقة من «الشيفون» الخالص، المترع بأشرطةٍ بألوان الأصفر والأخضر الليموني. نظرَ إليّ جينو غزال بطرف عينيه الخضراوين الصغيرتين اللتين بدتا كحبّتي بازلاء يابستين. لقد أعماه تألّقي. قال لي، للمرّة الثالثة في هذه الأمسية: «مُذهلة!»

أشرتُ إلى موافقتي على ما قاله بنخرة، وبحكمةٍ، لم يُضِفْ أيّ شيء؛ على عكس مدام نيفين التي لم تكُن تعرف أبداً متى يجب أن تُقفل فمها. لقد مضى على استبدالها سنة - كما توقّعتْ هي تماماً - وحلّ محلها مدير أعمال لبنانيّ. لقد نطقت تلك الجشعة، الشرهة صاحبة «التربان» آخر حبيبتشي عندما اكتشفتُ أنّها كانت تسرق النقود، تسلبني أرباحي.

كيف أمكن أن أنظر إليها نظرة إجلالٍ حقيقيّة؟ لقد اعتبرتُ مدام نيفين مُرشدتي، حاميتي، وحتى أنّني اعتبرتها- في مرحلةٍ ما- كأمٍّ بديلة. لا تزال الأمّ الأخرى تحاول ما بوسعها لاستعادتي. بعدما انطلقت مسيرتي المهنية، انتظرتْ أمّي لفترة كي تتأكد أنّ شهرتي ليست شيئاً عابراً. وحالما تأكّدت أنّ ابنتها كانت نجمة لن يخبو نورها، مضت قُدماً وطلّقت شريف بيه (لمَ عليها أن تحتفظ به؟). أعَلْتُها مالياً، لأنّ ذلك هو المتوقّع من ابنةٍ صالحة، لكنّ ذلك انتهى الآن. لديّ عائلة جديدة الآن.

عائلة جديدة: إنّها فكرةٌ جذابة. أنعمت النظر في مدير أعمالي الذي كان يضع رجلاً طويلة فوق أُخرى، ويُربّت على وجهه الحليق حديثاً. كان يرتدي بزّةً رمادية وقميصاً وردياً فاتحاً، دون ربطة عنق. كان شعره الخفيف مسرّحاً إلى الخلف بخطوطٍ واضحة من شرائط كستنائية اللون، تجتمع في ظهر رأسه، رأس رجل الأعمال؛ ذلك الرأس الذي لا يوجد فيه مكانٌ لأيّ شيءٍ غير

النجاح والأرباح. جينو غزال ليس شخصاً يُمكنني التماهي معه كعائلة، هذا ما قرّرته، وكذلك الأمر بالنسبة إلى كلّ الأشخاص الآخرين – حيث لا يقلّ سبعةٌ أو ثمانيةٌ منهم عن كونهم مثل عزّة وهناء – الذين يُحيطون بي، لا لسببٍ، إلا لرغباتهم الأنانية الصرفة. أخذتُ نفَساً مُتعباً وزفرتُه من خلال شفاهٍ بلون الفوشيا الحادّة.

أمال جينو غزال برأسه للإشارة إلى قلقه. وبالرغم من أنّه رآني كئيبة من قبل، إنما لم يكُنْ ذلك أبداً قبل حفلةٍ موسيقية. مثل الآخرين، الحاشية والمساعدين، كان يعرف بوجود شيءٍ خطأ، على نحوٍ خطير. من اللحظة التي اصطفوا فيها في شقّتي، قبل بضع ساعات، لإعدادي، كان مزاجي مُعكراً. اتهمتُ مصفّف الشعر بسحج فروة رأسي بدبابيسه، واشتكيتُ حول تشكيلة الألوان التي اختارتها خبيرة التجميل، مُصرّةً على أنّهما لم يفعلا شيئاً لإضاءة ملامحي؛ أيّ شيء للتنفيس عن الغضب. كانوا يميلون إلى الاعتذار، حيث كان من الواضح أنّهم اعتادوا على نزوات النجمة. كانوا ليّني العريكة بشكلٍ كبير، ما جعلني أشعر بالتهوّر. لذلك حوّلت انتباهي إلى عزّة وهناء. تلقّى ذلك الثنائيّ عديم الفائدة الوطأة العظمى من مزاجي النكِد، ومع ذلك لم يُرضني الأمر.

استمرّت مريم في الضغط لمعرفة شخصيته الحقيقية. قالت: «في أيّة حال، كيف انتهى بك المطاف مع ذلك الاسم، أستاذ، ذلك الاسم الذي اخترعتِه؟»

بالنسبة إليّ، ذلك ما كان هو عليه، أستاذ، بروفسور، علّمني الشيء الكثير: كيف ألبسُ جيّداً وآكل جيّداً، كيف أقف وأتصرّف كسيّدة. كان يهتمّ بأن أبدو في أبهى حُللي، حتى إنّه رتّب مواعيد عمليات التجميل الجراحية لأنفي وعيني الناعسة. لقد قدّم لي الكثير. عندما كتب صحافيّ بذيء في تحقيقٍ صحفيّ أن صوتي بدا مُرهقاً، وذهب بعيداً إلى درجة وصمي بأنّني «صمّاء بالنسبة إلى التمييز بين الطبقات الصوتية» (الإهانة المطلقة!)، رتّب الأستاذ موعداً مع أشهر مُدرّسة موسيقى في مصر، وهي سيدة مصرية يونانية عجوز متقاعدة، ذات شعرٍ أشيب غامق وشارب، لتعطيني دروساً في الصوت.

أصرّت مريم. «حسنا؟»

أخبرتها تقريباً أنّ الأمر حصل نتيجة جهلي. كان ثمة حرارةٌ في عينيْ الأستاذ وقوّة في وجهه، وأنفٌ- في مرحلةٍ مبكرة من علاقتنا- وصفه بأنّه أنفٌ روماني. كان مسروراً عندما أخبرته أنّني لم أقابل أيّ رومانيّ قطّ، ووعدني آنذاك أن يُثقّفني، بدءاً بسلسلة محاضرات حول الإمبراطورية القديمة التي امتدّت أمداً بعيداً. كانت الدروس حول روما مُستفيضةً، حتى إنّه كان يورد تواريخ. كانت المعلومات تطوف إلى رأسي وتبقى هناك لثوانٍ معدودات، ثم تستحيلُ بخاراً. ولكن لم يكُنْ بإمكانه أن يعرف ذلك. لم يكن يعرفني جيّداً ليفهم أنّني قد أتقنتُ فنّ الظهور بمظهر المهتمّ، بينما أنا على العكس من ذلك. في نهاية المطاف، قرّرتُ أن أناديه

أستاذ، اسم حركيّ وافق هو عليه. نعم، كنتُ مُستعدّةً لإخبارها هذه القصة الصغيرة. لكنّ مريم سخرت من ذلك الاسم، ما جعلني أشعر بالحمائية تجاهه. رددتُ عليها، «إنّه يُناسبه، وهو يحبّ هذا الاسم».

«إذاً»، قالت مريم بعد فترة توقف قصيرة: «هل ستلغين الحفلة الموسيقية؟»

«بالطبع، كلا»، قُلتُ. «فكّري كم سيبدو الأمر غير مهنيّ أن أسمح لشجارٍ معه بالتأثير على عملي. لقد طار الناس لرؤيتي من كلّ أصقاع العالم. لقد اشتروا البطاقات!»

«لا، ما عنيته هو أنّه، في ضوء وفاة جدّتنا».

«همم». لقد نسيتُ هذا الأمر. «الله يرحمها».

«صحيح».

ولأجل خاطر مريم، أغلقتُ عينيّ بشدّة، وحاولتُ أن أخلق فكرةً ما عن «ماما العودة»، يُمكن أن تُساعدني في إظهار الحُزن عليها. الصورة الوحيدة التي قفزت إلى رأسي متوهّجةً بألوانٍ فاقعة، بحيثُ شعرت ببداية صداع يجتاحني: «ماما العودة» على منصّة العروس، تطلب منّي أن أنزلَ عنها وأُغنّي. لم تستطع المرأة العجوز أن تُميّز أنّني كُنتُ حفيدتها. «في أيّة حال»، قلتُ: «أنت تعرفين، كما أعرف أنا، أنْ لا أحد يرغب في وجودنا هناك».

غرقت مريم في الصمت، وطلبتُ إليها ألّا تفعل ذلك، طلبتُ إليها أن تفهم أنّني قد قدّمتُ التزاماً بأن أُغنّي، وأنّني وقّعتُ على عقد. ابتسمت مريم بعدها، أو وددتُ أن أظنّ أنّها فعلت ذلك، لأنّ بإمكان مريم دائماً أن ترى الجانب الطيّب فيّ.

كنتُ أبتسم. لاحظ جينو غزال ذلك، وأخبرني أنّ الابتسامة تُناسبني. استدار السائق و«البودي غارد» قليلاً ليومئا برأسيهما علامة الموافقة. لمستُ فمي، خجلةً بعض الشيء، وتحيّرتُ قليلاً، لكوني وجدتُ نفسي أبتسمُ حقّاً. وبينما توقّفت السيارة عند المدخل الخلفيّ للفندق، أدركتُ أنّ شيئاً آخر قد تَسلّلَ إليّ: تسارع النبض، حيويّة؛ نعم، إنّها الحماسة الاعتيادية التي تسبقُ الأداء دائماً.

فُتِحَتْ أبواب السيارات الثلاث جميعها في وقتٍ واحد، ودلفنا من خلال المدخل الخلفيّ، حيث رحّب بنا منظّم الحفل، وهو رجلٌ قصير مُستدير دون رقبة، وكأنّنا أفراد عائلته التي فقدها مُنذ زمنٍ طويل. كان يبدو أنّه كان على وشك أن ينفجر باكياً، ثمّ انفرجت أساريره عند وصولنا.

كان يتقدّم الموكب، وهو يُمطرني بالإطراءات، نصف ماشٍ ونصف واثب إلى مصعد الخدمة. قرع جرس المصعد، وخرجنا إلى الطابق العلويّ. وبينما كنّا نمشي في الممرّ باتجاه الجناح، أخبرني منظّم الحفلة أنّه لديّ بالكاد عشر دقائق لوضع اللمسات

الدقيقة الأخيرة، لأنّه يرغب في أن تمضي الأمسية بسلاسة، بحيث يجري كلّ شيء في وقته تماماً. «متى حدثَ ذلك في القاهرة قط؟» قلتُ مازحةً، وضحك جميع أعضاء المجموعة بحماسة.

كانت نجمة الحفل «ج» قد بدأت فعاليات الأمسية في الساعة العاشرة والنصف ليلاً، وتبعتها النجمة «ب» بعد ساعة.. ثم تعقب ذلك استراحةٌ يتخلّلها تقديم العشاء لألفَيْن من الحضور، قبل أن يحين موعد وصلتي المتألّقة، النجمة «أ»، في الساعة الواحدة والنصف صباحاً. سأغنّي لمدّة ساعتين، ثم لمدّة نصف ساعة إضافية، عند طلب استعادة أغانيّ مرّةً أُخرى.

عندما وصلنا إلى الجناح، سأل جينو غزال منظّم الحفلة: «هل لديك رصيد دفعة الست دلال؟»

«بالطبع، بالطبع»، قال منظّم الحفلة، وهو يومئ برأسه بحماسة. «بعد انتهاء العرض مباشرةً».

«كلا، الآن»، قال جينو غزال، وهو ما فتح الباب على جدالٍ بينهما، بينما تصرّفتُ أنا وكأنّني لا أسمعه. جالسةً على طاولة التجميل، أخذتُ أختلس نظراتٍ على انعكاسات صورتيهما، بينما أخذ مصفّف الشعر يضع لمساته الأخيرة على جديلات شعري، وأخذت خبيرة التجميل تشحذ قلم الماكياج، حيث أُعطِيت الإذنَ لترى ما إذا كانت وسمة الجمال ستُضيف شيئاً إلى جاذبيتي. وضعت الخبيرة الوسمة في منتصف خدّي الأيمن.

«أخبرتُك أن تتأكد أن تكون النقود معك عندما نصل: الرصيد كاملاً، نقداً، بالدولار الأمريكي. ألم تسمعني؟» قال جينو غزال.

«ظننتُ أنّك تمزح».

«لقد قُلت لك ذلك ألف مرّة. هل يُمكن أن أقول النكتة نفسها مرّاتٍ عديدة؟»

كان مُنظّم الحفلة مُضطرباً. نظر إلى ساعته. «اسمعني، نحن متأخّرون أصلاً. لديّ صالة ملأى بعلّية القوم الذين ابتاعوا بطاقات، ومعظمهم خليجيّون قطعوا كلّ تلك المسافة ليروها». ضرب الأرض بقدميه. «هُم يُريدونها الآن! ماذا يُفترض بي أن أخبرهم؟» وعندما بقي مُديري غير متأثّر بأدائه، قام منظّم الحفل بإغلاق عينيه وطقطق رقبته مرّةً واحدة، مرتين، ونطق كلماته التالية بهدوء: «انظر، أنا أفهم ما تقوله. ولكن في الوقت الحاضر، دعها تصعد إلى المسرح، ووالله، أنا أعدك بأنّك ستنال نقودك قبل أن تُنهي أغنيتها الأولى».

«لا».

«لا؟»

«أيّ ضمانٍ لديّ؟ يُمكن أن تستمرّ في تسويفك، ثمّ تختفي بعد انتهائها من الغناء».

«لقد أهنتني!»

«لم يكُن هذا قصدي. ولكن يتوجّب عليّ أن أضع مصالح موكّلتي في المقام الأول».

«لدينا عقد!»

«صحيح، لدينا عقد. لكنّني ما زلت أقول: إنّها لن تذهب إلى أن يُدفع لها كامل المبلغ».

«أرجوك». تعلّقت الكلمة في الهواء، وعندما زاد جينو غزال من تعنّت موقفه، جرى منظّم الحفلة نحوي وأخذ يتوسّل: «ستّ دلال، أرجوكِ أقنعيه أن يتصرّف بعقلانيّة. لم يعد الجمهور يُطيق صبراً عنك: دلال، يا غزالة الصحراء!»

وقف خلفي، كانت معاناة المتسوّل الجائع تبرز من عينيه، بينما أخذتُ وقتي محاولةً أن أُقرّر بشأن موضوع وسمة الجمال، والتي كان قد تمّ اختبارها وفشلت في موقعين مُختلفين على وجهي. في المحاولة الثالثة هذه، وُضِعَت تحت شفتيّ مباشرةً، في الجانب الأيسر منهما. هل أتركها أم أُزيلها؟

«ثمة فرقةٌ موسيقية من ثلاثين فرداً تنتظرك على المسرح. إنّهم يعزفون أغاني أم كلثوم لتمضية الوقت. كم يمكنهم الاستمرار في ذلك الأمر؟ والجمهور قد سئِم هذا الأمر بالفعل».

وكوني قرّرتُ أن أترك وسمة الجمال، استدرتُ نحوه وهززتُ كتفيّ: «ما الذي يُمكنني فعله؟ أنا لا أعرف شيئاً عن هذه الأمور». ابتسمتُ له بحلاوة. «أنا الفنّانة هنا».

فتحَ فمه، لكنّه- قبل أن يكون قادراً على النطق بكلمة- أمسكه جينو غزال من ذراعه وقاده بعيداً، موبّخاً إيّاه على تسبّبه بتوتّر لا مبرّر له للنجمة. أخذ منظّم الحفل يصرخ ويُهدّد بأنّه سيطلُب مُحاميه والشرطة، أيضاً، ليضمن بأنّنا سنُلقى في السجن، لخرقنا العقد. أخبره مدير أعمالي، برباطة جأش: «نحن لم ولن نذهب إلى أيّ مكان. نحن هنا، ننتظر».

بدا أنّ الوضع أخذ يخرج عن السيطرة. انتابني الخوف عندما أدركتُ أنّني قد لا أظهر على المسرح بعد كلّ ذلك. أعلنت عزّة الوقت: تأخير عشر دقائق. التفتُّ حولي. كنتُ على وشك أن أخبر مدير أعمالي أن يتراجع، عندما شاهدته يمدّ يده إلى سُترته ويسحبُ ما أطلق عليه «سيجار النجاح». كان سيُشعله حالما أصعدُ إلى المسرح، ويتبع طقوس إنهائه فقط مع انتهاء الحفلة الموسيقية، أي ما يُقارب الثلاث ساعات لاحقاً. شمّ جينو غزال السيجار، وهو يُديره تحت أنفه. إنّه مُستعدٌ للاحتفال بنصرٍ آخر. وها هو ذا منظّم الحفلة، يُطقطق أصابعه ويهمس شيئاً لمساعده الذي ظهر فجأةً، ثم طار بعدها خارجاً من الباب.

عاد المساعد بعد عشر دقائق، مُنقطع النَفَس وقابضاً على مغلّفٍ سميك، قام مدير الحفلة بخطفه منه وتقديمه لجينو غزال.

كان ثمة ثرثرةٌ خفيفة، بينما كان مدير أعمالي يعدّ النقود، تظاهر كلّ من كان في الغرفة بعدم الاهتمام. كيف يُمكنني البقاء

ساكنةً دون حراك؟ تخافتَ كلّ شيءٍ حولي، بينما كانت الحماسة تندفع خلالي مثل نهرٍ أصابه الجنون. يُمكنني رؤيتها، كلّ تلك العيون العاشقة منصبّةً عليّ. سأكون وهجاً ذهبياً تحت الأضواء. لن أكتفي بالبقاء على المسرح فحسب، شأن الكثير من المطربين، بل سأنزل مرّةً أو مرّتين وأشقّ طريقي بين الرجال والنساء، كلّ أولئك الخليجيين المرموقين، المتحلّقين حول الطاولات. سأغنّي من أعماق قلبي، لأنّها الطريقة الوحيدة التي أتقنها، وفي النهاية، سيتحوّل المسرح إلى حديقةٍ من الورود الحمراء المفردة التي سيرميها الجمهور العاشق تحت قدميّ.

سأبدأ بأغنيتي الأولى الناجحة: «أنا بس وحدي بس». سيعزف الموسيقيّون مقدّمةً مطوّلة، لزيادة تشويق الجمهور، قبل أن أظهر للعلن، أحمل في إحدى يديّ المايك، والأخرى تقفُ في تحيةٍ مرفرفة. لن تبدو الأغنية كالمعتاد. ثمة تغيير في النغم، مع طبقةٍ فوق طبقة من التآلف اللحنيّ المضاف حديثاً. لقد تمّ إغناؤها، لم تعد أغنيةً بسيطة بعد الآن، مثل الفتاة التي غنّتها لأوّل مرّة قبل ثلاث سنين. تلك الفتاة أيضاً لم تعد كما كانت.

إنّها الواحدة والدقيقة الخامسة والخمسون صباحاً، وسيجار جينو غزال يقف محشوراً على طرف فمه. نزع سيجاره وصاح: «الجميع».

كنّا جميعاً ننظر مُسبقاً إلى الأعلى.

«خمس دقائق».

48

ماجد

أخذتني مُباشرةً من موعدي مع الطبيب إلى بستان النخيل في «الخوانيج». كنتُ في مزاجٍ سيّئ. وبينما كنت مُكبلاً بحزام الأمان في المقعد الأماميّ لسيارتي «المرسيدس»، أخذتُ أحدّق بعنفٍ على غشاوة الكثبان الرملية، وهي تجري على طول الطريق. وحالما أصبحنا هناك، رأيتُ في المرآة الجانبية أوفيليا تقفز من المقعد الخلفي للسيارة. جلبت أوفيليا الكرسيّ المتحرك، وكانت لديّ فكرةٌ سخيفة تتمثّل في أنّني سأستطيع الجلوس فيه دون مُساعدة. سحبتُ نفسي واستدرتُ جانباً، حيث نجحتُ في جعل ساقيّ تتدليان خارج السيارة، ولكن حالما انتقلت للوقوف على قدميّ، وقعتُ في المتاعب: كان مقعد السيارة مُنخفضاً جدّاً.

تفحّصت عائشة وجهي المحمَرّ بأقبح تعابير التسامح والشفقة المبتذلة، وكأنّها كانت تودّ أن تقول: «دعوا الرجل العجوز يأخذ فرصته». هذا جعل الدم يغلي في عروقي، فدفعتُ أوفيليا التي كانت تقف في وضعية المساعدة - الذراعان مُمتدّتان، اليدان تسبحان مثل زوج من الأسماك المتململة على جانبيْ قفصي الصدري - وهي مُستعدّة لترفعني للأعلى.

شتمتُها: «يا ابنة العاهرة!» لكنّها بدت، من خلال فمي المعوَجّ، كأنّها نعيبُ غراب. نظرتْ أوفيليا إليّ بابتسامةٍ عريضة، وهي تُجاريني وكأنّني طفلٌ يتدرّب على كلمته الأولى. توقّفتُ لبرهة، أخذ الضغط يتصاعد في رأسي، بينما كنتُ أستخدم كلّ جُذاذةٍ من التركيز لأشكّل جملة الإهانة التالية: «يا بقرة!» خرجت الجملة بتأتأة، فبدت وكأنّها «ها ها ها»، مُتداخلة بعضها مع بعض، أيضاً. صفّقت أوفيليا بيديها بمرح، قبل أن تُطبقهما تحت إبطيّ.

لا شيء ينتهي بالطريقة التي يتوجّب عليه أن ينتهي بها. أخذت الأفكار تتراكب في رأسي، الواحدة فوق الأخرى، مثل تلك النملات الحمراء الصغيرة التي تعدو حولي، باحثةً عن بناء شيءٍ من الفوضى. أنا الوحيد الذي لم أنجح. كان عقلي في معمعةٍ سرمدية. كنتُ أحياناً أجد صعوبةً في تذكّر الأشياء: أسماء، أماكِن، أشخاص. وفي أوقاتٍ أُخرى، تكون الذكريات صافيةً كسماء الشتاء فوق رأسي. كان عقلي يُشغل نفسه بإرسال إشارات، أوامر جوفاء أجد صعوبةً في اتّباعها. كان عقلي يلوّحُ كبالونٍ مُبالغٍ في نفخه، عَالَم غامضٌ بعيد المدى يضغطُ على جُمجمتي. هكذا كان الوضع، هكذا أصبح الوضع، الآن، أحالت تلك السكتةُ كينونتي بكاملها إلى خواء.

وقفتُ على رجليّ. ناولتني أوفيليا الخيزرانة. كنتُ قد رفضتُ العُكازة الطبّية - إحراج! - مُثيراً هرجاً كبيراً، لدرجة أنّه لم يكُن

لديهم خيارٌ إلا إعطائي الخيزرانة الخشبية ذات الرأس المطاطي في أسفلها، تلك الخيزرانة التي كان لديّ هوىً لاستعمالها على أوفيليا في الحال. لكنّني أجّلتُ ذلك إلى أن آخذ تانيك الخطوتين إلى الكرسيّ المتحرّك وأجلس فيه بأمان. وبينما كانت تضع قدميّ على دواستيْ الأقدام في الكرسيّ المتحرّك، وكزتُ أوفيليا في ظهرها نكزاتٍ عنيفة، دافعاً إياها بعيداً. وعندما أخذت تُثَبِّتُ أحجار السبحة، وتلفّها حول أصابعي، بحيث لا ينزلق خيطها من يدي اليُمنى المعوجة، ضربتها على ركبتيها.

«دعها وشأنها»، قالت عائشة. «دعها تقوم بعملها». لكنّني كنتُ أرتعش، تستفزّني نوبةٌ تجعلني أضرب بأقوى ما أستطيع. كانت تندّ عنّي أصواتٌ مُريعة. كانت أوصالي تنتفض في كلّ اتجاه، وصممتُ أُذنيّ عن نداءات عائشة لي «انظر إلى أشجار نخيلك، كم هي وارفة الظلال!» بينما كانت النسوة يدفعنني على الكرسيّ إلى نهاية الفناء. لم يكتمل بناؤها بعد، وضعنني أمام منحدرٍ حادّ لحفرةٍ أرضية، بالقرب من كومة الطوب، ومشيْنَ بعيداً عنّي، يتجوّلن عبر أشجار النخيل، لإعطائي الفرصة كي أهدأ بعض الشيء. يأخذن وقتهنّ لمعاقبة الرجل العجوز الجامح!

اعترضتُ بصوتٍ عالٍ، «كيف يُمكنكنّ أن تتركنني وأنا في مثل هذه الحالة؟» بالطبع لم يفهم أحدٌ شيئاً ممّا قُلتُه، لكنّ عائشة أكّدت لي أنّها ستعود. إنّها تهزأ بي! كيف تجرؤ عائشة على أن

تعاملني بهذه الطريقة. وبالرغم من أنّ وجودها المستمرّ يُغيظني أكثر من غيابها، فقد تملّكني الغضب من أن تتركني بهذه الطريقة، زوجتي أنا!

لقد كانت سكتةً جسيمة أثّرت على الجانب الأيسر من دماغي. استمرّ الطبيب في القول إنّي كنتُ محظوظاً لأنّها لم تضع حدّاً لحياتي. بعد العمل الجراحيّ لإزالة الورم الدمويّ، بقيتُ في المستشفى لأكثر من شهر، قبل أن يُرسلني إلى البيت. لكنّ فترة العلاج، جلسات العلاج الطبيعي المضنية، والتي كان الغرض منها استعادة قوّتي وحركتي المفقودة، كانت سريعةً للغاية، بحيث كنتُ متأكداً من أنّني سأعود كما كنت، في وقتٍ قصير. كان الطبيب مُعجباً بتقدّمي في العلاج، وهو الأمر الذي دفعني إلى الاستمرار، إلى أن كانت زيارتي إلى مكتبه هذا الصباح.

لم أكُنْ أستطيع أن أرى عائشة التي كانت- بالرغم من كونها قريبة- مختفيةً وراء طبقاتٍ من سعف النخيل. قالت شيئاً لأوفيليا بصوتٍ خافت جداً لا يُمكنني سماعه. أكرهها. أكرههما هما الاثنتين. أكره نفسي. أخذتُ أتفكّر فيما سيحدث لو أنّني نهضت ومشيت عبر الحافّة إلى تلك الحفرة اللعينة. سأكسر عنقي على الأرجح، فليكُن ذلك. لكنّني على الأقل سأكون نجحتُ في جعلهم يشعرون بالأسى لإهمالهم إيّاي، أفراد عائلتي بأجمعها، تلك المجموعة الخسيسة بكاملها.

أخضلت عياني فأغلقتهما لأتجنّب التهديد المذلّ بسفح الدموع منهما. الله وحده يعلم أنّ أمر ضبطها صعب! لم يكن يوجد أيّ سببٍ أو عاطفة بعينها لتستنزل الدمع. لقد حدث الأمر فحسب، كما يحدث التسرّب من أنبوب الحديقة المعوج. بعدها سأبدأ بكاء مريراً، غير قادر على السيطرة على تلك الضجة النهيقية والتقاطر اللزج للعاب. في النهاية، سأغرق في نوبة عبوس كئيبة ثقيلة.

بينما كنتُ أنتحب، حاولتُ أن أُحدث أقلّ قدرٍ ممكن من الضجّة. هنّ لا يعرفن أيّ شيء. هنّ لا يعرفن ماذا قال لي الطبيب، الحقيقة القاسية أنّ هذا- هذا الأنا- هو أفضل ما سيُمكن الحصول عليه. بعد ثمانية أشهر من العلاج، هذا هو شكل التعافي الكامل: لقد تضرّرت الأعصاب لدرجةٍ أصبح من المتعذّر علاجها، ذاب وجهي على أحد جانبيه، لقد انتهت رحلة حياتي إلى اللاشيء.

بحثتُ عن تسليةٍ، شيءٍ يُمكن أن يوقف نشيجي، بكائي، والذي كان سيزداد سوءاً. ها هي ذي السُبحة التي أعطاني إيّاها حارب مُنذ أمدٍ بعيد، والتي أخذتُ أحملها معي طيلة الوقت، ملفوفةٌ حول أصابعي الخدِرة. انتزعتها من يدي المعطوبة، وبدأتُ أُديرها لأستعيد بعض الإحساس بالسيطرة، بالكرامة. كنتُ أركّز على كلّ حبّةٍ من حبّات السبحة بمفردها، أفركها بين سبابتي وإبهامي، قبل أن أنقرها بإصبعي نحو الأسفل، على طول الخيط.

نجح الأمر. لقد أوقفتُ الالتياع والأسى، وأخذتُ أُعمِلُ حساباتي. كم خطوةً كي أبلغ الحافة؟ كلّ ما يتعيّن عليّ عمله هو أن أنهض وأمشي – إذا كان بإمكان المرء أن يدعوها هكذا – كي أعرف العدد. وكلّما أطلتُ النظر في الحفرة، تعاظم عنف تصميمي على القيام بالأمر، على إعطاء انطباع. لم يكُنْ بإمكاني أن أضرب أو أركل أو أثور بشكلٍ مؤثّر، ولكن يُمكنني أن أحذّرهم. أردتُ أن أصرخ في وجوههم جميعاً: الأصدقاء المزعومين – سعيد، ومطر، وحتى مصطفى – الذين توقّفوا عن زيارتي لأنّهم سئموا من نوبات غضبي، أولادي وبناتي الذين كانوا طيلة ذلك الوقت يتطلّعون إلى اليوم الذي سأبدأ فيه بالمعاناة على هذه الشاكلة، بحيث يستطيعون أن يضعوا أيديهم على أموالي، ومريم ودلال وعائشة، أيضاً. أريدهم جميعاً أن يعرفوا أنّ القوّة التي أبقتهم تحت السيطرة والنظام لا تزال ... لا تزال... لمْ أُضِع أيّ وقتٍ إضافي في البحث عن الكلمة، المعنى الدقيق، لأنّني انزلقتُ من على الكرسيّ المتحرّك إلى حافته.

ومع غرس قدمي اليُمنى في الأرض، دفعتُ بقدمي اليُسرى مستخدماً العصا. وقفتُ دون مساعدة، وذلك للمرّة الأولى منذ إصابتي بالسكتة الدماغية. لم أتحرّك. انتظرتُ إشارةً لأخطو إلى الأمام، مُرتجفاً قليلاً من الخشية، في حال لم تأتِ تلك الإشارة. لكنّها أتت بعد ذلك: كنتُ قادراً على الانتقال باستخدام ساقي السليمة وإرسال الأخرى نحو الأمام على شكل قوسٍ عريض.

كنتُ بالكاد قادراً على احتواء آهاتي. خطوتان أُخريان؛ أعلمُ أنّني أبدو أخرق، انحرف جسدي جانباً، انثنت ذراعي اليُمنى نحو صدري، وارتصت أصابعي حول إبهامي المطوي. لم أهتمّ، لأنّ سقوطي قد بدأ.

كانت سقطةً مُثيرة للشفقة. عوضاً عن ارتطام الرأس بالأرض أولاً، ترنّحتُ على رُكبتيّ، ثمّ تبعها نصف انزلاقة، ونصف غطسة نحو الأسفل على بطني: لا إصابة تتعدّى امتلاء الفم بالطين. كنتُ سأقفز للخلف وأتسلّق عائداً إلى كرسيّ المتحرّك بهدوء، فقط لو كان بإمكاني ذلك. عوضاً عن ذلك، بقيتُ مكاني دون حراك، مُنتظراً أن يتمّ إنقاذي.

كان عليّ أن أتخيّل ما حدث تالياً، لأنّني أبقيتُ عينيّ مُغمضتين. ها هو ذا الكرسيّ المتحرّك يتمّ تحريكه للأسفل، كي يصبح بجانبي. ها هي ذي القبضة تحت إبطيّ. ها هي ذي قدماي تكشطان خطوطاً خرقاء في الأرض، دون فردتيْ صندلي اللتين انزلقتا من قدميّ. أطبقت جفنيّ بإحكامٍ في مواجهة توبيخ عائشة ذي النبرة العالية والمفعم بالأسى، وفي مُقابل راحتيْ كفّيها الساحقتين، بينما كانت تنظّف التراب العالق عن وجهي وكندورتي. لم أجرؤ على فتح عينيّ. كنتُ خجلاً للغاية.

49

مريـم

«آهـ، كان يجب أن تريه، كان يرتجف كلّه، وجميع جسمه مُغطّىً بالطين».

كانت تتحدّث عنه لتطرد القلق جرّاء كونها في مكانٍ لا يتوجّب عليها أن تكون فيه. «لا يوجد أحدٌ هنا في منتصف الأسبوع»، قالت ذلك، وربّتت على رأسه وكأنّها كانت تشكّ بوجود حمّى. غطّتْ كتفيه بوشاح، ثم انضمّت إليّ على كراسي الخيزران. كانت الكراسي قد أُخرجت حديثاً من لفائفها، حيث لا تزال لُصاقاتها عليها، كحال الطاولة الخفيضة المتموضعة أمامنا والمتناسبة معها. «كان يجب أن تريه»، قالت مرّةً أُخرى، وهي لا تزال مذهولةً من الطريقة التي طاح بها من على الكرسيّ المتحرّك قبل أن أصِل تماماً. «لم أعرف ما الذي كان يُحاول أن يفعله، ولكن لا شكّ في أنّه تعثّر».

إنّه يناير، وأشرقت شمسٌ لطيفة. أخذت الأشجار تُهفهف وتكسر أشعة الشمس، مُسلطةً أشكالاً مُلَطّخة على وجه عمّي. نظرتُ إليه جانباً، كانت وجنتاه رخوتين تحت رأسه المتدلّي بثقل، وهو نائم فوق صدره. كانت ذراعه مثنيةً ومضغوطة على أضلاعه، والأصابع

مُتجمّدة على شكل مخالب. سُبحة من الكهرمان تتأرجح بتوتّر حول يده، كان يُمسك بحبّات السُبحة وكأنّها أحجارٌ ثمينة نفيسة.

وصلتِ الخادمة وهي تحمل صينيةً. رفعت عمّتي عائشة دلة الشاي وسكبته في فنجانين، وأضافت لكلّ منهما ملء ملعقة من السكّر. «لقد جلبته هنا لأنّ الجوّ يُساعده على الاسترخاء، ولكن ليس اليوم»، قالت وهي عابسة. كانت أصابعها ترتجف قليلاً وهي تناولني فنجان الشاي. «لن يرحّبوا بالأمر لو عرفوا أنّني هنا. لذلك أنا لن أخبر أحداً بذلك، ولن أمكث هنا طويلاً».

كنّا نجلس في ظلّ تعريشةٍ من سعف النخيل، تقفُ على أعمدةٍ خشبية. هبّت نسمةٌ باردة، فانحنينا للخلف وأخذنا نفساً عميقاً في الوقت نفسه. أخذنا نرتشف الشاي بهدوء. لم يكُنْ عليها أن تشرح أيّ شيء. كنتُ أعرف مُسبقاً أنّ أيّ شيءٍ ذا قيمةٍ في بيتها قد اختفى في اللحظة التي هرّبتني بها خارج المنزل.

كنتُ غالباً ما أتساءل ما إذا كانت قد أخذت في الاعتبار ما كانت تتخلّى عنه، وكنتُ في كلّ مرّة أصلُ إلى نتيجةٍ مفادها: لا شكّ في أنّ وفاة خالد قد كسرت فيها شيئاً. لقد أثارت فعلتها اشمئزاز أولادها، حيث نظروا إليها على أنّها خيانة. وبالرغم من مُضيّ أكثر من ثلاث سنوات، لم يُغفر لها ذلك بعد.

أتذكّرُ تلك الليلة العاصفة، وكأنّها حدثت البارحة. كم كان غريباً أنّها أطلقت خطّتها في الوقت الذي قفزتُ خارج الغرفة!

لقد تصرّفت بسرعة، بعد اكتشاف هروبيَ المتهوّر، ساحبةً إيّاي تحت وابل المطر نحو السيارة التي كانت تنتظر.

من خلال نافذة غرفته الصغيرة، لمحَنا البوّاب ونحن قربَ البوّابة. أبرزَ الضوء الأزرق الخفاق من جهاز تلفزيونه الخوف والارتباكَ على مُحيّاه. خرج مُسرعاً من غرفته، حيث تبلّل بالمطر خلال ثوانٍ، ولوّح بذراعيه في ذُعر، مُحاولاً أن يعترض طريق هروبنا. دفعتهُ عمّتي عائشة جانباً وأقحمتني في المقعد الخلفيّ لسيارة أختها. وبينما كانت تطرق الباب مُغلقةً إياه، أشارت لنا بيدها لننطلق – بدت قامتها ضبابيةً ومُغشاة بالمطر، بينما كنتُ أنظر إليها من خلال نافذة السيارة الخلفية –وبقيتْ واقفةً هناك لتواجه العواقب. بعد عشرة أيام، غادرت عمّتي المنزل لتنضمّ إليّ في منزل شمّا، وطلبت الطلاق بعد ذلك بفترةٍ وجيزة، وهو الأمر الذي لم تحصل عليه أبداً.

كان عمّي يبعد عنّا مسافةً قصيرة، ولا يزال مُتجهاً نحو امتداد أشجار النخيل، لكنّه كان على كرسيّه المتحرّك على مسافةٍ آمنة من طرف الفناء العريض. كان قد تمّ بناء الفناء حديثاً، أمام الاستراحة الصغيرة في مزرعته في «الخوانيج». قرّر سيف وأحمد تخصيصها كمنطقة لعب لأطفالهما. هُما يُديران الشركة الآن، وممّا فهمته، فقد تسبّب هذا الأمر بصدعٍ كارثيّ بينهما من جهة، وبين بقية الإخوة والأخوات من جهةٍ أُخرى. اتّهمت البنات الأخوين الأكبرين بكونهما مُستبدّين جشعين.

بدا أنّ عمّتي عائشة قد قرأت أفكاري. «إنّهم يتشاحنون طيلة الوقت»، قالت عمّتي. «تُريد الفتيات أن يرين النقود، وسيف وأحمد لا يسمحان بحدوث ذلك. «إنّه ليس مالنا»، هذا ما فتئا يُخبران به أخواتهما، بالرغم من أنّهما يُنفقانه وكأنّه مالهما». ثبّتت عمّتي عائشة نظرها على الدرّاجات الهوائية الستّ. جديدة ولامعة، كانت تصطفّ بشكلٍ أنيق، مُرتّبة حسب الحجم، على أحد جانبيْ المنزل. «قال سيف إنّها مسؤوليةٌ عُهِدَت إليهما. أمّا أحمد فيتأكد دائماً أن يُضيف كلمة مؤقتاً، ما يعني إلى أن يستعيد أبوهما قواه ثانيةً».. قالت ساخرةً. «الفتيات بالطبع لم يصدّقن ذلك. ومن يُمكنه لومهنّ. أعني، كلّ تلك الشهور وقد عَمِلَ بجدّ بحيثُ يُمكنه...» هزّت رأسها وحرّكت يدها باتجاهه. «انظري إليه فقط».

كان عمّي لا يزال نائماً. سيلٌ من اللعاب كان يجري على أحد جانبي شفتيه. تناولت الخادمة- التي كانت تجلس على عقبيها أمامه، تُمسّد قدمه اليُمنى، وتبدو عليها أقصى درجات الملل- منديلاً وأخذت تمسحه.

«طلبتُ منهم توظيف ممرّضة، لكنّهم قالوا إنّه لا يحتاج إلى واحدة، وأنّ الخادمة قويّةٌ بما فيه الكفاية لتتعامل معه، وذكية بما فيه الكفاية لتعطيه دواءه. أليس ذلك صحيحاً، يا أوفيليا؟ ذكية، أليس كذلك؟»

ضحكت أوفيليا بفتور، ووجّهت نحونا ابتسامةً عريضة مُشرقة، قبل أن تُتابع فرك قدمه اليُسرى. لم أتعرّف عليها مع زيادة وزنها، كان قد أصبح لديها جسد مُصارع. «تُعِدُّ الفتيات دعوىً قضائية ضدّ أخويهنّ»، تابعت عمّتي عائشة. «منى وأمل هما مُحرّكتا الدعوى، وتُصرّان على أنّها الطريقة الوحيدة. بالطبع، نوف، كما هي دائماً، تُحرّض على القتال، دون أن تكون لديها أدنى فكرة عن الأضرار الأكيدة التي ستقع. بالنسبة إلى بدر، كان مُتردداً، لكنهنّ- في نهاية المطاف- أخفنه وأجبرنه على الانضمام إليهنّ».

«ونادیا؟»

«آه، تلك الفتاة. كما تعلمين، إنّها ألطفُ قليلاً، وهي لا تحبّ إثارة الكثير من الأمواج». أطلقت عمّتي عائشة تنهيدةً ثقيلة. «لكنّها أصبحت في حاجةٍ إلى النقود، بعدما نفّذ زوجها أخيراً تهديداته بتطليقها. تركها وأطفالهما الخمسة، بعد أن قرّر أنّه من العار أن يكون متزوّجاً بواحدةٍ من عائلة النسيمي. قال إنّ الأمر قد لطّخ اسمه في عيون المجتمع، وأصبح موضع سخرية، لأنّ الجميع يعرف أنّه لا توجد عائلة محترمة تقبل بوجود مغنّية ضمنها. أيّة أعذارٍ اختلقها! جميعنا نعرف أنّه قد اتخذ زوجةً ثانية قبل وقتٍ طويل من ظهور دلال على مسرح الأحداث». لم تكُن شيلتها بحاجة إلى التعديل، لكنّها أخذت تعبثُ بها في جميع الأحوال. أنزلت شيلتها للأسفل، إلى ما فوق حاجبيها تماماً،

ثمّ سحبتها للخلف، إلى مستوى خطّ الشعر. «المشاجرات، المماحكات، البشاعة كُلّها تُحيط بي من كلّ جانب. وهل تعلمين ماذا؟ حتى أنّني لم أعد أكلّف نفسي عناء إصلاح الموقف. رأيتُ الطريقة التي أخذوا يتقاتلون بها من أجل ذهب «ماما العودة»، عندما توفيت، وفكّرتُ قائلةً: «ما الفائدة؟ في أيّ حال، مَن منهم سيُعير اهتماماً لما يتعيّن عليّ قوله؟»

تساقط ضوء الشمس على وجهها على شكل شرائِط. كنتُ أستمع إليها وأنا ساكنة. إنّها المرّة الأولى التي تفتح عمّتي عائشة قلبها لي بهذا الشكل. ولكن- مرّةً أُخرى- لم يكُن من فرصةٍ لحدوث هذا الأمر قبلاً. كنتُ بعيدةً عنها طيلة السنوات الثلاث السابقة، أنْحتُ حياةً يُمكنني أن أطلق عليها «حياتي الخاصة». كنتُ أتّصل بها بين الحين والآخر، لكنّها كانت مكالماتٍ هاتفية اعتيادية، لم تكن ملأى بأكثر من المجاملات.

بعدما توفّيت «ماما العودة»، في أغسطس الفائت، حزمتُ أمتعتي وكنتُ متّجهةً إلى المطار لأكون مع عائلتي خلال فترة العزاء، حين اتصلت بي عمّتي عائشة. أخبرتني ألّا آتي، أن أبقى في القاهرة وأقيم حِدادي بشكلٍ خاص هناك، لأنّها كانت تعرف أنّ أولادها لن يسمحوا لي بدخول المنزل.

أخذت تهزّ رأسها، وتابعتْ من حيثُ توقفتْ: «الأولاد المتزوجون قلّما يزوروننا الآن، وخصوصاً أنّ أباهم بهذه الحالة،

وثرواتهم لم تعد تعتمد عليه بعد الآن، والتوأم، ما زالا يعيشان في المنزل، وبالكاد لديهما أيّ كلمة ليقولاها لي. أمّا أحفادي فليسوا أحسن حالاً». انحنت إلى الأمام وبدأت تهتزّ. «كلّ تلك المؤامرات، كلّ تلك البذاءة»، أخذتْ تُتمتم، ووجهها مُتجمّد في تعبيرٍ محزون من الألم. «وحالما تمكّن الأطباء من جعل حالة عمّك مستقرةً، وأرسلوه إلى المنزل، ظهروا مباشرةً مثل عُقبانٍ جارحة، مُستعدّين للنقر والسلب. بعدها، وخلال واحدةٍ من نوباته العاطفية، كان سيف وأحمد هناك، ليتولّيا وبشكلٍ كامل زمام العمل، ويتأكدا من انتقال السلطة إليهما بشكلٍ قانونيّ».

إنهم أبناءُ أبيهم. كانت فكرة كئيبة، ونظرتُ بعيداً. كانت السماء زرقاء ساطعة، مع خدوشٍ من الغيوم. كان ثمة طائرا «مينا» بريشٍ لامع يُنادي أحدهما الآخر، وبلابل بيضاء الخدّين تُسقسق وتُثرثر. ومع رغبتي بالحصول على بعض حبورها الجذِل، تبعتها بعينيّ، بينما كانت ترفرف مسرعةً من شجرةٍ إلى أُخرى. راقبتها وأخذتُ أعدّد النِعمَ التي أمطرها الله عليّ.

بعد هروبي، استخدمتْ شمّا كلّ مصادرها لاستعادة المنحة الدراسية الحكومية لي؛ وخلال شهر، كنتُ على متن الطائرة عائدةً إلى القاهرة. بدأت دراساتي من جديد، وقد تبعتُ هذه المرّة شغفي في علم النباتات. تشاركتُ شقّةً في سكن الفتيات الإماراتيات مع بثينة (تحضّر الآن لرسالة الدكتوراه) التي برهنت

أنّها الأخت التوجيهية التي لطالما تمنّيتُها. وثمة دلال التي صعدت إلى عالمٍ مُختلفٍ جداً عن عالمي - يومٌ في القمّة ويومٌ في الحضيض - دائمة التطواف، مشغولة على الدوام، بحيث يصعب جداً معرفة أخبارها. تبدو دلال مختلفةً من الخارج، أكثر رقيّاً وثقةً بالنفس. أمّا من الداخل، فلا أعرف، لأنّها تخبرني فقط ما تظنّ أنّني أريد أن أسمعه. لم أعد أوبّخها. لم أعد أضغط عليها. تراجعتُ للخلف وأخذتُ أنتظر، أنتظر الوقت الذي يُمكن أن تحتاج فيه إليّ بشكلٍ حقيقيّ.

والحب؟ أعتقد أنّني سأجد الحب، أيضاً، مع زميل دراسةٍ إماراتي، أظهر اهتماماً بي. لم يأخذ الحب هذه المرّة شكل التوق العارم الذي اعتدتُ أن أشعر به مع عادل، والذي كان يجعلني أنسى كلّ شيء ما دمتُ بقربه (سمعتُ أنّه قد ترك كلّيته وعاد إلى البلاد بعد عودتي بوقتٍ قصير). كلا، هذا الحب يأخذ وقته كي ينضج: تبرعمٌ بلحظات، ابتسامةٌ مُتسكّعة، تجمّعٌ بطيء للمشاعر يترك خلفه إحساساً بالهدوء والأمن.

«لقد فعلوا مع أبيهم ما فعله أبوهم مع أبيك». كانت ثمة رعشةٌ في مؤخّرة حنجرة عمّتي عائشة. «لقد تعرّضتِ للظلم، يا مريم. جميعنا نعرف ذلك، وجميعنا لزمنا الصمت حيال هذا الأمر». كانت شفتاها ترتجفان، كانت على وشك أن تنفجر بالبكاء. هززتُ رأسي لأشير لها ألّا تفعل.

«لا بأس»، قلتُ، وأنا أضغط بلطفٍ على يدها. «أنا بخير».

أفكّر بذلك وأُدرِكُ أنّ الأمر صحيحٌ: نعم أنا بخير. وجدتني أنهض وأمشي نحو عمّي ماجد. ومع كلّ خطوةٍ أخطوها، كنتُ أتوقّعُ انبثاق تلك النقمة المبرحة التي اعتدتها، ذلك النكد المتشنّج الذي اعتدتُ كظمه عندما يكون قريباً مني. لكنّ شيئاً لم يأتِ هذه المرّة، وأخذتُ أتساءل ما إذا كان السبب يعود إلى ما أصبح عمّي ماجد عليه، عجوزاً، واهناً، دون أصدقاء، وعالةً على الآخرين، صورةً للبؤس والهزيمة.

واقفةً إلى جانب الكرسيّ المتحرّك، تحرّكت يدي وكأنّها كانت تتّبع إرادةً ذاتية من داخلها. طافت نحو الأعلى وحامت حول كتفه. استمرّت أوفيليا في الإمساك بقدمه، لكنّ أصابعها توقّفت عن الحركة. وقفتُ هناك لبرهة، بعقلٍ فارغٍ من أيّة أفكار، ثم سألتُ: «لماذا عُدتِ إليه؟»

كانت عمّتي عائشية ثابتةً في إجابتها: «لأنّه واجبي».

سقطت يدي بجانبي وأومأتُ برأسي. انحرف نظري على طول المزرعة، كانت سعف النخيل الوارفة تهسهس مع النسيم المتعجّل، وتستقرّ مع شمس ما بعد الظهيرة المتأخرة، كرة عملاقة، متوهجة كبرتقالة، جاهزة ومستعدّة للغروب على الكثبان الرملية البعيدة. كان إيقاع تنفّسي مُنتظماً. وغمرتني السكينة.

شكر وتقدير

أوّلاً، وقبل أيّ شيء، أنا مدينةٌ لأسرتي، لحبّهم ودعمهم اللامحدودين: أبي رحمه الله، ووالدتي الغالية حفظها الله للعون والسند الدائم، وإخوتي سمير وأنور وشهاب، وزوجاتهم سعاد وسيما ولميس اللواتي كنّ أخواتي اللواتي لم أرزق بأخواتٍ مثلهنّ.

وأتوجّه بشكرٍ خاص إلى صديقي العزيز علي خليفة، لأفكاره الثاقبة عن كلّ ما هو إماراتيّ، وخياله اللامحدود، عندما يتعلّق الأمر بمنعطفات الحبكة واحتمالاتها السردية.

كما أقدّم المزيد من الشكر والتقدير لميمي رعد ولينا متَّى، على الطاقة التي تبديهما وهما تسبران فصول الكتاب المختلفة، أثناء كتابتها، وعلى حماستهما في كلّ لقاءٍ من لقاءاتنا المنتظمة لمناقشة ما كانتا تقرآنه؛ ذلك أنّ كلّ كاتبٍ يحتاج إلى مثل هذا الثنائيّ الديناميكيّ.

كذلك أحيّي المحررة المفعمة بالحيوية جيليان فيريليو، على ملاحظاتها الدقيقة واستيعابها الصورة الكبرى، ما عزّز قوّة هذه الرواية.. كما لا أنسى مدقّقة النسخة جولي هيرش على خبرتها وبراعتها.

وأتقدّم بتقديري الخالص لوكيلي إيميل خوري، الذي تميّز دائماً بالإنجاز عندما يستدعي الأمر، وفريق هاربر كولينز، على احتضان الرواية بصدقٍ وتفانٍ.

كما أتوجه بتحية خاصة للدكتورة هالة سرحان، الخبيرة التلفزيونية فوق العادة لدعمها ومعلوماتها القيّمة التي زوّدتني بها، مع انحناءة تقدير لجميع المشاهير في مجال الأفلام والموسيقى والإعلام في العالم العربي، والذين قابلتهم، وتحمّسهم للكتاب، لدرجة شعورهم بأنّ عليهم البوح بسرّ أو سرّين عن المشاهد خلف الكواليس، وكذلك الكثير من التقدير الموصول لمهرة الشامسي وبدرية المري، على قصصهما الحيّة عن الأيام التي قضياها في السكن، كطالبتين إماراتيتين في القاهرة، وإلى اختصاصيّ العلاج الطبيعي سمير باكيا، على المعلومات حول علاج ضحايا السكتات الدماغية في فترة النقاهة.

كذلك أشكر فريقي، قرّاء المسوّدة الأولى: سيما وبيا وسامر وابنة عمّي سناء، التي أبدعت في كتابة أغنية: أنا بس وحدي بس.

الشكر موصول لشركة قنديل للطباعة والنشر والتوزيع للإشراف والمتابعة ولا أنسى التحية والثناء للأستاذ غالب أحمد مصري الذي أبدع في ترجمة روايتي هذه.

وختاماً خالص تحياتي وتقديري لكلّ من قابلته وقال: أنا في انتظار الكتاب القادم.

المؤلّفة

مها قرقاش

وُلدت في دبي، والتحقت في العام 1985م بالعمل لدى راديو وتلفزيون دبي، لممارسة اهتماماتها في الوثائقيات. حصلت على درجة الماجستير من جامعة جولدسميث كوليج لندن، والبكالوريوس من جامعة جورج واشنطن دي. سي. ومن خلال إخراج البرامج التلفزيونية التي تعالج بصورةٍ رئيسة المجتمعات العربية التقليدية، انخرطت في البحث وكتابة السيناريوهات، وهو العمل الذي تطوّر وأثمر رواية «سمكة الرمل» الأفضل مبيعاً على الصعيد الدوليّ، و«الأنا الآخر» هي روايتها الثانية.. وهي تعيش حالياً في دبي..